
تاريخ
نهاية العالم
كيف غير أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للجدل حضارة الغرب



٩ شارع السعـادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهـرة
تليفون وفاكس : ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩
Email: Shoroukintl@hotmail.Com
Shoroukintl@yahoo.Com

تاريخ نهاية العالم

كيف غير أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للجدل حضارة الغرب



المحتويات

مقدمة

كيف ينتهى العالم؟

سؤال انشغل به العلماء منذ القرن العشرين ... وانشغل به المسيحيون منذ القرن الميلادى الأول...

يفكر العلماء فى انتهاء موارد الأرض وقصورها عن تلبية الموارد البشرية... أو نفاد طاقة الشمس فتموت كل الكائنات... أو يشعل بعض المهاويس حربًا نووية تقضى على الحضارة الإنسانية...

أما بعض المسيحيين فى الغرب، وخاصة غرب أوروبا وأمريكا، فقد انشغلوا بتأويل سفر الرؤيا... أو سفر يوحنا... وهو آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس...حيث حلم يوحنا ــ الذى لا يمكن تأكيد أى يوحنا هو؟ هل هو حوارى المسيح عليه السلام أم يوحنا آخر ــ بنهاية الزمان، حين تنشأ قلاقل واضطرابات كونية... وتظهر وحوش غريبة... وتقوم حرب ويسيطر عدو المسيح... إلى أن يهبط المسيح ثانيًا ويقود جيوش الخير فى حرب ـ رآها فى أمريكا مؤلفون وكتاب مسلسلات وأفلام ودعاة إيڤانجليكيون، ومسئولون حكوميون كبار... منهم وزراء ورؤساء ــ نووية يموت فيها مئات الملايين من البشر أعداء المسيح. وأفضل مرشح لدى الأمريكيين لأن يكون عدو المسيح فى الثلث الأخير من القرن العشرين وحتى اليوم، وإلى حين إشعار آخر، هم العرب والمسلمون...

لقد تغلغلت رؤيا يوحنا فى ضمائر المسيحيين فى أوروبا الغربية منذ القرون المسيحية الأولى ... وتجلت فى الحروب الصليبية... والتى افتتحها الصليبيون بذبح يهود أوروبا، فهم مجمع الشيطان، قبل ذبح المسلمين واليهود على أرض فلسطين...

وتحدث عنها كولومبس فى يومياته التى قال فيها عن رحلاته الاستكشافية لأمريكا إنها فى سبيل الله، للحصول على الذهب والفضة لاستعادة القدس، وإعادة الله لها حتى ينتهى الزمان...

واستمرت الرؤيا فى ثقافة أوروپا الغربية الشعبية وضمائرها، وتجلت فى ألمانيا وبوهيميا وفرنسا وإنجلترا، فى أساطيرها وفى ثوراتها الشعبية... ومارست جاذبيتها الكبرى على الأنجلوساكسون... فتحركت ـ كما يقول المؤلف ـ إلى الغرب أكثر.

يتحدث الكتاب عن مشاهير أوروپيين تعلقوا بالرؤيا وحاولوا حل رموزها أو العمل بمقتضاها... منهم الملك الشمس لويس الرابع عشر، والثائر الحاكم كرومويل، وشاعر إنجلترا ويليام بليك، وحتى العالم إسحاق نيوتن... وكل ذلك فى فترة التنوير ... إن لم يكن فى ذروتها ...

ثم انتقلت الرؤيا ونفوذها الواسع ـ غربًا أكثر وأكثر ـ إلى أمريكا... وهناك تمت أمركتها ... حيث أسرت اهتمام الشعب الأمريكى أكثر من كرة القدم الأمريكية...

فأول الكتب التى حازت لقب الأكثر مبيعًا فى التاريخ الأمريكى، كانت قصيدة مايكل ويجلزورث (١٦٣١ ـ ١٧٠٥م) : «يوم الحساب»...

واعتبر الثوار الأمريكيون أن الملك چورج الثالث الإنجليزى هو عدو المسيح الذى يجدر قتاله...

وبذر القس الأيرلندى داربى (١٨٠٠ ـ ١٨٨٢م) من الرؤيا فكرة ضرورة عودة اليهود لفلسطين لتحقيق نبوءات الكتاب المقدس، وحتى يجىء المسيح...

وكان الفكر الرؤيوى السائد فى الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت، أنه مع تحسن أحوال المجتمع المسيحى ووصوله إلى المثالية، سيهبط المسيح ... لكن جاءت الحرب الأمريكية الأهلية فى ستينيات القرن التاسع عشر... وسقط فيها أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ قتيل بعد حرب استمرت سنوات فى بلد لم يكن سكانه يبلغون ٣٠ مليون نسمة ... وتبع ذلك وصول كاثوليك ويهود، ومنهم علمانيون إلى أمريكا ـ وكلهم أشرار فى نظر أصحاب الرؤيا ـ ثم خروج داروين بنظريته عن الخلق التى

ناقضت نصوص الكتاب المقدس، فانقسم المسيحيون إلى متشددين أو حَرْفيين وليبراليين ... امتد الانشقاق حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ... فظهر أنه ليس هناك كبير أمل فى تحسن الأحوال المسيحية للدرجة المثالية التى تجىء بالمسيح، وتغلب الفكر الثانى للرؤيا الذى يقول بهبوط المسيح أولاً، لتبدأ الألفية السعيدة ...

ويرتبط هبوط المسيح بقيام دولة إسرائيل، وسيطرة عدو المسيح ... الذى يهزمه المسيح بقوته فى أرمجدون ...

بذر القس الأيرلندى فكرة ضرورة عودة اليهود لفلسطين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ... وتلقفتها منه جماعات الإيفانجليكيين فى الولايات المتحدة، والتى يبلغ تعدادها الآن ٨٠ مليونًا .. ويشكلون ربع الأصوات الانتخابية أو ثلثها ...

وأصبحت تلك الفكرة متسلطة عليهم منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر ... وقبل ظهور هيرتزل وأعماله فى أوروبا ..

قاد تلك الفكرة آنذاك ويليام يوجين بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥م) ... والذى يعتبر الأب الحقيقى للصهيونية ـ وليس هيرتزل ـ والذى كرمته إسرائيل بغابة تحمل اسمه.

قدم بلاكستون عريضة جمع لها توقيع ٤٠٠ من وجهاء الأمريكيين تطالب بالمساعدة على عودة اليهود لجبل صهيون، وقدمها للرئيس الأمريكى بنيامين هاريسون فى ٥ مارس ١٨٩١م .

كذلك قام دوايت إل . موودى (١٨٣٧ ـ ١٨٩٩م) بالترويج لفكرة هبوط المسيح لبدء الألفية السعيدة، واقتراب أجل ذلك ونهاية الزمان ...

أنشأ موودى معهدًا ودار نشر ومحطة إذاعة للتبشير بذلك ...

قويت فكرة قيام إسرائيل وتحقق نبوءات الكتاب المقدس بـ «تحرير أورشليم (القدس) على يد الجيش البريطانى عام ١٩١٨م فى الحرب العالمية الأولى» ... ثم جاء وعد بلفور من الحكومة الإنجليزية، التى قال أصحاب الكلمة فيها إنهم يعلمون عن ملوك إسرائيل أكثر مما يعلمون عن ملوك إنجلترا...

وجاء انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة فى يونيو عام ١٩٦٧م ليثبت أن الله ما زال على عهده مع شعبه المختار ...

وقويت أكثر نظرية قيام إسرائيل كشرط لقدوم المسيح، حتى بين كثير ممن كانوا يرفضونها من المسيحيين واليهود ...

وكتب هال ليندسى فى أواخر الستينيات من القرن الماضى مؤلَّفه المشهور الذى بيع منه ٢٠ مليون نسخة، وأصبح بعد ذلك فيلما سينمائيا: « The Late Great Planet Earth »، وفيه أن عدو المسيح هم العرب والمسلمون.... ودعاه الرئيس ريجان إلى البيت الأبيض، وإلى حضور اجتماع مجلس الأمن القومى، ليلخص للجنرالات وبقية الأعضاء ماذا سيحدث وماذا عليهم أن يفعلوا ...؟

كذلك دعا ريجان الإيڤانجليكى الأشهر جيرى فالويل ليقوم بدوره بالتبشير بين أعضاء مجلس الأمن القومى وإعطائهم إرشاداته الرؤيوية ...

وكان ريجان يقول: أظن أننا الجيل الذى سيشهد أرمجدون ... وكان يرد على كبار موظفيه عندما يخاطبونه عن عجز الميزانية بأن الوقت أقصر من ذلك... فأرمجدون على الأبواب ... كذلك لم يفلت وزير دفاعه ووزير داخليته من أسر سفر الرؤيا، وبصفة عامة، تأثرت سياسات ريجان الداخلية والخارجية بالسفر...

ولم يفلت أيضا من أسر الرؤيا مشاهير علمانيين، مثل چون روكفلر الذى قال: أنا أنظر لإنشاء مملكة الرب على الأرض نظرة حَرفية ... ومثل مهندس صواريخ فى وكالة ناسا، شارك بعقله فى حل لغز سفر الرؤيا ...

وفى تسعينيات القرن الماضى، كتب القس تيم لاهاى سلسلة عن نهاية الزمان والمجىء الثانى للمسيح وحرب أرمجدون ... بيع منها ٦٠ مليون نسخة، وأصبحت لعبة للنشء، وشرائط ڤيديو، ثم وضع القس سلسلة مبسطة للنشء حتى يشبوا على أساس سفر الرؤيا...

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة... أن الأسطورة التى نسجتها أمريكا الإيڤانجليكية عن سفر الرؤيا، تحتم قتل اليهود الذين لا يؤمنون بأن عيسى هو المسيح، وأن ذلك

هو القدوم الثانى له... فكأن قدوم المسيح الثانى سيقضى على المسلمين واليهود... ولكن بعد أن يستقر اليهود فى فلسطين... وهذه إشكالية يفضل جميع الصهاينة السكوت عنها...

والنقطة الأجدر بالملاحظة، أن دعوة المسيح عليه السلام تقوم على الحب والتسامح والزهد فى الدنيا، والبعد عن العنف والماديات بصفة عامة، بل إن المسيح قال بوضوح وصراحة ما يناقض كل ما بناه الغرب على سفر الرؤيا عندما قال: «مملكتى ليست فى هذا العالم».

عادل المعلم

الفصل الأول

سفر ثرى وغريب

إن سفر الرؤيــا به من الأسرار قدر ما به من كلمات

« چيروم »

ملصق يطالعنا هنا وهنـــاك على لوحــات العربات فى شـوارع أمريكـــا وطرقها يقــول : «**أنا أعرف النهاية... سينتصر الرب**» .

إنهـا عقيـدة تجمـع بـين الأتقيـاء مـن اليهـود والمسـيحيين والمسلمين، ولـو أنهـم قـد يتماحكون فيما تعنيه كلمة «الـرب» ، إلا أن الملصـق الصـريح يخفـى وراءه لغزًا عميقًا دائمًا : فالبشر من كافة الأديـان وفـى كـل زمـان ومكـان يتسـاءلون متى سينتهى العـالم وكيف؟ وفى أيامنا هذه يُطرح هذان التساؤلان أنفسهما بالطبع ولكن يطرحهما ويجيب عنهما علماء لا رجال دين. إلا أن «النهاية» بالنسبة للمسيحى التقى تشير إلى سيناريو يوصف بتفاصيل مخيفة تخلع القلوب فى أكثر أسـفار الكتـاب المقـدس إثـارة للفـزع ، أى رؤيا يوحنا اللاهوتى المعروف بسفر الرؤيا.

بداية النهاية ـ طبقًـا لما ورد بسـفر الرؤيـا ـ ستصـاحبها علامـات غامضـة : شـمس داكنة ، وقمر بلون الدم ، ونجوم تسقط على الأرض ، وجبـابرة وأدعيـاء للنبـوة ، ووبـاء وطـاعون ومجاعـة. ثـم يظهـر الشـيطان الـذى يعـرف بعـدو المسيح ، وتصـبح لـه السـطوة المطلقـة علـى الأرض. وبعـد سـبع سـنوات مـن ظلـم عـدو المسيح وقهـره ، ينـزل يسـوع المسيح من السماء متخفيًا فى هيئة ملك محارب ليقود جيشًا سماويًّا من قديسين وشهداء يُبعثون ، وينتصر على حشود الشيطان فى معركـة أرمجدون ، ثـم يسلسـل الشـيطان فى أغلال ويحبسه فى حفرة لا قرار لها ، ويقيم مملكة أرضية يتولى حكمها لألف سنة.

وفى نهاية الألفية يتحرر الشيطان من أغلاله ؛ فيضطر المسيح لخوض معركة أخرى وأخيرة. وفـى النهايـة يُبعـث المـوتى ويحاسـب الأحيـاء والمـوتى علـى السـواء ، وتنمحـى

الأرض بصورتها التى نعرف وإلى الأبد. ونهاية العالم حسب ما ورد بسفر الرؤيا يعقبه حلول «سماء جديدة وأرض جديدة» فردوس سماوى يخلد فيه القديسون والشهداء المسيحيون فى نعيم مقيم، بينما يسقط كل من عداهم مع الشيطان فى بحر من نار وكبريت.

هذا ملخص سفر الرؤيا، لكن النص نفسه أغنى وأغرب(*). والمشهد المخيف الذى يستحضره كاتب النص يصور الرب والشيطان والحمل والوحش وعاهرة وامرأة تضع حملها، وملائكة وشياطين بأعداد لا حصر لها، ووحوش خيالية يستعصى تصورها إلا فى كتاب هزلى أو فيلم رعب. وفى بعض مشاهده نجد أن سفر الرؤيا لا يزيد عن نموذج قديم من المشاهد النفسية المثيرة وأفلام الوحوش، والصور التى يتضمنها تثير ردود فعل لا تختلف عما تثير هذه المشاهد فى عقل الإنسان.

ويحظى سفر الرؤيا فى أيامنا هذه بجمهور واسع من القراء فى الأوساط الأصولية المسيحية، إلا أن الحبكة والشخصيات تبدو مألوفة حتى بالنسبة لمن لم يسبق له أن اطلع على آخر أسفار العهد الجديد (الإنجيل). وفكرة أن العالم سينتهى (قريبًا) ـ بكل ما تتضمنه من صور بصرية وهمية وكلمات وأرقام وألوان وصور وأحداث كما يصورها سفر الرؤيا ـ تعد جزءًا من نسيج الحضارة الغربية، سواء فى الثقافة العليا أو فى الثقافة الشعبية، بدأت فى العهود التوراتية السحيقة، واستمرت إلى عصرنا هذا. فمعركة أرمجدون و«فرسان الرؤيا الأربعة» و«الختم السابع» و«عاهرة بابل العظيمة» و«المسيح الدجال» و«حاصد الأرواح الشرس» و«عناقيد الغضب»(**) غادرت مكانها على صفحات سفر الرؤيا ووجدت طريقها إلى أرفع الأعمال الأدبية والفنية والموسيقية وصفحات الرياضة فى الصحف وشاشة السينما، وأفضل الكتب مبيعًا فى الغرب.

(*) لمزيد من الاطلاع أوردنا النص الكامل لسفر الرؤيا فى نهاية الكتاب بعناوينه الجانبية نفسها التى تميز شخوصه وأحداثه والنقاط التى يتضمنها.

(**) تسمى إسرائيل حملاتها العسكرية بأسماء توارتية، مثل عناقيد الغضب، كذلك تفعل الولايات المتحدة بعض الأحيان.

ولطالما استُعمل سفر الرؤيا كدليل شفرى لكشف المعانى الخفية وراء أحداث التاريخ الجسام وشخوصه، من حروب وثورات وملوك وغزوات وأوبئة وكوارث طبيعية. وتم تدوير كلمات السفر وعباراته وشخوصه ومشاهده وأعيد صوغها عند فنانين وشعراء ووعاظ ومتخصصين فى فن الدعاية، وكل ذلك لخدمة أغراض دينية أو سياسية أو ثقافية معينة. فغزو الصليبيين القدس فى العصور الوسطى، و«نيران الزهو» فى فلورنسا فى عصر النهضة، وإطلاق تسمية «العالم الجديد» على أمريكا عندما اكتشفت حديثًا، والرايخ الذى وعد أدولف هتلر بأن يدوم لألف سنة، كلها أمثلة على ما كان لسفر الرؤيا من أصداء غريبة ومشوشة عبر التاريخ. ولا تزال مخاوف نهاية العالم وأخيلته تجد من يروج لها فى أفلام هولى وود، وفى أكثر الروايات مبيعًا وفى دعوات المبشرين الإيفانجليكيين التليفزيونيين وعلى لسان المشتاقين لكرسى الرئاسة.

ولا يزال سفر الرؤيا يعد عند القراء العاديين ـ وحتى بين المسيحيين التقدميين على اختلاف طوائفهم ـ من غرائب الكتاب المقدس على أحسن الفروض، وعلى أسوئها كنوع من صحاف المختبرات لتنمية الشذوذ الدينى الخطير. ومعظم القراء اليهود لم يكلفوا أنفسهم عناء مطالعة نسخة من أناجيل النصارى، وإذا فعلوا فإنهم يتكدرون من وصف اليهود فى سفر الرؤيا بأنهم أعضاء «مجمع الشيطان»[(1)]. بل إن سفر الرؤيا يُنظر إليه دائمًا بعين الشك باعتباره «شيئًا غريبًا ينتمى بالصدفة وبصورة محرجة للإنجيل» حتى فى أوساط المسيحيين الأتقياء وحتى فى العهود السابقة[(2)]. وهكذا فإن التناول الساخر والازدرائى لسفر الرؤيا فى «The Seventh Seal» (الختم السابع) لإنجمار برجمن، الذى يعد من الأفلام بعد الحداثية الغامضة ويتساءل عن وجود الرب أصلاً، لا ينطوى على مفارقة تاريخية فى مجمله.

يصيح أحد المبشرين المتحمسين فى قمة العصور الوسطى وهو يجول وسط ريف انتشر فيه الطاعون برفقة قوم يضربون أنفسهم بالسياط تكفيرًا وتوبةً قائلاً: «الموت وراء ظهوركم. منجله يومض فوق رءوسكم. فمن منكم سيتلقى الضربة الأولى؟ كلكم هالكون، أتسمعون؟ هالكون! هالكون! هالكون!» فيجيبه فارس بدت عليه ضربات السيوف فى المعارك عائد لتوه من الحملات الصليبية وتحرر من أوهام الرب والإنسان

قائلاً : «هل هم فعلاً ينتظرون من الناس فى هذه العصور الحديثة أن يأخذوا هذا اللغو والهراء مأخذ الجد؟»[٣].

وسواء اعتبرنا سفر الرؤيا لغوًا أم لغزًا إلهيًّا فإن ثمة حقيقة تبقى، وهى أن هناك أعدادًا كبيرة من الناس فى العالم الحديث لا تزال تؤمن بسفر الرؤيا بكل سذاجة وبجدية بالغة، ولا يقتصر الأمر على المؤمنين الأتقياء الذين يعلنون عن إيمانهم العميق بأكاذيبهم الكبرى. بل إن من قراء سفر الرؤيا فى أمريكا المعاصرة قلة ممن لديهم القدرة على تدمير العالم بشفرات إطلاق ترسانة أمريكا النووية.

كبابوات العصور الوسطى وملوكهم الذين كانوا يراجعون العرافين الرؤيويين طلبًا للنصيحة فى تصريف شئون الحكم هناك، هناك أكثر من رئيس أمريكى فى العصور الحديثة تمت تنشئتهم على عقيدة تأمره بمطالعة سفر الرؤيا وتدبره باعتباره مشيئة الرب النافذة فى التاريخ الإنسانى. من ثم فإذا كان سفر الرؤيا لا يزال يجد من يؤمن به بين من لديهم القدرة على تدمير العالم، فنحن بحاجة ماسة لمعرفة ما ورد فيه وكيف تهيأت الظروف لتدوينه أصلاً، وكيف استُعمل وأسىء استعماله على مر تاريخ عالم يأبى أن ينتهى.

يوصف سفر الرؤيا بأنه «تاريخ المستقبل»[٤]. وبالنظر إلى الأمام من منظوره فى الزمن البعيد يصف كاتب السفر بكل ثقة «أشياء لا بد أن تحدث قريبًا»[٥]. إلا أن نبوءاته لم يتحقق منها شىء حتى الآن ولو بأى صورة صريحة أو حَرفية على الأقل، لذا فإن القراء فى كل عصر يحاولون تفسير فشل نبوءات سفر الرؤيا بالقول بأن رؤاه ينبغى فهمها كوصف رمزى لأحداث ستقع بعد موت واضعه ميتة طبيعية بمدة طويلة. ومع ذلك فكل جيل جديد يؤمن بأن زمانه آخر الأزمان.

من ثم فعندما يتأمل هال ليندسى إحدى فقرات سفر الرؤيا المخيفة والمحيرة فى آن مثلاً فى كتابه The Late Great Planet Earth[*] (كوكب الأرض العظيم الراحل) ـ «وَسَمِعْتُ أَنَّ جَيْشَهُمْ يَبْلُغُ مِئَتَىْ مِلْيُونِ مُحَارِبٍ![١٧] وَرَأَيْتُ فِى الرُّؤْيَا الْخُيُولَ وَعَلَيْهَا

(*) بيع من هذا الكتاب حوالى ٢٠ مليون نسخة، وتحول لفيلم سينمائى.

فُرْسَانٌ يَلْبَسُونَ دُرُوعًا بَعْضُهَا أَحْمَرُ نَارِىٌّ، وبَعْضُهَا بَنَفْسَجِىٌّ، وَبَعْضُهَا أَصْفَرُ كِبْرِيتِىٌّ. وَكَانَتْ رُءُوسُ الْخَيْلِ مِثْلَ رُءُوسِ الأُسُودِ، تَلْفُظُ مِنْ أَفوَاهِهَا نَارًا وَدُخَانًا وَكِبْرِيتًا» ـ يستنتج أن كاتب سفر الرؤيا كان يشير إلى «منصة صواريخ پالستية متنقلة» سيتم نشرها فى حرب نووية حرارية مستقبلية (وأخيرة). ومن الغريب أن هذه القراءات الدينية كانت تقوم على فرضية أن واضع سفر الرؤيا وجمهوره الأصلى لم يكونوا يدركون مغزى الظواهر التى يرد وصفها فى النص الإنجيلى[٦].

ولكن حتى لو كان سفر الرؤيا عملاً يتضمن نبوءات لا تتحقق، فإنه لعب دورًا فريدًا فى العالم الذى نعيش اليوم. بل إن سفر الرؤيا بمثابة عدسة يمكن من خلالها رؤية التاريخ المدون للحضارة الغربية بطرق جديدة ومفيدة. وعلى مر القرون العشرين التى مرت منذ أن أنشئ هذا السفر ـ وفى كل مرحلة تنازعته فيها أفكار فى الثقافة والسياسة تدحضه ـ كان سفر الرؤيا حاضرًا دومًا بصورة ظاهرة أحيانًا، وتحت السطح مباشرة فى أحيان أخرى.

يوصف سفر الرؤيا ـ أو النبوءة كما يسمى آخر أناجيل العهد الجديد ـ بأنه إما وحى من الرب، أو عمل أدبى كبير لكاتب موهوب وحذر من البشر، أو تهاويم مهووس دينى خرف، وبعض القراء لديهم القدرة على الإيمان بأنه يمثل الأوصاف الثلاثة جميعًا فى وقت واحد.

وبالنسبة للمؤمنين حقًّا فإن سفر الرؤيا «الإنجيل الوحيد الذى دونه المسيح» على حد وصف أحد المفسرين المتدينين؛ لأن واضعه يدعى أنه لم يكن يكتب إلا ما كان يوحى إليه من علٍ[٧]. إلا أن هناك قراء آخرين لسفر الرؤيا يفسحون المجال لذكاء البشر ولبراعة الإنسان: «إنه أعظم ما أنتج العصر المسيحى الأول من قصائد»[٨]. وهناك قلة من النقاد المعجبين بالنص يجدون أنفسهم مضطرين لوصف سفر الرؤيا بأنه «إباحية رؤيوية» أو «قصيدة جنونية» أو «خيال إبداعى لمريض فصامى» أو «تهاويم مخبول» على حد وصف توماس چيفرسن[٩].

وربما كان نص سفر الرؤيا مجموعة مواعظ ألقاها شفاهةً خطيب مفوه أو واعظ فصيح كان يجول من بلدة لأخرى فى آسيا الصغرى منذ قرابة ألفى سنة، ويبشر

بتحذيراته الرهيبة عن نهاية العالم لعدد معدود من المسيحيين الأوائل ارتضوا الاستماع إليه. إذ يقول كاتبه: «طُوبَى لِلَّذِى يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ»[١٠]، لذا فإن علماء الكتاب المقدس يشيرون دائمًا لمن كانت الرؤيا موجهة إليهم بكلمة «سامعين»، وهى عبارة تذكرنا بأن سفر الرؤيا لم يكن سوى عظة ترتل قبل أن يتحول إلى نص، وتفسر السبب فى أن قوة بيانه وصوره البلاغية لا تتضح إلا «إذا رُتل النص بصوت مسموع كما أراد له مؤلفه»[١١].

ومن الغريب أن كاتب سفر الرؤيا كان يهودى المولد والنشأة، وربما كان لاجئ حرب فر من يهوذا بعد أن شهد دمار هيكل يهوا بأورشليم [القدس] على يد جيش الرومان المحتل، فأخذ يعبر عن شعور الازدراء والاشمئزاز تجاه غزاة أرض اليهود. ومن المؤكد أن مؤلفه كان واحدًا من اليهود ممن كانوا يعتبرون يسوع الناصرى المسيح الموعود الذى طال انتظاره. ومع ذلك يظل سفر الرؤيا متأصلاً فى التاريخ اليهودى والسياسة اليهودية واللاهوت اليهودى حتى وصف بأنه «وثيقة يهودية ذات لمسة مسيحية طفيفة»[١٢]. بل إن سفر الرؤيا يمكن وصفه بأنه نوع من الـ «مِدراش» على أسفار الأنبياء فى العهد القديم العبرى، ويوصف مؤلفه بأنه «حاخام مسيحى»[١٣].

وما إن نُسخ سفر الرؤيا على الرق أو أوراق البردى فى أواخر القرن الأول، حتى بدأت بعض السلطات الكنسية الحذرة تنظر إليه بحذر وارتياب. إذ هالهم ما به من مشاهد عنف دامٍ واختلاط جنسى متقد توصف بشكل مشهود على صفحاته. وأثارت غضبهم فكرة حكم الملك يسوع لمدة ألف سنة على مملكة أرضية، فصدمتهم باعتبارها فكرة يهودية صرفة لما ستكون عليه مملكة المسيح. كما ساءهم ما لم يرد له ذكر فيه، فلا تطالعنا فى سفر الرؤيا مشاهد مألوفة من حياة يسوع الناصرى ومماته، ولا شىء من تعاليمه الأخلاقية السامية.

وكان الأخطر من كل هذا فى ذلك الوقت وحتى الآن ذلك المشهد المحير لبشر عادى يزعم أنه سمع صوت الرب. فيقول كاتب الرؤيا: «كُنْتُ فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ وَسَمِعْتُ وَرَائِى صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوق قَائِلاً: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ. وَالَّذِى تَرَاهُ اكْتُبْ فِى كِتَابٍ وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِى فِى أَسِيَّا»[١٤].

وبوحى من نموذج الرؤيا، سمع أناس لم يرزقوا نعمة البلاغة ولكنهم رزقوا أخيلة أكثر سخونة أصواتًا من علٍ، وآل مصير بعضهم إلى أعواد المشانق أو الحرق على الأوتاد، إذ رأت السلطات أن حرية التنبؤ قد لا تؤدى إلا إلى خطأ لاهوتى أو فوضى اجتماعية وسياسية أو ما هو أسوأ، وهى مخاوف ثبتت صحتها وأكثر فى عالمنا.

بل إن سفر الرؤيا يمكن أن يؤدى إلى الجنون. فمن يطالعه من أوله لآخره يجد أن التجربة أشبه بمنام محموم أو كابوس: شخصيات وأشياء غريبة تظهر وتختفى ثم تظهر من جديد، والمؤلف نفسه يتنقل عبر الزمان والمكان، فيجد نفسه حينًا فى السماء وحينًا على الأرض، حينًا هنا والآن، وحينًا آخر فى آخر الزمان، حينًا يشاهد من بعيد وحينًا يشارك فى الأحداث التى يصف. ويشير مؤلف السفر إلى الشخصيات نفسها بأسماء وألقاب مختلفة، ويصف الأحداث نفسها من وجهات نظر متباينة. وشخصيات سفر الرؤيا وأحداثه وكلماته وعباراته - بل حتى أحرفه وأرقامه ــ تبدو كأنها تومض بمعان رمزية بعيدة المنال.

ولطالما كانت غرابة سفر الرؤيا مصدر حيرة للقارئ المعتدل الواعى بدءًا من عصر الأناجيل وامتدادًا دون انقطاع إلى عصرنا الراهن. ودارت مناقشات بين آباء الكنائس الأولين حول ما إذا كان سفر الرؤيا جزءًا من الكتاب المقدس أصلاً. وأقدم مارتن لوثر على حذفه من ترجمته الألمانية للكتاب المقدس؛ لأنه: «لا ذكر فيه لتعاليم المسيح أو للمسيح نفسه»[١٥]. وفيما بعد رفض چورچ برنارد شو سفر الرؤيا برمته باعتباره «سجلاً غريبًا لرؤى مدمن مخدرات»[١٦]. واعتبر سى. چى. يونج رؤى سفر الرؤيا غير جديرة بالدرس الجاد «لأن لا أحد يؤمن بها، ولأن الموضوع برمته محرِج»[١٧]. حتى علماء الدين الأتقياء يرتابون دائمًا عما يمكن أن يجنيه أى باحث جاد من مطالعة نصه.

يقول أحد مفسرى الكتاب المقدس: «إن سفر الرؤيا إما يعثر على مجنون أو يترك قارئه مجنونًا»[١٨].

وسفر الرؤيا مكبل بألغازه وأحاجيه ورموزه لدرجة تجعل النص بحاجة لحل ألغازه لا مجرد مطالعته. يقول أحد علماء الكتاب المقدس فى القرن العشرين: «إما أهمله قراء

الكتاب المقدس لغموضه التام، أو تحول إلى مرتع خصب لغرباء الأطوار من المتدينين»[19]. ودوّن أحد علماء اللاهوت بالعصور الوسطى أكثر من ألف صفحة من التفسير فى محاولة لعرض ما فهمه هو من سفر الرؤيا الذى يتكون نصه من اثنى عشر ألف كلمة. بل إن حبكة السفر والمادة الخام التى استقى منها مؤلفه أحد أعظم وأخلد ما أنتج الخيال الإنسانى من أعمال، يمكن تلخيصهما فى عدد من الكلمات أقل كثيرًا.

يتألف سفر الرؤيا من سلسلة من النبوءات عن المستقبل، معظمها مخيف وغامض. ولا شك أن مؤلفه يبدؤه ببضع كلمات من الثناء الغاضب أو التحذير اللاذع لإخوته المسيحيين الذين يعتبرهم سذجًا ومنطوين على أنفسهم ويفتقرون إلى الغيرة. فيقول لكنيسة اللاودكيين ناسبًا لومه إلى الرب نفسه: «لأَنَّكَ فَاتِرٌ وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِى»[20]. وهو يزين النص من حين لآخر بعبارة «طوبى لـ» بهدف إضفاء قدر من الصدق على رؤاه: «هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ»[21].

وفى معظم المواضع، يكرس مؤلف سفر الرؤيا نفسه لسرد المشاهد المخيفة التى رآها فى رؤية أتته على جزيرة پطموس أمام الساحل الغربى لآسيا. ويحقق كاتبه حالة من الانتشاء الصوفى يرى فيها بين ما يرى من أشياء عديدة أخرى أغرب ـ لفيفة كتب عليها خطة الرب السرية لنهاية العالم. واللفيفة مغلقة بسبعة أختام يفترض أنها من الشمع والطين ولا بد من كسر الأختام السبعة جميعًا لكى تفض وتقرأ.

هنا يبدأ العنصر الأكثر إلحاحًا فى سفر الرؤيا، أى استعمال الكاتب المفرط للرقم سبعة. فهو لا يرى سبعة أختام وحسب، بل أيضًا سبعة من الملائكة، وسبعة كئوس، وسبعة شمعدانات، وسبع كنائس، وسبعة تيجان، وسبع أعين، وسبع أيادٍ، وسبعة قرون، وسبعة ملوك، وسبعة حملان، وسبعة جبال، وسبعة أوبئة، وسبع أرواح، وسبعة كواكب، وسبعة رعود، وسبع نوافير. وتركز قصة سفر الرؤيا بصورته الحالية على ما سيحدث فى السماء وعلى الأرض بعد أن يصل الهلع المتزايد فى آخر الأيام إلى ذروته، حين يُنفخ النفير السابع وتنسكب كأس غضب الرب السابعة، ويحطم حمل الرب الختم السابع.

والشخصية السماوية التى تكشف المخطط الإلهى لنهاية العالم يسمى «شبيه ابن إنسان» و«ابن الله» و«الروح» و«الحمَل» ـ وكلها مصطلحات مستعارة من التراث المسيحانى اليهودى ـ كما ينحت مؤلف السفر عبارة أنيقة خالدة لا نجدها فى غيره من النصوص المقدسة المسيحية: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ»[٢٢] وهو لا يورد اسم «يسوع المسيح» الصريح ولقبه إلا فيما ندر، ويؤثر أن يخفى هوية مصدره السماوى فى الأحاجى والألغاز، فيقول الزائر الذى لا يذكر اسمه على سبيل أنه يقدم نفسه: «وَأَنَا الْحَى وَكُنْتُ مَيْتًا وَهَا أَنَا حَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ آمِينَ وَلِى مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ»[٢٣].

إذن فالرب الذى يجول خلال السفر، هو متغير الأشكال. فهو فى البداية ملك سماوى يرتدى ثوبًا ذهبيًّا وله شعر «أبيض كالثلج» وعينان «كَلَهِيبِ نَارٍ» ممسكًا فى يمناه بسبعة كواكب و«سَيْفٌ مَاضٍ ذو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ»[٢٤]. وفيما بعد يشاهد مؤلف السفر الشكل المخيف الغريب لحمَل يبدو «كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ» ولكنه مع ذلك يقف منتصبًا و«لَهُ سَبْعَةُ قُرُون وَسَبْعُ أَعْيُنٍ»[٢٥] ـ (٥ : ٦). وفى نقطة ذروة السِّفر، يرى مؤلفه محاربًا إلهيًّا يمتطى صهوة فرس بيضاء ومتوجًا بـ «تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ» و«مُتَسَرْبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ». وهنا أيضًا يمارس مؤلف السفر لعبة الظهور والاختفاء، فيقول: «وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إلا هُوَ» ثم بعد برهة يكشف قائلاً: «وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ»[٢٦].

ومع ذلك، فأكثر شخوص سفر الرؤيا تميزًا ووضوحًا هم الأشرار. فالشرير الأكبر «تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ لَهُ سَبْعَةُ رُءُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ وَعَلَى رُءُوسِهِ سَبْعَةُ تِيجَانٍ» يتكشف فيما بعد أنه تلك «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِى يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ»[٢٧]. والعملاء الأرضيون للشيطان «وحشان» لأحدهما سبعة رءوس وعشرة قرون يخرج من البحر، والآخر له قرنان وصوت كصوت التنين يطلع من الأرض[٢٨]. وهناك مشاهد قليلة يظهر فيها أدعياء ومدعيات نبوة وملوك فاسدون ومنحطون بوفرة كبيرة، وأشرار آخرون عديدون من بشر وجان.

والشخصية الأكثر استفزازًا فى سفر الرؤيا، مثلاً، هى زانية بابل العظيمة.

وتوصف فى السفر كوحش شره جنسيًّا «زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ» وعشاقها كُثر و«سَكِرَ سُكَّانُ الأَرْضِ مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا». والمرأة سكرَى أيضًا ولكن بخمر «مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَم شُهَدَاءِ يَسُوعَ». وهى «مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ» وفى يدها كأس وهى ممتطية ظهر الوحش القرمزى ذى السبعة رءوس والعشرة قرون. وفى صورة شديدة الصراحة يشير مؤلف السفر إلى أن الكأس «مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٢٩].

وكما أن الحمَل صنو التنين فإن صنو الزانية العظيمة هو الشخصية السماوية لـ«امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِن اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا». وفى اللحظة التى تبدأ فيها المرأة فى المخاض، يقف التنين الأحمر أمامها فى انتظار أن يلتهم وليدها. وعندما تضع حملها «ذكَرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ» يُختطف وليدها إلى عرش الرب فى السماء وتُعطى «الْمَرْأَةُ جَنَاحَى النَّسْرِ الْعَظِيمِ لِكَى تَطِيرَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ» حيث تتم تغذيتها وإيواؤها من التنين الضارى، وفى الوقت نفسه تدور فى السماء رحى معركة بين الشيطان وميخائيل رئيس الملائكة كلٌّ على رأس جيش من الملائكة. وينهزم الشيطان ويُطرد من السماء، ولكنه يهبط إلى الأرض فى أمان، ويشرع فى إنشاء مملكة من البشر[٣٠].

والسبيل الوحيد أمام الرب لكى يهزم الشيطان وأتباعه فى رأى كاتب سفر الرؤيا أن يدمر العالم ويبدأ من جديد بـ«سماء جديدة وأرض جديدة». إلا أن آخر الزمان مرتبط بفتيل بطىء الاحتراق، فلا بد أولاً من أن يمر الأتقياء من المسيحيين بفترة من القهر والاضطهاد ـ فيما يعرف بـ«الضيقة» ـ على أيدى أعوان إبليس بما فيهم «الوحش» الذى يعرف حاليًّا بـ«عدو المسيح» ولو أن هذا المصطلح الأخير لا يرد بلفظه فى سفر الرؤيا. وبداية النهاية لها علامات وآيات: زلازل وسيول وشهب وخسوف ومجاعة وطاعون ووباء، وسلسلة من الحروب الكبرى فى السماء وعلى الأرض.

وبلايا آخر الزمان لها وصف ورد فى بعض من أكثر فقرات الكتاب المقدس تميزًا. فهناك ـ على سبيل المثال ـ فرسان الرؤيا الأربعة المشاهير، كلٌّ على صهوة جواد من لون

مختلف يقتلون «بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ وَبِوُحُوش الأَرْضِ». وما نفهمه على أنه كوارث طبيعية يرد وصفه بلغة منمقة: «وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ، وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ». ويستحضر مؤلف الرؤيا الوحوش فى صور غير معهودة فى الطبيعة. فعندما يصف سرب جراد مثلاً، فهى حشرات لها وجوه بشر وشعر نساء وأجسام خيول حربية وأنياب أسد وأذناب عقارب سامة(٣١).

ويقول مؤلف الرؤيا فى فقرة شديدة الحدة: «وَفِى تِلْكَ الأَيَّامِ سَيَطْلُبُ النَّاسُ الْمَوْتَ وَلاَ يَجِدُونَهُ وَيَرْغَبُونَ أَنْ يَمُوتُوا فَيَهْرُبُ الْمَوْتُ مِنْهُمْ»(٣٢).

وبعد سبع سنوات من المعاناة تحت حكم الوحش، سيهبط يسوع المسيح إلى الأرض كملك محارب على صهوة جواد على رأس جيش من الملائكة والقديسين والشهداء المبتعثين، وستدور رحى معركة حاسمة فى موقع يعرف بأرمجدون. ويبدى مؤلف الرؤيا شماتته فى وصف الانتقام الذى سينزله حمل الرب بمن ساموا عباده المؤمنين سوء العذاب. وينادى ملَك فى طيور السماء أن «هَلُمَّ اجْتَمِعِى إِلَى عَشَاءِ اللهِ الْعَظِيمِ لِكَى تَأْكُلِى لُحُومَ مُلُوكٍ وَلُحُومَ قُوَّادٍ وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا وَلُحُومَ الْكُلِّ حُرًّا وَعَبْدًا صَغِيرًا وَكَبِيرًا»(٣٣).

وسيكبل الشيطان فى أغلال ويسجن فى حفرة لا قرار لها، وسيعيش الناجون من الضيقة فى مملكة أرضية فى ظل حكم يسوع الملِك وقديسيه وشهدائه المبعثين ولمدة ألف سنة بالتمام. إلا أن آخر الزمان لم ينته بعد. فسيفك إبليس أغلاله ويضطر يسوع المسيح لخوض الحرب ضده مرة أخرى وضد الأمم المتفرقة التى تمثل حلفاء الشيطان وتعرف حينئذ باسم «ياجوج ومأجوج». وحينها فقط سيلقَى بالشيطان وزبانيته وإلى الأبد فى «بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ» حيث «سَيُعَذَّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلاً إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ»(٣٤).

حينئذ وأخيرًا سينتهى عالمنا الجاهل ــ الأَرْضَ الأُولَى ــ وسيُبعث كل من عاش على الأرض وسيحاسب الأحياء والموتى ويثابون ويعاقبون كلٌّ حسب مشيئة الرب له. واختبار الخلاص هو الإيمان الحق؛ فمن «يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللهِ وَإِيمَانَ يَسُوعَ» سيسمح لهم بالخلود فى النعيم المقيم بالفردوس الجديدة. وفيما عدا ذلك يُلقون جميعًا من

رجال ونساء وأطفال فى «بُحَيْرَةِ النَّار الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ» فى «ميتة ثانية» مع الشيطان و«الْخَائِفِينَ وَغَيْر الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسِينَ وَالْقَاتِلِينَ وَالزُّنَاة وَالسَّحَرَة وَعَبَدَة الأَوْثَانِ وَجَمِيع الْكَذَبَةِ»(٣٥).

يشتهر سفر الرؤيا - وعلى خلاف بقية الأناجيل - بافتقاره للرحمة والمحبة. فهو نص للعقاب ملىء بالحقد والنقمة، وحاد فى تطلعه للثأر الدامى من الأعداء. ولا يسمح واضع السفر لقرائه برؤية عالم أرحم إلا فيما ندر، وحين يفعل فإنه يعقب بأنه لن يحل إلا فى النهاية بعد هلاك الأرض بصورتها التى نعرف حيث ستنتشر عليها الجثث وتغرقها سيول دماء تصل «حَتَّى إِلَى لُجُمِ الْخَيْلِ»(*). ولن يُسمح بدخول الفردوس السماوى إلا لمن «أَتوا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ» ومن «غَسَّلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوهَا فِى دَمِ الْحَمَلِ»(٣٦).

يقول كاتب سفر الرؤيا فى لحظة نادرة من الرقة والرحمة: «وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِى مَا بَعْدُ وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِى مَا بَعْدُ لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ»(٣٧).

إذن فسفر الرؤيا على الرغم من كل ما به من دفع وعصف ينتهى نهاية سعيدة بالنسبة لمن كُتب لهم الخلاص على الأقل(٣٨). فكل من على الأرض مقدر له فى آخر الزمان أن يعانى أشد المعاناة على يد عدو المسيح ــ وسيهلك معظم من على الأرض بالصورة الرهيبة نفسها ــ لكن قلة مصطفاة منهم سيُبعثون ويحاسبون وينعمون بحياة أبدية فى عالم آتٍ. ويثبت فى النهاية أن لهفة من قدر لهم الخلاص ونفور من لم يقدر لهم الخلاص هما محركا التاريخ.

وما من مثال أوضح من العادة القديمة الخالدة التى تربط عدو المسيح بشخصية تاريخية حية. فوحش سفر الرؤيا إنسان لكل العصور: فاعتُبر محمد(**) المسيح الدجال فى أوائل العصور الوسطى، وصلاح الدين فى عصر الحملات الصليبية، وسلطان

(*) ولمسافة: نحو ٣٢٠ كيلومترًا، كما فسرها كتاب الحياة.

(**) يقصد المؤلف النبى محمدًا ﷺ.

الأتراك العثمانيين الأعظم حين دق أبواب ڤيينا، ونابوليون فى أعقاب الثورة الفرنسية. واتهم مارتن لوثر البابا (أو بالأحرى البابوية) بأنه عدو المسيح، وردها له البابا. ولكل جيل مرشحوه: لينين وستالين، هتلر وموسولينى، روزڤلت وكنيدى، موشيه ديان وأنور السادات، كلٌّ كان يمثل المظهر البشرى للوحش فى عصره.

يمكن اعتبار تضارب الحدس حول هوية عدو المسيح نوعًا من اختبار الشخصية للقلق فى أى عصر من العصور. فحام الشك حول هنرى كيسينجر مثلاً عندما قام بجولاته المكوكية بين واشنطن وموسكو وبكين فى سبعينيات القرن العشرين، ولم يرشح آية الله الخمينى إلا بعد أخذ الرهائن فى طهران فى أعقاب الثورة الإسلامية فى إيران فى سنة ١٩٧٩م. وقبل بضع سنوات، اعتُبر صدام حسين متسابقًا واعدًا؛ بل إن سلسلة «Left Behind»(*) التى حققت أكبر المبيعات، تعتبر بغداد مقر عدو المسيح. ويبدو أن أسامة بن لادن فى أيامنا هذه أخذ مكان صدام حسين باعتباره الخصم الشيطانى الذى تنبأ سفر الرؤيا بمجيئه.

ومن المشروعات المرتبطة بذلك محاولة فك الشفرة التى غرسها واضع سفر الرؤيا فى نصه، أى هوية «الوحش» الذى يرمز لاسمه بالرقم ٦٦٦. وهناك ـ كما سنرى ـ رد مقنع على السؤال، وهو أن ٦٦٦ شفرة رقمية لها قيمة بالأحرف كحساب الجمل ويمكن ترجمتها إلى الاسم اليونانى أو اللاتينى أو العبرى للإنسان الذى يعتبره واضع سفر الرؤيا أداة إبليس. لكن هذا لم يمنع الساعين لحل شفرات الكتاب المقدس ـ الهواة منهم والمحترفون على السواء ـ من انتزاع معان جديدة وغريبة من هذا الرقم المروع نفسه.

واللغة المجازية فى سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ كان يُقصد بها أشياء بعينها ـ ومختلفة تمامًا ـ لدى كاتب السفر وعند قرائه وجمهوره من الأولين. إلا أن قدرتنا على فهم المقصود برقم الوحش وزانية بابل العظيمة بالنسبة لمسيحى حالم من أصل يهودى فى آسيا الصغرى فى القرن الأول لم يمنع الأجيال المتعاقبة من إيجاد معان مختلفة تمامًا لأنفسهم. وهذا هو سر غرابة سفر الرؤيا وقوة سحره، وهو أن كل جيل جديد من

(*) للقس تيم لاهاى.

القراء، مقتنع بأن الرب وضع معنى خفيًّا فى النص لا يقصد أحدًا غيرهم وموجه لهم هم على وجه التحديد. ومن الغريب أن فشل كل جيل سابق فى حل شفرات سفر الرؤيا يشجع الجيل التالى على مزيد من الاجتهاد فى المحاولة.

إن سفر الرؤيا كنص نبوئى يعد مغلوطًا فى مجمله وبصورة جلية. يتساءل المؤلف الإنجيلى على لسان أرواح الشهداء الموتى قائلاً: «حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ لاَ تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟» ويجيب عن تساؤله بوعد صريح يعزوه ليسوع المسيح: «هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا»(٣٩). هذه الكلمات نزلت إلى مستوى التدوين قبل حوالى ألفى سنة، إلا أن قراء سفر الرؤيا لا يزالون فى انتظار يوم الثأر الذى تنبأ به النص القديم بهذا الوضوح وبهذه الثقة.

وليس واضع سفر الرؤيا الشخصية الوحيدة التى فشلت نبوءتها عن آخر الزمان فى النصوص المقدسة المسيحية. فطبقًا لبعض الأقوال الغريبة المنسوبة له فى الأناجيل، يؤكد يسوع لأتباعه أن بعضًا منهم على الأقل سيرون نهاية العالم بأعينهم. وأكد بولس الرسول بدوره هذا الوعد نفسه لجيله من المسيحيين. وكان كلٌّ من يسوع وبولس رحل إلى الرفيق الأعلى فى العصر الذى دون فيه كاتب سفر الرؤيا رؤاه عن «مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»(٤٠). وثبت أنها برمتها خطأ ولا يزال العالم قائمًا.

أدى عدم انتهاء العالم فى الوقت المحدد حسب قول أحد علماء الكتاب المقدس المعاصرين، إلى اضطرار المسيحية سواء فى أواخر العصور القديمة أو حاليًّا، إلى إعادة التفكير فى الطريقة التى ينبغى أن تعاش بها الحياة الدنيا(٤١). وذات مرة اعتلى أحد الأباطرة المسيحيين عرش روما الوثنية فى أوائل القرن الرابع، وفجأة أصبح كل ما ورد بسفر الرؤيا من حقد مرير موجه صراحةً إلى قوة الإمبراطورية الرومانية ومجدها مصدر إحراج يحتاج إلى تعليل. وفى أواخر العهود القديمة، بدا سفر الرؤيا فجأة غير ذى صلة إذا قورن بإنجيل مرقس، مثلاً، حيث يقول: «فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلاَ تَرْتَاعُوا»، فيحذر يسوع أتباعه بكل رقة قائلاً: «لأَنَّهَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ»(٤٢).

ولا يزال هناك عدد غير قليل من قراء سفر الرؤيا فى كل عصر، بما فى ذلك عصرنا الراهن، تتملكهم فكرة أن النهاية وشيكة. بل إنهم مستعدون لتجاهل الحقيقة الصريحة بأن العالم لم ينته بعد كما هو متنبأ به، ويواصلون التنقيب فى نص الرؤيا فى محاولة جديدة لتحديد تاريخ نهايته بدقة. ويجانبهم الصواب أيضًا بالطبع، ولكن لا شىء يثبط من عزمهم فيقلبون فى النص ويحاورون الأرقام للخروج بموعد لا بد للعالم من أن ينتهى فيه. ولم يمر قرن واحد من الزمان منذ أن جف حبر سفر الرؤيا دون أن تظهر نبوءة جديدة عن الموعد الدقيق الذى ستتحقق فيه نبوءاته.

ويتسم كاتب سفر الرؤيا بغل شديد، وهو من المؤمنين بالمبدأ البسيط القائل إن من ليس معه فهو ضده. فيحمل على منافسيه من المبشرين ويصفهم بأنهم فاسقون وأدعياء نبوة. ويكيل الشتائم لإخوته المسيحيين ممن يتهمهم بالافتقار إلى الحماس الكافى لحمَل الرب. ويوجه أقسى الإهانات لليهود؛ لأنهم لا يؤمنون بأن يسوع هو المسيح، ويصر على أن المسيحيين هم اليهود الحقيقيون الوحيدون. ويخص كل من ينغمس فى ملذات الدنيا لا سيما المرابين باحتقار خاص. وفى لمحة من المغالاة الكلامية التى تعد السمة المميزة لسفر الرؤيا، يدين الكاتب خصومه بأنهم ليسوا آثمين أو خطائين أو مجرمين وحسب، بل أفسدتهم «أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ» فسادًا تامًّا(٤٣).

وتتضح اللاوسطية الأخلاقية فى سفر الرؤيا ـ كل امرئ وكل شىء فى العالم إما خير مطلق أو شر مطلق ــ فى حرص الكاتب على إيراد المتناقضات معًا. فالزانية العظيمة توأم الشر لـ «امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ»، والوحش هو المقابل البغيض لحمَل الرب، ودمار بابل «أم الزوانى» يعقبه ظهور أورشليم [القدس] الجديدة على شكل بناء من البلور والأحجار الثمينة يهبط من السماء. وهنا نجد نظرية لاهوتية من الإقصاء لا ترحم، فالقديسون والشهداء سيخلدون فى النعيم فى رأى كاتب الرؤيا، بينما يحترق بقية البشر فى الجحيم. بل إن سفر الرؤيا يتقد بمتعة الانتقام المؤجل.

إذن فكاتب سفر الرؤيا مجدد راديكالى لليهودية، كيسوع بصورته التى ورد بها فى الأناجيل، إلا أن كلا منهما يسير فى اتجاه عكس الآخر. فيوصى الرب فى العهد القديم

العبرى قائلاً: «حِب جارك» (وليس جارك وحده بل «الْغَرِيبُ النَّازِلُ فِى وَسَطِكُمْ» أيضًا). فيستشهد يسوع بالوصية اليهودية التقليدية ثم يكثفها بقوله: «أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ»[٤٤]. فى حين أن كاتب سفر الرؤيا يعد قراءه وسامعيه صراحةً بأن الرب سينتقم بنفسه من أعدائهم وظالميهم فى نوبة من العنف الإلهى لا توصف إلا بأنها مَحرقة.

يقول الكاتب الروائى د. هـ. لورنس الذى أفزعه ما وجد فى سفر الرؤيا إلى حد دفعه لأن يكتب تعليقًا خاصًّا عليه: «إن النصف الثانى من سفر الرؤيا عبارة عن بغض منمق وشوق صرف ... لنهاية العالم». ورسم كاتب سفر الرؤيا «خطة مهيبة لإبادة كل من لم يكن من النخبة المصطفاة وكل من لا يصعد بنفسه مباشرةً إلى عرش الرب»[٤٥].

وهكذا فإن الدمار النهائى لـ «بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ» ـ رمز روما الوثنية بخاصة وخطايا البشر بعامة عند كاتب السفر ـ يبين الشوق إلى الانتقام الذى يدركه لورنس فى النص. يقول كاتب الرؤيا دون أدنى صلة بحب المسيحية للبر، بل بتشفٍّ خالص فى أعدائه وما ألم بهم من نوازل: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ سَتَأْتِى ضَرَبَاتُهَا: مَوْتٌ وَحُزْنٌ وَجُوعٌ وَتَحْتَرِقُ بِالنَّارِ» و«افْرَحِى لَهَا أَيَّتُهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقِدِّيسُونَ وَالأَنْبِيَاءُ لأَنَّ الرَّبَّ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ»[٤٦]. وفى ذروة رؤياه لنهاية العالم تتملك كاتب الرؤيا رغبة عارمة (وتفتقر للذوق) لمشاهدة أعدائه وهم يعانون ويهلكون.

ويناشد حمَل الرب حامل السيف قائلاً: «جَازُوهَا كَمَا هِى أَيْضًا جَازَتْكُمْ» و«وَضَاعِفُوا لَهَا ضِعْفًا نَظِيرَ أَعْمَالِهَا فِى الْكَأْسِ الَّتِى مَزَجَتْ فِيهَا امْزُجُوا لَهَا ضِعْفًا بِقَدْرِ مَا مَجَّدَتْ نَفْسَهَا وَتَنَعَّمَتْ بِقَدْرِ ذَلِكَ أَعْطُوهَا عَذَابًا وَحُزْنًا»[٤٧].

والعذر المعهود لهذا التجاوز الكلامى هو أن سفر الرؤيا بمثابة دعاية تهدف لرفع معنويات ضحايا الظلم والاضطهاد «رسائل موجهة من المتنبئين الرؤيويين لمن عانوا الفزع وتملكهم الرعب»[٤٨]. لذا فإننا نجد أحد علماء اللاهوت المحدثين يعتبر Letter from a Birmingham Jail (رسالة من أحد سجون برمنجهام) لمارتن لوثر كنج،

بمثابة بيانًا رسميًّا مثيرًا لحركة الحقوق المدنية الأمريكية يعكس «تجارب وتطلعات تشبه لاهوت سفر الرؤيا»(٤٩). إلا أن بعض الباحثين فى فترة لاحقة ذهبوا إلى أن مؤلف سفر الرؤيا نفسه ربما لم يكن معرضًا لخطر التعذيب والقتل فى ذلك الوقت وفى المكان الذى عاش فيه ودون عمله. بل ثبت أن منطق سفر الرؤيا مقنع لمن يعتبرون أنفسهم مضطهَدين بقدر ما هو مقنع لمن عانوا الاضطهاد فعلاً.

هناك راهبة تسمى تيريز دى ليزييه عاشت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر، ورد عنها أنها قالت قبل وفاتها نتيجة للمرض فى سن الرابعة والعشرين: «حين يرد على خاطرى صنوف العذاب المقدرة على المسيحيين فى عصر عدو المسيح، أشعر كأن قلبى يقفز فرحًا لأنى نجوت من هذا العذاب»(٥٠).

ولكن صحيح أيضًا أن سفر الرؤيا يدفع بعض قرائه المتحمسين من حين لآخر لتنفيذ نزواتهم الخاصة فى الانتقام والشهادة. يقول أحد الباحثين المعاصرين: «إن الثقة فى قرب النهاية تواكبها أفعال خطيرة»(٥١). فهناك ـ على سبيل المثال ـ شاب يدعى فيرنن هاول انضم لطائفة رؤيوية تعرف باسم «طائفة الداووديين» وأطلق على نفسه كنية «داڤيد كورش» فى إشارة رمزية لشخصيتين مسيحانيتين من شخصيات الكتاب المقدس العبرى، وقاد أتباعه إلى الشهادة، وقوبل الأمر بفتور من عناصر تنفيذ القانون الاتحادى، وكل ذلك لاقتناعه بأن الرب أوحى له بأن معركة أرمجدون مقدر لها أن تبدأ فى واكو بولاية تكساس. وكورش نموذج عادى لظاهرة موغلة فى القدم، وسنرى كيف أثر الفكر الرؤيوى على العقول المضطربة على مدار القرون العشرين الماضية.

وهناك قراءات حديثة لسفر الرؤيا تثير الضحك إن لم تكن مروعة. إذ يلجأ من يتاجرون من المحدثين فى نبوءة نهاية العالم إلى النص التوراتى القديم بحثًا عن تفسير لظواهر مختلفة حقيقية أو تخيلية تحدث فى عصرنا الذى يتملكه القلق، ومنها اختطافهم من قبل مخلوقات من الفضاء الخارجى والأطباق الطائرة والانتشار النووى واغتيال كنيدى والثورة الجنسية والثورة الرقمية ووباء الإيدز وغيرها كثير «نموذج لشهية الأمريكيين المتعطشة لغير المألوف والغريب والمثير» حسب قول أحد الباحثين(٥٢). وسفر

الرؤيا الذى يتخيل وجود مؤامرة كبرى لأمراء وقوى وإمارات يعملون فى خدمة الشيطان، يغذى حتى أغرب التهيؤات الارتيابية عن خفايا العالم الذى نحيا فيه.

وفوق هذا وذاك يعد سفر الرؤيا حاليًّا ـ ودائمًا ـ سلاحًا كلاميًّا قويًّا فى نوع ما من الحروب الثقافية، وهى حرب القيم المتنافسة والتطلعات المتنازعة التى تنشب على مر تاريخ البشرية. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يدين أى مسيحى يشارك فى متع الحضارة التقليدية ونواتجها فى ذروة إنجازاتها الخالدة فى الفن والأدب والفلسفة. وعندما نادى ساڤونارولا فى أتباع أبرشيته أن يلقوا بلوحاتهم وأشيائهم الجميلة فى نار الأباطيل ـ وبذلك يجعلون من فلورنسا «أورشليم [القدس] الجديدة» التى وعد بها سفر الرؤيا ـ كان يخوض حربًا ثقافية على ما كان وثنية فى نظره ونهضة فى نظرنا. والقارئ المعاصر حين يقحم الكتاب المقدس فى الجدل العام المسموم حول دور الدين فى الديمقراطية الأمريكية يشن حربًا مماثلة من جديد.

هناك قاض اتحادى من الأصوليين الدينيين عين مؤخرًا وأثار ترشيحه لهذا المنصب أزمة فى مجلس النواب الأمريكى أعلن قائلاً: «إنها ليست حربًا بالرصاص، لكنها حرب. نحن فى وقت عصيب على أهل الإيمان لا بمعنى أننا مهددون بالموت، بل بمعنى أن هناك ما ستفقده لو كنتَ من أهل الدين ودافعتَ عما تؤمن به وصرحتَ بذلك جهارًا»(٥٣).

إذن فلا مجال لرفض سفر الرؤيا باعتباره شذوذا عن الكتاب المقدس ولا يخص إلا علماء اللاهوت المتخصصين ووعاظ الإعلام وقلة من المهووسين. والحقيقة أن سفر الرؤيا أصبح فى نظر بعض أهل السلطة والنفوذ مصدر إلهام، إن لم يكن دليلاً إلهيًّا لإدارة دفة الحرب والدبلوماسية وشئون الدولة فى عالم الواقع. فحين انتقل رونالد ريجان إلى بيت رقمه فى الشارع ٦٦٦ أصر على تغيير العنوان إلى رقم أقل شيطانية، وما لبث أن أوَّل اضطرابًا عاديًّا وقع فى ليبيا بأنه تحقيق لنبوءة فى الكتاب المقدس وأعلن قائلاً: «هذه علامة على أن معركة أرمجدون الفاصلة ليست ببعيدة. كل شىء يتحقق فى أوانه المحدد. والوقت أزف»(٥٤).

معتقدات كهذه لها خطرها من رجل توفرت له السلطة لأن يشعل أرمجدون نووية على عدو سماه «إمبراطورية الشر»، ولكنه إشارة منحرفة أخرى لسفر الرؤيا. إلا أن ريجان ليس السياسى الأمريكى الوحيد الذى يعتنق هذه المعتقدات. فكل شاغلى البيت الأبيض منذ عهد ريجان ـ والعديد من مستشاريهم وثقاتهم ـ أعلنوا أنهم «مولودون ثانيًا»، وهو وصف يربطهم بضرب من الأصولية الدينية يسلم جدلاً بصحة نبوءات الكتاب المقدس وحتميتها، بما فى ذلك نبوءات آخر الزمان بسفر الرؤيا. وهذه الحَرفية فى قراءة الكتاب المقدس كانت مشكلة فى نظر السلطات المسيحية الأولى فى أواخر العصور القديمة، وهى كذلك فى الحرب الثقافية التى تخوضها أمريكا حاليًّا.

بل إن سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ بعد قليل يمثل «مخزونًا لغويًّا» فى العديد من النزاعات الاجتماعية والثقافية والسياسية فى تاريخ الغرب(٥٥). فكثيرًا ما يدفع سفر الرؤيا بعض الخطرين إلى تحقيق نبوءاتهم الرؤيوية الخاصة، والأهم أن الجوهر الأخلاقى لسفر الرؤيا ـ إضفاء سمات شيطانية على الأعداء وتقديس الثأر وفكرة أن التاريخ لا بد أن ينتهى بكارثة ـ يمكن استشفافه فى بعض أسوأ التجاوزات والفظائع فى كل عصر بما فى ذلك عصرنا الراهن.

لهذه الأسباب كافة، يتجاهل بقيتنا سفر الرؤيا ولكن على حساب علمنا، بل بما يعرضنا للخطر.



الفصل الثانى

علـــم الأشبــاح
والأحداث الأخيرة

ترى، هل يمتد الخط إلى حافة الهلاك؟

«وليم شكسپير، ماكبث»

«الرؤيا» كلمة توحى بتكشف ما ظل خفيًّا. وهى تحمل معنى أن السر المتكشف ليس لغزًا وحسب، بل شديد الغموض بل قد يكون ذا خطر ـ إنه «عِلم الأشباح» على حد التعبير الساخر للفيلسوف الشعبى آلن واتس[1]. ولا شىء فى الكتب المقدسة اليهودية أو المسيحية يتسم بهذا القدر من «الشبَحية» كسفر الرؤيا.

ومع ذلك فسفر الرؤيا ليس فريدًا بين الكتابات التى ضمَّنها الناس أخيلتهم الروحية. فالعرافون والكهنة وأدعياء النبوة فى كل زمان وفى كافة أنحاء العالم يدعون أنهم يسمعون أصواتًا ويرون رؤى، أحيانًا بمدد إلهى وفى أحيان أخرى برُقى صوفية أو وصفات سحرية، وفى أحيان ثالثة بالاستعانة ببصيرتهم النافذة الخاصة. فهناك ما يجمع بين وسيطة الوحى فى دلفى القديمة [مهبط وحى الإله أپوللو، المترجم] التى يعتقد أنها كانت تبدأ غمغماتها النبوئية بعد إطلاق أدخنة هذيانية تنبعث من شق تحت موضعها المقدس على جانب التل، وخبير الحواسب المعاصر حين يستعين بمعالج بيانات دقيق الحجم لحل شفرات ما يسميه «شفرات الكتاب المقدس».

والمؤلف الأصلى لسفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يدخل ضمن هذا الموروث نفسه. فمما لا شك فيه أنه كان شاعرًا موهوبًا وواعظًا مفوهًا، وقد لا يجد بعض من قرائه غضاضة فى اعتباره حالمًا صادقًا كان يسمع أصواتًا ويرى رؤى من علٍ. إلا أن سفر الرؤيا لم ينبع من رأسه كشىء حادث مكتمل. فهناك مسحة لاهوتية وقدسية يمكن استخلاصها من نص السفر، ويمكن الرجوع بنَسبها إلى نصوص أقدم كثيرًا وأغرب كانت تعتبر مقدسة قبل أن يوحَى لكاتب سفر الرؤيا أن يجهر برؤاه عن نهاية العالم.

فكاتب السفر، مثلاً، لم يكن أول من يدعى رؤية رؤى صوفية من البشر، ولا كان أول من قوبلت دعاواه بالشك من قبل حراس القانون والنظام الدينيين. فالدين المؤسسى دائمًا ما كان يزعجه ظهور مجرد إنسان فان يدعى الاتصال بالله، لا سيما الفانى الذى لم يتم ترسيمه حبرًا أو قسًّا أو إمامًا أو كاهنًا. ويشتمل الكتاب المقدس العبرى على فقرة تستبعد أى لقاء مباشر بين الإله وأحد من البشر: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِى لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِى وَيَعِيشُ»[٢]. قد يشاء الرب من حين لآخر أن يتصل ببشر بالطبع ولكن بطرق غير مباشرة: «إِنْ كَانَ مِنْكُمْ نَبِىٌّ لِلرَّبِّ فَبِالرُّؤْيَا أَسْتَعْلِنُ لهُ فِى الحُلمِ أُكَلِّمُهُ»[٣]. وحتى فى هذه الحال، فإن بعض الأسرار الإلهية تعد غير ملائمة للاستهلاك الآدمى. يقول موسى محذرًا فى سفر التثنية: «السَّرَائِرُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا»[٤].

وانتقلت القاعدة الصارمة نفسها إلى كتب المسيحيين المقدسة، وهى حقيقة دفعت ببعض السلطات المسيحية الأولى لإعلان عدم أهلية سفر الرؤيا للانضمام إلى أناجيل العهد الجديد. يقول بولس «فَإِنِّى آتِى إِلَى مَنَاظِرِ الرَّبِّ وَإِعْلاَنَاتِهِ» ولكن هذه هبة لا توهب إلا إذا شاء الرب أن يهبها: «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِى مِرْآةٍ فِى لُغْزٍ»[٥]. ولمزيد من الإيضاح، يروى حكاية رجل كان عرفه اختُطف إلى «السماء الثالثة» حيث سمع «كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا» ـ هل يشير بولس على استحياء لرؤى وجدية رآها هو؟ ـ ولكنه يأبى أن يبوح بما سمع فى السماء؛ لأنه «لاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا»[٦].

وهكذا فإن مخاطر التنبؤ كانت دائمًا واضحة أمام حراس العقيدة القويمة بدءًا من العصور التوراتية القديمة وإلى يومنا هذا. وما داڤيد كورش و«طائفة الداوديين» وجيم جونز و«معبد العباد» وأسامة بن لادن والقاعدة وغيرهم من المتعصبين الدينيين الأقل شهرة، ولكنهم ليسوا أقل خطرًا، إلا نماذج معاصرة لما قد يحدث حين يقنع إنسان تساوره أوهام بالعظَمة أو نوازع اضطهاد أو أخيلة محمومة أو يحظى بجاذبية شخصية غامضة، بأنه مبعوث برسالة من الإله. وسنلتقى على صفحات هذا الكتاب بالعديد من أمثال هؤلاء ممن استثارهم ما قرءوا فى سفر الرؤيا. وآل مصير كثير منهم إلى مخلعة التعذيب أو مقصلة الإعدام.

وليس كل من عين نفسه نبيًا بالغيب ينتهى به الحال بالموت أو التجريس. فهناك قلة منهم على مر التاريخ حظوا بمكانة الأنبياء الصادقين. فموسى وبولس ومحمد تم قبولهم والاحتفاء بهم كأنبياء أسسوا ديانات الغرب الثلاث الكبرى، إلا أن القائمة تضم أيضًا مجددين دينيين أحدث زمنًا من أمثال چوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤م) مؤسس العقيدة المورمونية، وميرى بيكر إدى (١٨٢١ ـ ١٩١٠م) مؤسِّسة «العِلم المسيحى». ولا يزال رئيس «كنيسة قديسى اليوم الآخِر» يحمل لقب «نبى» و«نبىء» و«رسول» إلى يومنا هذا.

وفى مساحة ما بين هذين العالمين ـ الأنبياء الذين تعلمنا أن نأخذهم مأخذ الجد وأدعياء النبوة ممن ننزع إلى اعتبارهم مجانين خطرين ـ تقع منطقة من الخيال والتأمل الدينى ليست ملكًا لأحد، وفيها نجد تشكيلة منوعة من غرباء الأطوار والمجاذيب ممن يطلبون من معاصريهم أن يؤمنوا بأن خفايا الإله وأسراره تكشفت لهم. ومن هؤلاء مؤلف سفر الرؤيا، وسنرى أن رؤاه تضرب بجذورها فى أرض الأشباح هذه.

الحقيقة أنه لكى نفهم سفر الرؤيا، علينا أن نسبر غور الكتابات الأقدم زمنًا، بل الأغرب مضمونًا التى صاغت خيال كاتبها. فمن الواضح أنه عرف العديد من الكتابات الرؤيوية الأقدم فأعجبته فاستعار منها ما شاء. ومن الفقرات التى تثير الحيرة فى سفر الرؤيا ما يقفز إلى بؤرة التركيز بحدة عند النظر إليه من منظور التراث الرؤيوى. فذلك السفر من الكتاب المقدس والذى يعرف أحيانًا باسم «الرؤيا» ليس إلا واحدًا من رؤى عدة ـ كما سنرى.

«الرؤيا» إحدى المسميات العديدة التى تطلق على النص الدينى القديم الذى يتضمنه آخر أسفار العهد الجديد، لكن الكلمة نفسها يستعملها الباحثون أيضًا فى توصيف أى نص يصف فيه كاتبه المعارف الخفية التى تكشفت لبشر من قبل كيان غيبى من نوع ما. إذن فسفر الرؤيا ليس إلا «رؤيا» واحدة وليست الأولى أو الوحيدة؛ فتراكمت عبر القرون مكتبة كاملة من الرؤى، أنشئ بعضها قبل سفر الرؤيا بمدة طويلة وبعضها بعده بمدة طويلة. وهناك ـ على سبيل المثال ـ مصدر يهودى يرجع إلى القرن

الأول يبدو أن صاحبه كان يعرف ما يقرب من سبعين رؤيا كانت موجودة بالفعل فى تلك الفترة من التاريخ التى ظهر فيها سفر الرؤيا.

كل الرؤى التى بقيت من العصور القديمة تم استبعادها من الكتاب المقدس بصورته الحالية والمتداولة فى التراث اليهودى والمسيحى إلا اثنتين. والاستثناءان الوحيدان سفر دانيال فى الكتاب المقدس العبرى، وسفر الرؤيا فى العهد الجديد. بل إن الرؤى اليهودية غير التوراتية تجنبها كهنة اليهود من حراس النصوص اليهودية فى أواخر العصور القديمة. ومن الغريب أن الكتابات اليهودية الغريبة كـ «سفر الحراس» و «رؤيا الحيوان» لم تبق، إلا لأن الباحثين وعلماء اللاهوت المسيحيين القدامى صانوها وتدارسوها.

وضاع بعض من أغرب النصوص الرؤيوية من اليهود والنصارى على السواء إلى أن أعيد اكتشافها وتم استرجاعها فى القرن العشرين. وتم العثور على بعض الرؤى ضمن لفائف البحر الميت بموقع يسمى «خربة قُمران» بصحراء يهوذا[*] مثلاً، ودفائن النصوص الغنوصية بنجع حمادى على ضفتى نهر النيل بمصر. وتم إدراج العديد من أقدم النصوص الرؤيوية فى مجموعة نصوص قديمة يعرفها الباحثون باسم «الكتابات المشكوك فيها»، وهو مصطلح ينم عن أنها غالبًا ما تنسب لشخصيات توراتية يبدو واضحًا أنها لم تدونها.

وأى نص رؤيوى قد يكشف من حيث المبدأ كافة أنواع «الخفايا»، بما فى ذلك الأسرار والمعجزات التى لا صلة لها بنهاية العالم. ومؤلف أى نص من هذا النوع يبدأ عادةً بوصف زيارة يقوم بها الإله أو أحد الملائكة أو كائن سماوى آخر ما. وقد يقود الزائر العلوى المؤلف فى «جولة إرشادية» فى السماء، أو يهب المؤلف رؤيا عن أورشليم [القدس] بالصورة التى ستكون عليها فى المستقبل البعيد، أو يعرض على المؤلف «معجزة كونية» ما من قبيل «مستودع الريح» أو «حجر أساس الأرض»[٧]. وفى بعض الحالات يسمح الزائر النورانى للمؤلف بإلقاء ناظرة خاطفة على كون

(*) قريبة من البحر الميت بالأردن.

موازٍ محجوب فى العادة عن أعين البشر العاديين. وفى بعض الحالات يكشف الزائر عن الحكمة الكامنة لمشيئة الإله الخفية فى بنى آدم كمغزى الأحداث التى وقعت بالفعل والأحداث التى لم تقع بعد أى: «التاريخ الماضى» و«التاريخ المستقبلى» على السواء[٨].

إلا أن التركيز الأول فى معظم الكتابات الرؤيوية (إن لم يكن فيها جميعًا) هو «الآخرة» أو آخر الزمان، أى كيف سينتهى العالم ومتى. والفضول فيما يتصل بآخر الزمان من ثمار البدع اللاهوتية الكبرى لليهودية. فكانت الحضارات الوثنية القديمة ووفقا لحكمة ما متعارف عليها ترى العالم دائرة لا تنتهى من الميلاد والموت والميلاد من جديد: أى «العودة الأبدية للنقطة نفسها» حسب تعبير فريدريش نيتشه[٩].

إلا أن مؤلفى الكتاب المقدس العبرى كانوا يعتنقون الفكرة الثورية الجديدة التى تقول بأن إله إسرائيل يُنفِذ مشيئته من خلال التاريخ البشرى، والتاريخ كأية قصة متقنة له بداية ووسط ونهاية. يقول المؤرخ المعاصر رينى شوفلين: «أية رؤيا لا تكون منطقية إلا فى كون يحكمه إله للتاريخ»[١٠].

وهناك سمات مشتركة لآخر الزمان فى تصور التراث الرؤيوى اليهودى والمسيحى: محنة يعانيها البشر على يد الطاغية الشيطانى، ومجىء مخلِّص أو منقذ إلهى، ثم معركة فاصلة بين قوى الخير وقوى الشر، ثم بعث للموتى، ثم يوم حساب، وفى النهاية بدء حقبة جديدة من الكمال الإلهى هنا على الأرض فى بعض الحالات وفى مملكة سماوية فى حالات أخرى. وهذه الخطوط القصصية العريضة كلها متوفرة فى سفر الرؤيا بالطبع، ولكنها موجودة أيضًا فى نصوص أقدم كانت تُقرأ قبل المسيحية بفترة طويلة.

والحقيقة أن التراث الرؤيوى يرجع إلى ما قبل تدوين سفر الرؤيا بقرون عدة، ولم تكن الفكرة كما ثبت تقتصر على العالم اليهودى المسيحى، فعلى خلاف تصور نيتشه يمكن العثور على تأملات فى مصير العالم فى المستقبل البعيد فى الكتابات الوثنية ببلاد الرافدين ومصر واليونان وروما. فكانت «كهانات العرافين» مثلا: أقوال غامضة لنسوة كان يعتقد أن لديهن قدرة إلهية على التنبؤ بالغيب يُرجع إليها بصورة روتينية فى العالم

الوثنى القديم للتنبؤ بمصير البشر والإمبراطوريات على السواء. وكانت هذه العادة محيرة بالنسبة لأغسطس أول أباطرة الرومان، حتى أنه أمر بمصادرة ألفى نسخة من «كهانات العرافين» وحرقها، وهو مثال على مدى الخطورة التى يمكن أن تترتب على تتبع «تاريخ المستقبل»(١١).

يرى بعض الباحثين أن التراث الرؤيوى يمكن ربطه بمصادر أقدم وأغرب. فالعديد من تكهنات آخر الزمان التى ترد فى الكتاب المقدس ـ «علامات الساعة ومحنها وصراع الإله ومسيحه ضد الشر، وشخصية الشيطان وزبانيته»(١٢)ـ يمكن تتبعها والرجوع بها إلى الكتابات الزردشتية ببلاد فارس، وقد يكون أقدمها أقدم من أى من النصوص اليهودية أو المسيحية بعدة مئات من السنين. لذا فإن منشأ الفكر الرؤيوى وغيره كثير مما نجد فيما يعرف بالتراث اليهودى المسيحى قد يكون فارس القديمة لا «الأرض المقدسة».

إذن فالمؤلفون الرؤيويون الأوائل ربما كانوا على علم بـ«الرؤى الأولية» التى نشأت خارج أرض إسرائيل، وكانت بمثابة «نماذج ومصادر» للتراث الرؤيوى الذى يعد سفر الرؤيا أكمل تعبير عنه(١٣). ومن غير المجدى أن نفكر فى كيفية تسلل الرؤى الغريبة والمخيفة لكهنة المصريين وموابدة الفرس ومتنبئى اليونان إلى قلب الكتابات المقدسة اليهودية والمسيحية وروحها. فالنماذج والمصادر التى أوحت بسفر الرؤيا أقرب كثيرًا، إذ يمكن العثور عليها فى الكتابات التوراتية لليهودية القديمة التى كان مؤلف سفر الرؤيا يعرفها ويحبها وينسخها.

إن بعضًا من أكثر شخصيات سفر الرؤيا ومشاهده ألفة يمكن ردها إلى فقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى، كالشيطان وجيوش جوج وماجوج الشيطانية ويوم الحساب ونهاية العالم وغير ذلك كثير. إلا أننا حين نطالع ما هو مدون صراحة فى النصوص المصدرية، يتبين لنا أن مؤلف سفر الرؤيا لم يشعر بأنه مضطر للبقاء على ولائه لما كان يعتبره نصًّا مقدسًا. بل كان يشعر بأنه حر فى المبالغة بل فى إعادة صوغ ما وجد على صفحات الكتاب المقدس، واستعار أفكارًا وصورًا من مصادر أغرب كثيرًا، أو لعله أقدم على الأمرين معًا، وهو الأرجح.

فإبليس ـ على سبيل المثال ـ لم يحظ فى الكتاب المقدس العبرى إلا بدور ثانوى، ولا يصور قط فى صورة الشيطان الأكبر كما تصوره مؤلف سفر الرؤيا. فحين يرد له ذكر فهو لا يزيد عن «متهم» أو «غريم» ـ المعنى الحرفى للفظ العبرى ـ لا المعادل الشيطانى للرب. بل إن اللفظ حين يرد لأول مرة فى الكتاب المقدس العبرى فإنه يطلق على داود الملك على لسان ملك فلسطينى تمييزًا له كعدو فى ساحة القتال[(١٤)(*)]. وحتى حين يستعمل اللفظ للتعريف بشخصية سماوية، فإن الشيطان «ليس اسم علم، بل مجرد لقب يدل على الوظيفة فى بلاط الرب السماوى» بتعبير هـ. هـ. رولى وهو أحد كبار العلماء واللاهوتيين المعمدانيين بأوائل القرن العشرين «فكان بمثابة المدعى العام على منصة العدل الإلهى»[(١٥)].

وأبرز ذكر للشيطان فى الكتاب المقدس العبرى يرد بسفر أيوب، حيث يؤدى دور مستشار إلهى يلمِّح بخبث إلى احتمال أن يكون أيوب أقل تقى مما يتصور الرب. وما أن يفلح الشيطان فى استثارة فضول الرب يمكنه الرب، من امتحان قوة إيمان أيوب بإصابته ببلايا عدة بدءًا بتلك البثور الشهيرة وانتهاءً بموت زوجته وأطفاله المحبوبين. فيقول الرب للشيطان: «هَا هُوَ فِي يَدِكَ وَلَكِنِ احْفَظْ نَفْسَهُ»[(١٦)]. إذن فالسلطة الوحيدة التى يتمتع بها الشيطان فى الكتاب المقدس العبرى هى تلك التى يمنحها إياه الرب لامتحان قوة إيمان أيوب، والمسألة برمتها ضرب من الاختبار العملى لحدود قدرة البشر على تحمل العذاب.

كما يرد ذكر جوج وماجوج فى سفر الرؤيا كأمتين تضعان جيوشهما تحت إمرة الشيطان فى المعركة الفاصلة فى آخر الزمان. ولكن حين يرد ذكرهما لأول مرة على لسان النبى حزقيال فى الكتاب المقدس العبرى، نجد أن جوج ملك وماجوج بلد يتولى حكمها، ولا ذكر للشيطان. والمؤكد أن حزقيال يتنبأ بنشوب معركة بين إسرائيل

(*) النص كما جاء فى نسخة الملك چيمس بالإنجليزية كالتالى:

But the princes of the Philistines, and do not let him were angry with him; so the princes of the Philistines said to him, "Make this fellow return, that he may go back to the place which you have appointed for him and do not let him go down with us to battle, lest in the battle he become our adversary. For with what could he reconcile himself to his master, if not with the heads of these men?".

و «جوج أرض ماجوج»، ولكنها ليست صداماً عنيفاً بأسلحة تدفع بالعالم إلى نهايته[١٧]. بل يدعو الرب الملك جوج لغزو أرض إسرائيل حتى يتسنى لرب إسرائيل أن «يَتَعَظَّمُ ويَتَقَدَّسُ» بالمن على بنى إسرائيل بنصر عظيم[١٨]. وحين يتم القضاء على جيش جوج ويتم إخلاء الجثث من ساحة المعركة، يعود بنو إسرائيل من جديد ليسكنوا «فِى أَرْضِهِمْ مُطْمَئِنِّينَ وَلاَ مُخِيفٌ»[١٩]. وكما حدث مع أيوب، يتضح أن القصة الدامية برمتها من تخطيط الرب نفسه لحكمة فى نفسه: «يَعْلَمُونَ أَنِّى أَنَا الرَّبُّ إِلَهُهُمْ بِإِجْلاَئِى إِيَّاهُمْ إِلَى الأُمَمِ، ثُمَّ جَمْعِهِمْ إِلَى أَرْضِهِمْ»[٢٠].

وحتى حين يبدو أحد أنبياء العبرانيين وكأنه يتنبأ بنهاية العالم مستعيناً بالألفاظ والعبارات المألوفة لقراء سفر الرؤيا، فهو فى الحقيقة يصف شيئاً مختلفاً تماماً عما نجد فى النص المسيحى. يقول الرب فى سفر عاموس: «قَدْ أَتَتِ النِّهَايَةُ» و «أَنِّى أُغَيِّبُ الشَّمْسَ فِى الظُّهْرِ وَأُقْتِمُ الأَرْضَ فِى يَوْمِ نُورٍ»[٢١]. إلا أن النبى عاموس، وعلى خلاف مؤلف سفر الرؤيا لا يتنبأ بأن الرب سيدمر الأرض ويستبدل بها فردوساً سماوياً فى السحب. بل سينقذ الرب بنى إسرائيل حسب قول عاموس؛ لأنهم ظلوا أوفياء للشريعة الإلهية ولن يهبهم شيئاً أسمى من حياة طيبة على الأرض.

«فَيَبْنُونَ مُدُنًا خَرِبَةً وَيَسْكُنُونَ وَيَغْرِسُونَ كُرُومًا.
وَيَشْرَبُونَ خَمْرَهَا وَيَصْنَعُونَ جَنَّاتٍ وَيَأْكُلُونَ أَثْمَارَهَا.
وَأَغْرِسُهُمْ فِى أَرْضِهِمْ.
وَلَنْ يُقْلَعُوا بَعْدُ مِنْ أَرْضِهِمِ الَّتِى أَعْطَيْتُهُمْ»[٢٢].

ومن الثابت أن بعض أنبياء العبرانيين كانوا قادرين على رؤية رؤى غريبة من النوع الذى يصادفنا فى سفر الرؤيا وغيره من الكتابات الرؤيوية. فكما يفعل مؤلف سفر الرؤيا، يدعى حزقيال أنه رأى وحوشاً شائهة وظواهر خارقة لا وجود لها فى عالم الطبيعة. ومن بين العلامات التى يرى حزقيال، مثلاً، أربعة مخلوقات لها أجسام بشر وحافر عجل واحد وأربعة أجنحة ويد بشرية تحت الريش ورأس بأربعة وجوه: وجه فى المقدمة ووجه نسر فى الخلف ووجها أسد وثور على الجنبين[٢٣]. ويصف كيف

تتحـرك هـذه المخلوقـات علـى «بَكَـرات» مـن نـار، وهـو اخـتراع أقنـع بعـض قـراء حزقيـال اللاحقـين بـأن مـا رأى لم يكـن سـوى أطبـاق طـائرة. يقـول حزقيـال: «فَإِذَا سَـارَتِ الْحَيَوَانَـاتُ سَـارَتِ الْبَكَـرَاتُ بِجَانِبِهَـا، وَإِذَا ارْتَفَعَـتِ الْحَيَوَانَـاتُ عَـنِ الأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبَكَرَاتُ»[٢٤].

هناك إذن نوع من الارتباط الـجـينى بـين أنبيـاء الكتـاب المقـدس العـبرى التقليـديين ومؤلفى الكتابات الرؤيوية. ذلك أن «الرؤيوى ابـن النبـوة» كمـا يقـول رولى[٢٥]. إلا أن الأنبياء التـوراتيين يختلفـون فـى جوانـب مهمـة عمـن نجـد فـى الكتابـات الرؤيويـة. فعلـى خلاف كتّاب التراث الرؤيوى ممن تعجبهم «الجولات الإرشادية» فـى السـموات السـبع يظل الأنبياء التوراتيون هنا على الأرض. يقول المؤرخ برنارد مكجين وهو مـن أبـرز مـن درسـوا التصـوف المسـيحى والرؤيويـة فـى العصـور الوسـطى: «لـيس مـن بـين أنبيـاء العبرانيين ولا حتى أشعياء وحزقيال مـن صـعد إلى السـماء. بـل كـان الـرب يتعطـف بـأن يهـبط بنفسـه إلى الأرض»[٢٦]. وحـين يسـتطلع أنبيـاء اليهـود المسـتقبل ليحـددوا مصـير البشرية فهم لا يتصورون فردوسًا سماويًّا بل آخر أرضيًّا.

والمفهوم اليهودى عن وجود مملكة أرضية يحكمها ملِك مرسل مـن عنـد الـرب كمـا سنرى، يظهر فى سفر الرؤيا ضمن رؤيا حكم يسوع المسيح الـذى يـدوم ألـف سـنة فـى أعقاب معركـة أرمجـدون. بـل إن هـذا يقـوم دلـيلاً علـى الأصـول اليهوديـة لمؤلفـه وقرائـه الأوائل، كما كان هذا من أسباب صعوبة تقبل سفر الرؤيا حين كان المسيحيون الأوائل بصدد تحديد أى الكتابات يدخل ضمن الكتاب المقدس. لكن هذا ليس أكبر اختلاف أو الاخـتلاف الوحيـد بـين أنبيـاء الكتـاب المقـدس التقليـديين والمؤلفين الرؤيـويين. وكـان التجديد اللاهـوتى الوحيـد فـى الـتراث الرؤيـوى ردًّا جديـدًا وثوريـًّا علـى سـؤال قـديم وخالد: لمَ لا تصيب البلايا إلا الطيبين؟

يعتبر مؤلف سفر الرؤيا «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ» مصدر الشر فـى العـالم[٢٧]. أمـا أنبيـاء العـبرانيين، فـلا يبـدو كمـا رأينـا أنهـم كـانوا يعرفـون الكـثير عـن الشيطان أو يهتمون به، وكانوا يعتنقون فكرة بسيطة وإن كانـت مؤلمة، فحواهـا أن كـل

شىء خيرًا كان أو شرًّا يبدأ بالرب وينتهى به. فإذا غزت جيوش جوج أرض إسرائيل مثلا ، فهذا لأن الرب ساقهم ليقوموا بذلك ، وإذا هزم بنو إسرائيل الغزاة فهذا لأن الرب وهبهم النصر فى المعركة. وإذا خسر «الشعب المختار» حظوة الرب فلا يلومون إلا أنفسهم.

والمعادلة الأخلاقية مدونة بوضوح فى الكتاب المقدس. فيرد فى التوراة أن الرب وهب بنى إسرائيل «عهدًا» ، أى عقدًا بسيطًا. فإن أطاع بنو إسرائيل الشريعة التى أوحى الربَّ بها لموسى فوق طور سيناء فإن الرب سينزل عليهم نعمه. وإن عصوا تلك الشريعة فإن الرب سينزل عليهم لعناته. وهكذا فالرب فى لب لاهوت الكتاب المقدس هو كاتب التاريخ الأوحد والحكَم الأوحد فيما يجرى على الإنسان. وبالتالى فإذا استفز الربَّ عناد «الشعب المختار» ومعصيته فأنزل بهم الجوع أو الوباء أو الغزو أو السبى فمعنى ذلك أنهم ينالون ما اتفقوا عليه وما يستحقون.

ومن أبشع فقرات الكتاب المقدس تلك التى يقدم موسى فيها قائمة باللعنات التى سينزلها الرب ببنى إسرائيل «إنْ لمْ تَحْرِصْ لِتَعْمَلَ بِجَمِيعِ كَلِمَاتِ هَذَا النَّامُوسِ المَكْتُوبَةِ فِى هَذَا السِّفْرِ لِتَهَابَ هَذَا الاِسْمَ الجَلِيلِ المَرْهُوبَ الرَّبَّ إلهَكَ». ويحذر موسى فى سفر التثنية من بشاعة موكب الفظائع لدرجة أن «تَكُونُ مَجْنُونًا مِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الذِى تَنْظُرُ»[٢٨].

سينزل الرب «بالشعب المختار» ، «ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً رَاسِخَةً وَأَمْرَاضًا رَدِيئَةً ثَابِتَةً» بدءًا من «البَوَاسِيرِ وَالجَرَبِ وَالحِكَّةِ» وصعودًا إلى «جُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلبٍ» وانتهاءً باللعنة الرمزية للشعب اليهودى ـ الغزو والشتات والسبى والاستعباد. فينذر موسى قائلاً : «أُمَّةً لا تَفْهَمُ لِسَانَهَا ، أُمَّةً جَافِيَةَ الوَجْهِ لا تَهَابُ الشَّيْخَ وَلا تَحِنُّ إلى الوَلَدِ»[٢٩].

من الغريب أن البرىء سيعانى قدر معاناة الآثم ـ فالرجال والنساء والأطفال والرضع سواء ـ وكل هذا لأن الرب شاء ذلك. يقول موسى محذرًا : «تَخْطُبُ امْرَأَةً وَرَجُلٌ آخَرُ يَضْطَجِعُ مَعَهَا ... يُسَلمُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ لِشَعْبٍ آخَرَ وَعَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ إلَيْهِمْ طُولَ النَّهَارِ فَتَكِلانِ وَلَيْسَ فِى يَدِكَ طَائِلَة»[٣٠]. وفى حصار الجيوش الغازية لهم فى مدنهم

سيتدنى بنو إسرائيل إلى درك أكل لحم البشر. ولعل أبشع مشهد فى الكتاب المقدس كله ذلك المشهد الذى تخفى فيه أم شابة «متنعمة ومترفة» بمشيمة وليدها الذى لم يولد وبالوليد نفسه وبأولادها الآخرين كما يقول موسى «لأَنَّهَا تَأْكُلُهُمْ سِرًّا فِى عَوَزِ كُلِّ شَىْءٍ فِى الحِصَارِ وَالضِّيقَةِ التِى يُضَايِقُكَ بِهَا عَدُوُّكَ فِى أَبْوَابِكَ»(٣١).

وهكذا فأنبياء العبرانيين لا يجدون العيب إلا فى بنى إسرائيل أنفسهم. ولا يذكرون الشيطان أبدًا، ولا يلقون باللائمة على ما آل إليه بنو إسرائيل من مصير تعس على الملوك الوثنيين الذين ورد فى الكتاب المقدس أنهم غزوا أرض إسرائيل. بل إن الطغاة الأجانب، وفقًا لمنطق الأنبياء التوراتيين كما رأينا يسوقهم الرب، فيعانى بنو إسرائيل المصير الذى توعدهم الرب به فى التثنية. ويبين النبى إرمياء هذه المسألة ضمن تعليله الغزو البابلى فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد قائلاً: «وَيَكُونُ حِينَ تَقُولُونَ: لِمَاذَا صَنَعَ الرَّبُّ إِلَهُنَا بِنَا كُلَّ هَذِهِ؟ تَقُولُ لَهُمْ: كَمَا أَنَّكُمْ تَرَكْتُمُونِى وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً غَرِيبَةً فِى أَرْضِكُمْ هَكَذَا تَعْبُدُونَ الْغُرَبَاءَ فِى أَرْضٍ لَيْسَتْ لَكُمْ» (٣٢).

والرب أيضًا هو الذى يحدد توقيت رفع اللعنات التى أنزل بشعبه حسب قول الأنبياء التوراتيين. فحين هُزم البابليون فيما بعد على يد إمبراطورية الفرس المنافسة لهم، تم السماح لليهود المسبيين بالعودة إلى ديارهم بيهوذا وبإعادة بناء الهيكل بأورشليم [القدس]. لذا فإن كورش إمبراطور فارس يلقى الثناء فى الكتاب المقدس باعتباره مخلِّص الشعب اليهودى، ولذا يُرجع الفضل كله للرب؛ لأنه هو الذى ساقه لخلاصهم. يقول النبى أشعياء فى فقرة تثير المشاعر: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ لِكُورَشَ الَّذِى أَمْسَكْتُ بِيَمِينِهِ... لأَجْلِ عَبْدِى يَعْقُوبَ وَإِسْرَائِيلَ مُخْتَارِى دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. لَقَّبْتُكَ وَأَنْتَ لَسْتَ تَعْرِفُنِى» (٣٣)(*).

(*) النص كما جاء فى نسخة الملك چيمس بالإنجليزية كالتالى:

1- Thus says the Lord to His anointed, to Cyrus, whose right hand I have held – to subdue nations before him and loose the armor of kings, to open before him the double dorrs, so that the gates will not be shut:

4- For Jacob My servant's sake, and Israel My elect, I have even called you by your name; I have named you, though you have not known Me.

وعبارة «مسيح» هى بالطبع ترجمة حرفية للكلمة العبرية الأصلية بمعنى «ممسوح». وهكذا فإن المؤلف التوراتى يبين أنه حتى الوثنى يمكن أن يكون مسيحًا إذا شاء رب إسرائيل. واسم «كورش» ذلك المسيح الوثنى الفارسى القديم سيصادفنا مرة أخرى فى تاريخ سفر الرؤيا الطويل وشديد الغرابة. ومسألة ظهور اسم «كورش» فى الكتاب المقدس أولاً ثم تصدره العناوين حتى أواخر القرن الماضى [أواخر القرن العشرين] يدل على استمرار الفكر المسيحانى على قوته.

إلا أن فكرة أن الرب وحده مصدر الخير والشر على السواء بدأت تفقد جاذبيتها فى لحظة كانت النصوص التوراتية فيها لا تزال فى مرحلة التدوين ولم يكن الكتاب المقدس بصورته التى نعرف موجودًا بعد. وفى هذه المرحلة خرج أقدم الكتّاب الرؤيويين فى التراث اليهودى بإحدى أبشع بدعهم، وهى أن الشيطان لا الرب هو الملوم على ما يحدث من شرور. فكان بعض الأتقياء والمتعالين من اليهود يرفضون أن يؤمنوا بأن الرب يمكن أن يبتليهم لمجرد أن بعضًا من قومهم كانوا أضعف إيمانًا، وطفقوا يبحثون عمن يلقون عليه باللائمة، فكان ذلك الشرير الغيبى عدو الرب وخصمه.

كانت مسألة اضطرار الإله لمنازلة إله مضاد ستصدم أنبياء الكتاب المقدس العبرى التقليديين باعتبارها فكرة دخيلة ومحيرة، بل تعد من قبيل الهرطقة. إلا أن الفكرة تملكت قلوب وعقول اليهود الذين عانوا الغزو والسبى والاحتلال والقهر والاغتراب والمذلة على أيدى ملوك وجيوش وثنيين، كان يبدو أن إله بنى إسرائيل غير راغب فى هزمهم أو غير قادر. فشرعت قلة من المجددين الجرآء فى إحداث ثورة لاهوتية بترقية الشيطان التوراتى من منزلة المستشار الإلهى والمدعى العام إلى منزلة أرفع يقوم فيها بدور كبير المتآمرين والمخطط للحرب على الإله نفسه. وهنا يبدأ التراث الرؤيوى الذى قدر له أن يبرز إلى حد بعيد فى اللاهوت المسيحى ولا سيما فى سفر الرؤيا.

كانت نهاية السبى البابلى فى سنة ٥٣٨ ق.م طبقًا لتراث قديم فى اليهودية الربانية نهاية للنبوة أيضًا. فسلم الأحبار بأن الرب كان مستعدًا لأن يكلم قلة مستثناة من البشر كانوا يعيشون فى الماضى البعيد فى الأحلام والرؤى، ولكنهم وجدوا صعوبة فى أن

يؤمنوا بأن بشرًا من معاصريهم وُهبوا تلك الهبة الإلهية. وبينما كان قدامى الأحبار مستعدين لتصور قدوم مخلِّص يأتى بحقبة من السلم والأمن للشعب اليهودى، فإنهم لم يكونوا يصدقون من يدعون أنهم اختُصوا بنبوءات ورؤى عن نهاية العالم. لذا فإن معظم الكتابات الرؤيوية فى أواخر العصر التوراتى تم استبعادها من الكتاب المقدس العبرى نفسه، بل إنها دونت كلها خارج التراث اليهودى. يقول التلمود: «يوم أن تداعى الهيكل أخذت النبوءة من الأنبياء وأعطيت للحمقى والأطفال»[٣٤].

إلا أن تجربة الغزو اليهودية لم تنته. فبعد بضعة قرون من السلم والأمن النسبيين اللذين يمكن أن ينعم بهما إقليم خلفى من الإمبراطورية الفارسية، قام يهوذا بغزوه مرة أخرى بمساعدة جيوش من بلاد بعيدة لم يكن الشعب اليهودى يتكلم لغتها. وكان قائد الجيوش يُدعى «الإسكندر»، وكان من إنجازاته الشهيرة انتشار الحضارة الوثنية التقليدية التى نعرفها باسم الهيلينية. وكان دخول فن الإغريق وحروفهم وأساليبهم وفلسفتهم وديانتهم، لا يقل خطرًا بالنسبة للأصوليين اليهود فى مدينة يهوذا القديمة عن دخول أى جيش وثنى.

يلاحظ أن الرؤى الأولى كانت تدون كرد فعل مباشر لما كانت الهيلينية تمثله من خطر، وهو خطر كان أحيانًا يتخذ صورة احتلال وقهر من قبل جيش أجنبى، ولكن فى الغالب فى شكل إغراء تمثله ثقافة أجنبية تتسم بالثراء والدنيوية والذوق والسعى للمتعة. من ثم ومن الغريب أن الإسكندر الأكبر أيضًا يمكن اعتباره أحد آباء التراث الرؤيوى الذى قُدر له أن يفرز بعد قرون عدة سفر الرؤيا. توفى الإسكندر فى سنة ٣٢٣ ق. م وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ويتحرق شوقًا لعوالم جديدة يغزوها، ولكنه خلف وراءه إمبراطورية تضم أرض اليهود. وفى يهوذا كما فى غيرها من بقاع العالم القديم، كانت الطبقة العليا المحلية تتوق لاعتناق الأساليب الجديدة المغرية لآخر سادتهم. وما لبثت الأرستقراطية وأهل الفكر من اليهود حتى شرعوا فى التحدث والكتابة باليونانية. وكانت أقدم ترجمة للكتاب المقدس إلى لغة بخلاف العبرية هى النسخة اليونانية التى تعرف بـ«السبعينية». أما محاكاة اليهود سبل اليونان، فتجاوزت حدود التدارس الدينى للنص المقدس فى الترجمة.

يقول سايمن دابناو باحث القرن العشرين الذى أحدث ثورة فى دراسة تاريخ اليهود قبل موته فى المحرقة: «كانوا يترددون على المسارح والتجمعات الرياضية ويقيمون مسابقات معاقرة الخمر واتخذوا سبيل اليونان فى حياة المرح بصورة عامة»[٣٥]. وبدءوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الرياضية، وهى نوع من التعليم أخذوه عن اليونان. وأصبحوا ينادمون الراقصات والمغنيات و«صور الفساد الجذاب التى تعلمها أهل يهوذا من اليونان» حسب قول هنريش جرايتس، وهو أحد رواد المؤرخين اليهود فى القرن التاسع عشر[٣٦]. بل إنهم شاركوا فى المنافسات الرياضية، التى كانت زينة حضارة الإغريق. وبما أن الرياضيين اليونان كانوا يتبارون وهم عراة، فإن بعض المتشبهين بهم من اليهود كانوا يحاولون إخفاء ختانهم بصورة بدائية من جراحات التجميل «فخضعوا لعمليات مؤلمة حتى يزيلوا علامة العهد، وبالتالى ليتجنبوا سخرية اليونان وقت إقامة الألعاب الأولمبية»[٣٧].

كان إغراء الهيلينية قويًّا إلى حد التأثير حتى على الكهنة الذين كانوا يخدمون بهيكل يهوه بأورشليم [القدس]. ففى مرحلة ما، كان المتنافسان على منصب كبير الكهنة يهوديين يدعيان «چيسن» و«مينيلاوس»، وهما اسمان لا وجود لهما فى التوراة بالطبع ولكنهما يبرزان فى صنوها الوثنى، أى الأساطير المقدسة لليونان وروما القديمتين. وعندما رقى چيسن إلى منصب كبير الكهنة وجد من المناسب أن ينشئ معهدًا للمصارعة لتدريب الشباب على فن المصارعة وغيرها من رياضات اليونان فى قلب أورشليم [القدس]. ومما أفزع أتقياء اليهود وأثار غضبهم أنه حتى الكهان المكلفين بمهمة مقدسة هى إدارة القرابين اليومية ليهوه «أهملوا مهامهم لينضموا للمباريات»[٣٨].

كل هذه الممارسات كانت تثير حفيظة الأصوليين المتشددين من اليهود، وهم طائفة أصبحت تعرف باسم «حسيديم» (الأتقياء). كانوا يمقتون انغماس الهيلينية فى متع الدنيا، كعرض الجسد الإنسانى عاريًا ومظاهر اللهو التافه كالمسرح ومدرجات الألعاب الرياضية. وكانوا يتهمون أبناء دينهم من اليهود ممن اعتنقوا أسلوب حياة اليونان بمخالفة الشريعة ويرمونهم بنبذ العهد[٣٩]. ويعرف الصراع المرير بين المتشبهين والأصوليين فى يهوذا القديمة بـ«صراع الحضارات» بين اليهودية والهيلينية[٤٠].

و «صراع الحضارات» بالطبع مصطلح شاع تداوله فى أيامنا هذه فى إشارة إلى أى صراع بين نسقين قيميين أو نمطى حياة متحاربين[٤١]. فكما تواجه حركتا «معارضى الإجهاض» و«مؤيدى حرية الاختيار»(*) كل منهما الأخرى على حدود صراع الحضارات فى العالم الحديث، كان اليهود المتدينون فى القدم ممن كانوا يصرون على الختان باعتباره من الشعائر المقدسة يواجهون اليهود المندمجين ممن اختاروا تجاهل العادات القديمة. وهكذا فإن مصطلح «صراع الحضارات» أو «حرب الحضارات» مفيد فى وصف ما كان معرضًا للخطر فعلا فى التراث الرؤيوى ولا سيما سفر الرؤيا.

إلا أن التوترات التى شهدها عالم اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد لم تكن مجرد نتيجة صدام بين أنصار الاندماج والأصوليين. فالملك الوثنى الذى حكم يهوذا، وكما وصفه كتّاب الأيام الأقدمين وحشًا أشعلت تجاوزاته حرب تحرير قومية بقيادة رجل يدعى يهوذا المكابى (يهوذا المطرقة). وهنا ولأول مرة فى التاريخ المسجل، يمكن لنا أن نتعرف على قدرة الفكر الرؤيوى على تحريك العامة ودفعهم لأن يهبوا حياتهم كجنود أحيانًا وكشهداء فى أحيان أخرى باسم الرب.

ولدى وفاة الإسكندر الأكبر، قسمت إمبراطوريته بين قواده. وكانت أرض يهوذا على صغرها إقليمًا مهمًّا من الناحية الإستراتيجية يمثل جسرًا بريًّا بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، ودخلت تحت سيطرة الأسرة السورية التى أسسها أحد قواد الإسكندر يدعى سليوكوس. وبدءًا من سنة ١٧٥ ق. م، كان الملك الحاكم للأسرة السلوقية رجلاً بشعًا ومكروهًا يدعى أنتيوخوس الرابع. وقدر له، كما سنرى بعد قليل، أن يلعب دورًا ذا خطر فى سفر دانيال وهو السفر الرؤيوى الوحيد فى الكتاب المقدس العبرى، وهو نص يمثل أحد «نماذج» سفر الرؤيا ومصادره.

كان من أمجاد الهيلينية تفتحها تجاه المعتقدات والممارسات الدينية، وهى قيمة ميزت عالم الوثنية الكلاسيكية. إلا أن أنتيوخوس الرابع كان نشازًا بين ملوك العالم اليونانى

(*) المقصود بحرية الاختيار حرية الإجهاض.

الرومانى، فكان حاكمًا يتصف بالاستبداد والتعسف والتهور، سعى لقمع الأصوليين اليهود المتشددين فى يهوذا بالقوة. واتخذ لنفسه لقب «أنتيوخوس تجلى الرب»، إلا أن تجاوزاته ضد الشعب اليهودى خروجًا على ما تميزت به الهيلينية من تسامح تجاه ديانات من غزت، حد أن أطلق عليه «أنتيوخوس المجنون».

انزعج أنتيوخوس لانعدام الاستقرار فى يهوذا لأسباب جغرافية ــ سياسية فى الغالب. فحرب الحضارات بين طوائف اليهود شارفت على حالة حرب أهلية، وكان الأصوليون اليهود يسعون للتحالف مع أحد الملوك الوثنيين المنافسين له وهو فرعون مصر، وهو سليل قائد عسكرى آخر عمل فى خدمة الإسكندر. وعندما زحف أنتيوخوس على يهوذا فى طريقه لمصر فى سنة ١٦٨ ق. م، كان هدفه الإستراتيچى تأمين جناحه الجنوبى فى يهوذا قبل شن حرب على الفرعون الدخيل. ولكنه قرر إعادة إقرار القانون والنظام فى يهوذا باقتلاع ممارسة الشعائر اليهودية من خلال سلسلة من الفرامين المهينة.

تم فى عهد أنتيوخوس تجريم الطقوس الأساسية لليهودية، كالختان ومراعاة السبت وقواعد «كشروت» الغذائية، وتم حظر عبادة إله إسرائيل، وأقيمت صورة لزيوس كبير آلهة المعبد الإغريقى بالحرم الداخلى لهيكل يهوه بأورشليم [القدس]. ويروى أنه كان يتم تقديم خنزير قربانًا على مذبح يهوه، وكان كبير الكهنة يؤمر بأكل لحمه، وكان سقطه يلقى على لفائف التوراة. وكل من يأبى تسليم التوراة لكى تحرق علنًا فى أرض يهوذا، كان يتعرض للاعتقال والتعذيب والإعدام على يد فرق الإعدام الخاصة بالملك السورى. يقول يوسفوس المؤرخ اليهودى الذى انتهى أمره بأن وضع نفسه فى خدمة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى: «كانوا يُضربون بالهراوات، وكانت أجسادهم تتمزق أشلاء، وكانوا يصلبون وهم أحياء يتنفسون»[٤٢].

أشعلت هذه الفظائع ثورة المكابيين على الاحتلال والقهر السورى بقيادة يهوذا المكابى الشهير. وتحت قيادة يهوذا، قاتلت المقاومة اليهودية على جبهتين: حرب تحرير قومى ضد الجيش السورى، وصراع ضد اليهود المندمجين ممن اعتبروا زنادقة ومتعاونين.

وكان من مآثر المكابيين ــ على سبيل المثال ــ الختان الإجبارى للذكور اليهود صغارًا وكبارًا على السواء ممن أهملوا هذه الشعيرة القديمة التى ترمز للعهد مع رب إسرائيل. وفى النهاية ، هُزمت جيوش أنتيوخوس فى سنة ١٦٤ ق. م ، وأقام المكابيون أول دولة يهودية مستقلة منذ أن أرسل آخر ملوك اليهود مسبيًّا إلى بابل.

إلى جانب أعمال الشهادة وحمل السلاح ، قام الشعب اليهودى فى القرن الثانى قبل الميلاد بنوع آخر من مقاومة جيش الاحتلال الأجنبى والمتعاونين معهم من المحليين. وبدأ بعض الكُتّاب الرؤيويين فى سرد حكايات بقصد شد أزر «الأتقياء» ممن أبوا التفريط فى عقيدتهم. وغلفوا الحكايات بحجب من الغموض واستحضروا رؤى غريبة بعضها مخيف وبعضها مثير للخيال. وتبَّلوا قصصهم بحنين ووعد مؤكد بيوم ثأر دامٍ من أعدائهم.

كانت النصوص التى أنشئت فى عهد ثورة المكابيين «وليدة إحساس بأن العالم مفكك» حسب تعبير المؤرخ چون كولنز ، وهو أحد كبار الباحثين فى الدراسات الرؤيوية الحديثة ، وكانت «تدون بغرض شد الأزر والمواساة»(٤٣). بل إن حكايات الثأر فى آخر الزمان يمكن اعتبارها أداة للدعاية فى حرب قتالية وحرب حضارات على السواء. وكانت ـ كما سنرى ـ أقدم عوامل التراث الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية التى قدر لها أن تتمخض يومًا عن سفر الرؤيا.

من نواتج التراث الرؤيوى الأول سفر دانيال. والنصوص التى جمعت وحُفظت فى هذا السفر أنشئت فى بابل فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، أى قبل ثورة المكابيين بحوالى أربعة قرون. والملك الذى ورد وصفه فى سفر دانيال نبوخذنصَّر ، الإمبراطور البابلى الذى غزا يهوذا ودمر هيكل أورشليم [القدس] وسبى حكام اليهود وكهانهم والطبقة العليا منهم. إلا أن الباحثين يجمعون على أن الحكايات التى وردت فى السفر أنشئت وجمعت فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وكان القراء الأوائل لسفر دانيال يعتبرون نبوخذنصر بديلا لأنتيوخوس المجنون.

يقول راولى : «وأية وسيلة أفضل من ذلك كان يمكن لكاتبه أن يختار إن أراد أن

يشد من أزر المؤمنين فى وقت الشدة والاضطهاد؟»[٤٤]. «فكانت بمثابة تسلية، وكانت فى الوقت نفسه تتضمن رسالة، وبذلك يسهل تذكرها وتناقلها شفاهةً»[٤٥].

هناك سمة خرافية ما تغلب على سفر دانيال. فيروى أن من بين المسبيين ببلاط نبوخذنصر كان فتية يهود من نسل الـمُلك «حِسَانَ الْمَنْظَرِ حَاذِقِينَ فِى كُلِّ حِكْمَةٍ» وكان دانيال أحسنهم منظرًا وأحذقهم[٤٦]. وعندما يهدد الملك الوثنى بقتل دانيال ما لم يبح بمغزى حلم غامض حير المنجمين والسحرة والعرافين الملكيين، يبتهل دانيال لرب إسرائيل أن ينزل عليه وحيًا. ويستجيب الرب لدعاء دانيال ويكشف معنى الحلم.

يقول دانيال شاكرًا: «لِيَكُنِ اسْمُ اللَّهِ مُبَارَكًا مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ لأَنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ وَالْجَبَرُوتَ ... هُوَ يَكْشِفُ الْعَمَائِقَ وَالأَسْرَارَ. يَعْلَمُ مَا هُوَ فِى الظُّلْمَةِ»[٤٧].

و«الأسرار» التى يكشفها الرب لدانيال تخالف ما يقول سائر الكتّاب التوراتيين عن مصير «الشعب المختار». ففى مواضع أخرى من الكتاب المقدس ـ كما رأينا ـ يوصف الرب نفسه بأنه من يرسل نبوخذنصَّر وغيره من الغزاة الأغيار لابتلاء بنى إسرائيل، وكل ذلك بسبب زندقتهم وفجورهم. وهنا تدخل الكتاب المقدس فكرة جديدة فحواها أن الشعب اليهودى تعرض للبلاء لا من قبل الرب من علٍ بل من قبل الأشرار على الأرض، وأن الرب سيخلصهم ذات يوم من ظالميهم بإرسال مخلِّص يهزم الأعداء ويقيم مملكة أبدية من السلم والكمال الإلهيين لمن يظل على ولائه للتوراة من اليهود. يقول رسول سماوى لدانيال: «أَمَّا قِدِّيسُو الْعَلِىّ فَيَأْخُذُونَ الْمَمْلَكَةَ وَيَمْتَلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى الأَبَدِ وَإِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ»[٤٨].

والفكرة تعبر عنها «رؤى الليل» التى يرويها دانيال. أربعة وحوش رهيبة «هَائِلَةٍ وَقَوِية وَشَدِيدةٍ جِدًّا» تخرج من البحر وتنتشر على الأرض وتلتهم كل ما يصادفها. والرب يوصف هنا بأنه «قَدِيمُ الأَيَّامِ»، وفى صورة ملك أبيض الشعر جالس على عرشه السماوى يحيط به ملائكة طائعون عددهم «ألوف الألوف» ويتحرك بنفسه ليهزم آخر الوحوش وأبشعها، وهو وحش ذو عشرة قرون وأسنان حديدية ومخالب نحاسية. يقول دانيال: «كُنْتُ أَنْظُرُ حِينَئِذٍ ... قُتِلَ الْحَيَوَانُ وَهَلَكَ جِسْمُهُ وَدُفِعَ لِوَقِيدِ

النَّار». وفى النهاية يُرسَل مخلِّص سماوى «مِثْلُ ابْن إنْسَان» إلى الأرض فوق سحابة. «فَأُعطِى سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتا... سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُول»(٤٩).

كل هذه العناصر الأدبية ــ الرب على عرشه السماوى، والملائكة يخدمونه، والوحوش الرمزية التى تجوب الأرض ـ يعاد توظيفها لأغراض أخرى فى سفر الرؤيا. ولعل سفر دانيال أهم «النماذج والمصادر» العديدة التى يبدو أن مؤلف سفر الرؤيا استلهمها فى كتاباته. لذا فلا بد لنا أن نحاول سبر غور مناهج سفر دانيال ومعانيه قبل أن نشرع فى حل الألغاز الأعمق التى تكتنف سفر الرؤيا.

إن مفتاح لغز سفر دانيال وكافة الكتابات الرؤيوية بما فى ذلك سفر الرؤيا، يكمن فى حقيقة بسيطة مفادها أن رؤاه الليلية ينبغى ألا تؤخذ بمعناها الحرفى، بل إن السفر نفسه يقول ذلك: «وَأَفْزَعَتْنِى رُؤَى رَأْسِى. فَاقْتَرَبْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْوُقُوفِ وَطَلَبْتُ مِنْهُ الْحَقِيقَةَ فِى كُلِّ هَذَا»(٥٠). ويفسر الملَك الواقف بأناة بأن الوحوش فى الحقيقة رمزية خالصة. يقول دانيال: «فَأَخْبَرَنِى وَعَرَّفَنِى تَفْسِيرَ الأُمُور: هَؤُلاَءِ الْحَيَوَانَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّتِى هِى أَرْبَعَةٌ هِى أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ عَلَى الأَرْضِ»(٥١). والمملكة الرابعة التى يرمز لها فى الحلم بوحش ذى عشرة قرون ستشهد حكم عشرة ملوك أقوياء، ولكنها فى النهاية ستتداعى و«عَظَمَةُ الْمَمْلَكَةِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ تُعْطَى لِشَعْبِ قِدِّيسِى الْعَلِىِّ»، أى الشعب اليهودى أو على الأقل «القديسين» منهم ممن ظلوا أوفياء للعهد(٥٢).

وما أن يُسمح لنا بقراءة سفر دانيال كسرد تاريخى رمزى لا حَرفى ــ وهو فى الحقيقة ما يرشدنا إليه مؤلف السفر نفسه ــ حتى تظهر معان جديدة كاشفة من النص الغامض، بل إن سفر دانيال يتحدث بصورة مباشرة عن تجربة الشعب اليهودى الذى كان يواجه تعديات أنتيوخوس المجنون وإغراءات الحضارة الهيلينية فى آن فى وقت تدوين السفر وقراءته لأول مرة، أى عمن يسعى المؤلف لشد أزرهم ومواساتهم. فسفر دانيال ـ ككثير غيره فى الكتاب المقدس وبصراحة ـ يدخل فى عداد الدعاية لا النبوءة.

مِن ثَمَّ يأبى دانيال أن يأكل الطعام المترف والنبيذ الفاخر الذى يقدمه حاجب بلاط الملك الوثنى، ويَقنع بجرايته اليومية من الفول والماء، فيما يعد قدوة للسلوك القويم

لليهود ممن كانوا يُدعون (أو يضطرون) لمخالفة تشريعات الـ «كَشروت». وحين يأمر نبوخذنصَّر بنصب صنم ذهبى وعبادته، كان الهدف أن يدرك قراء دانيال أن المقصود هو أنتيوخوس الذى دنس قدس الأقداس بهيكل أورشليم [القدس] بنصبه صنمًا لزيوس فيه. وعندما يختار رفاق دانيال الثلاثة مِيشَخَ وشَدْرَخَ وعَبْدَنَغُوَ الموت حرقًا على السجود للصنم، ينقذهم من المعاناة ملَك حارس ينضم إليهم فى داخل التنور، وهى مواساة لأى يهودى يتعرض لألوان التعذيب التى ورد وصفها لدى يوسفوس أو مؤلف سفر المكابيين.

يعلن الحاكم الوثنى الذى يروعه ما يرى: «هَا أَنَا نَاظِرٌ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مَحْلُولِينَ يَتَمَشُّونَ فِى وَسَطِ النَّارِ وَمَا بِهِمْ ضَرَرٌ وَمَنْظَرُ الرَّابِعِ شَبِيهٌ بِابْنِ الآلِهَةِ»(٥٣).

وفوق هذا وذاك، يثبُت دانيال على وعده بأن يتخلص الشعب اليهودى من كل معاناة؛ لأن التاريخ نفسه كما نعرفه له نهاية. يقول أحد الرسل السماويين الذين يهبون دانيال سلسلة من الرؤى: «جِئْتُ لأُفْهِمَكَ مَا يُصِيبُ شَعْبَكَ فِى الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ». ويقول أحد الرسل إن ملِكًا لئيمًا ماكرًا سيقف ضد أمير السلم، ولكنه سيهزم، ولو أن أداة هزمه لن تكون بيد بشر. وبعد فترة أخيرة من المحن ـ «زَمَانُ ضِيقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذلِكَ الْوَقْتِ» ـ يهبط ميخائيل رئيس الملائكة من السماء ليحارب آخر ملوك الشر «وَفِى ذلِكَ الْوَقْتِ يُنَجَّى شَعْبُكَ»(٥٤).

وهكذا يضفى دانيال سمة جديدة على اللاهوت القديم للكتاب المقدس العبرى. فزوار دانيال الليليون يسلمون جدلاً بأن الرب يبتلى الشعب اليهودى بسبب ولائهم، كما حذر موسى، بل إنهم يعدون أيضًا بأن الرب سيصالحهم يومًا و«يُؤْتَى بِالْبِرِّ الأَبَدِى»(٥٥). ولتدارك حقيقة أن الرب لا يفعل شيئًا لمنع الطغاة من تعذيب رعاياهم اليهود وقتلهم، يركز الملائكة على احتمال أن يأتى يوم بعث يحاسب فيه الموتى فيثابون أو يعاقبون كلٌّ على قدر عمله.

يعد الملائكة قائلين: «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِى تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِىِّ». وحين يحين وقت نهاية العالم

فإن الأرواح الطيبة لا تنتظرها حياة طيبة على الأرض وحسب، بل حياة أبدية فى الجنة. فيؤكد الزوار لدانيال وقرائه أن: «الْفَاهِمُونَ يَضِيئُونَ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَبَدِ الدُّهُورِ»(٥٦).

كان القصد من تزامن الأفكار فى سفر دانيال تخفيف معاناة اليهود أو الأتقياء منهم على الأقل ممن عاصروا ثورة المكابيين. إلا أن مشاهد البعث والحساب والحياة الأبدية كانت غير مألوفة ومؤجلة بالنسبة للأنبياء التوراتيين الكلاسيكيين، كفكرة أن الرب والشيطان يتصارعان على قلوب «الشعب المختار» وعقولهم. ولم يكن لهذه الأفكار دور كبير فى التراث اليهودى الذى واصل التركيز على الصلة الحميمة بين إله إسرائيل و«الشعب المختار» فى الحياة الدنيا لا فى الآخرة.

ولكن حين فضَّ مؤلف سفر الرؤيا الرسالة اللاهوتية لسفر دانيال فى القرن الأول من الميلاد وجد طرقًا جديدة وفعالة لتناول معاناة جيل جديد من الأتقياء. ولم يكونوا أقل اغترابًا عن الثقافة العليا للوثنية الكلاسيكية من ضحايا أنتيوخوس، وأحسوا بأنهم لا يقلون عنهم تعرضًا لخطر الاضطهاد والموت. واستجاب قراء سفر الرؤيا ومستمعوه الأوائل للطريقة الجديدة لقراءة الكتاب المقدس العبرى. وإذا كان التراث الرؤيوى «ابن النبوة» فإن التراث الرؤيوى نفسه هو «أم المسيحية»(٥٧).

وأفكار البعث والحساب ليست التجديدات اللاهوتية الوحيدة التى تطالعنا فى سفر دانيال. فهناك مؤلفون توراتيون آخرون يصورون الملائكة، مثلا، كسعاة سماويين لا أكثر؛ بل إن «رسول» هو المعنى الحرفى لكلمة «مَلَك» العبرية التى تُرجمت بمعنى «ملاك». فى حين أن مؤلف سفر دانيال يستعير فكرة تسلسل هرمى صارم للملائكة من التراث الفارسى مباشرةً. فيقول دانيال عن بلاط «قديم الأيام» السماوى: «أُلُوفُ أُلُوفٍ تَخْدِمُهُ وَرَبَوَاتُ رَبَوَاتٍ وُقُوفٌ قُدَّامَهُ»(٥٨). وهو المؤلف التوراتى الوحيد الذى يشير إلى رئيسى الملائكة جبرائيل وميخائيل اللذين سيلعبان دورًا مهمًّا فى سفر الرؤيا وغيره من الكتابات الرؤيوية(٥٩).

ودانيال المؤلف التوراتى الوحيد أيضًا الذى يستعمل عبارة «ابن الإنسان» بالمعنى

المنطوى على تناقض ظاهرى، والذى سيصبح مألوفًا لقراء الكتابات المقدسة المسيحية؛ فحين يشير دانيال إلى أحد بعبارة «ابن الإنسان» فإنه يقصد أنه ليس من نسل البشر العاديين. إلا أن العبارة تتخذ معناها الطبيعى فى مواضع أخرى من الكتاب المقدس العبرى؛ فترد عبارة «ابن الإنسان» فى سفر أيوب، مثلاً، فى سياق إيضاح أن الرب أكبر من مجرد كيان فان: «فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الإِنْسَانُ الرِّمَّةُ وَابْنُ آدَمَ الدُّودُ»[٦٠]. أما عند دانيال فإن «ابن الإنسان» كيان سامٍ خالد وقوى: «كُنْتُ أَرَى فِى رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِىَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِىٌّ مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ»[٦١].

كما يقدم سفر دانيال أول مثال فى الكتاب المقدس لمعالجة الأرقام، والذى أصبح عادة استحوذت على قراء سفر الرؤيا. فيبدأ سفر دانيال بما يبدو كأنه فقرة مباشرة من سفر إرمياء، يتنبأ فيها النبى بأن السبى البابلى سيستمر لمدة سبعين سنة بالتمام. فيقول الرب لإرمياء: «إِنِّى عِنْدَ تَمَامِ سَبْعِينَ سَنَةً لِبَابِلَ أَتَعَهَّدُكُمْ وَأُقِيمُ لَكُمْ كَلاَمِى الصَّالِحَ بِرَدِّكُمْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ»[٦٢] إلا أن المَلَك جبرائيل يشرح لدانيال أن النبى القديم كان يقصد سبعين أسبوعًا من السنين، أى سبعون × سبعة، أى أربعمائة وتسعون سنة. والأهم أن إرمياء كان يقصد التنبؤ، لا بنهاية السبى البابلى وحسب، بل بنهاية كل الشرور الأرضية وحلول الفردوس السماوى أيضًا. فيقول رئيس الملائكة: «سَبْعُونَ أُسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ لِتَتْمِيمِ الْخَطَايَا وَلِكَفَّارَةِ الإِثْمِ وَلِيُؤْتَى بِالْبِرِّ الأَبَدِىِّ»[٦٣].

والحقيقة أن دانيال يتلقى خبرًا بتوقيت دمار العالم الآثم، ولو أن المَلَك يقدم حسبتين مختلفتين لآخر الزمان. فيوهب دانيال رؤية يتكشف له فيها أن النهاية ستحل بعد «إِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرَّبِ»[٦٤] بألف ومائتين وتسعين أو ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يومًا، إلا أن الباحثين يذهبون إلى أن العبارة تشير إلى تمثال زيوس الذى نصبه أنتيوخوس فى هيكل أورشليم [القدس]. ولعل مؤلف سفر دانيال لم يجل بخاطره سوى الفترة التى مرت بين نصب الصنم وإعادة تكريس الهيكل بعد إزالة ذلك الوثن المهين، وهو حدث يحتفل به اليهود فى عيد الحانوكاه. وإيراد فترتين قد يعنى أن التاريخ

الذى تنبأ به المؤلف الأول مر دون حدوث شىء، وبالتالى جاء كاتب فى فترة لاحقة وشعر بأن الواجب يملى عليه أن يضيف إلى النص فترة أخرى أطول.

وكان التاريخ الثانى خطأ أيضًا، بالطبع، أو على الأقل لو كان المقصود به تحديد توقيت نهاية العالم. إلا أن هذا التلاعب بالألفاظ لم يكن ذا بال بالنسبة لقراء الكتاب المقدس من الباحثين عن معان خفية فى النص، سواء فى ذلك الوقت أو حاليًّا. فلو كانت النبوءة التوراتية «رسالة مشفرة يحلها المفسر الملهَم» كما يقول چون كولنز، فالأمر متروك للقارئ أن يحل الشفرة ويكشف الرسالة الخفية. وهناك كثرة من الناس حاولوا وبذلوا جهودًا مضنية فى هذا الصدد منذ ذلك الحين ـ كما سنرى[٦٥].

يقول راولى: «كان النص كنبوءة بالنهاية فاشلاً، أما كقوة روحية فاعلة فكان ناجحًا إلى حد بعيد»[٦٦].

لكل هذه الأسباب، فإن سفر دانيال منبع التكهن الرؤيوى، وتعرضت كلماته وعباراته طوال الألفى سنة الماضية للتنقيب بحثًا عن معان كاشفة. واعتُبر التراث الرؤيوى الغربى فى مجمله «حواشٍ على رؤى دانيال النبوئية»[٦٧]. وما يعرف بـ«الرؤيوية الثانوية للأناجيل» ـ الفقرات التى وردت بأناجيل متى ومرقس ولوقا والتى يصف فيها يسوع كيف سينتهى العالم ـ تسمى: «مدراشًا مسيحيًّا قديمًا أو امتدادًا لرواية دانيال عن الأحداث الأخيرة»[٦٨].

وأفضل مقياس لمكانة دانيال وتأثيره على التراث الرؤيوى، نجده فى سفر الرؤيا الذى يستقى من سفر دانيال أكثر مما يستقى من أى نص مقدس غيره، يهوديًّا كان أو مسيحيًّا. لكن سفر دانيال ليس النص الرؤيوى الوحيد أو الأقدم فى التراث اليهودى القديم. بل إن مؤلف سفر دانيال ربما استلهم نصوصًا أقدم، ولم يكتف بكتابات الأنبياء الموجودة أصلاً فى الكتاب المقدس. وما أن نتتبع مؤلف سفر الرؤيا إلى مصدر التراث الرؤيوى نجد أنفسنا فى مكانٍ مشاهده أغرب.

نقطة بدء التراث الرؤيوى فى اليهودية قد نجدها فى المجموعة الغريبة والمشوشة من النصوص القديمة المعروفة باسم «سفر أخنوخ الأول» والتى يسبق أقدمها سفر دانيال

بنصف قرن أو نحو ذلك[٦٩]. وكل الكتابات تعزى لشخصية أخنوخ التوراتية، ولكن أنشأها كتّاب حقيقيون مختلفون على مدى سبعة قرون. وهنا نجد «النواة التى تحوى لب الفكر الرؤيوى والتى نشأ منها التراث بأكمله» حسب قول الباحث الإيطالى پاولو ساتشى المتخصص فى الدراسات الرؤيوية[٧٠].

يبرز اسم أخنوخ أبو متوشالح فى كل من التراث الرؤيوى والصوفى بسبب الظروف الغامضة لوفاته، كما وردت فى سطر واحد من سفر التكوين: «وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ»[٧١]. ففى ضوء تراث قديم وباقٍ تُفهم الفقرة بمعنى أن أخنوخ لم يمت ميتة عادية، بل رفع إلى السماء حيًّا. وبذلك أصبح يستعمل كشخصية مصدرية لدى مختلف الكتّاب الرؤيويين ممن أخذوا يتخيلون «الغرائب» التى تكشفت له فى مملكة السماء.

يتوسع «سفر أخنوخ الأول» ـ على سبيل المثال ـ فى حكاية مفعمة بالحيوية عن جماعة من الملائكة الشهوانيين والعصاة وردت بصورة مختصرة فى سفر التكوين. تصور الحكاية التوراتية كيف هبط ما يعرف بـ«أبناء الرب» (بناى إلوهيم) إلى الأرض طلبًا «لبنات البشر» ممن تجسسوا عليهن من السماء فأنجبوا سلالة من الجبابرة[٧٢]. ويواصل «سفر الرقباء» ليكشف عن أن الملائكة المتدنين هم فى الحقيقة أتباع الشيطان و«سبب كل ما على الأرض من شرور»[٧٣].

يستعمل مؤلف «سفر الرقباء» مصطلح «رقيب» فى إشارة إلى الشخوص السماوية التى تسمى فى غيره «ملائكة»، وهو إبدال تعبيرى يصادفنا فى سفر دانيال أيضًا. يقول دانيال: «كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى رَأْسِي عَلَى فِرَاشِي وَإذا بِسَاهِرٍ وَقُدُّوسٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ»[٧٤]. وهنا نجد نقطة اتصال أخرى بين دانيال والكتابات الأخرى فى التراث الرؤيوى، وهى أنه لا وجود لملَك يسمى «رقيبًا» فى أى موضع آخر من الكتاب المقدس العبرى. وهنا أيضًا يختار المؤلف لغة غريبة بل مخيفة: فالرقباء يتلصصون ويتحرشون بدلاً من أن يكونوا حراسًا.

والرقباء مذنبون بما هو أكثر من جرائم الحب، أو هكذا يكتشف أخنوخ. كما أنهم

يكشفون «أسرارًا سماوية» لبنى آدم ومنها «الرقى والتعاويذ» لتحقيق مناقب السحر، و«فن تجميل العيون وتزيين الجفون» بغرض الإغراء، وفن ترصيع «السيوف والخناجر والدروع والتروس» لاستعمالها فى شن الحروب. ويرسل الرب رفائيل رئيس الملائكة لشد وثاق رئيس الملائكة العصاة، وهو هنا شخصية شيطانية تسمى «عزازيل»، ورميه فى حفرة فى الصحراء إلى «يوم الحساب العظيم» حيث «يُلقى به فى النار»(٧٥). لكن بعد فوات الأوان، فقد وقع الضرر بالفعل.

تقول إحدى فقرات «سفر الرقباء» ـ الذى يبدو أنه كان يعكس تجربة حياة قرائه الأوائل من «الأتقياء» ممن كانوا يخوضون حربًا حضارية ضد الهيلينية: «تغيرت الدنيا وأصبح هناك عقوق عظيم وكثير من الفسق، فضلّوا وفسدت كل سبلهم»(٧٦).

وهناك حكاية أخرى فى سفر أخنوخ وهى «رؤيا الحيوان» من المؤكد أنه كان لها صدى مختلف، ولكنه لا يقل قوة لدى قرائها. وكل الشخوص فى الحكاية تصور كحيوانات: فآدم مثلاً يظهر متخفيًا فى صورة ثور، والملائكة العصاة لا ينجبون ذرية بشرية، بل فيلة وإبلاً وحميرًا. وفى نقطة الذروة فى «رؤيا الحيوان» يُهزم الأشرار على الأرض على يد جيش من «حملان صغيرة» نبتت لها قرون ـ وقائد القطيع الحمل ذو القرن الأكبر ـ ويخوضون المعركة بسيف وهبه لهم «سيد الأغنام»(٧٧). هذه الحكاية الرمزية الخرافية المتقنة كان يمكن أن يفهمها القراء فى يهوذا فى القرن الثانى قبل الميلاد. يفسر چون كولنز قائلاً: «من الواضح أن الحمل ذا القرن الكبير هو يهوذا المكابى، والسياق سياق ثورة المكابيين»(٧٨).

وما «سفر الرقباء» و«رؤيا الحيوان» إلا نصان من النصوص التى تم جمعها معًا فى سفر أخنوخ الأول. وتشمل الكتابات الرؤيوية الأخرى بالمجموعة نفسها «السفر الفلكى» و«سفر الأحلام» و«رؤيا الأسابيع»، وكلها نصوص غريبة على أى قارئ تقوم تجربته مع اليهودية على التوراة والتلمود. وهناك مجموعتان أخريان تعرفان بسفرى أخنوخ الثانى والثالث، وتشتملان أيضًا على كتابات رؤيوية، ومثلها العديد من الأعمال الأخرى التى توصف بأنها «أشباه نقوش»: «رؤيا إبراهيم» و«شهادة الآباء» و«سفر اليوبيل» و«الوحى الإلهامى الثالث» وغير ذلك.

كل هذه النصوص الرؤيوية ـ كما أشرنا من قبل ـ تم استبعادها من الكتاب المقدس العبرى نفسه. والحقيقة أنها تمثل تخيلات أناس وضعوا أنفسهم على حواف المجتمع اليهودى، وأحيانًا وراءه كما فى حالة مجتمع قمران. ومع ذلك فهذه النصوص أول مكان تتجسد فيه لأول مرة أشهر الشخصيات فى كل من اليهودية والمسيحية، بما فى ذلك المخلِّص الإلهى الذى يعرف بـ «المسيح»، والخصم الإلهى المعروف بـ «إبليس»، بل إن النصوص الرؤيوية كانت بوتقة الكيميائى التى تمت فيها تنقية المواد الخام المستخلصة من الكتاب المقدس ثم أعيد صوغها فى شىء جديد ذى بريق.

فالنسخة التوراتية من المسيح، مثلاً، ليست الشخصية السامية التى كان سيصبح عليها فى التراث الرؤيوى فى كل من اليهودية والمسيحية. ولقبه مستمد من اللفظ العبرى «مَشيَح» والذى يعنى «ممسوحًا»: أى من صُب على رأسه الزيت فى طقس طهارة كان يعقد لترسيم الشخص فى الكهانة أو لتتويج ملك. و«المسيح» بالنسبة لمؤلفى الكتاب المقدس العبرى لا يزيد عن بشر يتولى منصبًا رفيعًا أو أسندت إليه مهمة خاصة ما.

وهكذا فإن هارون مثلاً ـ وهو أول كبير كهنة بنى إسرائيل ـ كان مسيحًا، وكذلك كان شاول وداود أول ملكين لبنى إسرائيل. ولكن المرء ـ طبقًا لما ورد بالكتاب المقدس ـ ليس بحاجة لأن يكون ملكًا أو كبير كهنة أو حتى عابدًا لإله بنى إسرائيل حتى يستحق اللقب الرفيع «مسيح». ويشير الكتاب المقدس ـ كما رأينا ـ إلى إمبراطور فارس الوثنى باعتباره «مسيحًا» لمجرد أنه أفلح فى هزم إمبراطور بابل الوثنى، وبذلك أعاد الشعب اليهودى المسبى إلى وطنه، لذا فلو كان مؤلف سفر الرؤيا اقتصر على الكتاب المقدس العبرى لما أعطانا شخصية «المسيح» السامية المحتفى بها بهذا القدر الجليل فى موشحة هاندل الدينية.

ولا تجد الصورة المألوفة للمسيح كمخلِّص سماوى أول وأكمل تعبير عنها إلا فى الكتابات الرؤيوية، حيث يتم دمجها بالمنقذ الإلهى الذى يعرف فى الوقت نفسه بـ «ابن الإنسان». فـ «شبيه ابن الإنسان» و «المسيح» شخصيتان مختلفتان عند دانيال؛ الأول شخصية سماوية يهبه الرب مملكة أبدية، أما الآخر فأمير فانٍ «يُقطَع ويَفنى»[٧٩]. وعلى النقيض فإن «رؤيا الأسابيع» ـ وهى إحدى الكتابات فى سِفر أخنوخ الأول ـ تصف

«ابن الإنسان» قاضيًا ومنقذًا ومخلِّصًا من النوع الذى يتم تقديمه فى كل من التراث اليهودى والمسيحى باعتباره «المسيح».

ترد فى سفر أخنوخ الأول فقرة تقول: «وشعب الرب كانوا فى فرح عظيم لأن اسم ابن الإنسان تكشف لهم، وجلس على عرش مجده، وأُعطى الحكم كله لابن الإنسان، وهو سيؤدى بالآثمين إلى العدم ويفنون من وجه الأرض. ومنذ ذلك الحين لن يكون شىء فاسد»[٨٠].

وحتى بعد أن اتخذ مصطلح «مسيح» معناه كمخلِّص مرسل من عند الرب، فإن تنويعات اليهودية كما كانت تمارس فى العالم القديم لم تُجمع على هوية المسيح وما يعمل. وبعض المصادر الرؤيوية لديها تصور عن مسيحين، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط لاوى، أحدهما ملِك والآخر كاهن. ولا تُجمع على المدة التى سيستمر فيها حكم المسيح على الأرض. وتقدم إحدى لفائف البحر الميت، مثلاً، تصورًا عن أن الحقبة المسيحانية لا تزيد عن حرب تستمر أربعين سنة ضد محتلى يهوذا من الرومان، ونص رؤيوى بعنوان «٤ عزرا» تحدد حكم المسيح بأربعمائة سنة ينتهى بعدها العالم كله.

وإبليس أيضًا يتدنى ـ كما رأينا ـ إلى دور المدعى الإلهى فى الكتاب المقدس ـ العبرى، ولا يرقى إلى مرتبة «أمير الظلام» إلا فى الكتابات الرؤيوية، بل إن إبليس يتم تصوره فى صورة الند الشيطانى للرب، شخصية قوية نافذة الكلمة ينازله المسيح ويهزمه فى آخر الزمان. ويُعرف الشرير الأكبر الشيطانى بعدد من الأسماء فى النصوص الرؤيوية: أزموديوس، عزازيل، مستيما، بليال (أو بليار أحيانًا) وغير ذلك كثير، إلا أنها جميعًا تعد واحدة ولا تختلف عن الشرير الذى يطلق عليه مؤلف سفر الرؤيا فيما بعد وصف «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ».

وهكذا فإن مجموعة الشخصيات المتنوعة التى ستظهر فيما بعد على صفحات سفر الرؤيا، ليست كلها من ابتكار المؤلف ولا وفية تمامًا للنصوص التوراتية التى كان يعرفها تمامًا، بل كانت كلها شخصيات موجودة فى الثقافة الفرعية الرؤيوية لليهودية القديمة. ولم يكن القصد منها مجرد تسلية قراء وسامعى أقدم النصوص الرؤيوية أو إثارتهم أو

تخويفهم. بل كان القصد من الشخصيات فى الدراما الرؤيوية حث الناس العاديين على العمل كجنود مخلصين فى الحرب الحضارية على الوثنية الكلاسيكية، وفى حرب التحرير القومية التى كانوا يحاربون ضد الغزاة الوثنيين للوطن اليهودى القديم. إذن فالكتابات الرؤيوية القديمة كانت بالنسبة لليهود الأتقياء واليهود الوطنيين على السواء أدب مقاومة، ولكنها مقاومة من نوع مختلف تمامًا عما كان يتم تشجيع القراء الأوائل على ممارسته تجاه مضطهديهم الرومان.

يبين لنا يوسفوس أن الشعب اليهودى كان يتبنى مجموعة من التكتيكات فى استجابته لإغراءات الهيلينية وتهديدات الإمبريالية الرومانية. فبعض اليهود مثل يوسفوس نفسه عقدوا سلامًا مربحًا مع روما. وحمل بعض آخر منهم ــ وهم «الغيورون»ـ السلاح ضد روما باسم الرب، والوطن. وهناك قلة من اليهود يطلق عليهم يوسفوس «الرهبان» اعتزلوا فى البرية فى انتظار نهاية العالم، حيث تخوض جيوش الرب حربًا على جيوش الشيطان.

من الباحثين من يربط «الرهبان» بـ«المجتمع الرؤيوى» فى قمران، وهى المكان الذى اكتشفت فيه لفائف البحر الميت. وتوقعاتهم العاجلة مدونة فيما يعرف بـ«لفائف الحرب» والتى تتخيل نشوب معركة حاسمة بين «أبناء النور» و«أبناء الظلام»، يقودها على أحد الجانبين رئيس الملائكة ميخائيل وعلى الجانب الآخر الشخصية الشيطانية المسماة «بليال»(٨١). وهنا نجد مثالاً آخر للطريقة التى كان ينقب بها الكتّاب الرؤيوين فى المادة الخام للكتاب المقدس بحثًا عن معان جديدة وثورية لا يظهر «بليال» فى الكتاب المقدس نفسه إلا كاسم مجرد ربما كان معناه «تفاهة» ولكنه يُستحضَر فى التراث الرؤيوى باعتباره «الخصم الأكبر للرب»(٨٢).

ومع ذلك، فإننا لا ندرى ما إذا كان مؤلفو سفر دانيال وسفر أخنوخ الأول ولفائف البحر الميت أعضاء فى حركة واحدة فى اليهودية الأولى، أو ما إذا كانوا يستحقون أن يطلق عليهم اسم «حركة» أصلاً. ولا يسع الباحثون إلا أن يلجئوا للحدس عما إذا كان «الأتقياء» (حَسيديم) ممن ورد ذكرهم فى سفر المكابيين و«الحكماء» (مَسكيليم) المشار إليهم فى سفر دانيال و«الرهبان» الذين يشير إليهم

يوسفوس أسماء مختلفة لمجموعة واحدة من الناس ؛ لذا فإن لفائف البحر الميت، مثلاً، كانت فيما مضى تُنسَب بكل ثقة لرهبان اليهود، إلا أن الباحثين الأكثر حذرًا يكتفون بالإشارة إلى «طائفة قمران» ويتساءلون عما إذا كانت لهم صلة بالمجتمعات الرؤيوية الأخرى لليهودية القديمة وكيف[٨٣]. ومع ذلك فإن ما يجمع بينهم واضح. فكل هؤلاء الناس كانوا يشعرون بالغربة عن العالم الذى وجدوا أنفسهم فيه. وحتى حين لم يُمنعوا من ممارسة اليهودية الخالصة التى كانوا يعتنقون، كانوا يشعرون بالمهانة حين كان بنو جلدتهم من يهود يُحرمون هذا الحق. وهكذا فإنهم حين كانوا يتأملون ملكًا يهوديًّا اتخذ اسم غازٍ وثنى، أو كبير كهنة يهودى يعلم النشأ المصارعة وهم عراة فى الألعاب الإغريقية، أو أى عدد من الآباء اليهود ممن أهملوا ختان أبنائهم، كانت عقيدتهم الحقة تقول لهم إنهم يشهدون مظهرًا آخر لما يدينه الكتاب المقدس باعتباره «فجور الخراب».

إذن كانت الفكرة الرؤيوية بالنسبة لمثل هؤلاء الناس بلسمًا وشرابًا فى آن. فكانت النصوص الرؤيوية تقول لهم أنتم اليوم تتعرضون للقهر والاضطهاد لكن قهركم واضطهادكم سينتهيان غدًا ؛ لأن العالم كله سينتهى. والأهم أنهم كان يتم تشجيعهم على النظر قدمًا لا لكى يستريحوا من المعاناة وحسب ـ بطل مسيحانى وجيشه من المحاربين المقدسين ممن سيهزمون الشرير الشيطانى الأكبر وجيشه من الأشرار ـ بل أيضًا ليثأروا ممن جعلهم يعانون أصلاً. وهكذا فنهاية العالم مناسبة لبعث الموتى ويوم الحساب والثواب والعقاب.

والأهم أن التراث الرؤيوى كان موجهًا لجمهور من الناس يعتبرون أنفسهم غرباء وضحايا، وإن لم يعانوا القهر والاضطهاد فعلا فى أى زمان أو مكان. فالكتابات الرؤيوية تعكس «تجربة الاغتراب فى أوقات الأزمات» حسب الحكمة المعروفة، إلا أن چون كولنز يذكرنا بأن «الاغتراب والأزمات قد تكون لها أشكال مختلفة» منها «الصدمة الحضارية» و«العجز الاجتماعى» و«الصدمة القومية»[٨٤]. وفى القرن الأول الميلادى، ابتلى اليهود بأشكال الأزمة الثلاثة، حيث كانت الرؤى تُدون وتقرأ حتى بين اليهود ممن ما لبثوا حتى اعتنقوا المسيحية.

لم تخمد الحرب الحضارية التى نشبت إبان ثورة المكابيين قط. وكان آخر ملك

يهودى يحمل فى عروقه دم المكابيين ــ أى ألكساندر ينايوس (١٠٣ ــ ٧٦ ق. م) ــ هيلينيًّا متعصبًا أصبح هدفًا لحركات الأصوليين الدينيين فى يهوذا، فوجه جيشه ضد أكثر رعاياه اليهود تدينًا فى حملة استمرت ست سنوات وراح ضحيتها خمسون ألف نفس. ولدى وفاته، أخذ المتنافسون على المـُلك يتبارون على كسب الحظوة عند الإمبراطورية الرومانية آخر قوة عظمى فى العالم الوثنى. إلا أن روما عقدت العزم على إقرار القانون والنظام فى يهوذا مرة واحدة وإلى الأبد، وزحفت كتيبة رومانية على أورشليم [القدس] فى سنة ٦٣ ق. م وبذلك قضت الأقدار بسلسلة من الأحداث قدر لها أن تتمخض عن ثورة تمثلت فى تجديد اليهودية وظهور المسيحية.

فى البداية، قنعت روما بإدارة يهوذا من خلال سلسلة من الحكام التابعين لها وأشهرهم هيرود، وهو رجل من أصل عربى اعتنقت عائلته اليهودية فى ظل المكابيين. وكان هيرود هيلينيًّا طيبًا أعاد تجديد هيكل يهوه بأورشليم [القدس] على الطراز المعمارى الإغريقى الرومانى، وزين بلدات يهوذا ومدنها بالملاعب والمنشآت الرياضية، ولكن حين توفى هيرود ـ وسقطت يهوذا فريسة الفوضى مرة أخرى ـ زحف أحد القواد العسكريين الرومان على أورشليم [القدس] فخضعت يهوذا لحكم روما المباشر كإقليم مستحدث.

وفى أثناء ثورة المكابيين، بدأ اليهود ممن نقموا على غزو جيش أجنبى واليهود ممن سخطوا على غزو نمط حياة أجنبى فى التوافق. ورفضت السلطات الرومانية المقاومة اليهودية بوصفها «قطاع طرق» و«لصوصًا»، أما هم فكانوا يعتبرون أنفسهم «الغيورين»، فاستحضروا بذلك نموذجًا بطوليًّا للأبطال التوراتيين الذين كانوا «غيورين على شريعة العهد». ومرة أخرى، وكالمكابيين، حملوا السلاح ضد كل من جيش الاحتلال واليهود المندمجين ممن تعاونوا مع الرومان. وكان الـ «سيكارى» ــ على سبيل المثال ـ إرهابيين حضريين استهدفوا المتعاونين من اليهود بالاغتيال فى الأماكن العامة. ووجدت الأفكار والصور الرؤيوية التى دونت لأول مرة إبان ثورة المكابيين جمهور قراء جديدًا بين آخر أجيال التحرريين اليهود.

وربما كان من بين أكثر هذه المثل الرؤيوية حدة وتأثيرًا الشوق لمجىء مسيح مخلِّص

مرسل من عند إله إسرائيل لهزم قوى الشر وإحلال السلم وتحقيق الأمن والسيادة للشعب اليهودى. ولعل يوسفوس كان متنبهًا لتلك الفقرة من سفر دانيال التى يوهب فيها «مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ» ، «سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا» حين يصف قوة الفكر الرؤيوى إبان مقاومة اليهود ضد روما[٨٥]. يقول المؤرخ اليهودى القديم: «كان ما دفعهم أكثر من غيره للحرب وحيًا غامضًا عُثر عليه فى كتاباتهم المقدسة يشير إلى أنه سيظهر من بين ظهرانيهم فى ذلك الوقت من يحكم العالم»[٨٦].

كان يوسفوس الذى كان يكتب من منظور المتعاون مع الرومان، يزدرى المُثُل التى كانت تحرك الوطنيين اليهود. فيصف يوسفوس أدعياء النبوة بأنهم «محتالون وأفاقون» «أغروا الأغلبية بالتصرف كالمجانين بزعم أن الوحى الإلهى يؤيد التغيير الثورى»[٨٧]. ويشير ساخرًا إلى أن أحد هؤلاء الأدعياء لا يعرف إلا باسم «المصرى» أغوى أتباعه ـ «حوالى ثلاثة آلاف مأفون» على حد تعبير يوسفوس ـ بأن بوسعه أن يهدم أسوار أورشليم [القدس] بإشارة منه[٨٨]. إلا أن يوسفوس يسمح لنا بحذر أيضًا أن نرى كيف يمكن لهذه الأفكار أن تكون قوية ومستفزة.

لحشد المدافعين عن أورشليم [القدس] إبان المعركة الفاصلة فى الحرب اليهودية فى سنة ٧٠ ق.م، مثلاً، لجأ قادة «الغيورين» والطوائف الأخرى إلى المنطق نفسه الذى ثبتت فعاليته تمامًا إبان ثورة المكابيين. يقول يوسفوس: «نصب قادة الفرقة فى الآونة الأخيرة عددًا من الأنبياء المأجورين لخداع الناس بحثهم على انتظار العون من الرب، وبذلك يقللون عدد المنشقين وإبقاء الأمل لدى من كانوا فوق مستوى الخوف والقلق». وعندما أضرم جند الرومان النار فى رواق الهيكل ـ حيث كان ما يقرب من ستة آلاف من الرجال والنساء والأطفال يحتمون ـ آثر الأكثر غيرة منهم أن يضحوا بأنفسهم: «فألقى بعضهم بأنفسهم هربًا من النيران ليهلكوا، بينما هلك غيرهم فى اللهيب، ولم يفلت من هذا العدد الكبير أحد»[٨٩].

انتهت الحرب اليهودية بهزيمة نكراء للمقاومة المسلحة ضد روما. ومرة أخرى هدم الهيكل ومرة أخرى سبى الشعب اليهودى. وعلى مدار القرن التالى ظهر تحرريون يهود جدد ـ ومطالبون جدد بتاج المسيح ـ وقاتلوا ضد الاحتلال الرومانى، ولكن لم يحقق

أىٌّ منهم انتصارًا. وتم خوض آخر حرب تحرير قومية ضد روما تحت قيادة قائد ميليشيا يدعى شمعون بار كُحبا أطلق عليه لقب «الملِك المسيح» من قبل الحبر أكيفا الذى كان من أبرز علماء الأحبار القدامى. إلا أن بار كحبا هُزم بدوره على يد الرومان، وكان تعذيبه وموته فى سنة ١٣٥ ق.م دليلاً لأتباعه من اليهود على أنه لم يكن المسيح. يقول أحد أحبار العصور الوسطى: «ما كان هذا ليتجلى إلا بالنصر، وهذه الحقيقة»(٩٠). وهكذا بدأ الفكر المسيحانى فى اليهودية القديمة فى التحول من انتظار ملحّ إلى شوق قدَرى مخفف.

ورد عن أحد الأحبار الپراجماتيين فى التلمود أنه قال للحبر أكيفا: «سينبت العشب فى عظام فكيك يا أكيفا بن يوسيف قبل أن يظهر المسيح»(٩١).

ومع ذلك، فليس كل مسيح دعىّ فى السنوات الأولى بعد الميلاد يمكن حذفه بسهولة. فمن أكثر شخصيات التراث الرؤيوى كاريزمية وحالمية فى اليهودية من قُدر لرسالته أن تغير تاريخ العالم. وسمح هو أيضًا لأتباعه بالإيمان بأنه المسيح، ووعدهم بقرب تحقق نبوءات دانيال.

كان اسمه يشوع بار يوسف ولكنه معروف فى العالم باسم «يسوع». والحقيقة أن أفضل تعريف لشخصية يسوع التاريخية هو أنه «رؤيوى يهودى فى القرن الأول الميلادى» حسب قول باحث الكتاب المقدس المعاصر بارت إيرمن. و«رؤيوى» بالمصطلح المتداول لدى الباحثين معناه من يعتنق معظم أو كافة الأفكار الجديدة الغريبة التى تطالعنا فى سفر دانيال والكتابات الرؤيوية التى لم تدخل الكتاب المقدس. يقول إيرمن فى كتابه Jesus: Apocalyptic Prophet of the New Millennium (يسوع: النبى الرؤيوى للألفية الجديدة): «كان يسوع يعتقد أن تاريخ العالم سيشهد نهاية صارخة، وأن الرب سيتدخل فى شئون هذا الكوكب، ويطيح بقوى الشر بعمل عقابى كونى ويقيم مملكته المثلى هنا على الأرض. وكان هذا سيحدث لجيل يسوع نفسه»(٩٢).

إن مسألة إيمان يسوع بالتوقعات العاجلة والرهيبة التى تطالعنا فى سفر كل من أخنوخ الأول ودانيال والرؤيا كانت دائمًا محيرة بالنسبة لبعض المسيحيين، بل إن معظم باحثى الكتاب المقدس المعاصرين يستريحون لاعتبار يسوع معلمًا رحيمًا رقيقًا علم أتباعه

كيف يحيون حياة طيبة على الأرض، على اعتباره أحد المنذرين بالشؤم ممن تصورهم مجلة نيويوركر الهزلية رافعين لافتة كتب عليها «اقتربت الساعة!»، وعندما يقول نقاد الكتاب المقدس المحدثون إننا ينبغى أن نعتبر يسوع شيوعيًّا مسجلاً أو ناشطًا نسائيًّا قديمًا أو غير ذلك، فهم يسعون لتغيير معالم صورة يسوع التى تطالعنا فى العهد الجديد.

القراءة البسيطة للأناجيل تعد أفضل دليل على أن يسوع كان يؤمن وكان يبشر بأن العالم مقبل على نهاية وشيكة. فيقول يسوع فى إنجيل مرقس: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ [الواقفين] هَهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ»(٩٣). وإذا قرأنا الفقرة حرفيًّا نجد أنها تتنبأ صراحةً وبكل ثقة بأن الأحداث التى وردت فى الكتابات الرؤيوية ستقع فى حياة معاصريه. والفكرة نفسها تطالعنا فى رسائل بولس التى تعد أقدم النصوص المسيحية قاطبة، ومؤلفها يحدد الباحثون شخصيته بثقة تامة.

يقول بولس فى رِسَالَته الأُولَى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِي: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوق الله وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً، ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ(*) جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»(٩٤).

بل إن افتراض أن يسوع كان يؤمن بالفكر الرؤيوى مؤكدة فيما هو مسجل تاريخيًّا. ففى تراث مشترك بين كل من اليهودية والمسيحية، مثلاً، يعتقد أن المسيح سيكون من ذرية الملك داود مباشرةً، «قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى» حسب ما ورد فى عبارة بليغة فى نبوءات أشعياء(٩٥). واعتبر الرومان المتنبهون للتراث مجرد الزعم بالدم الداودى ادعاء بالمَلَكية اليهودية. والحقيقة أن الفرقة العاشرة من جيش الاحتلال الرومانى فى يهوذا ظلت تؤمر بالثبات فى مواقعها من قبل أربعة أباطرة متتالين «حتى تتعقب أى يهودى يدعى أنه من نسل الملك داود وتعدمه»(٩٦).

(*) كتب القس الأمريكى تيم لاهاى سلسلة «المتروكون خلفًا ـ Left Behind» عن المجىء الثانى للمسيح، ومعركة أرمجدون، وأولئك المختطفين لملاقاة الرب، والباقين المتروكين خلفًا. ووزعت السلسلة ٦٠ مليون نسخة، وصارت لعبة للأطفال وشرائط ڤيديو.

وهكذا فحين يعلن بولس أن يسوع «مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ»[٩٧] وحين يقرر متى أن الرومان صلبوا يسوع؛ لأنه ادعى أنه «ملك اليهود»[٩٨] ـ وهى جنحة سياسية لا دينية فى نظر القانون الرومانى ـ فإن روايتيهما تتفق تمامًا مع ما نعرف من مصادر خارج الكتاب المقدس عن المعتقدات المسيحانية لقدماء اليهود. وعندما يتداول يسوع وتلاميذه الكلمات والعبارات الرنانة المتداولة فى نصوص الأنبياء والنصوص الرؤيوية، فهم يتحدثون لغة مشفرة كان أتباعهم اليهود يفهمونها بوضوح.

بدأ الجدل حول ما إذا كان يسوع يعد نبيًّا رؤيويًّا فى السنوات الأولى من القرن العشرين بكتابات ألبرت شوايتسر الذى يعرف حاليًّا بعمله التبشيرى الطبى فى إفريقيا أو خبرته فى موسيقى باخ أكثر من اشتهاره ببحثه الرائد فى حياة يسوع التاريخية. إلا أن أقدم ما طرح من هذا الجدل يرجع إلى بداية المسيحية الأولى. ولم يكن جدلاً حول مسألة لاهوتية مجردة ما. وكان عدم انتهاء العالم عندما وعد يسوع بنهايته، معناه أن «الكنيسة كان عليها بالضرورة أن تتصالح مع نبوءتها الأساسية» حسب قول باحثة الكتاب المقدس المعاصرة پولا فردريكسن[٩٩].

وعندما كان المسيحيون الأولون يناضلون مع فشل العالم فى «الانتهاء فى موعده» كما تقول فردريكسن، واجهت الكنيسة فجأة وثيقة جديدة مفزعة أكدت كل هذه التوترات والتناقضات. ويدعى مؤلفها أنه وُهب رؤيا من قبل يسوع نفسه، وتملأ رؤياه أحرف مستمدة مباشرة من صفحات الكتاب المقدس العبرى والنصوص الرؤيوية اليهودية. ويصور يسوع كملِك محارب مسيحانى يحكم العالم الأرضى. ويصر كيسوع وبولس على أن نهاية العالم وشيكة. يقول يسوع فى ختام رؤيا المؤلف: «نَعَمْ! أَنَا آتِى سَرِيعًا»[١٠٠].

هذه الوثيقة المستفزة والمثيرة للجدل هى سفر الرؤيا بالطبع.



الفصل الثالث

تـاريــخ وهـــم

(فَذَهَبْتُ إِلَى الْمَلاَكِ قَائِلاً لَهُ: « أَعْطِنِي السِّفْرَ الصَّغِيرَ » فَقَالَ لِي: «خُذْهُ وَكُلْهُ فَسَيَجْعَلُ جَوْفَكَ مُرًّا وَلَكِنَّهُ فِي فَمِكَ يَكُونُ حُلوًا كَالْعَسَل ») [سفر الرؤيا ١٠ : ٩]

يعرف مؤلف سفر الرؤيا فى تراث طويل وثيق باسم يوحنا بن زبدى المؤلف المفترض للإنجيل الرابع ، ولكنه فى تراث آخر هو تلميذ يسوع المحبوب. و « رُؤْيَا الرَّسول يُوحَنَّا اللاهوتى » واحدة من عناوين عدة تظهر على مختلف مخطوطات سفر الرؤيا القديمة. ومع أن مسألة من كتب سفر الرؤيا تعتبر من المسائل المثيرة للجدل الساخن منذ بدأ السفر فى التداول فى أقدم الأوساط المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية ، فإن بعض الباحثين العلمانيين لا يزالون يشيرون إلى مؤلف سفر الرؤيا باسم « القديس يوحنا » .

يمكننا أن نعرف عن مؤلف سفر الرؤيا أكثر مما نعرف عن معظم مؤلفى الكتاب المقدس الآخرين ، سواء اليهود منهم أو النصارى. فنحن نعلم أنه كان يعتبر نفسه مقربًا بصفة خاصة إلى الرب ، وفى الوقت نفسه ضحية اضطهاد قلة من إخوانه المسيحيين والعالم الوثنى الذى عاش فيه. ولعله كان يعتبر نفسه نبيًّا حرًّا يتجول من بلدة لأخرى فى آسيا الصغرى ، يبشر برؤاه الغريبة وعظاته الصارمة لكل من يجتمع له ويسمع ، وكان يعتمد على كرم ضيافتهم لسد جوعه والحصول على مكان يريح فيه رأسه مدة الليل. وكان يكنّ ضغينة مرة لاثنين من الوعاظ المنافسين ، كان يعتبرهما متهاونين فى معتقداتهما وممارساتهما المسيحية بدرجة غير مقبولة ، حتى أنه كان يتهمهما بالخطأ الروحى ، بل بالزندقة والفجور.

كما يمكننا أن نستشف معلومات أكثر تفصيلاً عن الرجل الذى دوَّن سفر الرؤيا. فربما ولد فى يهوذا ، ولعله كان من شهود عيان لحظات رهيبة فى التاريخ القديم ، أى

هزيمة الطائفة اليهودية التى كانت تعرف بـ « الغيورين » على يد جيش رومـانى فى سنة ٧٠ ميلادية ، ودمار هيكل أورشليم [القدس] ، وشتات الشعب اليهودى. وربما كانت لغته الآرامية ، وهى لغة سامية حلت محل العبرية كلغة سائدة فى المنطقة التى عاش فيها اليهود قديمًا ، وهو لم يتقن اليونانية ، وهى اللغة الدولية فى العالم الوثنى الكلاسيكى. والأهم أنه كان يهودى المولد والتنشئة والتعليم ، وهى حقيقة تلقى بضوء يصعب تفسيره على نص آمن به أكثر المسيحيين غيرة على دينهم على مدار الألفى سنة الماضية.

هذه البيانات المفصلة عن حياة مؤلف سفر الرؤيا تعتبر بالنسبة لكثير من قرائه حرجة ومحرجة وخارج الموضوع تمامًا. فالأصول اليهودية للمؤلف ، وصلته بالنصوص والمواريث اليهودية التى تغزر فى نص الرؤيا ، تتناقض مع الدور الخطير الذى أصبح السفر يلعبه فى الأصولية المسيحية. ومن أغرب المفارقات أن كثرة من القراء على مر العصور نجحوا فى إقناع أنفسهم بأن مؤلف سفر الرؤيا كان روحًا ضالة أخفق فى فهم المغزى الحقيقى للرؤى التى كان يراها ويصفها بجلاء شديد.

بالنسبة للمؤلف نفسه ، مثلاً ، فإن « الوحش » الذى يرمز لاسمه بالرقم ٦٦٦ كان بصورة مؤكدة إمبراطورًا رومانيًّا حقيقيًّا عاش ومات فى القرن الأول من الميلاد ؛ إلا أن قراء سفر الرؤيا جيلاً بعد جيل يصرون على أنه كان بكل ببساطة خاطئًا. وإلا فكيف يمكن تفسير أن « الوحش » المشار إليه بالرقم الشفرى ٦٦٦ يرى رمزًا لشخصية ما أو أخرى فى سلسلة طويلة من الآثمين ، بدءًا من محمد(*) العصور الوسطى إلى ناپوليون فى القرن التاسع عشر وموسولينى فى القرن العشرين ، وعدد لا يحصى فيما بينهم؟

ومع ذلك فسفر الرؤيا ليس غامضًا كما يبدو. فالبحث الأكاديمى ـ قديمه وحديثه ـ يسمح لنا بإلقاء نظرة على الرجل الذى أنشأ هذا النص الغريب وعلى العالم الذى عاش فيه وعمل ، وعلى الأحاسيس التى اعتملت فى قلبه وعقله ، وعلى المعتقدات الحقيقية التى قصد أن يغرسها فى عقول قرائه وسامعيه الأُوَل. وفوق هذا وذاك يمكن اختراق النص اللغز واستنباط المعانى الرمزية المشفرة بعمق فى سفر الرؤيا.

(*) يقصد النبى محمدًا ﷺ.

ومع تقدمنا فى التاريخ، نرى أن سفر الرؤيا أعيدت قراءته وتأويله بطرق مفزعة بل صادمة على مر القرون، ولا سيما فى عصرنا. ولو كان مؤلف السفر وُهب رؤية دقيقة للمستقبل البعيد لأفزعته حقيقة أن نهاية العالم لم تكن وشيكة، ولكن أيضًا بما سيؤول إليه «سفره الصغير» فى أيدى البابوات والملوك وكبار المحققين والمصلحين الكنسيين وأدعياء المسيحانية والنبوة ـ أو مشاهير الروائيين كمؤلفى سلسلة «The Left Behind» واللاهوتيين التليفزيونيين من أمثال پات روبرتسن، وچيرى فالويل، ورئيس مثل رونالد ريجان(*).

ولقياس مدى انحراف سفر الرؤيا عن مقاصده ومعانيه الأصلية وللتعرف على الطريقة التى أعيد بها تأويل النص وأسىء تفسيره على مر القرون العشرين الماضية، فإننا بحاجة إلى محك: من الذى أنشأ سفر الرؤيا؟ ومن أين أتى وأين كان يتجول؟ وماذا كان يعرف، وبم كان يؤمن؟ وما الذى كان يرمى إليه بتدوينه الرؤى الغريبة التى تطالعنا فى «سفره الصغير» الذى خلف وراءه؟

من السمات المميزة لأية رؤيا ما يسميه الباحثون «التخلص» [أى اتخاذ المؤلف اسمًا مستعارًا ــ المترجم]. فمعظم النصوص الرؤيوية أنشأها كتّاب حقيقيون يخفون هواياتهم وراء أسماء شخصيات توراتية لها قداستها. وهكذا فإن «الكتابات الزائفة» تشمل أعمالاً تتراوح بين «رؤيا آدم» و«رؤيا مريم العذراء»، ولم يكتبها من نسبت إليهم. والحقيقة أن سفر الرؤيا حامت حوله منذ ظهر لأول مرة شكوك بعض القراء ممن تجاسروا على التساؤل عما إذا كان من إنشاء القديس يوحنا اللاهوتى فعلاً.

والتساؤل نفسه ينطبق بالطبع على كافة أسفار الكتاب المقدس بنسختيه اليهودية والمسيحية إلا قليلاً. فبعض قراء الكتاب المقدس، مثلاً، لا يزالون يصدمون حين يعلمون أن الباحثين الأكاديميين لم يعودوا يؤمنون بأن موسى هو الذى أنشأ «أسفار موسى الخمسة» كما هو شائع عن الأسفار الخمسة الأولى فى الكتاب المقدس العبرى بين اليهود، أو أن أيًّا من الأناجيل أنشأه «الرسل» الذين تظهر أسماؤهم فى عناوينها. بل إن

(*) وچورچ بوش.

مجمل الكتابات المقدسة اليهودية وكمًّا غير هين من الكتابات المقدسة المسيحية يمكن اعتبارها «كتابات زائفة» ، بمعنى أنها ليست من وضع مؤلفيها المنسوبة إليهم فى عناوينها.

ولا تزال الطريقة التى دونت بها أسفار الكتاب المقدس ووضعت بها عناوينها موضع جدل واسع وتفكير عميق. ومن النظريات فى هذا الصدد، مثلاً، أن المؤلف من هؤلاء كان يتبعه كاتب مطيع يكتب ملاحظات، ثم ينمق ما قال سيده، أو أن المؤلف كان يجلس ويملى على الكاتب ما يكتب. وهذه بالضبط الطريقة التى يفترض أن سفر إرمياء أنشئ بها طبقًا لتفسير يطالعنا فى الكتاب المقدس العبرى نفسه: «فَدَعَا إِرْمِيَا بَارُوخَ بْنَ نِيرِيَّا فَكَتَبَ بَارُوخُ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا كُلَّ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِى كَلَّمَهُ بِهِ فِى دَرْجِ السِّفْرِ»[1].

وهناك نظرية أخرى تذهب إلى أن كافة أسفار الكتاب المقدس العبرى ــ إلا قليلاً ــ تتألف من كتابات من مصادر عدة مختلفة، قام بجمعها وإنشائها كلها محرر أو «منشئ» واحد أو أكثر فى مرحلة ما من التاريخ. وكانت المادة الأولية قوامها خرافات وأساطير وحكايات شعبية وأشعار وأدعية وأناشيد ـ فيما يعرف بالتراث الشفاهى ـ ولكنها كانت تضم أيضًا أخبارًا وأنسابًا وتشريعات وسيرًا ذاتية وتراجم. لكن النص النهائى للكتاب المقدس من نتاج الناسخ الذى وفقها معًا ونمقها. ومن التنويعات على النظرية نفسها أن بعض هذه النسخ المنقحة أو كلها كانت من إنشاء أفراد عدة، بل أجيال عدة كانت جميعًا تعمل معًا فيما يسميه الباحثون «مدرسة» أو «حلقة» أو «منهجًا».

وهناك بالطبع قلة من الباحثين لا يزالون على اعتقادهم بأن بعض الكتابات التوراتية من تأليف إنسان واحد موهوب استعمل قلمه (أو ريشته إن شئنا الدقة) وأنشأ عملاً أدبيًّا خالدًا، كما فعل دانتى أو شكسپير أو مارك توين. فقصة حياة داود كما تطالعنا فى سفر صموئيل قد تكون من إنشاء كاتب عبقرى يعرف فى مجال البحث التوراتى بمؤرخ البلاط، أو هكذا يفترض، وكثير من أطرف القصص وأقواها فى سفر التكوين قد تكون من إنشاء مؤلف أقدر يعرف باسم «ى». وافترض البعض فى البداية أن «ى» امرأة، وأولهم ريتشارد إليوت فريدمان فى كتابه Who Wrote the Bible? (من أنشأ الكتاب المقدس؟) ثم تلاه هارولد بلوم وديڤيد روزنبرج فى The Boob of J (كتاب ى).

كل هذه النظريات حول هوية مؤلفى الكتاب المقدس تنطبق على سفر الرؤيا وبنتائج شديدة الغرابة. فذهب بعض الباحثين، مثلاً، إلى أن سفر الرؤيا كما نعرفه فى الحقيقة من إنشاء «حلقة أو مدرسة أو جماعة يوحناوية ما»[٢]. ويرى آخرون أن سفر الرؤيا مكون من نصوص عدة مختلفة وغير متصلة دوَّن كلاًّ منها مؤلف مختلف فى زمان ومكان مختلفين ـ أو كتبته «مدارس» عدة ـ ثم نضدها معًا فى عصر لاحق محرر صالح بذل جهدًا لفرض نوع من النظام على فوضى الكلمات والصور.

لكن المثير أن معظم الباحثين المحدثين يجمعون على أن سفر الرؤيا من تأليف مؤلف واحد كان متصوفا وحالما، واعظًا كارزميًّا وشاعرًا لا يبارى. وسواء أقرئ سفر الرؤيا كنص مقدس أو كعمل أدبى فإن من أكبر منجزات البحث التوراتى ما يبذل من جهد لاستنباط سيرة حياة مؤلفه من النص نفسه، وما نما حوله من مناهج. وعندما نبدأ فى إدراك تفاصيل حياته وعمله ـ مهما كان ما يعتورها من غموض وحدس، فإننا سنتمكن من قراءة سفر الرؤيا بطرق جديدة.

يبدأ سفر الرؤيا، كسفر إرمياء، بادعاء مباشر بأنه تنزيل إلهى بعون من قلة من الوسطاء السماويين وكاتب بشرى. يتنزل النص من عند الرب إلى يسوع ثم منه إلى ملَك ثم إلى بشر يتم إبلاغ اسمه ليوحنا: «إِعْلاَنُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِى أَعْطَاهُ إِيَّاهُ اللهُ لِيُرِى عَبِيدَهُ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكونَ عَنْ قَرِيبٍ وَبَيَّنَهُ مُرْسِلاً بِيَدِ مَلاَكِهِ لِعَبْدِهِ يُوحَنَّا» حسب ما ورد بالسطور الأولى من النص[٣]. وبناء على هذا التأكيد يؤمن المتدينون من المسيحيين بأن سفر الرؤيا «الوحيد بين أسفار الكتاب المقدس الذى أنشأه يسوع»[٤].

وادعاء أنه وحى إلهى ليس بهذا الوضوح فى بقية النص نفسه. فالسفر مدون بضمير المتكلم، لكن أكثر من راوية يخاطبوننا فيه. والصوت الذى نسمعه فى بعض المواضع صوت المؤلف البشرى الذى يسمى نفسه يوحنا، وفى مواضع أخرى يقتصر دور يوحنا على النقل عن الشخصيات السماوية المتنوعة التى يواجهها ـ الرب ويسوع وسلسلة من الرسل الملائكيين ـ ومع ذلك يقدم يوحنا نفسه باعتبار أنه البشر الذى سُجلت رؤاه فى النص، ويحتسب له فى العادة أنه مؤلفه. ولكن يظل هناك سؤال معلق: هل الرسول الذى ورد اسمه فى العهد الجديد يوحنا، هو ابن زبدى؟

وفى تقديمه نفسه، يقول يوحنا للكنائس السبع بآسيا الصغرى التى كان سفر الرؤيا موجهًا إليها أصلاً قائلاً: «أَنَا يُوحَنَّا أَخُوكُمْ وَشَرِيكُكُمْ فِي الضِّيقَةِ وَفِي مَلَكُوتِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ»[٥]. إلا أن مسألة أن مؤلف سفر الرؤيا يسمى نفسه «يوحنا» لا تعنى أنه يوحنا نفسه المذكور فى الأناجيل. فالاسم العبرى «يوحانان» ومقابله اليونانى «يوانِس» كان متداولا قبل إنشاء الأناجيل أو سفر الرؤيا بزمن طويل. بل إن العهد الجديد نفسه يضم عديدًا ممن يسمون «يوحنا» ومنهم يوحنا الرسول، ويوحنا المعمدان وهو واعظ جوال من أوائل من زعموا أن يسوع هو المسيح.

بدأ التعارف على أن يوحنا الرسول هو منشئ سفر الرؤيا بظهوره أول مرة بين الطوائف المسيحية بالإمبراطورية الرومانية. يقول إيرينايوس (من حوالى ١٢٠ إلى حوالى ٢٠٠م) وكان أسقفًا مسيحيا ذا مكانة فيما يعرف حاليا بليون بجنوب فرنسا. إن سفر الرؤيا «لم يُعرف من مدة طويلة، فى جيلنا تقريبًا فى ختام حكم دوميتيان» أى فى تاريخ لا يبعد عن ٩٦ ميلادية[٦]. وإيرينايوس أول مفسر ينسب تأليف سفر الرؤيا لـ«يوحنا تلميذ الرب»، وهو اعتقاد أكد عليه آباء كنسيون أوائل آخرون عدة منهم جوستين الشهيد وأوريجن. لكن هناك أسقفًا أكثر حذرًا هو ديونيسيوس السكندرى (من حوالى ٢٠٠ إلى حوالى ٢٦٥م) يسلم جدلاً بأن سفر الرؤيا عمل «يقدره كثرة من المسيحيين الأتقياء»، ولكنه كان أول من ذهب إلى أن السفر والإنجيل الرابع «يستحيل أن يكونا من إنشاء شخص واحد»[٧].

كغيره مما لا يحصى من نقاد الكتاب المقدس، تنبه ديونيسيوس للتناقضات الواضحة والمزعجة بين الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا بما فى ذلك الفروق الظاهرة فى الموقف اللاهوتى الجوهرى لكل منهما؛ فالإنجيل الرابع يؤمن بما يسميه اللاهوتيون بـ«الأخرويات الراهنة»، بينما لا يعرف سفر الرؤيا سوى الأخرويات «المستقبلية»[٨]. وطبقًا لما ورد بفقرات بعينها فى إنجيل يوحنا ـ على سبيل المثال ـ فالمسيحيون ليسوا بحاجة للانتظار إلى آخر الزمان ليحظوا بنعمة الحياة الأبدية؛ إذ أنهم نعموا بالخلاص فى الحياة الدنيا. يقول يسوع: «إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ»[٩]. وعلى النقيض يؤكد سفر الرؤيا على أن الخلاص لا بد من أن ينتظر

نهـاية العـالم ـ الضيقة والبعث ويوم الحساب ـ فى لحظة ما فى المستقبل «فِى أَيَّامِ صَوْتِ الْمَلاَكِ السَّابِعِ مَتَى أَزْمَعَ أَنْ يُبَوِّقَ يَتِمُّ أَيْضًا سِرُّ اللهِ»(١٠).

ولعل الأكثر استفزازًا للقراء الخبراء باليونانية القديمة الفوارق فى اللغة والأسلوب الأدبى بين إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا. فحين يقارن الباحثون بين الكلمات والعبارات فى كل منهما بغرض حساب عدد المصطلحات اليونانية المستعملة فى النصين دون غيرهما من نصوص العهد الجديد، لا يجدون إلا ثمانى كلمات مشتركة(١١). وهنا فارق محير آخر بين النصين يتمثل فى إتقان مؤلف كل منهما اليونانية المتداولة (أو «المحلية») التى دونت بها النصوص المقدسة المسيحية. فاليونانية المتداولة فى الإنجيل الرابع «صحيحة وعذبة» فى حين أن اليونانية المتداولة فى سفر الرؤيا «مغلوطة بل همجية» على حد تعبير آديلة ياربرو كولنز وهى إحدى الرواد فى دراسة سفر الرؤيا (وزوجة چون كولنز الزميل المتخصص فى الدراسات الرؤيوية)(١٢).

والحقيقة أن المؤلف لا يدعى أنه يوحنا الرسول بأى موضع فى سفر الرؤيا، ولا يشير إلى أية تجارب قد تضعه ضمن الرسل فى حياة يسوع. بل يبدو أنه لا يولى اهتمامًا ـ بل ربما كان غير واعٍ ـ بقصة حياة يسوع كما وردت تفصيلا فى الأناجيل. وفى أحد المواضع بسفر الرؤيا، يبدى إشارة عابرة للرسل الاثنى عشر بضمير الغائبين، مما يوحى بأنه لا يزعم أنه أحدهم. وحين يذكر الرسل على الإطلاق فلا يذكرهم إلا فى ثنائه على «أورشليم [القدس] الجديدة» التى ستهبط من السماء بعد نهاية العالم، فيقول: «وَسُورُ الْمَدِينَةِ كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ أَسَاسًا وَعَلَيْهَا أَسْمَاءُ رُسُلِ الْحَمَلِ الاِثْنى عَشَرَ»(١٣).

ومن اللاهوتيين المتدينين والباحثين العلمانيين من يقدمون بعض السيناريوهات الافتراضية لكيفية كتابة المؤلف نفسه كلاًّ من سفر الرؤيا والإنجيل الرابع. فربما كتب يوحنا الرسول ـ حسب فرضيتهم ـ سفر الرؤيا فى شبابه وفى طور الرعونة وحين كان وافدًا لتوه على الأقاليم المتحدثة باليونانية من الإمبراطورية الرومانية، ودوَّن الإنجيل فى سن أكبر وبعد اكتساب قدر من الحكمة، وبعد أن أتقن اليونانية بعد سنين طويلة من الممارسة. أو لعله أملى نص كل من السفرين على كاتب أو مترجم مختلف أمهر من الآخر ـ وإن صح ذلك فالإنجيل من نتاج الكاتب الأمهر بينما عانت الرؤيا ضعف الآخر.

وهناك تعليل آخر فحواه أن الرسول مات قبل إتمام أحد السفرين. فيوحنا حسب رواية قديمة استشهد فى سبيل إيمانه فى فترة ما قبل سنة ٧٠ ميلادية، وهى فترة سابقة على التواريخ التى يحددها الباحثون المعاصرون للإنجيل الرابع أو سفر الرؤيا. إذن فربما تم إتمام أحد السفرين أو كليهما بعد وفاة يوحنا على يد كاتبين مختلفين، كلّ بفهم مختلف للاهوته وبتفاوت فى مدى إتقان اليونانية. وهناك باحث معاصر من المتخصصين فى الكتاب المقدس يتخذ موقفًا أكثر جرأة، حيث يتصور أن نص سفر الرؤيا وقع فى يد كاتب يكتب باسم غيره وبعد وفاته، ولم يكن يتسم بالركاكة وحسب بل تعمد إفساد عمل يوحنا اللاهوتى «زنديق يتسم بقدر كبير من الغباء والجهل»[١٤].

قرأ ديونيسيوس نفسه كلا السفرين بعيون متدينة وثاقبة فى آن، واضطر إلى استنتاج أن سفر الرؤيا كتبه «يوحنا آخر»، أى شخص كان يدعى يوحنا ولكن ليس يوحنا اللاهوتى[١٥]. وهناك باحثون آخرون يشاركونه هذا الرأى. فيشير بارت إيرمن مثلاً إلى أن يوحنا الرسول يوصف فى الأناجيل بالأمية، وبالتالى يستحيل أن يكون كتب أيًّا من الأعمال الإنجيلية المنسوبة له[١٦]. ولا تزال مسألة هوية المؤلف موضع جدل بين الباحثين وعلماء اللاهوت. يقول أحد الباحثين: «ما من موضوع فى دراسات الكتاب المقدس أثار مثل هذا الجدل المطول، وما من نقاش انتهى بكل هذه البلبلة والإحباط واللاجدوى»[١٧].

والحقيقة أن قراء سفر الرؤيا على مر العصور لم يتمكنوا قط من مقاومة طرح أجرأ التساؤلات على الإطلاق، وهو: لو لم يكن مؤلفه القديس يوحنا اللاهوتى فمن ذلك اليوحنا الآخر الذى كتب سفر الرؤيا فعلاً؟

هناك مرشح قديم يثير الاهتمام بالنسبة لهوية مؤلف سفر الرؤيا، وهو قس غامض (أو «شيخ كنيسة») بالكنيسة المسيحية الأولى كان اسمه يوحنا أيضًا. ورد ذكره أول مرة فى سفر پاپياس أسقف القرن الثانى، وأقدم مفسر معروف لسفر الرؤيا. والكتابات الأصلية لپاپياس مفقودة، ولكن هناك مصادر قديمة أخرى عرفت أعماله واستشهدت بها ونقلت عنها. فوفقًا لفقرة وردت فى تاريخ الكنيسة الذى وضعه

يوسبيوس فى القرن الرابع مثلاً ، كان پاپياس يتتبع شيوخ المسيحيين من معارفه ومنهم الشيخ يوحنا فى مسعى دائب لتعلم المزيد عن حياة يسوع من شهود عيان الأحداث التى ورد ذكرها فى الأناجيل.

يقول پاپياس فى عبارة جانبية مثيرة للاهتمام : «أنا لا أعتبر ما ورد بالكتب قيمًا بالنسبة لى قدر قيمة ما يأتى من صوت حى وباقٍ »[١٨].

كان پاپياس أسقف كنيسة هيراپوليس التى تقع بالقرب من لاودكيا إحدى مدن آسيا الصغرى التى ينسب مؤلف سفر الرؤيا إليها نفسه. ونظرًا لأن پاپياس كان منشغلاً بتفاسيره فى العقود الأولى من القرن الثانى فمن المتصور أن مصادره كانت تشمل شاهد عيان مسنًّا يعرف شخصية يسوع التاريخية أو أحد تلاميذه الأحياء على الأقل. من ثم فإن إشارة پاپياس العابرة للشيخ يوحنا كانت كافية للفت يوسبيوس المؤرخ القديم والموثوق للكنيسة المسيحية. تقول آديلة ياربرو كولنز : «يستنتج يوسبيوس أنه لو لم يكن يوحنا بن زبدى هو الذى رأى الرؤيا فربما رآها يوحنا الشيخ »[١٩].

هناك يوحنا مختلف تمامًا وأشهر تفترضه مؤلفًا لسفر الرؤيا الباحثة الكاثوليكية ج. ماسنجبيرد فورد كاتبة الترجمة المتميزة لسفر الرؤيا التى ظهرت فى سلسلة «Anchor Bible». ترى فورد أن المؤلف الأصلى لسفر الرؤيا ليس يوحنا الرسول ولا الشيخ يوحنا ، بل رجلاً ثالثًا هو يوحنا المعمدان النبى اليهودى المتقد المذكور بالأناجيل وفى كتابات المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس. وطبقًا لرواية الأناجيل ، فإن يوحنا المعمدان قُطعت رأسه قبل أن يُصلب ، وهى حقيقة قد تعلل ضعف إلمام مؤلف سفر الرؤيا بقصة حياة يسوع الناصرى بالكتاب المقدس.

وترى فورد أن سفر الرؤيا يضم «إضافات» أدخلها على النص أتباع يوحنا المعمدان من اليهود «الذين ربما تحولوا إلى المسيحية أو لم يتحولوا». ولكنها تشير أيضًا إلى أنه بمقارنة الفقرات الرؤيوية فى العهد الجديد فإن «سفر الرؤيا يتبين أنه الوحيد الذى لا يؤدى فيه يسوع دور الشخصية المحورية »[٢٠] ؛ لذا فهى تستنتج أن سفر الرؤيا فى جوهره «رؤيا يهودية فى المقام الأول» أعيد توجيهه فيما بعد للقارئ المسيحى ، ثم

أدمج فى فترة لاحقة فى الشريعة المسيحية[٢١]. وفضلاً عن استبعاد أن يكون يسوع المسيح كاتب السفر، فإن نص الرؤيا قد لا يكون من تدوين مسيحى أصلاً.

الحقيقة أن مؤلف سفر الرؤيا يبدو أكثر تآلفًا مع الكتاب المقدس العبرى ـ وربما مع كتابات رؤيوية غامضة كسفر أخنوخ ـ منه مع النصوص المسيحية التى تم جمعها فى العهد الجديد[٢٢]. وهناك حوالى خمسمائة وثمانى عشرة إشارة إلى فقرات من الكتاب المقدس العبرى تطالعنا بسفر الرؤيا، فى حين أن الإشارات إلى «يسوع» أو «يسوع المسيح» لا تزيد عن أربع عشرة، يرد معظمها فى الأقسام التى تميزها باعتبارها «إضافات مسيحية»[٢٣]. حتى أوستن فارر، وهو أحد نقاد الكتاب المقدس الموهوبين والمرموقين بأواسط القرن العشرين، والذى يَفترض دينيًّا أن مؤلف سفر الرؤيا يوحنا اللاهوتى، يسلم جدلاً بأنه يتعامل مع المصادر اليهودية القديمة ويشير إليه بصفة «الحبر المسيحى»[٢٤].

ويلاحظ أن سفر الرؤيا يخلو إلى حد بعيد من المنطق المناوئ لليهود والذى يطالعنا فى بعض فقرات الأناجيل، كما يصف يوحنا نفسه وأتباعه، وبكل فخر، بأنهم يهود مخلصون. والأهم أن المؤلف يهتم بصورة واضحة بتيمات يهودية خالصة كالهيكل وتابوت العهد[٢٥]. وعلى النقيض من ذلك لا تجد فورد «أية إشارات واضحة لحياة يسوع الأرضية» ولا اهتمام على الإطلاق بشعائر وعقائد مسيحية أساسية كالمعمودية أو العشاء الربانى أو الثالوث[٢٦]. لهذه الأسباب فهى تبحث عن مؤلف سفر الرؤيا الأصلى بين يهود يهوذا فى القرن الأول ممن لم يعيشوا ليروا صلب يسوع أو مولد المسيحية. وترى أن المرشح الأنسب يوحنا المعمدان[٢٧].

يوصف يوحنا المعمدان فى العهد الجديد كنبى رؤيوى كيسوع. لكن المعمدان يقدم رؤية أشد كآبة لآخر الزمان من أى مما نسب ليسوع فى الأناجيل. تقول فورد: «رسالته تختلف جذريًّا عن رسالة يسوع. فرسالة يوحنا رسالة نقمة وشؤم لا رسالة خلاص»[٢٨]. ومنطق يوحنا المعمدان الشرس والمخيف هو الذى تتردد أصداؤه فى سفر الرؤيا لا تعاليم يسوع الأرق والألطف. فيرد بسفر متى أن يوحنا المعمدان قال:

«تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ... أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِى يَأْتِى بَعْدِى هُوَ أَقْوَى مِنِّى الَّذِى لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِى رَفْشُهُ فِى يَدِهِ وَسَيُنَقِّى بَيْدَرَهُ وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ»(٢٩).

لم تفلح أى من النظريات قديمها وحديثها فى إقناع غالبية باحثى الكتاب المقدس المحدثين بأن الرجل الذى يسمى نفسه يوحنا فى سفر الرؤيا هو يوحنا اللاهوتى أو يوحنا المعمدان أو الشيخ يوحنا. تقول آديلة ياربرو كولنز: «الحكم السليم يفضى إلى استنتاج أنه كتبه رجل يدعى يوحنا غير معروف لنا»(٣٠). إلا أن هوية مؤلف سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ لغز يمكن حله. وتفاصيل حياته تقدم مفتاحًا لحل شفرة المعانى الخفية التى ضمنها متن الرؤيا المتميز.

إن أية قراءة متأنية لسفر الرؤيا تكشف المزيد عما نعلم عن كتّاب معظم نصوص الكتاب المقدس الأخرى. ولنبدأ بحقيقة بسيطة مفادها أن يونانيته تشوبها «أخطاء جسيمة فى النحو والقواعد» ، وهى حقيقة دفعت بعض الباحثين إلى استنتاج أن يوحنا كان يهوديًا ولد فى يهوذا وشب يتحدث الآرامية واكتسب بغضًا دام عمره لجيش الاحتلال الرومانى الذى عاش فى ظله(٣١). والدليل على هذه التفاصيل عن حياته والتى تساعد على تفسير بعض ألغاز سفر الرؤيا المحيرة تعتبر محيرة وكاشفة.

يبدو ، مثلاً ، أن يوحنا يتجنب استعمال القواعد التى تنفرد بها اليونانية ، ويؤثر استعمال الصيغ التى لها ما يقابلها فى العبرية أو الآرامية(٣٢). والصياغة الدقيقة لإشاراته إلى النصوص المقدسة اليهودية توحى بأنه ملم بالنص الأصلى العبرى للكتاب المقدس ـ أو ربما إحدى ترجماته الآرامية القديمة ـ لا الترجمة السبعينية ، أى الترجمة اليونانية للكتاب المقدس التى تداولها اليهود فى الشتات ومؤلفو سائر أسفار العهد الجديد(٣٣). ومثل هذه العادات اللغوية كانت ستميز شخصًا ولد فى يهوذا ونشأ بها ودرس النصوص المقدسة اليهودية بلغتها العبرية الأصلية أو ترجمة آرامية لها ، ولم يهاجر إلى بلدات إقليمية تتحدث اليونانية إلا فى مرحلة لاحقة من حياته.

يقول أوستن فارر فى كتابه «A Rebirth of Images» الذى يعد أكبر أعماله عن سفر الرؤيا: «هو يكتب كمن قضى العديد من سنوات التأمل فى المعبد قبل تغيير ديانته. فإذا جمعنا الفترتين اليهودية والمسيحية من حياته يمكن افتراض أنه كان فى الخمسين من عمره حين سمعنا عنه أول مرة»[٣٤].

إذن فسفر الرؤيا يشى بمقت للإمبراطورية الرومانية من النوع الذى يمكن أن نتوقع ممن كان مسقط رأسه إقليم يهوذا الرومانى. إذ احتلت روما يهوذا طوال القرن الأول وخاضت حربًا طويلة ودامية لقمع حركة المقاومة اليهودية، وفى النهاية هدمت هيكل يهوه بأورشليم [القدس] فى سنة ٧٠م، ووضعت بذلك نهاية لطقوس اليهودية القديمة كما ورد وصفها فى الكتاب المقدس العبرى. وقتل اليهود فى تلك الحقبة يسميه چاك مايلز ناقد الكتاب المقدس «المذبحة الرومانية»[٣٥]. وربما شهد يوحنا تلك الأحداث بعينيه، وحين هرب من يهوذا إلى آسيا الصغرى كلاجئ حرب، حمل معه رغبة عارمة فى الثأر من روما.

ويرقى بعض أبشع الصور بسفر الرؤيا إلى مستوى الهجوم السافر على الإمپريالية الرومانية. فيستحضر يوحنا، مثلاً، الرؤيا الشهيرة الخاصة بـ«الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ ... الَّتِي زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ» وهى امرأة «مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٣٦]. يرى يوحنا الزانية العظيمة وهى تمتطى ظهر وحش قرمزى ذى سبعة رءوس، ويشرح له ملَك أن «السَّبْعَةُ الرُّءُوسُ هِيَ سَبْعَةُ جِبَالٍ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ جَالِسَةً»[٣٧]. وكما يمكن للقراء والمستمعين الأوائل أن يدركوا دون مزيد من الشرح، كانت روما تُعرف فى فنون العالم الوثنى الكلاسيكى وآدابه «بمدينة التلال السبعة»[٣٨]. وعندما فكوا شفرة سفر الرؤيا رأوا «الوحش» فى صورة الغازى الرومانى لأرضهم.

واليونانية الركيكة التى دون بها سفر الرؤيا ـ «لغة يوحنا لغة چيتو» فى رأى أحد الباحثين ـ قد تنم عن حقد يوحنا الشديد على الحضارة الهيلينية لروما القديمة أكثر مما تنم عن قصوره فى اللغة والتعلم[٣٩]. بل إن آديلة ياربرو كولنز ترى أن يوحنا كان

متمكنًا فى الكتابة باليونانية السليمة، ولكنه عمد إلى «إضفاء صبغة سامية» على عمله كنوع من «الاحتجاج على النمط الأسمى من الثقافة الهيلينية» و«مسألة كرامة ثقافية لساميّ يهودى»(٤٠). ولإعانة القارئ المعاصر على فهم أهمية اختياره اللغة فهى تشبهها باستعمال «إنجليزية الزنوج» من باب الكرامة: «المسألة تشبه رفض بعض الزنوج الأمريكيين أن يتحدثوا بلغة قويمة»(٤١).

وفيما يلى المثال الأول، ولكنه ليس الأخير، على السبب فى أن مؤلف سفر الرؤيا يمكن اعتباره داعية يقاتل على جبهة حرب حضارات. فككل الكتّاب الرؤيويين منذ دانيال، يقف كاتب الرؤيا ضد إغراءات الحضارة الإغريقية ـ الرومانية التى مارسها فى عصره رعايا قوة عظمى كان يعتبرها «أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ»(٤٢). فكان يعتبر كل مسيحى أو يهودى تعاون مع السلطات الرومانية أو ذاق متعة فنون الرومان وآدابهم أو كسب رزقه من التجارة مع الرومان خائنًا للرب الواحد الحق. بل إن مجرد إمساك المرء قطعة عملة رومانية فى يده كان المقابل الأخلاقى للزندقة فى نظر يوحنا، وهو موقف ثابت يقربه من النشطاء والدعاة المخلصين فى كل جيل تلا بما فيه جيلنا.

غادر يوحنا بلاده التى مزقتها الحرب وسفك فيها الدم ـ أو هكذا يفترض ـ متوجهًا إلى الإقليم الرومانى المعروف بآسيا، وهى منطقة بآسيا الصغرى يدخل معظمها فيما يعرف حاليًّا بتركيا الحديثة. وبالنسبة لروما العاصمة الإمبراطورية، كانت آسيا مجرد منطقة نائية منعزلة يسكنها فلاحون أجلاف، إلا أن المدن التى زارها يوحنا كانت بلادًا عامرة تتطلع الطبقة العليا فيها لتحسين وضعها فى إطار الحضارة الرومانية. وكان يوحنا ـ كما سنرى ـ يضيق بنمط حياة الرومان قدر ضيقه بالنزعة الاستعمارية الرومانية أو الممارسات الدينية للوثنية الكلاسيكية.

يقول يوحنا نفسه للقارئ إنه كان «فِى الْجَزِيرَةِ الَّتِى تُدْعَى بَطْمُسَ» حين أوتى الرؤى الغريبة المخيفة التى وَصف فى سفر الرؤيا. وبطمُس واحدة من أرخبيل يونانى يعرف باسم «دوديكانيز» قوامه اثنتا عشرة جزيرة ببحر إيجه ويقع على طول ساحل آسيا الصغرى الجنوبى الغربى. وبطمُس جزيرة بركانية وعرة تملأها تلال يبلغ ارتفاعها

حوالى ألف قدم، ولا تزيد مساحتها عن أحد عشر ميلاً مربعًا. وهكذا ذهب ڤيكتورينوس صاحب أقدم شرح لا يزال سليمًا على سفر الرؤيا فى القرن الرابع إلى أن يوحنا حُكم عليه بعقوبة بالأشغال الشاقة بجزيرة پطمُس ـ «حكم عليه القيصر دوميتيان بالعمل فى المناجم»ـ وأُطلق سراحه عقب وفاة الإمبراطور الذى أرسله إلى هناك. وكغيره فى سفر الرؤيا، نمت بذرة الحدس بالتراكم عبر القرون: فيشير أوستن فارر الذى كتب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى المكان الذى تحددت فيه إقامة يوحنا بوصفه «معسكر الاعتقال فى پطمُس»[٤٣].

ويوحنا نفسه غير واضح فيما يتعلق بسبب مجيئه إلى پطمس وكيفية وصوله إليها. وهناك ترجمات تذهب إلى أنه ذهب لپطمس «لنشر كلمة الرب وشهادة يسوع المسيح»، أى بهدف التبشير بالإنجيل لأى يهود أو وثنيين يرغبون فى الاستماع إليه. إلا أن هناك ترجمات أخرى تترجم الفقرة نفسها بمعنى أنه نُفى إلى پطمس «بسبب كلمة الرب وشهادة يسوع المسيح»، أى عقابًا له على دعوته التبشيرية، وهو المعنى الأرجح عند الباحثين المحدثين[٤٤]. بل إن «الترجمة الحية الجديدة» التى هى من نتاج الباحثين اللاهوتيين المحدثين لا تجد غضاضة فى إضافة عبارة تفسيرية لا وجود لها فى النص اليونانى الأصلى للعهد الجديد وهى: «نُفيتُ إِلَى جَزِيرَةِ پَطْمُسَ لِلتَّبشيرِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ وَمِنْ أَجْلِ الحَديثِ عَن يَسُوعَ»[٤٥].

وما من مصدر قديم سوى سفر الرؤيا نفسه يدل على أن الرومان كانوا يستغلون پطمس كمنفى، ولو أن السجناء السياسيين كانوا يُبعدون إلى جزر أخرى مجاورة بأرخبيل دوديكانيز. ثم تتساءل آديلة ياربرو كولنز أيضًا عما إذا كانت عقوبة النفى الحميدة يُحكم بها على أى مسيحى آنذاك، فتقول: «الغريب فى هذه الفرضية أن معظم المسيحيين الأوائل المحكوم عليهم كانوا يُعدمون ولا يتم ترحيلهم»[٤٦]. ومع ذلك فلا يزال من الصعب تصديق أن يوحنا ذهب إلى جزيرة پطمس لمجرد التبشير بكلمة الرب نظرًا لقلة عدد السكان فى جزيرة صغيرة ونائية كهذه. إذ كان يوحنا ينشد مكانًا واعدًا يبشر فيه برسالته عن نهاية العالم، وعثر عليه.

يوضح يوحنا أن عمله التبشيرى لم يكن يجرى بجزيرة پطمس الجرداء، بل فى المراكز التجارية النشطة بآسيا الصغرى. وتتكون الإصحاحات الأولى من سفر الرؤيا من سلسلة من الرسائل الموجهة من يوحنا إلى الكنائس المسيحية بسبع مدن بغرب آسيا الصغرى: أَفَسُسَ، وسِمِيرْنَا، وَبَرْغَامُسَ، وثِيَاتِيرَا، وسَارْدِسَ، وفِيلاَدَلْفِيَا، ولاَوُدِكِيَّةَ. هذه الرسائل أو «الكتُب» ـ كما كانت تسمى ـ أفضل دليل على أن يوحنا قضى بهذه المدن مدة تكفى لاكتساب معرفة وثيقة بسياسة كل منها وأعيانها. بل إن من مفاتيح فهم الغضب والبغض فى سفر الرؤيا العلاقة الشائكة بين يوحنا والمبشرين والدوائر الدينية والأعيان والسلطات الإقليمية، وكلهم كانوا أكثر رضا من يوحنا نفسه بالحياة الطيبة التى كان المواطنون ــ الوثنيون والمسيحيون واليهود على السواء ــ ينعمون بها فى الإمبراطورية الرومانية.

كانت أفسُس، مثلاً، مركزًا تجاريًّا يضج بالنشاط المدنى والطموح. والمدينة تقع عند مصب نهر كبير وعند مفترق ثلاثة طرق حيوية، وبالتالى كانت بمثابة محور لغرب آسيا الصغرى كله. وكانت أفسُس مدينة جعلتها روما منطقة «حرة»، وكان يحكمها مجلس من مواطنيها يعرف باسم «إكليسيا» ــ اللفظ اليونانى نفسه الذى يعنى «كنيسة»ـ ولم تعان مهانة احتلال الجيش الرومانى. ومع ذلك كانت واحدة مما كان يعرف ببلدات الجلسات القضائية، حيث كان الحاكم الرومانى يتوقف بشكل روتينى بها ليسمع القضايا القانونية المهمة ويفصل فيها، وهى حقيقة زادت من مكانتها بين بلدات ومدن أقاليم الإمبراطورية الرومانية المترامية. لهذه الأسباب كافة كانت أفسُس «مدينة تمثل نموذجًا للحياة اليونانية الرومانية فى أبهى صورها»[٤٧].

كانت أفسُس أيضًا تضم ما كان يعرف بالـ «أرتيميسيوم» وهو معبد مكرس لإلهة العفة والمخاض (والحيوانات والزهور والقنص) والتى كانت تعرف لدى الإغريق باسم «أرتميس» ولدى الرومان باسم «ديانا». أنشأ المعبد أول مرة الملك كرويسس الذى اشتهر بثرائه، ثم أعيد بناؤه عدة مرات على مر القرون. كان أرتيميسيوم فى حياة يوحنا يزخر بالمرمر والخشب النادر ويزدان بالذهب والجواهر، ويعرض به تمثال للإلهة من الأبنوس والمعادن النفيسة، وكان يعد أحد العجائب السبع فى العالم القديم.

كان التمثال بالنسبة لمؤمن حقيقى كيوحنا بمثابة وثن، وكان المشهد برمته مجرد مثال آخر على ما يدينه الكتاب المقدس باعتباره رجسًا. يقول أحد المفسرين بأواسط القرن العشرين ليذكرنا بنظرة المسيحيين الأوائل للفن الوثنى برمته: «نحن نرى فى ديانا أحب الإلهات. لكن التمثال كان رابضًا أسود اللون بشع المنظر به نهود عدة، فكان تمثالاً غريبًا وبغيضًا وفظًّا»[٤٨]. ولعله كان تمثال ديانا أو عملاً غريبًا آخر من أشكال النحت الوثنى وقعت عليها عينا يوحنا ويقصده حين يستحضر صورة «أم الزوانى» «المُتَسَرْبِلَة بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٤٩].

وهناك عادة وثنية أقل أبهة ولكنها كانت أكثر استفزازًا بالنسبة لموحد متشدد كيوحنا. ففى القرن الأول، عرفت روما ديانة جديدة وردت إليها من الأقاليم الآسيوية، حيث شرع المواطنون الرومان الوطنيون فى تصور الإمبراطور الرومانى رمزًا لروح الإمبراطورية الرومانية (أو روحها الحارسة)؛ لذا فإنهم رأوا فى الدعاء له بالخير وسيلة للدعاء للإمبراطورية بالخير. وهنا أيضًا سنحت الفرصة لبلدة إقليمية لكى تعزز مكانتها؛ فصدور موافقة رسمية من روما بإنشاء معبد تكريمًا للإمبراطور يمكن تشبيهه بمنح «اتحاد كرة القدم» امتيازًا. وفى سنة ٢٦م مثلا، كانت ساردس واحدة من عشر مدن تتنافس على هذا الامتياز، وكان الفوز لسميرنا. والحقيقة أن أفسُس وبرغامُس وثياتيرا بالإضافة إلى ساردس وسميرنا كانت جميعها مراكز لما عرف بديانة الإمبراطور.

لم يكن تقديس الإمبراطور ـ كما سنرى بعد قليل ـ عملاً يدخل ضمن التجاوز الوثنى الذى روجت له الدعاية اليهودية والمسيحية؛ إذ لم يكن يُطلب من العابد سوى أن يصب بضع قطرات من النبيذ، ويلقى بحفنة بخور على الفحم بموقد وضع أمام تمثال يمثل الروح الإمبراطورية. إلا أن يوحنا اعتبر هذه العادة المستحدثة أبشع من عبادة الآلهة والإلهات القدماء. وحين يستحضر يوحنا مقر الشيطان فى كتابه لكنيسة برغامُس ـ«حَيْثُ كُرْسِى الشَّيْطَانِ»ـ فربما كان يقصد المعبد الذى أقيم بها فى سنة ٢٩ ق.م تكريمًا «لأغسطس الإلهى والإلهة روما»[٥٠]. فهو كرجل تربى وتعلم على اليهودية كان

سيجد أثرًا لعبادة بشر تكفى لتذكيره بإمبراطور آخر كان يطلب من رعاياه أن يعبدوه ـ أنتيوخوس المجنون ـ واستثارة غضبه على الإمبراطور الرومانى الجالس فى عصره.

لم يكن الطموح السياسى، والثقافى، والنجاح التجارى فى المدن السبع التى زارها يوحنا يفوق طقوس العبادة الوثنية فيها. فكانت سميرنا، مثلاً، ميناء بحريًا مهمًّا ومركزًا لتجارة النبيذ، وكان تجارها الأثرياء ينفقون على مكتبة وإستاد رياضى وأكبر مسرح عام فى آسيا الصغرى. وكانت برغامُس أيضًا تباهى بمكتبتها، واسم المدينة هو أصل كلمة «برشَمان» وهو نوع من الورق يفترض أنه اختُرع فيها. وكانت أفسُس تستضيف ألعاب المصارعة التى كانت تمثل شكلاً دمويًا من التسلية الشعبية. وكانت ثياتيرا مقر عدد كبير من الطوائف التى برزت فى عالم التجارة فى العالم القديم، أى الحرفيون والصناع والتجار ممن كانوا يصنعون المنتجات الجميلة والمفيدة التى كان الرومان يعتبرونها ممتعة أو عملية أو كلتيهما معًا.

لا شىء فى صورة المدن السبع يوحى بأنها كانت «مقار للشيطان» إلا على صفحات سفر الرؤيا. بل تبدو كأماكن ينعم فيها الأهالى ـ من مسيحيين ويهود ووثنيين على السواء ـ بحياة مترفة آمنة وطيبة. لكن الصورة تتشوه لدى من ينظر إليها بعيون الإيمان الحق. فالتنازلات الشائنة التى يبديها المرء لكى ينعم بحياة طيبة فى مدينة عالمية لم تكن أقل خطيئة من تقديس الإمبراطور الرومانى أو الدعاء لديانا متعددة النهود بالنسبة لمؤلف سفر الرؤيا. فالسعى لتأمين حياة كريمة يعد من سبل الشيطان فى نظره ونظر الأصوليين الدينيين فى كل عصر، من المكابيين فى أواخر الحقبة التوراتية إلى المتشددين الناكرين لذواتهم من اليهود والمسيحيين والمسلمين فى العالم الحديث.

إن ما يكدر يوحنا فى الحقيقة أن المدن السبع أتاحت العديد من الفرص للمسيحيين حتى يعتنقوا أنماط الحياة الرومانية وكافأتهم بسخاء على ذلك. ولا شىء أكثر حقارة فى نظره من عملية الشراء والبيع البسيطة. فمن بين كافة التجاوزات الشيطانية التى يدينها يوحنا بكل غضب واشمئزاز، يبدو أنه يعتبر التجارة خطيئة كبرى.

ولعل أفضل دليل على ذلك ما نجد فى العقوبات التى تتراءى ليوحنا لأعداء الرب

فى نهاية الزمان. فيبدأ يوحنا بتعريف قرائه وسامعيه بـ «الوحش» الذى يرمز لروما بوصفها عميل الشيطان على الأرض. ويؤكد أن من «يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ» سيتم تمييزه بـ «سِمَةٍ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ»، وهو رمز يمكن تفسيره كإشارة للأداة الأساسية للتجارة وهى عملة البلاد. ثم يحذر من أن العذاب الأكبر ينتظر كل من تميز بهذه السمة[٥١].

يقول ملَك يأتى ليوحنا فى رؤياه: «سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِى كَأْسِ غَضَبِهِ وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْحَمَلِ، وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ وَلاَ تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلاً لِلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سِمَةَ اسْمِهِ»[٥٢].

بل إن أول الخاطئين الذين ينزل بهم العذاب فى آخر الزمان هم من يحملون سمة الوحش. سبعة من الملائكة سيصبون سبع قوارير تحوى «غَضَبَ الرَّبِّ»، والقارورة الأولى التى يصبها أول الملائكة ستسبب «دَمَامِلَ خَبِيثَةً وَرَدِيَّةً» تصيب من «بِهِمْ سِمَةُ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِصُورَتِهِ»[٥٣]. وفى ختام المحنة الطويلة الوارد وصفها بهذا التفصيل المريع بسفر الرؤيا يُلقَى كل من به سمة الوحش «حَيًّا إِلَى بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ»[٥٤].

ومن الواضح أن سمة الوحش اسم، ربما اسم أحد أباطرة الرومان، أو لعله المقابل العددى لأحرف اسمه. وفى موضع آخر من السفر يختذل يوحنا اسم الوحش فى الرقم ٦٦٦، وهو نوع من الشفرات الألفبائية العددية لا وجود له إلا فى اللغات التى تؤدى أحرفها وظيفة الأعداد أيضًا (منها العبرية واليونانية). وهو أيضًا ما يقوم دليلاً على أصوله اليهودية؛ فاستخلاص المعانى الصوفية من النص التوراتى من خلال الحساب والتلاعب بالقيم العددية للأحرف فيما يعرف بـ «حساب الجُمَّل» كان أثيرًا لدى متصوفة اليهود. ويمدنا يوحنا بدليل مهم وكاشف لما يعتمل فى خاطره عن الوظيفة الدنيوية لـ «سمة الوحش»:

يقول يوحنا مفسرًا: «وَيَجْعَلَ الْجَمِيعَ: الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ وَالأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ

وَالأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ تُصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِمِ الْيُمْنَى أَوْ عَلَى جِبْهَتِهِمْ، وَأَنْ لاَ يَقْدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِى أَوْ يَبِيعَ إِلا مَنْ لَهُ السِّمَةُ أَوِ اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ»[٥٥].

كان الشراء والبيع ـ كما رأينا ـ من أكبر مشاغل المدن السبع التى عمل فيها يوحنا بالتبشير، فهى مصدر الثروة وما يمكن للثروة أن تأتى به من ملذات. والثروة تقاس بالمال بطبيعة الحال؛ والمال المتداول فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية كان موسومًا باسم وصورة الإمبراطور الرومانى الذى تُضرب فى عهده. وبعض المسكوكات كانت تعرِّف الملك صراحةً باللفظ اللاتينى «divus» أو باللفظ اليونانى «theos» وكلاهما بمعنى «إله»[٥٦]. ويلاحظ أن اللفظ اليونانى الذى يرد بسفر الرؤيا ويترجم بمعنى «وسم» هو أيضًا «مصطلح فنى يطلق على الطابع الإمبراطورى الذى تدمغ به الوثائق التجارية، وعلى الختم الملكى الذى يضرب على المسكوكات الرومانية»[٥٧]. وعندما تمر عملة بكف مسيحى يقول يوحنا إن الوحش وسمه.

وقليلاً ما يرضى يوحنا باستعمال لفظ أو عبارة تعبر عن شىء واحد، ووسم الوحش تعبير يزخر بمعان أعمق. فاللفظ اليونانى بمعنى «وسم»، مثلاً، يستعمل أيضًا للإشارة إلى الوسم الذى يدمغ على جلد الماشية لتحديد مالكها. وهناك قلة من المصادر القديمة تشير إلى أن العبيد والجنود كانوا يوسمون بصورة مماثلة (يوشمون) كرادع من الفرار أو ترك الخدمة. ويؤكد أحد المصادر على أن البغايا أيضًا كنَّ يوسمن بوسم مالكهن أو من يستخدمهن. ويشير ثالث أسفار المكابيين إلى أن أحد فراعنة مصر فى العصر الهيلينى أمر بوسم بعض رعاياه من اليهود بصورة ورقة لبلاب، وهى شارة الإله ديونيسيوس[٥٨].

وهناك عادة قديمة أخرى قد تفسر إشارة يوحنا الغريبة وهى الوسم الذى كان يدمغ على جبهة أو رقبة أو يد من قُبلت عضويته فى رابطة مهنية أو عمالية، أو تم تكريسه فى ديانة أحد الآلهة الوثنيين. وبما أن الروابط المهنية كانت تلتمس حماية أحد الآلهة أو إحدى الإلهات، فربما كانت العضوية فى إحدى الروابط والتكريس فى إحدى الديانات شيئًا واحدًا. ووسم أعضاء الرابطة والديانة يفسر كمحاكاة واعية لدمغ

العبيد ؛ فيقر المكرَّس بعبوديته للإله «بحزوز لا تكتب على قطع من رق البرشمان، بل تدمغ على جسده بحديد محمى كالعادة المتبعة مع العبيد» على حد تعبير فيلو الفيلسوف اليهودى بالقرن الأول[٥٩].

ومع ذلك فالمعنى الأصلى لعبارة «وسم الوحش» قد تكون إشارة إلى أسماء أو أعداد أو رموز كانت تظهر على المسكوكات الرومانية. والمسكوكات عند يوحنا أسمى رموز السلطة الرومانية المحفورة بالذهب والفضة، ورمز أيضًا للكماليات ووسائل الرفاهية التى يبتاعها بعض المسيحيين على حساب روحهم حين يبدون تنازلات يدينها بشدة. والعملة المضروبة بالذهب أو الفضة وعليها صورة الإمبراطور تعد بالنسبة لمحارب حضارى كيوحنا نموذجًا لما يدينه إله إسرائيل فى الوصايا العشر. بل إن خوف يوحنا ونفوره من المسكوكات الرومانية يقوم دليلاً آخر على هويته اليهودية، وتعد فى الوقت نفسه نموذجًا آخر للقيم اليهودية التى يزخر بها سفر الرؤيا.

واعتبار إمساك عملة رومانية عملاً وثنيًّا مسألة لا تتأتى إلا من يهودى متدين من يهوذا. ففى هيكل يهوه بأورشليم [القدس]، مثلاً، لم يكن من يحجون إلى الهيكل من بلاد بعيدة يأتون معهم بالحيوانات التى يتقربون بها على مذبح الرب، بل كانوا يبتاعون ما يحتاجون إليه من ماشية وأغنام لدى وصولهم إلى أورشليم [القدس]. وخوفًا من أن يلوث الحجاج الهيكل بتداولهم عملات تحمل اسم إمبراطور وثنى أو إله وثنى أو صورته، كان الصرافون القائمون بتغيير العملات يتواجدون بالقرب من الهيكل لتبديل العملات الوثنية بعملات كان ممنوعًا ظهور أسماء أو صور عليها.

والصيارفة وباعة حيوانات القرابين ممن يمارسون عملهم عند الهيكل بأورشليم [القدس] يرد ذكرهم فى الأناجيل بالطبع، ولكن فى حكاية تحرف سبب وجودهم بالمكان أصلاً. تقول الحكاية بإنجيل مرقس: «وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِى الْهَيْكَلِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِىَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ»[٦٠]. فيدين يسوع الصيارفة وباعة الحيوانات القربانية ؛ لأنهم أحالوا الهيكل «مغارة لصوص»، لكنهم فى الحقيقة كانوا يؤدون خدمة كانت تمنع تدنيس الهيكل بالاتجار بمسكوكات عليها «وسم الوحش»[٦١].

وقصة الإنجيل لا ذكر لها على الإطلاق فى سفر الرؤيا الذى كان مؤلفه يتفهم الوظيفة الدينية للصيارفة حتمًا. فالعملة الوحيدة التى يجب على المتدين الحق أن يرفض تداولها عنده هى النوع الذى يحمل أسماء وصور الإمبراطور الرومانى ورعاته وراعياته الإلهيات، أى المسكوكات المنقوش عليها وسم الوحش. إلا أن ازدراء يوحنا المال واحتقاره التجارة وجها عملة واحدة إن صح التعبير. فهو حين يصف الدمار النهائى لـ «بابل» ـ اسم شفرى لروما الاستعمارية لا فى سفر الرؤيا وحده بل أيضًا فى كتابات رؤيوية قديمة أخرى كتنبؤات العرافين ورؤيا باروخ ـ يوجه يوحنا قدرًا من أكثر أساليبه النثرية تنميقًا وسخريته المريرة لمن يرتزقون من شراء الكماليات وبيعها.

يقول يوحنا عن رؤياه عن دمار روما النهائى: «وَيَبْكِى تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فيما بَعْدُ»(٦٢). ويواصل ليقدم قائمة بسلعهم بتفصيل مترف يشى بقدر من الحسد إضافة إلى الازدراء: «بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ وَكُلَّ عُودٍ ثِينِى وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنَ الْعَاجِ وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنْ أَثْمَنِ الْخَشَبِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْمَرْمَرِ، وَقِرْفَةً وَبَخُورًا وَطِيبًا وَلُبَانًا وَخَمْرًا وَزَيْتًا وَسَمِيذًا وَحِنْطَةً وَبَهَائِمَ وَغَنَمًا وَخَيْلاً وَمَرْكَبَاتٍ وَأَجْسَادًا وَنُفُوسَ النَّاسِ»(٦٣).

وفى موضع آخر من سفر الرؤيا، يتخيل يوحنا أن الخاطئين سيلقون فى بحيرة من نار إلى الأبد، بحيرة «مُتَّقِدَةٍ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ»(٦٤). إلا أنه يقنع هنا برؤى عن تجار وربابنة لا يعانون إلا انكسار الخواطر لضياع تجارة مزدهرة فى سلع فاخرة وهم يشهدون دمار بابل.

يقول يوحنا: «تُجَّارُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّذِينَ اسْتَغْنُوا مِنْهَا سَيَقِفُونَ مِنْ بَعِيدٍ مِنْ أَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ ... وَكُلُّ الْجَمَاعَةِ فِى السُّفُنِ وَالْمَلاَّحُونَ وَجَمِيعُ عُمَّالِ الْبَحْرِ وَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ، وَصَرَخُوا إذ نَظَرُوا دُخَانَ حَرِيقِهَا قَائِلِينَ: أَيَّةُ مَدِينَةٍ مِثْلُ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ؟ وَأَلْقُوا تُرَابًا عَلَى رُءُوسِهِمْ وَصَرَخُوا بَاكِينَ وَنَائِحِينَ قَائِلِينَ: «وَيْلٌ وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِى فِيهَا اسْتَغْنَى جَمِيعُ الَّذِينَ لَهُمْ سُفُنٌ فِى الْبَحْرِ مِنْ نَفَائِسِهَا لأَنَّهَا فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَتْ ... وَكُلُّ صَانِعٍ صِنَاعَةً لَنْ يُوجَدَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ وَصَوْتُ رَحًى لَنْ يُسْمَعَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ»(٦٥).

وإذا كان يوحنا يسعى لتخويف قرائه وسامعيه حتى يتجنبوا أصدقاءهم وجيرانهم وأقرباءهم الوثنيين، فإن إضفاء السمات الشيطانية على عملات الرومان ــ واستهجان «البضائع» التى يمكن أن تشتريها ــ كان أداة نفسية بارعة. إذ يحق للمتدينين المسيحيين أن يهنئوا أنفسهم لفقرهم سواء أكان طوعيًّا أم غير طوعى، بتذكير أنفسهم بأن المشاركة فى التجارة الوثنية لا يقل عن التعامل مع الشيطان. ويحثهم سفر الرؤيا على التسلى بالحلم بيوم يعذب الرب فيه المهادنين ممن تعاملوا بعملات الشيطان. والثأر ـ كما سنرى ـ من القيم الأساسية بسفر الرؤيا.

إن استهجان يوحنا للعملة والتجارة يتفق أيضًا مع ما قد نستشف عن نمط حياته. فليس هناك فى سفر الرؤيا ما ينص على أو يوحى بأن يوحنا نفسه يمارس التجارة أو يشارك فى الشراء والبيع، أو حتى يشغل منصبًا كهنوتيًّا فى أى من الكنائس السبع التى يخاطب. بل يبدو أنه يتبع خطى إرمياء ويوحنا المعمدان؛ فهو نبى صرف، لا يحمل رسم كهانة ولا لقبًا رسميًّا. ولا يبدو أن له دارًا بأى من المدن السبع. ويبدو أن يوحنا كان يتجول من بلدة إلى أخرى معتمدًا على من يلتقى بهم فيهبونه طعامًا يقيم أوده ومأوى يستلقى به. وبذلك فإنه عاش وسلك فى حياته فى محاكاة واعية ليسوع وتلاميذه كما ورد وصفهم بإنجيل متى.

يقول يسوع لتلاميذه الاثنى عشر: «لاَ تَقْتَنُوا ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً وَلاَ نُحَاسًا فِى مَنَاطِقِكُمْ، وَلاَ مِزْوَدًا لِلطَّرِيقِ وَلاَ ثَوْبَيْنِ وَلاَ أَحْذِيَةً وَلاَ عَصًا لأَنَّ الْفَاعِلَ مُسْتَحِقٌّ طَعَامَهُ. وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ دَخَلْتُمُوهَا فَافْحَصُوا مَنْ فِيهَا مُسْتَحِقٌّ وَأَقِيمُوا هُنَاكَ حَتَّى تَخْرُجُوا»[٦٦].

كانت حياة يوحنا كمبشر متجول إعلانًا عن أفكار يعتنقها بكل حماس على صفحات سفر الرؤيا: «تقنين لقيم النسك والتشرد وانعدام الروابط الأسرية ورفض الثراء والأملاك» حسب قول أحد الباحثين[٦٧].

وهذه هى القيم نفسها التى ترد فى القواعد الصارمة التى تحكم أعضاء الطائفة الرؤيوية كتلك التى كانت بقمران بجوار البحر الميت، وفى بيانات النبى الرؤيوى الذى

يسمى يسوع : «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ»[٦٨].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن يوحنا ترك حياة ثراء وترف ليؤدى رسالته كنبى. وهو رأى نظرى إلى حد كبير ولكنه لافت. فبما أن النفى كان عقوبة خاصة بالأرستقراط فى القانون الرومانى، فإن يوحنا نفسه فى تصورهم لا بد أنه كان عضوًا فى طبقة الكهان اليهود، ورجلاً ذا منزلة رفيعة بين اليهود. وهناك مصدر قديم هو أسقف من أفسُس يدعى بوليكراتس عاش بأواخر القرن الثانى، يقول إن يوحنا كان كاهنًا مرسمًا ولم يكن مبشرًا متطوعًا. وبناء على شواهد متهافتة كهذه يذهب أحد الباحثين إلى أن يوحنا نفى إلى پطمُس مباشرةً من حياة مترفة كان يحياها بأورشليم [القدس] والإسكندرية، بل ربما فى روما الاستعمارية أيضًا[٦٩]. إلا أن نص الرؤيا يوحى بأن يوحنا كيسوع نفسه كان رجلاً من أصول متواضعة لم يطمح قط لمنزلة أو ثراء، بل إنه كان يتجنب من يفعلون ذلك.

ومبشر جوال كيوحنا كان سيصبح شخصية معروفة لدى الطوائف المسيحية بالمدن السبع. وهناك كتيب مسيحى للتعاليم الدينية من الحقبة نفسها تقريبًا يعرف بـ«الديداخ» ـ ويضم فقرات رؤيوية خاصة به ـ يدعو كافة المسيحيين الأتقياء لـ«اقتسام أبكار محاصيلهم ومالهم وثيابهم مع أى نبى حق يرغب فى الإقامة بين ظهرانيهم»[٧٠]. ويؤكد الديداخ أن الأنبياء ــ أو الصادقين منهم على الأقل الذين يتكلمون «بالروح» ــ يستحقون أن يؤخذوا على محمل الجد[٧١]. وبعد إعلان التراث الحبرى اليهودى انتهاء عصر النبوة بمدة طويلة، كانت الكنائس المسيحية بالإمبراطورية الرومانية لا تزال مستعدة للترحيب بأى رجل (أو امرأة) يزعم ويُثبت أنه «نبى حق».

والحقيقة أن يوحنا اضطر لمواجهة أكثر من منافس من بين أدعياء النبوة بآسيا الصغرى ومنهم رجل وامرأة اعتبر منافستهما خطيرة لدرجة أنها أوحت ببعض من أسوأ المنازلات اللفظية فى سفر يزخر بالغضب. ولا نعلم اسميهما الحقيقيين، إلا أنه يطلق عليهما «إيزابل» و«بلعام» مستعيرًا اسمى زوج من الأشرار بالكتاب المقدس العبرى. ويدين كلاًّ من منافسيه بأخطر تهمة أمكنه أن يرميهما بها، أى خطيئة ادعاء النبوة.

إن استحواذ فكرة ادعاء النبوة على يوحنا تدفع بواحدة من المشكلات التى يزخر بها سفر الرؤيا سواء فى عصره أو فى عصرنا الراهن. ففى العصر الذى ظهر فيه يوحنا بآسيا الصغرى ، كان التراث اليهودى يتشكك بالفعل فى أدعياء الكهانة والمسيحانية. وما لبثت الكنيسة الوليدة أيضًا أن بادرت بالشك فى أناس كيوحنا أصروا على أنهم رسل من عند الرب. بل إن دلائل يوحنا النبوية كانت موضع شك قبل إقرار سفر الرؤيا ضمن الكتابات المقدسة المسيحية. وكما سبق أن رأينا فى حياتنا فإن قراء سفر الرؤيا ممن يعتبرون أنفسهم أنبياء يمكن أن يشكلوا خطرًا بل خطرًا مميتًا. ومع ذلك ومن الغريب أن الخوف من أدعياء النبوة موثق بصورة مفصلة فى سفر الرؤيا نفسه.

تشمل الكتب المرسلة للكنائس السبع والتى يفتتح بها سفر الرؤيا تحذيرًا عامًّا من أدعياء النبوة ـ « الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلاً »ـ وسلسلة من الرسائل لمختلف الكنائس عن أناس بعينهم يتهمهم يوحنا بالخطيئة نفسها[٧٢]. وهكذا ينقل يوحنا بركة « ابن الرب » لكنيسة أفسُس ؛ لأنها تعرفت على الزنادقة الذين يسميهم « النُّقُولاَوِيِّينَ » ونبذتهم : « أَنَّكَ تُبْغِضُ أَعْمَالَ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّتِى أُبْغِضُهَا أَنَا أَيْضًا »[٧٣]. ولكنه يدين أعضاء كنيسة برغامُس لتهاونهم مع مدعى النبوة الذى يسميه « بلعام ». كما يدين كنيسة ثياتيرا لاحتضانها نبية الفتنة التى يسميها « إيزابل ».

يقول يوحنا لكنيسة ثياتيرا ناقلاً رسالة من « ابن الرب » : « أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَخِدْمَتَكَ وَإِيمَانَكَ وَصَبْرَكَ وَأَنَّ أَعْمَالَكَ الأَخِيرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الأُولَى ، لَكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ قَلِيلٌ : أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِى تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِى عَبِيدِى أَنْ يَزْنُوا »[٧٤].

وكما فى مواضع أخرى من سفر الرؤيا ، يستلهم يوحنا كتابات اليهود المقدسة فى شجبه خصومه. فبلعام مثير فتن وثنى موفد من قبل ملك مؤاب لصب اللعنة على بنى إسرائيل الغزاة حسب ما ورد بقصة شيقة وردت بسفر العدد ، وينتهى به الأمر بتوبيخه على غبائه من قبل حماره. إذ يرى المخلوق المتواضع ملاكًا من عند الرب يعترض طريقهما بسيف مشهر ، إلا أن بلعام الجهول لا يرتدع[٧٥].

وإيزابل ـ الزوجة الزنديقة لملك بنى إسرائيل الذى يدعى آخاب ـ تغوى زوجها بعبادة الآلهة والإلهات الوثنيين وتخطط لقتل أنبياء يهوه، ويدينها سفر الملوك الثانى لفجورها وممارسة السحر[٧٦]. ومرة أخرى يفترض يوحنا أن سامعيه وقراءه سيدركون ويتفهمون هذه العلاقات، وهى حقيقة توحى بأنهم كانوا من بنى ملته من اليهود ممن آمنوا لتوهم بأن يسوع هو المسيح.

قد يكون هناك قدر من الغيرة المهنية فى هذا المقام. فيوحنا كان سيضطر على أية حال للتنافس مع غيره من الأنبياء الجوالين سعيًا للفت الطوائف المسيحية واستدرار سخائها حيث كانوا جميعًا يسعون وراء الأتباع والأسخياء. ولكن يبدو أنه كان لديه اعتراض من حيث المبدأ على منافسيه، فمن الواضح أنهم يشجعون المسيحيين على مسايرة السلطات الوثنية بالمدن التى كانوا يقيمون بها ويمارسون عملهم. وهنا نجد الجبهة التى يخوض فيها يوحنا الحرب الحضارية على صفحات سفر الرؤيا. فالمسيحى الذى يهادن هو المسيحى الذى يخطئ فى نظر رجل كيوحنا.

ولفهم المهادنة التى يرضى المسيحى فى برغامُس أو ثياتيرا أن يبديها، فنحن بحاجة لتذكر ما كان متوقعًا من أى متحول إلى المسيحية أن يفعل وما ينبغى عليه أن يتجنب. ففى لحظة حاسمة من تاريخ المسيحية الأول، قرر المسيحيون الأوائل التخلى عن الشريعة اليهودية برمتها، بما فى ذلك طقس الختان وشرائع الكشروت الغذائية وطقس السبت الصارم، فكلها كانت عقبات تحول دون اعتناق الوثنيين الدين الجديد. إلا أنهم أبقوا على بعض المحرمات؛ فالوثنى المتحول إلى المسيحية قد يمسك عن خوض محنة ختان الكبار الأليمة، ولكن كان عليه «أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ نَجَاسَاتِ الأَصْنَامِ وَالزِّنَا وَالْمَخْنُوقِ وَالدَّمِ»، أى أن يمسك عن تناول اللحم المقدم قربانًا لأحد الآلهة الوثنية[٧٧].

ولكن حتى هذه التشريعات الدنيا كانت تعنى انقطاع المسيحى عن اللهو العادى والمعاملات اليومية فى بلدة رومانية، أو هكذا يرى مسيحى متزمت لا يهادن كمؤلف سفر الرؤيا. وكانت الروابط الحِرفية تفتتح اجتماعاتها ببضعة أدعية لإله أو آخر من مجمع آلهة الوثنية الكلاسيكية. وكانت العملة الإمبراطورية تحمل وجوه أباطرة الرومان وآلهتهم

وصورهم. وحتى الوجبة العادية التى يتناولها المرء مع رفاقه أو أسرته ممن كانوا لا يزالون على وثنيتهم، كان من المرجح أن تشتمل على طعام أعد بلحم «قربانى» للآلهة، وذلك لسبب بسيط هو أن التقدمات الحيوانية والذبح بغرض الاستهلاك الآدمى كانا شيئًا واحدًا فى العالم القديم. وبالتالى فالمسيحى الورع كان عليه أن يعرض عن التعامل بالعملة الوثنية أو مع الروابط الوثنية، وعن المشاركة فى موائد الأصدقاء والمعارف الوثنيين.

ولم يكن هناك سوى قلة من المسيحيين مستعدين ـ على ما يبدو ـ للمهادنة أو التنازل فى بعض هذه النقاط أو كلها. وكذلك كان بعض المسيحيين بمدن آسيا الصغرى، إذ كانوا كاليهود الذين اتبعوا أنماط الحياة الإغريقية إبان ثورة المكابيين. وهكذا فإن الطوائف المسيحية التى كان يوحنا يبشر فيها تضم مسيحيين منتمين للروابط الوثنية ويبيعون ويشترون سلعًا بالعملات الإمبراطورية، وكانوا يشاركون فى موائد أصدقائهم ومعارفهم من غير المسيحيين. وكان بعض قسسهم ـ ومنهم من يسميهما يوحنا إيزابل وبلعام ـ يباركون هذه المهادنة على ما يبدو. فكانت المهادنة فى نظر بعض المسيحيين وكهانهم بمثابة وسيلة للإفلات من الاضطهاد وفى الوقت نفسه للإفادة من المكاسب المتاحة بمن يشاركون فى الحِرَف أو فى التجارة.

أما فى نظر مؤلف سفر الرؤيا ـ كما كان فى نظر دانيال وغيره من الكتّاب الرؤيويين من قبله، وعديد من المؤمنين الصادقين من بعدهم ـ فإن أدنى صور التنازل عن الإيمان الحق مدانة باعتبارها خطيئة بحق الرب. فيوحنا يضع التزمت ونقاء العقيدة فوق كل شىء، وهو لا يفرق بين التعامل بعملة رومانية والمشاركة فى عبادة الشيطان. بل إنه يعتبر أشباه المسيحيين مقززين، بل إنه يحول القدر نفسه من الاشمئزاز من الرب نفسه تجاههم. فيعلن يوحنا على لسان الرب فى سفر الرؤيا قائلاً: «لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّى أَنَا غَنِى وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ وَلاَ حَاجَةَ لِى إِلَى شَىْءٍ ... هَكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِى»(٧٨).

أى أن فقدان الحماس يجعل يوحنا (أو الرب نفسه إن شئنا الدقة) يشعر بالاشمئزاز. بل إن هناك معيارًا أكثر دقة ينطبق على زملائه المبشرين: فإذا لم تنطبق عليهم معاييره

الدقيقة فى التُّقى والدين الحق فإنهم لا يزيدون شيئًا عن البغايا والساحرات. وهذا ما يجعل المنطق الأخلاقى لسفر الرؤيا جاذبًا للناس فى كل عصر ممن يشاركون يوحنا فى اعتبار أدنى زلة انغماسًا فى النار.

ولا يقتصر يوحنا على انتقاد المسيحيين ممن لا يكلفون أنفسهم عناء سؤال مستضيفهم عن الطريقة التى ذبح بها اللحم المقدَّم على موائدهم. فهو يتهم كلاًّ من إيزابل وبلعام بتعليم المسيحيين المخلصين «أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ». ويواصل بإدانتهما بإغواء المسيحيين بارتكاب الزنا، وهى الخطيئة الأخلاقية الأولى التى استحوذت على تفكير أنبياء الكتاب المقدس العبرى الكلاسيكيين[٧٩]. بل إن يوحنا وقدوته من اليهود كانوا يعتبرون الزندقة والاختلاط الجنسى خطيئتين تبادليتين.

واللفظ اليونانى الذى يترجم عادةً بمعنى «زنا» (بورنيوساى) يحمل معنى «تشغيل البغايا»[٨٠]، ولكن من المستبعد أن تكون إيزابل وأتباعها كانوا يشاركون فى العهر أو حتى الاختلاط الجنسى. وربما كان «الزنا» لفظًا شفريًّا يتداوله مؤلفو الكتاب المقدس لوصف ما يسميه الباحثون «التوفيق بين المعتقدات»، أى التوفيق بين العقائد الدينية التى كانت شائعة فى الوثنية الكلاسيكية. وربما كان يوحنا يستعمل لفظ «زنا» فى إشارة إلى شىء ليس من قبيل عقد الزيجات بين من يُحظر عليهم الزواج فى ظل الشريعة اليهودية ولكنه غير محظور عليهم فى ظل القانون الرومانى.

إلا أن الكلمات والألفاظ التى يختارها يوحنا يُقصد بها الإيحاء بأن إيزابل نفسها وأتباعها المسيحيين كانوا مارقين وعُصاة جنسيًّا بالمعنى الحرفى، أصروا على المضى فى مغامراتهم الشهوانية حتى بعد أن تم تحذيرهم بالعواقب. بل إن نص سفر الرؤيا يوحى ـ وإن لم يكن يصف ـ بمشاهد بغاء أو مجون أو إنجاب أطفال سفاحًا دون رادع، وكلها أمور دعت بعض القراء الأكاديميين لاعتبار سفر الرؤيا عملاً من أعمال «العرى الرؤيوى»[٨١]. يقول «ابن الرب» فى إدانة إيزابل: «وَأَعْطَيْتُهَا زَمَانًا لِكَى تَتُوبَ عَنْ زِنَاهَا وَلَمْ تَتُبْ، هَا أَنَا أُلْقِيهَا فِى فِرَاشٍ وَالَّذِينَ يَزْنُونَ مَعَهَا فِى ضِيقَةٍ عَظِيمَةٍ إِنْ كَانُوا لاَ يَتُوبُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَأَوْلاَدُهَا أَقْتُلُهُمْ بِالْمَوْتِ»[٨٢].

والمعانى المزدوجة نفسها قد نجدها مدفونة فى إدانة يوحنا «تَعَالِيمِ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّذِي أُبْغِضُهُ» والمسيحيين الآخرين ممن يؤمنون بما يسميه «أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ»(٨٣). ومع أن النيقولاويين مجهولون تمامًا إلا على صفحات سفر الرؤيا، فإن آباء الكنيسة الأولى كانوا يعتبرونهم عصبة من الهراطقة بقيادة نيقولا، وهو شخصية يلفها الغموض ورد ذكرها بصورة عابرة بسفر أعمال الرسل(٨٤). ومن الباحثين من يذهبون إلى أن يوحنا يشير إلى «فرقة إباحية مسيحية» كان من تعاليمهم السحر وغيرها من الممارسات الشيطانية وإباحة الجنس كأداة للتبصر الروحى(٨٥). ويفترض أن النيقولاويين كانوا يبشرون بأن «المسيحى العاقل والناضج لا بد أن يعرف الحياة بأسوأ صورها وأفضلها، وبالتالى يجوز بل ينبغى ــ له أن يقترف أقبح الخطايا حتى يعرف ما هى» حسب قول الباحث الإسكتلندى ويليام باركلى(٨٦).

ولكن من الممكن أيضًا ــ بل الأرجح ــ أن النيقولاويين كإيزابل وبلعام كانوا مسيحيين متفتحين ومستعدين لتقديم تنازلات تسمح لهم بالمشاركة الكاملة فى «الحياة الاجتماعية والتجارية والسياسية» للمجتمعات الوثنية التى كانوا يعيشون فيها. وقد لا تزيد النعوت الملتهبة والبغيضة التى يرمى بها يوحنا أعداءه اللاهوتيين عن مجرد «أسماء شفرية» يوردها فى إشارة إلى القسس والمبشرين المسيحيين ممن «كانوا يسمحون بتناول الطعام المقدم قرابين للأوثان ويرضون بمهادنة ديانة الإمبراطور»(٨٧). وإن صح ذلك فإن أسوأ آثامهم ـ وربما إثمهم الوحيد ـ كان وضعهم أنفسهم على الجانب الخطأ مما اعتبره يوحنا ساحة حرب حضارية.

ولا يبوح يوحنا بشىء عن الجوانب الحميمة من حياته، ولا ندرى ما إذا كانت له زوجة وأطفال أو ما إذا كانت له أسرة أصلاً. ولكنه يسمح لنا بأن نفهم أنه كان معرضًا تمامًا عن الحياة الجسدية، وحين يذكر الجنس فلا يبدو أنه كان يعتبر اللقاء بين الرجل والمرأة شيئًا سوى زنا. بل إن يوحنا يوضح فى سفر الرؤيا أنه يعتبر السلوك الجنسى برمته ـ حتى فى إطار الزواج ـ نوعًا من النجاسة.

يتنبأ يوحنا، مثلاً، أن هناك مائة وأربعة وأربعين ألف نفس ستُرفع إلى مكان مماثل لجبل صهيون فى السماء توهب فيه ميزة اتباع الحمَل «حَيْثُمَا ذَهَبَ»(٨٨). فهم استُردوا

«مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بَاكُورَةً لِلَّهِ وَلِلْحَمَلِ»[٨٩] وهى عبارة تذكر بطقس القربان الحيوانى الذى كان يقدم فى هيكل أورشليم [القدس]، وتوحى بأنهم شهداء قدموا أسمى قربان للرب. ولتمييز «الباكورة» عن سائر بنى آدم، فإن اسم الرب واسم الحمَل «سيُختمان على جباههم»[٩٠]. ويحرص يوحنا على بيان أنهم سيتميزون أيضًا لسبب أقل وضوحًا وهو أنهم جميعًا ظلوا عزابًا طوال حياتهم. يقول يوحنا «هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ لأَنَّهُمْ أَطْهَارٌ»[٩١].

هناك ضيق بالجنس بكافة صوره حتى فى إطار الزواج يمكن ملاحظته فى التراث الرؤيوى برمته. فسفر المراقبين، مثلاً، يلقى باللائمة عن وجود الشر فى الدنيا على هبوط الملائكة من السماء و«تنجيس أنفسهم» بمجامعة النساء «بكل نجاستهن»[٩٢]. ويذكر يوسفوس أن فرقة واحدة على الأقل من رهبان اليهود كانت تعرض عن الزواج والإنجاب، ويذهب الآثاريون إلى أن أعضاء الطائفة الرؤيوية بقمران كانوا فى معظمهم إن لم يكونوا جميعًا من العزاب. وفكرة اعتبار الجنس نجاسة متأصلة فى فقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى، حيث يؤدى أى سلوك جنسى بين الرجل والمرأة إلى تنجيسهما دينيًّا. فورد بفقرة فى سفر اللاويين أن: «وَالْمَرْأَةُ الَّتِى يَضْطَجِعُ مَعَهَا رَجُلٌ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ يَسْتَحِمَّانِ بِمَاءٍ وَيَكُونَانِ نَجِسَيْنِ إِلَى الْمَسَاءِ»[٩٣].

هذا الموقف المتشدد من الجنس يصادفنا فى التراثين اليهودى والوثنى. فالقس أو الجندى لا حاجة لأن يكون عزبًا، ولكن لا بد له من أن يمسك عن مضاجعة النساء قبل القيام بأنشطة بعينها كأداء الطقوس الدينية وخوض المعارك. واشتراط الإمساك عن الجنس قبل الحرب كان المكابيون يعتنقونه فى حربهم على الذوبان [فى الأجانب] والاحتلال، إلا أن الجندى الوثنى الورع قد يؤمن بذلك أيضًا. ويبدو أن يوحنا أيضًا كان يؤمن بأن الجنود المسيحيين لا بد أن يستعدوا للمعركة الأخيرة بين الرب والشيطان بتجنب كل سلوك يؤدى للنجاسة كالجنس. إلا أن موقف يوحنا من الجنس كموقفه مما عداه مطلق ولا هوادة فيه.

وهناك مثال واضح على موقف يوحنا المتميز من التعاليم الأخلاقية للكتاب

المقدس العبرى. فهو يمسك بإحدى الوصايا التوراتية، ثم يواصل إضفاء صبغة راديكالية عليها. فالجنس نجاسة يمكن الاستغناء عنها فى التشريع اليهودى ـ فمن يتنجس بالدخول فى لقاء جنسى لا يحتاج إلا للغطس فى حمام طقسى ليتطهر ـ لكن يوحنا يذهب إلى ضرورة تجنب أى لقاء جنسى بين رجل وامرأة[٩٤]. ونظرًا لاقتناع يوحنا بأن آخر الزمان وشيك، ولكنه لا يدرى متى على وجه الدقة، فإنه يوصى بضرورة توقف الرجال والنساء على السواء عن النوم معًا وإلى الأبد حتى يكونوا أطهارًا حين تحل النهاية، سواء أحدث هذا غدًا أو فى لحظة غير معلومة فى المستقبل.

وهكذا يرى يوحنا فى الجنس شيئًا قذرًا ونجسًا فى كل الأحوال. والمتسامون الوحيدون الحقيقيون من البشر فى سفر الرؤيا العذارى والشهداء، وكافة أعدائه من البغايا والقوادين. وهو فاقد الثقة ومزدرٍ للمرأة عمومًا؛ والمرأة الفانية الوحيدة التى يذكرها يوحنا بالاسم، أى النبية المنافسة التى يسميها إيزابل، يدينها باعتبارها غاوية وزانية. والفقرات التى تركز فى سفر الرؤيا على اللقاءات بين الرجال والنساء تنم عن موقف متصارع بعمق تجاه الجنس «وربما يتضمن بغضًا وخوفًا من المرأة ومن جسده هو»[٩٥].

وهناك قراء آخرون لسفر الرؤيا يتشككون فى أن يوحنا قد يحتج أكثر من اللازم حين يتعلق الأمر بإدانة الجنس. فيشير د. هـ. لورنس الذى يشتهر برواياته الغرامية أكثر من اشتهاره بالتفسير التوراتى إلى أن أعظم زانية بسفر الرؤيا وهى زانية بابل شخصية شيقة وربما عن عمد. يقول لورنس فى معرض تعليقه على سفر الرؤيا: «كما يحسدون بابل على بهائها، ويحسدونها ويحسدونها! تجلس البغى فى جلال وبيدها كأس نبيذ المتعة الحسية الذهبى. كم كان الرؤيويون يتمنون لو رشفوا من كأسها! وبما أنهم لم يتمكنوا من ذلك فكم تمنوا أن يهشموها!»[٩٦].

بل إن يوحنا يبدى شيئًا قاتمًا ومقلقًا فى خياله الجنسى فى اللحظة التى يستحضر فيها الغاوية الكبرى وهى متسربلة بالحرير والجواهر، ويركز عينى خياله على ما تحمل فى يدها: «كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٩٧]. وهى فقرة شديدة الإباحية فى سفر زاخر بالإباحية. وعندما يدعونا يوحنا لتصور ارتجاج هذه

«الرجاسات» و«النجاسات» فى ذلك الكأس الذهبى، فإن من دوَّن سفر الرؤيا ينبئنا بكل شىء نريد أن نعرفه عن موقفه المعذَّب من الجنس.

إن استحواذ الطهارة على فكر يوحنا يشمل كل شىء، بما فى ذلك الفكر اللاهوتى المجرد والاهتمامات الإنسانية كالجنس والطعام والمال، وقد تساعدنا شخصيته الاستحواذية على فهم سبب ما لسفر الرؤيا من تأثير بالغ على قرائه ممن تتوفر فيهم سمات مماثلة، بدءًا بالمتحمسين الدينيين وانتهاءً بالمخبولين طبيًّا. بل إن يوحنا يقدم لنا دليلاً نصيًّا لكاشفى الشفرات وأصحاب نظرية المؤامرة من المعرَّضين كيوحنا نفسه لرؤية الشيطان بصوره المستبعدة.

وليس من بين الألغاز التى ينثرها يوحنا فى أرجاء نص الرؤيا ما يضاهى «عدد الوحش»، أى شفرة حساب الجمَّل التى يقصد بها الرمز لاسم الإمبراطور الرومانى الذى عاش يوحنا وعمل فى عهده، الإمبراطور الذى نقش اسمه على المذابح الحجرية بالمدن السبع، وعلى المسكوكات الذهبية والفضية المتداولة فى أنحاء الإمبراطورية. يقول يوحنا فيما قد يعد الفقرة الأكثر إلغازًا فى سفر الرؤيا بأكمله: «هُنَا الْحِكْمَةُ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ: سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ»(٩٨).

من محاولات اختراق لغز الرقم ٦٦٦ ما يركز على التناقض بين المعنى الرمزى لرقمى ستة وسبعة فى سفر الرؤيا. فكان يوحنا ـ كما رأينا ـ منبهرًا بالرقم سبعة، رمز الكمال الإلهى المستمد من أن الرب فى سفر التكوين فرغ من خلق الكون فى سبعة أيام. وإذا كانت السبعة ترمز للكمال الإلهى كما ذهب مفسرو الكتاب المقدس منذ القدم، فإن الستة ترمز للنقص الإنسانى (لا الشيطانى)، والرقم ٦٦٦ «عَدَدُ إِنْسَانٍ» كما يقول يوحنا صراحة.

إلا أن الرقم ٦٦٦ يعنى أيضًا شيئًا آخر وشيئًا محددًا تمامًا بالنسبة لمؤلف سفر الرؤيا. فيوحنا ـ كما رأينا ـ يمارس عادة علم الأعداد القديمة، أى استخلاص المعانى الخفية من ترتيب الأعداد والتلاعب بها، وهو أمر شائع فى الكتابات التوراتية والصوفية. ويرى يوحنا هنا أن الرقم ٦٦٦ شفرة تحوى اسم الإنسان الذى يدينه باعتباره «الوحش»،

فالرقم ٦٦٦ هو حرفيًّا «رقم اسمه». ويشير يوحنا إلى أن بعض قرائه وسامعيه حلوا الشفرة فعلاً: «مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ»[٩٩].

كانت أحرف الأبجدية فى العبرية القديمة واليونانية واللاتينية لها قيمة عددية أيضًا، ومن ثم فالأحرف يمكن استعمالها كما يستعمل أهل الغرب الأرقام العربية حاليًّا. وأشهر مثال على ذلك ـ والوحيد الذى لا يزال شائعًا حتى الآن فى العالم الغربى ـ استعمال الأرقام الرومانية للإشارة إلى تاريخ ما؛ فهذا الكتاب، مثلاً، نشر أول مرة فى سنة ٢٠٠٦م، أى MMVI. وكمثال بسيط على الشفرة بحساب الجمل والتى يستعملها مؤلف سفر الرؤيا نفترض أن «أ» يمكن استعمالها أيضًا بمعنى «١»، و«ب» بمعنى «٢» و«ج» بمعنى «٣» وهكذا. من ثم فكلمة «جاب» يمكن تشفيرها بالرقم «٦» وهو مجموع القيمة العددية لكل من أحرفها.

من ثم فعندما يشير يوحنا إلى «عدد الوحش» فهو يقصد القيمة العددية لأحرف الاسم كما يكتب باليونانية أو اللاتينية أو العبرية. والاسم كما هو شائع اسم أحد أباطرة روما. والحل التقليدى للغز الذى زرعه يوحنا فى سفر الرؤيا هو أن ٦٦٦ القيمة العددية للأحرف التى يتكون منها اسم أول من اضطهد المسيحيين من أباطرة الرومان أى القيصر نيرون (٣٧ ـ ٦٨م). لكن أوائل من فسروا سفر الرؤيا كما سبقت الإشارة يؤكدون أن النص ظهر أول مرة فى عهد دوميتيان (٥١ ـ ٩٦م) فى العقد الأخير من القرن الأول، أى بعد انتحار نيرون بحوالى ثلاثين سنة، لذا فإن معظم الباحثين يتفقون على أن أية إشارة لنيرون فى «عدد الوحش» تعد إشارة إلى الوراء إلى التاريخ القريب لا نبوءة عن شىء لم يحدث بعد.

ومع ذلك فليس هناك سطر واحد فى سفر الرؤيا يحث على الحدس ويثير الخلاف بقدر «اسم الوحش». فبعض مخطوطات سفر الرؤيا القديمة تقول إن عدد الوحش ٦١٦ وليس ٦٦٦ مثلاً، وترى قلة من الباحثين أن الرقم ٦١٦ يقابل اسم جايوس أو كاليجولا وليس نيرون. ومن ثم فالقيمة العددية للكلمة تتوقف على اختلاف هجائها، وأسماء الأباطرة وألقابهم تتم صياغتها وهجاؤها بصورة مختلفة فى اليونانية

واللاتينية والعبرية. فالقيمة العددية لاسم نيرون ولقبه فى العبرية، مثلاً، يمكن أن تكون ٦١٦ أو ٦٦٦ حسب طريقة هجائها، وهو ما قد يفسر سبب ظهور الرقمين فى مخطوطات سفر الرؤيا القديمة.

ويساعد يوحنا نفسه على تعقيد المشكلة بتقديم نبوءة غريبة ومحيرة عن الوحش تبدأ بزانية بابل العظيمة وهى تمتطى ظهر وحش أحمر «لَهُ سَبْعَةُ رُءُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ»[١٠٠]. وكأنبياء العبرانيين ممن اقتدى بهم يوحنا، فهو يسارع إلى التأكيد لقرائه على أن الزانية والوحش والرءوس والقرون كلها مجازية. فيقول دليله الملائكى: «لِمَاذَا تَعَجَّبْتَ؟ أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ وَالْوَحْشِ الْحَامِلِ لَهَا الَّذِى لَهُ السَّبْعَةُ الرُّءُوسُ وَالْعَشَرَةُ الْقُرُونُ». فالرءوس السبعة، مثلاً، يقال إنها ترمز لـ «سَبْعَةُ مُلُوكٍ: خَمْسَةٌ سَقَطُوا وَوَاحِدٌ مَوْجُودٌ وَالآخَرُ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ وَمَتَى أَتَى يَنْبَغِى أَنْ يَبْقَى قَلِيلاً»[١٠١].

والمغامرة بتحديد هوية أباطرة الرومان السبعة الذين يرمز لهم بالرءوس السبعة موضوع آخر للتكهنات بين مفسرى سفر الرؤيا الهواة منهم والمتخصصون، القدامى منهم والمحدثون. فيبدأ بعضهم بيوليوس قيصر بينما يبدأ غيرهم بأغسطس، ويحصى بعضهم كافة أباطرة الرومان الأوائل المشهورين منهم والمغمورين على السواء، فى حين يجد بعض آخر منهم أنفسهم مضطرين للاختيار بينهم للخروج بنيرون باعتباره الإمبراطور المقصود. إلا أن لعبة عد الأباطرة ثبت أنها طريق مسدود حين يأتى الأمر لتحديد هوية الإمبراطور الذى يقابل اسمه الرقم ٦٦٦.

بل إن يوحنا حين يعد بحل ألغاز سفر الرؤيا لا يستطيع أن يقاوم الرغبة فى جعلها أكثر إلغازًا. فما أن يشرع المَلَك فى تفسير رمزية الرءوس السبعة، حتى يقدم لغزًا آخر محيرًا، يقول المَلَك: «الْوَحْشُ الَّذِى رَأَيْتَ كَانَ وَلَيْسَ الآنَ وَهُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَصْعَدَ مِنَ الْهَاوِيَةِ»[١٠٢]. ويذهب بعض الباحثين إلى أن يوحنا يقصد المقولة الرومانية القديمة التى تقول إن نيرون القتيل سيبعث ذات يوم من الموت ويعود إلى العرش، ويقولون إن نيرون «الذى يُبعث» هو «الوحش الذى كان وليس الآن»، وهو الشقى الأكبر الذى ينتهى العالم فى عهده[١٠٣].

ومن قراء سفر الرؤيا الخبراء من تعبوا وأحبطوا نتيجة محاولتهم حل أحاجى الرؤيا فرفضوا الأمر برمته باعتباره مجرد «رجم بالغيب لا طائل من ورائه»(١٠٤). والحقيقة أننا لا نعلم يقينًا أى أباطرة الرومان يقصد يوحنا حين يتحدث عن «الوحش». إلا أن الأمر لا أهمية له عند يوحنا. وإذا كان هناك شيء واحد أوضحه يوحنا فى سفر الرؤيا فهو أنه اعتبر أباطرة الرومان جميعًا ـ وكلاً من أعدائه الكثر وبصرف النظر عن مكانتهم أو مواطنتهم ـ مخيفين ومقززين.

يعطى يوحنا انطباعًا بأن المسيحيين بالمدن السبع يواجهون خيارًا رهيبًا. فهم يجازفون بخسران السماء إذا ما أذعنوا لإغراءات الوثنية الرومانية، ويغامرون بفقد حياتهم إذا ظلوا على إيمانهم بالعقائد والممارسات المسيحية. بل إن سفر الرؤيا يحثنا على أن نتصور قراءه وسامعيه الأوائل طائفة من مشاريع الشهداء كلٌّ منهم عرضة للخيانة والحبس والتعذيب والاضطهاد من قبل السلطات الرومانية، وكلٌّ منهم مستعد لمواجهة الموت وبطش الحاكم الشيطانى الجاثم على عرش روما على أن ينخرط فى عمل وثنى واحد. يقول يوحنا وهو ينشر كلمة الرب: «لاَ تَخَفِ الْبَتَّةَ مِمَّا أَنْتَ عَتِيدٌ أَنْ تَتَأَلَّمَ بِهِ هُوَ ذَا إِبْلِيسُ مُزْمِعٌ أَنْ يُلْقِىَ بَعْضًا مِنْكُمْ فِى السِّجْنِ لِكَى تُجَرَّبُوا وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيقٌ عَشَرَةَ أَيَّامٍ كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ»(١٠٥).

وتحقق الهدف فى العديد من الرؤى الأغرب التى يصفها يوحنا فى سفر الرؤيا. فمن بين المخلوقات الشيطانية التى يرى «وحشان» أحدهما يخرج من البحر والآخر من تحت الأرض. الوحش الأول وهب القدرة على «أن يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ»(١٠٦) وهو ما يقصد به يوحنا المسيحيين المؤمنين، والوحش الآخر أعطى القدرة على أن «يَجْعَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ لاَ يَسْجُدُونَ لِصُورَةِ الْوَحْشِ يُقْتَلُونَ»(١٠٧). وفيما بعد حين يفتح الحمَل الختم الخامس عن اللفيفة التى دون عليها مصير العالم، يرى يوحنا منظرًا غريبًا «تحت مذبح» الهيكل السماوى: «نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ الرَّبِّ»(١٠٨). أى من قتل من المسيحيين على يد السلطات الرومانية.

ولكن من بين كل المسيحيين بمدن آسيا السبع جميعًا لا يتعرف يوحنا إلا على

ضحية واحدة من لحم ودم قُتل لرفضه الخضوع لمطالب القانون الروماني. فيقول في رسالته لكنيسة برغامس على لسان الرب: «وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِي حَتَّى فِي الأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِي الأَمِينُ الَّذِي قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ»(١٠٩). واللفظ المستعمل لتحديد هوية أنتيباس التعيس ـ «شهيد» ـ يرد بالنص اليوناني الأصلي لسفر الرؤيا بالمعنى نفسه «مارتيس»(١١٠). ويتبين أن أنتيباس الشهيد الوحيد المعرف باسمه في سفر الرؤيا بأكمله.

ومصير الشهيد الأوحد يتسق مع ما نعرف عن السياق التاريخي لسفر الرؤيا. فكانت برغامس في الحقيقة واحدة من البلدات التي توقف بها الوالي الروماني ليسمع الدعاوى القضائية ويفصل فيها، وربما كانت مقره الرسمي في أواخر القرن الأول. وصحيح أن عقوبة الإعدام نفذت في بعض المسيحيين ممن أخذوا بنصح مبشرين وأنبياء كيوحنا وأبوا الخضوع للسلطات الرومانية. بل إن هذا المشهد يصفه بليني الأصغر الذي استُدعي للتحقيق والحكم على بعض المشتبه بهم ممن اتهمهم أحد الوشاة باعتناق المسيحية في أثناء عمله حاكمًا على بيتونيا وبنطس في أوائل القرن الثاني.

كتب بليني للإمبراطور تراجان قائلاً: «النهج الذي اتبعتُ تجاه من أُبلغت بأنهم يدينون بالمسيحية كما يلي: استجوبتهم عما إذا كانوا مسيحيين. ومن أنكروا أنهم اعتنقوا أو يعتنقون المسيحية ورددوا ورائي دعاء للآلهة وقدموا تقدمات نبيذ ولبان بخور لصورتك التي أمرتُ بإحضارها ومعها صور الآلهة خصيصًا لذلك الغرض وسبُّوا المسيح ـ وكلها أفعال يقال إن المسيحيين الحقيقيين لا يقدمون عليها أبدًا وإن أكرهوا ـ هؤلاء رأيتُ من المناسب أن أطلق سراحهم؛ وإن اعترفوا أكرر السؤال مرتين مع إضافة التهديد بالإعدام؛ فإن أصروا آمر بإعدامهم»(١١١). و«عبادة الإمبراطور» كما يقول بليني لم تصل إلى ما هو أبعد من سكب بعض النبيذ فيما يعرف بتقدمة الشراب، وإلقاء حفنة من البخور على نار المذبح أمام صورة للإمبراطور. ولم يكن الطقس يعد تأكيدًا لعقيدة دينية بقدر ما كان تعبيرًا عن ميزة مدنية، ولا يختلف عن ترديد قسم الولاء في مدارس اليوم. إلا أن هذا الطقس كان أيضًا بمثابة اختبار للولاء؛ فإذا كان القصد من التقدمة الرمزية للإمبراطور التأكيد على أمن الإمبراطورية، فإن أي مواطن يأبى الإقدام عليه كان يشتبه في عدم ولائه إن لم

يكن خيانته الصريحة. من ثم فالجريمة التى كان يقترفها الشهيد فى نظر القانون الرومانى كتلك التى حكم على يسوع الناصرى بالإعدام بسببها، يمكن اعتبارها جريمة سياسية بحتة.

كما يبين بلينى أن المسيحيين الأشد حماسًا كانوا وحدهم من يخضعون لعقوبة الإعدام. ومن كان يعترف بمسيحيته كان يطلب منه تكرار الاعتراف ثلاث مرات: وكان يتم تذكيرهم بالعقوبة إذا تشبثوا بالاعتراف، وهو أسلوب استجواب يبدو أنه كان يدفع بالعديد من المتهمين لسحب اعترافاتهم باعتناق المسيحية. يقول بلينى فى إشارة إلى الواشى الذى كان يبلغ سرًّا عن المسيحيين الخاضعين للاستجواب: «والآخرون ممن كان ذلك الواشى يحدد أسماءهم اعترفوا على أنفسهم بأنهم مسيحيون ثم أنكروا وسجدوا لتمثالك ولصور الآلهة وسبُّوا المسيح»[١١٢].

وهكذا يمكن تصديق أن أنتيباس آل إلى المصير نفسه كما يصف بلينى. ربما اتهمته السلطات واستجوبه القاضى وأعدم بأمر من الوالى الرومانى تمامًا كما يقول يوحنا. لكن المسيحيين الآخرين جميعًا ممن ورد ذكر موتهم بسفر الرؤيا، أو «النفوس» التى يشير إليها يوحنا «تحت المذبح» والذكور الأبكار البالغ عددهم مائة وأربعة وأربعين ألفًا ممن دُعينا لاعتبارهم تقدمات قربانية للرب لا يرد لهم ذكر إلا فى رؤى يوحنا عن آخر الزمان.

هل يحتمل إذن أن يوحنا نفسه لم يكن يعرف إلا شهيدًا مسيحيًّا واحدًا؟

يؤكد يوحنا أن المسيحيين لا بد أن يمروا بمحنة طويلة ومريرة ـ أو «ضيقة» على حد تعبيره ـ قبل أن يدخلوا فى النهاية «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً»[١١٣]. ويتفق الباحثون المحدثون على أن سفر الرؤيا والتراث الرؤيوى كله يعد طريقة للتعامل مع القهر والاضطهاد بتصور عالم أفضل آتٍ: «فلاهوت الرؤيا يصاغ فى مواجهة اضطهاد ونفى وسجن وإعدام» حسب قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا الباحثة النسائية فى الكتاب المقدس ومن أنصار «لاهوت الخلاص» وتعتبر أيضًا من كبار مفسرى سفر الرؤيا من الكاثوليك[١١٤]. ولو كان هناك أى منطق فى سفر الرؤيا على الإطلاق فبوصفه بلسمًا كلاميًّا لأجساد وأرواح القديسين الذين عانوا.

يقول روبنسن باحث العهد الجديد مرددًا حكمة تقليدية: «شيء واحد يمكن أن نتيقن منه، هو أن الرؤيا ما لم تكن نتاج خيال متقد وذهاني دوِّن من واقع تجربة مكثفة لما عانى المسيحيون على أيدى السلطات الإمبراطورية متمثلة فى «وحش بابل»[١١٥].

ومع ذلك فليس من الحقائق المستقرة أن قراء سفر الرؤيا وسامعيه الأوائل كانوا هم أنفسهم من ضحايا الحبس والتعذيب والإعدام. فيوحنا نفسه يبدو أنه عاش فى عالم وثنى يسهل فيه على المسيحى أن يهادن السلطات الرومانية. بل إن يوحنا كان سيصبح أسعد كثيرًا لو كان الحال غير الحال، ومن الواضح أنه يؤثر الشهداء الموتى على المسيحيين ضعفاء الإيمان المستعدين لمهادنة السلطات الرومانية حتى يحيوا حياة طيبة. ولا نجد أسوأ تجاوزات الاضطهاد الرومانى إلا فى رؤى يوحنا عن آخر الزمان لا فى سجلات التاريخ. أو إن شئنا المزيد من الرفق «يعبر سفر الرؤيا عن توقع مؤلفه الاضطهاد» كما تقول آديلة ياربرو كولنز لا عن معاناته تجربة الاضطهاد[١١٦].

هناك رواية مسيحية تعود للقرن الخامس تحكى عن عشر فترات اضطهاد فى روما الوثنية، أولها فى عهد نيرون «المضطهد الأكبر» بالقرن الأول، وانتهاءً بالاضطهاد الكبير فى عهد ديوقليتيان بالقرن الرابع[١١٧]. وإذا حكمنا من سجلات الشهداء التى أنشئت فى العصور الوسطى فإن إلقاء المسيحى للأسود كان أرق البشاعات. ولكن فى سنة ١٧٧٦م، تحدث إدوارد جيبون بصراحة أكبر عن موضوع الاستشهاد المسيحى، فلا يحصى سوى ألفين تقريبًا من الضحايا إبان ما يعرف «بالاضطهاد الأكبر»، ويؤكد أن العديد من الشهداء كانوا يلتمسون فرصة الموت فى سبيل عقيدتهم بكل شوق وهمة، ويشكك فى أن موتهم كان كما ورد فى مشاهد جراند جينيول التى تطالعنا فى سجلات الشهداء المسيحيين.

يقول جيبون فى كتابه The Decline and Fall of the Roman Empire (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها): «من السهل جمع سلسلة طويلة من الصور البشعة والمقززة وملء العديد من الصفحات بالرزايا والنوائب وبخطاطيف حديدية، وأسرّة حمراء ساخنة، وبكافة ألوان التعذيب، والوحوش الشرسة. ولكنى لا أستطيع أن أحدد إلى أى مدى يمكننى أن أصدق»[١١٨].

والباحثون المحدثون لا يجدون بدًّا من التسليم بأن اضطهاد المسيحيين لا سيما فى زمن تدوين سفر الرؤيا ومكانه ــ لم يكن بالصورة المروعة، ولا بمدى الانتشار الذى يوحى به يوحنا. قد يكون نيرون «وحش» سفر الرؤيا، لكن حبس المسيحيين ومعاقبتهم فى عهده لم يكن يحدث «إلا فى روما فى مناسبة واحدة» حسب قول چورچ إلدون لاد عالم اللاهوت البروتستانتى الكبير وأحد مفسرى سفر الرؤيا[١١٩]. وكانوا يعتقلون ويعاقبون بتهم إحراق متعمد مفتعلة وليس بجرائم دينية محددة؛ لذا فإن آديلة ياربرو كولنز تعتبر الحكاية عملاً «شرطيًّا» لا اضطهادًا[١٢٠].

وفى حياة يوحنا ولمدة قرنين بعده، ظل عقاب المسيحيين على أيدى السلطات الرومانية «محليًّا فى طابعه أو مخففًا نسبيًّا فى تنفيذه». وربما قصر دوميتيان ـ وهو مرشح آخر للوحش الذى رقمه ٦٦٦ ــ اضطهاده على «قلة من الأسر المسيحية فى روما»[١٢١]. وحتى فى تلك الحقبة فإن معظم المسيحيين ممن تعرضوا لبطش الرومان ربما كانوا من المؤمنين الحقيقيين ممن كانوا يسعون للشهادة سعيًا. بل إنه كان من اليسير على أى مسيحى مستكين أن يفر من البطش من أى نوع بمهادنة السلطات الوثنية وبإلقاء حفنة بخور على نار المذبح كما يشير يوحنا نفسه.

وهكذا فإن سفر الرؤيا ينبغى فهمه كعمل كتبه رجل لم يتعرض للاضطهاد على الإطلاق، ولكن «يبدو أنه يشعر بأنه ضحية ظلم» فى رأى آديلة كولنز[١٢٢]. ولا يعتبر يوحنا السلطات الرومانية عدوه الأول أو حتى أسوأ أعدائه. ويحزنه من يتهمهم بالافتقار للصفاء والحماس من إخوانه المسيحيين. وهو غاضب على اليهود ممن أبوا الإيمان بيسوع الناصرى باعتباره المسيح المنتظر، وعلى الرغم من دعوة المبشرين من أمثاله. ومن سمات يوحنا الذهنية وصف خصومه جميعًا، الحقيقيين منهم والافتراضيين، بأنهم أعداء أخلاقيون، بل عملاء للشيطان، وهى حيلة بلاغية ربما كانت هديته الوحيدة الدائمة لمن جاءوا بعده.

بالطبع، لم يكن يوحنا أول نبى رؤيوى أو الوحيد الذى يرى العالم الذى يحيا فيه ـ وتاريخ البشرية برمته ـ كساحة حرب بين الرب والشيطان، وهى فكرة لاهوتية تعرف بـ «الثنوية». وربما تسربت هذه الفكرة إلى التراث اليهودى من لاهوت فارس

القديمة، وكانت مسيطرة على ذهن دانيال بشدة وهو يرى فظائع الاحتلال والبطش فى عهد الملك السورى قبل مولد يوحنا بقرنين من الزمان. ومع ذلك يظل يوحنا مضطرًّا للرد على السؤال الذى يطرح نفسه: ما الموقف السليم الذى ينبغى للمؤمن الحق أن يتخذ إذا اضطر للعيش فى مملكة شيطانية؟

من الأجوبة أن يحمل السيف ويقاتل. فكان المكابيون و«الغيورون» مثلاً مستعدين للمجازفة بالموت فى حربهم على خصومهم الوثنيين، وكانوا يؤثرون الانتحار على الاستسلام حين ينهزمون فى الحرب. ومن الأجوبة أيضًا أن ينأى المرء بنفسه عن مغريات العالم الوثنى ورزاياه، وأن يحيا بعيدًا فى صفاء البرية وعزلتها. فالرهبان اليهود، مثلاً، انتبذوا فى مجتمعات مثلى كمجتمع قمران بصحراء يهوذا. ولكن كانت ثمة إجابة ثالثة وهى التى اختارها يوحنا: ألا يفعل شيئًا على الإطلاق سوى الفرجة والانتظار حتى آخر الزمان حين يدمر الرب العالم بصورته التى نعرفها، ويبعث القديسين من بين الأحياء والموتى ويثيبهم «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً».

الخيارات نفسها يمكن إدراكها فى الكتابات الرؤيوية الأقدم. فسفر دانيال وأقسام من سفر أخنوخ، مثلاً، دونت إبان ثورة المكابيين، لكن كلاًّ منهما يتخذ موقفًا مختلفًا تمامًا من شرور الوثنية. فيبدو أن «رؤى أخنوخ» وهى إحدى الأعمال الرؤيوية التى تم ضمها إلى سفر أخنوخ تؤيد قتال المكابيين المسلح حين تصور تحول حمَل وادع خنوع إلى كبش ضخم ذى قرنين، وهى صورة لقواد عسكريين عظام أو لمسيح محارب[١٢٣]. أما «الحكماء» فى سفر دانيال، فمستعدون للقعود فى صبر وسلبية فى انتظار مجىء رئيس الملائكة ميخائيل لينقذهم فى آخر الزمان، حتى لو كان ذلك معناه الشهادة هنا والآن. يقول چون كولنز: «قد يخسرون حياتهم فى الدنيا؛ لأنهم وُعدوا بمجد أعظم فى الآخرة»[١٢٤].

كان دانيال لا أخنوخ أكبر مؤثر على يوحنا. فعلى الرغم من كل ما فى سفر الرؤيا من عصف ودفع فإن يوحنا من أنصار «السكوت» كما يسميه الباحثون، أى أنه يوصى قراءه وسامعيه ألا يعملوا شيئًا إزاء ما يحيط بهم من شرور إلا التمسك بالإيمان، والاستكانة. وتتراءى له معركة دامية بين جيش الرب وجيش الشيطان ــ «قِتَالُ ذَلِكَ

الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَوْمِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » ـ ولكنها ستكون « حَرْبًا فِى السَّمَاءِ » . وفى نهاية العالم حين تهلك روما يكون دمارها بيد الرب وحده : « اِفْرَحِى لَهَا أَيَّتُهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقِدِّيسُونَ وَالأَنْبِيَاءُ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ »[١٢٥] .

وكغيره من الكتّاب الرؤيويين يتخذ يوحنا من الحَمَل رمزًا للمسيح. فذلك المخلوق الضعيف الذى يمثل تقدمة قربانية بالهيكل الأرضى بأورشليم [القدس] يتحول فى سفر الرؤيا إلى ملِك محارب فى أورشليم [القدس] السماوية. ويقول إن أباطرة الرومان الذين يخدمون « الوحش » « سَيُحَارِبُونَ الْحَمَلَ وَالْحَمَلُ يَغْلِبُهُمْ لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ » . والحمل مزود بترسانة من الأسلحة السماوية ومنها « سَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ » ، وسيأتى بها ملك الملوك حسب وعد يوحنا لخوض حرب مقدسة على الشيطان وزبانيته الذين يضطر المسيحيون الورعون حينئذ ــ ومنهم يوحنا ــ للعيش بين ظهرانيهم[١٢٦] .

إلا أن يوحنا لا ينصح قراءه وسامعيه بإشهار السيف. فالمسيحيون الورعون هنا على الأرض يوصيهم يوحنا بالصبر والسلبية حتى إذا تعرضوا للحبس والتعذيب والقتل. بل إنه يتنبأ بأن روما ستشرب حتى الثمالة من « دَمُ أَنْبِيَاءَ وَقِدِّيسِينَ » ، ولكنه يوصَى ــ ويوصِى قراءه وسامعيه ـ بأن ميتة الشهيد شىء يتمناه المرء بكل صدق : وَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً لِى : « اكْتُبْ طُوبَى لِلأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِى الرَّبِّ مُنْذُ الآنَ »[١٢٧] .

إن من سمات سفر الرؤيا شغفه بالثأر. ولكنه شغف من يتخيل نفسه بلا حول ولا قوة. فيوحنا تتقد نفسه بغضب مدمر على روما ، ولكنه يُكره على كظم حقده إلى اليوم العظيم حين يمن الرب بالنزول من السماء ليضع نهاية لأعدائه. يقول يوحنا عن آخر الزمان : « إِذْ قَدْ دَانَ الزَّانِيَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِى أَفْسَدَتِ الأَرْضَ بِزِنَاهَا وَانْتَقَمَ لِدَمِ عَبِيدِهِ مِنْ يَدِهَا »[١٢٨] . وقد يكون آخر الزمان قريبًا كما يؤكد يوحنا مرارًا لسامعيه ولكنه لم يحن بعد. وفى الوقت نفسه يحث إخوانه المسيحيين على الجلوس والانتظار.

يقول يوحنا : « مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ ... هُذِه دَعوَةٌ لِصَبْرُ الْقِدِّيسِينَ وَإِيمَانُهُمْ »[١٢٩] .

وهنا أيضًا نجد نصيحة صريحة تجاهلها بعض من أشهر قراء سفر الرؤيا وسامعيه.

فمن حين لآخر ـ كما سنرى ـ يدفع سفر الرؤيا كثرة من الناس لاعتبار أنفسهم ملائكة تثأر لا قديسين يعانون، وهم قائمة طويلة تبدأ بـ «ساڤونارولا» فى القرن الخامس عشر إلى ديڤيد كورش بأواخر القرن العشرين. ومما يحسب ليوحنا أنه لا يطلب من قرائه وسامعيه شيئًا كهذا، ولا شك أنه كان سيدهش ويفزع لما آل إليه سفره من مصير على أيدى بعضهم. إلا أن أكبر فشل منيت به نبوءة فى سفر الرؤيا ــ بالإضافة إلى أن العالم لم ينته بعد كما تنبأ ـ هى أن «الحبر المسيحى» لم يكن يدرى أن معانى سفره الصغير وعباراته مقدر لها أن تتغير بانتقال نصه من مدن آسيا الصغرى السبع إلى بقية الإمبراطورية الرومانية، ثم إلى تاريخ العالم.

ولد يوحنا بشكل شبه مؤكد ونشأ يهوديًّا، ويبدو أنه يخاطب جمهورًا يألَف كتابات اليهود المقدسة. ففى الفقرات البالغ عددها أربعمائة وأربعًا والتى يتألف منها سفر الرؤيا كما أحصاها أحد الباحثين، يمكن تمييز أكثر من خمسمائة إشارة ضمنية إلى الكتاب المقدس العبرى. فالسفر فى الحقيقة قائمة من التيمات والمواريث اليهودية بدءًا من الأسباط الاثنى عشر إلى هيكل يهوه. ومع ذلك فأفضل دليل على هوية يوحنا اليهودية نجده مدفونًا فى ثنايا أشد سطور سفر الرؤيا بغضًا، حيث يشير يوحنا ضمنًا إلى أنه أصدق يهودية من أعدائه فى المجتمع اليهودى. يقول يوحنا على لسان يسوع المسيح: «هَئَنَذَا أَجْعَلُ الَّذِينَ مِنْ مَجْمَعِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُودًا بَلْ يَكْذِبُونَ: هَئَنَذَا أُصَيِّرُهُمْ يَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَ رِجْلَيْكَ وَيَعْرِفُونَ أَنِّى أَنَا أَحْبَبْتُكَ»(١٣٠).

وحتى استعمال يوحنا شبه المفرط للرقم سبعة، يمكن قراءته كإشارة ضمنية للكتابات المقدسة اليهودية. فخلق الرب كما ورد بسفر التكوين تم فى سبعة أيام ـ «وَفَرَغَ اللهُ فِى الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِى الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الذِى عَمِلَ»(١٣١)ــ وهكذا يصبح الرقم سبعة رمز الكمال الإلهى فى التراث اليهودى. وعندما يشير يوحنا إلى العلامات والرموز فى مجموعات السبعة ــ سبعة ملائكة وسبعة أختام وسبع نوافير وسبعة رعود وما إلى ذلك ــ فهو يقصد الإيحاء بأن مشيئة الرب سارية فى خلق الكون ودماره. يقول يوحنا عن المَلَك السابع الذى يظهر بعد الرعد السابع: «وَالْمَلاَكُ الَّذِى رَأَيْتُهُ وَاقِفًا عَلَى الْبَحْرِ وَعَلَى الأَرْضِ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى

السَّمَاءِ. وَأَقْسَمَ بِالْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا وَالأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْبَحْرَ وَمَا فِيهِ أَنْ لاَ يَكُونُ زَمَانٌ بَعْدُ »[١٣٢].

وهناك مشاهد أخرى بسفر الرؤيا تذكر بفقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى. فيوحنا مدرك ، مثلاً ، لفقرة سفر حزقيال التى يعطى الرب فيها نبيه سفر «مَرَاثٍ وَنَحِيبٍ وَوَيْلٍ» ثم يصدر له أمرًا غريبًا : «يَا ابْنَ آدَمَ ، كُلْ مَا تَجِد. كُلْ هَذَا الدَّرْجَ ، وَاذْهَبْ كَلِّمْ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ »[١٣٣]. ويدعى يوحنا لنفسه التجربة بعينها : فيرسل الرب لفيفة (أو «سفرًا صغيرًا» حسب ما ورد بنسخة الملك چيمس) من خلال رسول ملائكى ، ويؤمر يوحنا أيضًا بأن «يأخذها ويأكلها». وهنا يدمج يوحنا كتابات اليهود المقدسة فى سفره بصورة شبه حرفية. ويقول : «فَأَخَذْتُ السِّفْرَ الصَّغِيرَ مِنْ يَدِ الْمَلاَكِ وَأَكَلْتُهُ. فَقَالَ لِى : يَجِبُ أَنَّكَ تَتَنَبَّأُ أَيْضًا عَلَى شُعُوبٍ وَأُمَمٍ وَأَلْسِنَةٍ وَمُلُوكٍ كَثِيرِينَ »[١٣٤].

والإشارة إلى «الشعوب والأمم والألسنة» تسمح لنا بتفهم البغض والحقد الذى يمور فى نفس يوحنا ويفور فى سفر الرؤيا. «ويناشد يوحنا اليهود ... «أصحاب» التراث أن يتقبلوه هو ورؤياه» حسب قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا ، إلا أن وصاياه تلقى الرفض من اليهود من جمهوره. وإذا كان بيت إسرائيل رفض الاعتراف بأن يسوع الناصرى هو المسيح ، فإن يوحنا يقرر التوجه بخطابه إلى الشعوب والأمم والألسنة الأخرى. ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل الإهانة التى وجهها له اليهود ممن ظلوا على ولائهم لتراثهم ، فيرد الإهانة بزفهم جميعًا إلى «مَجْمَعِ الشَّيْطَانِ»[١٣٥]. وهكذا فمن الغريب أن ما يعد أكثر سطور الكتابات المقدسة المسيحية معاداة للسامية يمكن اعتباره صرخة يهودى ازدراه إخوانه اليهود.

وفى حين يجد يوحنا سعادة فى التلميح إلى استعارته من الكتاب المقدس العبرى فإنه لا يقتبس نصه حرفيًّا. بل يستعين بالكتابات المقدسة اليهودية كـ«ترسانة لغوية» على حد قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا ، ويختار الأفكار والصور والأحداث التى تلائم أغراضه البلاغية[١٣٦]. وربما لم يكن بحوزته نسخة من الكتاب المقدس حين كان يتكلم ويكتب ، أو لعله لم يكن يجد غضاضة فى القص واللصق من النص القديم

مباشرة. يقول أحد الباحثين فى الكتاب المقدس: «الروح النبوية تبدع ولا تقتبس حتى تعلِّم أو تجادل»[١٣٧].

ولا يقتصر يوحنا على المصادر اليهودية وحدها. فقد يدين الحضارة الإغريقية الرومانية بكل ثرائها وأمجادها باعتبارها من عمل الشيطان، ولكن يبدو أنه يعرف فن صور القديسين الوثنى ويستعير منه بحرية تامة. والسبعة رقم مقدس فى التراث اليهودى بكل تأكيد، ولكن كانت له أهمية أيضًا فى المعتقدات والممارسات الفلكية للوثنية الكلاسيكية التى لم تعرف سوى سبعة أجرام سماوية. والاثنا عشر عدد أسباط بنى إسرائيل، ولكنه أيضًا عدد الأبراج الفلكية. والحقيقة أن علم الفلك مكروه فى الكتاب المقدس باعتباره أحد خطايا الوثنية ـ «تقدِمات لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ»[١٣٨]ـ ومع ذلك فربما كان يوحنا يستحضر هذه الصور والصلات فى نص سفر الرؤيا.

ومن أكثر المشاهد سموًّا فى سفر الرؤيا مثلاً «النذير العظيم» الذى سيظهر فى السماء كإحدى علامات بدء نهاية الكون: «امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا». والمرأة وهى حبلى وفى حالة مخاض تفاجأ بـ «تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ» ينتظر لكى يلتهم وليدها بمجرد أن تضعه. لكن رئيس الملائكة ميخائيل ـ وهو شخصية تظهر أولاً فى سفر دانيال المصدر الأثير لدى يوحنا فى الكتاب المقدس العبرى ـ يقاتل التنين الأحمر الذى يتبين هنا والآن أنه من أغوى حواء أصلاً «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ»[١٣٩].

وقراءات سفر الرؤيا التقليدية تعتبر المرأة مريم العذراء والوليد يسوع، «ابْنًا ذَكَرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ» و«اخْتُطِفَ وَلَدُهَا إِلَى اللهِ وَإِلَى عَرْشِهِ»[١٤٠]. ولكن يمكن أيضًا إدراك أصول ومعان أقل تقليدية. يقول أوستن فارر: «إن ذهن القديس يوحنا موجه للعمل على أساس نمط أسطورى شديد القدم»، ويرى أن يوحنا استعار شخصية المرأة من علم الفلك الوثنى «امرأة الفلك» التى «عَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا»[١٤١]. ويرى باحثون آخرون أنها الإلهة أرتميس التى كانت تعبد بأبهة بالغة

بمعبد أرتميسيوم بمدينة أفسس، أو الإلهة روما «ملكة السماء» التى جرى الظن بأن وليدها الإلهى هو الإمبراطور الرومانى الذى وجدت صورته على المسكوكات الرومانية الملكية فى القرن الأول(١٤٢).

بل إن الشخصية نفسها موجودة فى الأساطير المقدسة فى العالم القديم كله: «إلهة عالية ذات سمات علوية: الشمس ثوبها والقمر ركابها والنجوم تاجها»(١٤٣). حتى المأزق الرهيب لامرأة فى حالة مخاض ويحدق بها وحش خاطف يعد عنصرًا قصصيًّا مألوفًا فى فن صور القديسين الوثنى. فالإلهة المصرية إيزيس مثلاً تكافح من أجل إنقاذ ابنها من هجمات الأفاعى والعقارب، والإلهة الإغريقية ليتو تتهددها أصلة [ثعبان كبير جدًّا] وهى حبلى فى أپوللو. تقول إليزابيث شوسلر فيورنتسا: «فى كل من هذه الأساطير يسعى التنين وراء الوليد الذى لم يولد بعد حتى يلتهمه أو يقتله. وتطارَد المرأة وهى لا تزال حبلى. وتضع حملها والتنين على بعد خطوات منها، والوليد الذكر الذى تضع يُرفع إلى السماء ويفلت من براثن التنين»(١٤٤).

وفوق هذا وذاك فإن «الحرب فى السماء» بين رئيس الملائكة ميخائيل والتنين الأحمر ـ نقطة الذروة الغيبية فى سفر الرؤيا ـ تعد من بقايا ما يعرف بأسطورة الصراع التى تطالعنا فى قصص الخلق فى النصوص الوثنية فى كافة أرجاء الشرق الأدنى القديم. بل إن فكرة الصراع البدائى بين إله سامٍ ووحش بدائى ـ وهى حكاية رمزية عن الصراع بين النظام والفوضى أو الخلق والدمار ـ يمكن إدراكها فى الكتاب المقدس العبرى نفسه حيث يشير أشعياء ـ ضمن غيره من المؤلفين التوراتيين ـ إلى هزيمة لوياثان «الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّيَةَ والتِّنِّينَ الَّذِى فِى الْبَحْرِ» بسيف يهوه الصارم(١٤٥). وأسطورة الصراع فى التراث الوثنى لا يمكن إدراكها إلا فى ثنايا النص التوراتى، ولكنها محور سفر الرؤيا.

ويؤكد بعض الباحثين على أن مثل هذه الصلات الوثنية لا وجود لها فى الغالب إلا فى خيال الناظر. على أية حال فليس ثمة حاجة لاعتبار أى من النصوص الفرعية الوثنية التى يمكن التعرف عليها فى ثنايا سفر الرؤيا دليلاً على رياء القديس يوحنا. بل إن من دلائل ذكاء يوحنا أن «ترسانته اللغوية» لا تقتصر على المصادر اليهودية. تقول

آديلة كولنز: «إن يوحنا يستعين بهذه الدعاية الملكية ليزعم أن العصر الذهبى الحقيقى سيحل مع حكم يسوع المسيحانى»(١٤٦).

وما إن قرر يوحنا النظر إلى ما وراء المجتمع اليهودى بحثًا عن قراء وسامعين، حتى أدرك أنه بحاجة للاستعانة بمشاهد وقصص ذات معنى لدى الوثنيين الذين كانوا أغرابًا على الكتابات المقدسة اليهودية. وكانت عظات يوحنا تسمو على كل من المصادر اليهودية والوثنية التى يبدو أنه استلهَمها، وطُبعت كلمات سفر الرؤيا وصوره فى الخيال الغربى بصورة عميقة وراسخة بدءًا من اللوحات الكنسية فى أوروبا العصور الوسطى وانتهاءً بالأغانى المصورة الواسعة التداول على قناة إم تى فى. وكان يوحنا يتوقع بالطبع أن كلمات نبوءته ـ والعالم نفسه ـ لن يدوم إلا «زَمَانًا قَلِيلاً»، ومع ذلك فإن قوة بقاء سفر الرؤيا يتبين أنها أعظم إنجازات يوحنا(١٤٧).

يتصور قلة من قراء سفر الرؤيا من المتدينين أن يوحنا يرحل إلى جزيرة بطمس البعيدة والجرداء تحقيقًا لرؤياه؛ فهو يسعى للوحى ويعثر على ما يبحث عنه كغيره ممن عملوا مثله على مر القرون والألفيات. ومع أن النص ليس فيه ما يبرر هذا التفكير، فإن الفكرة تربط يوحنا بطابور طويل من المتصوفة والمجذوبين ممن جاءوا قبله وبعده بمدة طويلة. وكما نزل الوحى على أپوللو فى دلفى، وعلى موسى فوق طور سيناء، وعلى محمد فى غور التلال المحيطة بمكة، يجد يوحنا فى البرية مكانًا مناسبًا لإلقاء نظرة خاطفة على الإله.

يصف يوحنا نفسه تجربته الرؤيوية فى جزيرة بطمس بطريقة قصد بها تذكير قرائه بأنبياء الكتاب المقدس العبرى الكلاسيكيين. فككل من حزقيال وإرمياء ودانيال وغيرهم من النماذج التى اقتدى بها، يكرِّم يوحنا بسلسلة من الوحى من «إِلَهٍ فِى السَّمَاوَاتِ كَاشِفُ الأَسْرَارِ» حسب تعبير دانيال(١٤٨). وكغيره من الأنبياء ممن يكافحون للاستعانة بمجرد كلمات لوصف ما لا يوصف، يصف يوحنا تجربته كشىء سامٍ وجبار، متعالٍ ومخيف. فيقول: «كُنْتُ فِى الرُّوحِ يَوْمِ الرَّبِّ وَسَمِعْتُ وَرَائِى صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوتِ بُوقٍ»(١٤٩). وحين يستدير ليرى من يتكلم يبصر يوحنا أولى رؤاه الغريبة

العديدة التى تملأ صفحات سفر الرؤيا: «شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ» شخص متدثر ومتمنطق وجهه «كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا» وعيناه «كَلَهِيبِ نَارٍ» ومعه «سَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ» يخرج من فمه و«فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ». ويصيب يوحنا الذهول جراء ما رأى: «فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ، لكنه وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَيَّ قَائِلاً لِي: لاَ تَخَفْ أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ»[١٥٠].

ويكلف يوحنا من قبل زائره السماوى بكتابة رؤاه ونشرها. فيقول له ابن الإنسان: «فَاكْتُبْ مَا رَأَيْتَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا ... وَالَّذِي تَرَاهُ اكْتُبْ فِي كِتَابٍ وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ»[١٥١]. وهنا أيضًا يضع يوحنا نفسه فى أهم سنن التوحيد وهى كتابة الأسفار. فالبشر فى ذلك الوقت كما هم الآن يصدقون ما هو مكتوب أكثر مما يقال بصوت مسموع، ويلعن يوحنا كل من قد يجد فى نفسه ميلاً للتلاعب بنصه. ويوضح يوحنا أن الأسرار الإلهية الموحاة إليه من عند الرب قضت المشيئة ألا تظل أسرارًا، فالرؤيا موجهة لكل العصور وللعالم بأسره.

يقول آخر الرسل الملائكيين ليوحنا فى ختام سفر الرؤيا: «لاَ تَخْتِمْ عَلَى أَقْوَالِ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ... وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ»[١٥٢].

إذن كان القصد أن تُحفظ كتابات يوحنا وتُنشر وتُتلى بحماس على مر القرون التالية، ويواصل هو دوره كقدوة يحتذيها الرؤيويون جيلاً بعد جيل. وهناك مثالان لما كان له من تأثير على الخيال الدينى، يعود أحدهما إلى العصور الوسطى والآخر إلى تاريخ أحدث، يسمحان لنا بإلقاء نظرة على كتابات الذهنية الرؤيوية ــ ومنها كتاباته هو ــ بوضوح يفوق ما يسجل هو نفسه فى كتاباته.

وُهبت هيلديجارد بينجن (١٠٩٨ ــ ١١٧٩م) الرؤى ــ أو لعلها ابتليت بها ــ أول مرة وهى فى سن الخامسة. وعندما بلغت الثامنة، اضطر والداها لإيداع هيلديجارد الصغيرة فى رعاية رئيسة أحد الأديرة بألمانيا حيث قضت بقية عمرها، إشارة إلى حالة والدين كانا يربيان مراهقة ناسكة. فكانت هيلديجارد تردد الكلمات والعبارات التى تقرأ

فى سفر الرؤيا حين تصف كيف «تسمو بروحها» وتسمع أصواتًا «كالرعد»[١٥٣]، وتقدم لنا رواية كاشفة لتجربة ربما قاسمها يوحنا إياها. تقول هيلديجارد فى كتابها المعروف باسم «Scivias» : «انفتحت السماء ونزل ضوء ساطع ذو لمعان فائق وتخلل عقلى كله وألهب قلبى كله وصدرى كله، فأيقنت على الفور معنى شروح سفر المزامير والإنجيل وسائر الكتب الكاثوليكية فى العهدين القديم والجديد على السواء»[١٥٤].

بعض رؤى هيلديجارد تسكنها مخلوقات تبدو كأنها خرجت تزحف من صفحات سفر الرؤيا. فبينما كانت تصلى بالكنيسة، مثلاً، ترى صورة طيفية لامرأة أمام المذبح؛ فتنظر إليها فى فزع وتدرك أن المرأة تستعد للمخاض. ولكن على خلاف المرأة فى حالة المخاض بسفر الرؤيا ـ حيث المرأة متسربلة بالشمس ووليدها المسيح ـ تضع المرأة فى رؤيا هيلديجارد وحشًا ضاريًا. تقول هيلديجارد: «كانت لها نقط حرشفية مختلفة من السرة إلى الفخذ. ومن فرجها برزت رأس وحشية شديدة السواد، وبها عينان متوهجتان وأذنان كأذنى حمار، وفتحتا أنف وفم كفتحتى أنف وفم أسد، تصر بفم مفتوح لآخره وتشحذ أسنانها الحديدية الرهيبة بطريقة بشعة»[١٥٥].

ليس كل قارئ لسفر الرؤيا يجد ما يجذبه فى لحظات الفزع والرعب فى نص يوحنا. فكان روبرت جريفز شاعر وروائى القرن العشرين، مثلاً، يثير فضوله ما يسميه «رمزية القديس يوحنا»، أى معنى الرقم ٦٦٦ عدد الوحش، ويصف التجربة فى كتابه «الإلهة البيضاء ـ The White Goddess» بأنها تمرين على الرؤيا الوجدية ومعالجة الأعداد فى آن. ويترجم جريفز الرقم ٦٦٦ بالأرقام الرومانية لتقابل D.C.L.X.V.I ويتصور أن سرا تكشف له فجأة كما حدث لهيلديجارد. ويرى الأحرف كاسم مختصر لعبارة لاتينية يترجمها بمعنى «القيصر دوميتيان قتل رسل المسيح بكل خزى»[١٥٦]. ولعلنا كنا نتمنى أن يصف يوحنا رؤاه بوضوح كما فعل جريفز، وقد نحدس أنه رآها بالطريقة نفسها تقريبًا. يقول جريفز فى كتابه نفسه: (رأيت فيما يشبه الرؤيا الأعداد الرومانية تومض على جدار الغرفة التى كنت بها. كنت واعيًا بأن رؤيا يوحنا كانت عند معظم الباحثين التوراتيين إشارة إلى عهد نيرون لا دوميتيان. ومع ذلك قرأتها عيناى «دوميتيان»)[١٥٧].

وبين هيلديجارد وجريفز لدينا طريقتان مختلفتان تمامًا ولكنهما كاشفتان بالقدر نفسه لفهم التجربة الرؤيوية التى حفظها سفر الرؤيا. فتروى هيلديجارد ـ كما فعل يوحنا ـ ما يمكن وصفه بلغة علم الأمراض النفسية بأنه سلسلة من الهلاوس السمعية والبصرية، ومرة أخرى تزعم ـ كما زعم يوحنا ـ بأنها أعطيت القدرة الإلهية لرؤية المعانى الخفية للعالم المعروف والتى حجبت عمن سواها. وهو ما دفع آديلة ياربرو كولنز للإشارة إلى «وجود تشابه ما بين الخيال الإبداعى لمريض الفصام ورؤى سفر الرؤيا»[١٥٨].

ويزعم جريفز أيضًا أن وميض بصيرة يمكن أن يكشف للمرء معانى خفية حجبت عمن سواه. إلا أنه حين يشير إلى الرقم ٦٦٦ باعتباره «رمزية القديس يوحنا» يعزو الفضل ليوحنا لا للرب فى وضع المعانى الخفية فى النص أصلاً. وهذه طريقة أخرى لفهم مؤلف سفر الرؤيا: فيوحنا يمكن أيضًا رؤيته كلاعب ألعاب مرغم يبهجه تزيين نصه بالأحاجى والألغاز والعلامات والرموز بقصد إشراك قرائه وسامعيه وإلهاب خيالهم. بل إن يوحنا يستعين مرارًا بعبارة متكررة: «مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ» كأنه يقول إن علينا أن نخترق تلاعبه بالألفاظ وألعابه الذهنية لإدراك ما يعنى[١٥٩].

ومع ذلك فلا شيء هزلى أو حسابى فى رؤى يوحنا. فمن الواضح أنه رجل منساق أنهكته نيران إيمانه الحقيقى، وعلى اقتناع تام بأن الرب كلفه بمهمة نشر كلمته على العالم أجمع. وهو ما يتضح فى تأملات من يمكن اعتباره أعظم مبشر رؤيوى فى التاريخ بعد يوحنا نفسه وهو راهب الدومينيكان جيرولامو ساڤونارولا الذى أضرم النار فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر. ولا غرو أن كان نص ساڤونارولا الأثير سفر الرؤيا ولا بد أن مواعظه كانت تشبه تلك التى كان يوحنا يلقيها فى مدن آسيا.

قال الراهب المتقد حماسًا فى آخر مواعظه التى ألقاها قبل استشهاده: «كنت أتصور أحيانًا وأنا أهبط منبر الوعظ أنه يستحسن أن أكف عن الكلام وعن الوعظ عن هذه الأشياء، فالأفضل للمرء أن يكف ويترك الأمر برمته للرب. ولكن ما أن أرتقى المنبر مرة أخرى حتى أعجز عن امتلاك نفسى. فترديد كلمات الرب كانت دائمًا عندى نارًا تحرق عظامى وقلبى. كنت لا أطاق. لا يمكننى أن أكف عن الكلام. كنت على نار. كنت أستعر بروح الرب»[١٦٠].

نحن لا ندرى متى أو كيف توفى يوحنا. لكننا نعلم أن بعضًا من أشد قرائه حمية ومنهم ساڤونارولا وديڤيد كورش التهمتهم النار التى أوقدوها بمواعظهم حول سفر الرؤيا. وتذكرنا نهاياتهم بأن سفر الرؤيا ليس ـ ولم يكن القصد منه قط أن يكون ـ سفرًا يبعث على السكينة. بل كان يوحنا يسعى لإضرام النار فى أرواح قرائه وسامعيه، ونجح فيما سعى.

ربما كان يوحنا على اقتناع بأنه كان يسمع صوت الرب، لكن البراعة الفائقة الواضحة فى سفر الرؤيا تميزه كعمل من إبداع البشر، أو «نتاج خيال إبداعى مستمد كخيال الفصامى من تجربة حقيقية فى عالم الواقع» على حد تعبير آديلة ياربرو كولنز[١٦١]. فهو دعائى نابه يلهب آمال قرائه وسامعيه ومخاوفهم بحنكة بالغة، أو مخرج استعراضى ناجح يسعده إرباك جمهوره وإثارة دهشتهم. لكن يوحنا يؤمن فعلاً بأنه صادق، وأن الرب سمح له بأن يرى الحق حين يبوح بما «لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»[١٦٢].

ولا يسعى يوحنا للفوز بالثناء كمؤلف بارع، ولا مجال لاحتواء سفر الرؤيا ورفضه بوصفه عملاً أدبيًّا، بل من الواضح أنه يقصد الفوز بمتحولين للمسيحية، ويريد لرسالته أن تصل للعالم بأسره. ولا يقصد أن تخلد رسالته عبر العصور لسبب بسيط، هو أنه مقتنع ويريد أن يقنع جمهوره بأن نهاية العالم وشيكة. إذ يسمع يسوع المسيح وهو يقول فى رؤياه: «هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ»[١٦٣].

وأكبر المفارقات فى حياة يوحنا وعمله أن الأشياء التى تنبأ بها فى سفر الرؤيا لم تأت لتمر مر الكرام، أو لتمر أصلاً فى هذا المقام. فكان يوحنا نفسه سيُصدم أو ينكسر قلبه إذا علم أننا لا نزال هنا نطالع ما كتب قبل ألفى سنة؛ لذا فإن سفر الرؤيا والتراث الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية عرف بحق بأنه «تاريخ وهم»[١٦٤]. أى أن سفر الرؤيا بعبارة أخرى تاريخ نهاية العالم وتاريخ عالم أبى أن ينتهى.



الفصل الرابع

الغـزو الـرؤيـوى

« لا علم لى بما يحدث فى سائر بقاع العالم، لكن العالم فى هذا البلد الذى نعيش فيه لم يعد يعلن نهايته ولكنه يثبتها »

البابا جريجورى الكبير (٥٤٠ ـ ٦٠٤م)

عندما عزم چيروم على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية فى القرن الرابع اضطر لمواجهة كافة تناقضات سفر الرؤيا. فالحكاية التى يحكيها يوحنا كما رأينا يصعب تصديقها وفهمها. فالأسماء والألوان والصور التى يستحضرها يوحنا مشحونة بالمعانى الخفية، أما ما يفترض أن تدل عليه فمسألة حدس فى معظمها. وفى بعض المواضع «يتبِّل» يوحنا نصه بما لا يمكن وصفه إلا بأنه استخفاف بالعقل. ويفسر يوحنا من حين لآخر بعض الرموز ويحل قليلا من الألغاز، ولكن حتى حين يفعل فإن الأجوبة تثير مزيدًا من التساؤلات. وخلص چيروم بعد أن أصيب بالإحباط إلى أن «سفر الرؤيا به من الألغاز قدر ما به من ألفاظ»(١).

وبعض من أشهر الألغاز ـ كهوية الإمبراطور الرومانى الذى شفر اسمه فى الرقم الشيطانى ٦٦٦ ـ مخفية فى مشهد واضح فى النص. وهناك ألغاز أخرى نجدها فى تساؤلات تطرح نفسها: فيوحنا يؤكد أن العالم سينتهى قريبًا ولكنه لا يبوح بتوقيت محدد. وبعض الألغاز منسوجة بعمق وتعقيد فى النسيج اللاهوتى للنص نفسه. فأين فى سفر الرؤيا مثلاً نجد المعلم الحانى الرئيف كصورة يسوع فى بعض من أسمى فقرات الأناجيل؟ فيقول يسوع فى إنجيل متى: «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ»(٢). أما مؤلف سفر الرؤيا فلا يعرف إلا يسوع العنيف المنتقم «الْمُتَسَرْبِل بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ» المسلح بسيف ذى حدين ويمتطى صهوة جواد حرب ويقود «الأَجْنَاد الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ» فى حرب إبادة على أعدائه(٣).

يقول يوحنا الذى يبدو أنه يجد لذة فى وصف المذبحة التى سيخلفها الملك المحارب السماوى فى ساحة المعركة بعد الحرب بين الرب والشيطان: «وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَى يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ»، وينادى ملك فى النسور وهى تحلق فى وسط السماء قائلاً: «هَلُمَّ اجْتَمِعِى إِلَى عَشَاءِ الإِلَهِ الْعَظِيمِ، لِكَى تَأْكُلِى لُحُومَ مُلُوكٍ وَلُحُومَ قُوَّادٍ وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا وَلُحُومَ الْكُلِّ حُرًّا وَعَبْدًا صَغِيرًا وَكَبِيرًا»(٤).

ولعل التناقض الأكبر بين النظريات اللاهوتية المتنافسة لسفر الرؤيا والأناجيل نجده فى الفقرات التى تصف آخر الزمان. فطبقًا لرؤيا يوم الحساب بإحدى فقرات «سفر الرؤيا الصغير» كما وردت بإنجيل متى، فإن يسوع سيرحب فى مملكة السماء بكل من أعطى طعامًا لفقير وماء لظمآن وثوبًا لعريان ومأوى لشريد وعاد مريضًا وزار سجينًا. ويعلن يسوع فيما يوصف بأنه أسمى فقرة فى كافة الكتابات المقدسة المسيحية وأشدها ثورية فى الوقت نفسه: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِى هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِى فَعَلْتُمْ»(٥).

أما يوحنا فليس لديه شىء مشجع أو سامٍ يقوله للخيرين ممن يتمنون الخلاص عبر فعل الخيرات على الأرض. فأول أرواح تجد الخلاص ـ أو «تُختم» بتعبير يوحنا ـ فى سفر الرؤيا هم المائة والأربعة والأربعون ألفًا ممن لا فضل لهم إلا أنهم «لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ»(٦). وحين يحل البعث الأول والحساب لا يُبعث من رقدة الموت ليحكم مع يسوع فى الألفية التى سيَقضى ملكًا على الأرض إلا القديسون والشهداء ممن أبوا أن يعبدوا «الوحش» أو أن يضعوا وسمه على أيديهم وجباههم ومن قُطعت رقابهم لاعترافهم بالإيمان بالمسيح.

وبعد فكاك الشيطان من الحفرة التى لا قرار لها وهزيمته للأبد، يُبعث بقية الموتى ويحاسبون «بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ»(٧). ولا يحدد يوحنا أى سلوك فى الحياة يفضى إلى الخلاص بعد الموت، إلا أن المعنى الضمنى الذى يبدو قويًّا فى سفر الرؤيا هو أن الإيمان يفضُل العمل الصالح، وأن «القديسين» وحدهم من سيعُتقون من العقاب الأبدى.

وكل من عداهم بما فى ذلك «الْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ» ومعهم «الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ» سيبقون للأبد «فِى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ الَّذِى هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِى»(٨).

ومما يزعج قراء الكتابات المقدسة المسيحية القدامى منهم والمحدثين على السواء ذلك التناقض بين هاتين الطريقتين لتصور نهاية العالم. فمن الباحثين المحدثين، مثلاً، من يعتبر سفر الرؤيا «شبه مسيحى»؛ لأن يوحنا مهووس بالثأر والانتقام ولا يهتم كثيرًا بما يدعو إليه يسوع فى الأناجيل من رحمة وحنو(٩). والموقف المسيحى المعادى لسفر الرؤيا يلخصه مارتن لوثر فى مرحلة من حياته لم يكن اقتنع فيها تمامًا بعد بأن هذا السفر جزء من الكتاب المقدس أصلاً. يقول لوثر فى تقديمه لنسخة ألمانية من الكتاب المقدس نشرها فى سنة ١٥٢٢م: «إن روحى لا تستطيع أن تتوافق مع هذا السفر. وهناك سبب كافٍ واحد لضعف تقديرى له هو أنه لا مكان فيه للمسيح وتعاليمه»(١٠).

ولم يكن لوثر هو الوحيد أو أول من نظر إلى سفر الرؤيا نظرة انزعاج من قراء الكتاب المقدس. ولدى ظهوره أول مرة كاد سفر الرؤيا يستبعد من الكتابات المقدسة المسيحية، وكان نصه الغريب الزاخر بالعذاب والانتقام مصدر حيرة وغضب وتهديد وإساءة للكثير من المسيحيين ممن كانوا مستعدين لتقبل السفر كنص مقدس. ومع ذلك فإن سفر الرؤيا فى نهاية الأمر استحوذ على المخيلة المسيحية ـ والغربية بصورة من الصور ـ على مدار القرون الخمسة عشر التالية. كان يمكن لسفر يوحنا الصغير العذب على اللسان والمر فى المعدة أن يمنى بالفشل كعمل نبوئى ولكنه ظل يحقق شعبية كبيرة ـ إن صح التعبير ـ فى العصور الوسطى وما بعدها.

كان سفر الرؤيا يعتبر فى نظر بعض السلطات المسيحية دومًا سفرًا ذا خطر. فالنص، كما أراد له يوحنا على ما يبدو، قادر على استثارة مشاعر حادة فى نفوس قرائه وسامعيه. وهو بدوره رغبة فى الثأر، وموكب للفظائع، ونوع من العروض الغريبة. والنص بعنفه وجموحه يُغرق بعض القراء فى نوبات من النشوة الروحية يسمعون فيها الأصوات السماوية ويشهدون مشاهد الإعجاز. وفى أيامنا هذه قد نميل بالطبع إلى

اعتبار ظواهر كهذه ضربًا من المرض العقلى، إلا أن كهنة الكنيسة المسيحية فى طور النشأة كانوا ينظرون بعين الشك أيضًا للعوام ممن كانوا يدعون أنهم أصحاب رؤى.

وأقدم مثال مسجل للتطرف الدينى المستوحى من سفر الرؤيا يرجع إلى أواسط القرن الثانى، أى بعد ظهور النص أول مرة فى العالم المسيحى بحوالى نصف قرن. إذ كان سفر الرؤيا النص الأثير فى الكتاب المقدس لدى رجل يدعى مونتانوس ظهر فى حوالى سنة ١٥٦م بمنطقة من آسيا الصغرى تسمى «فريجيا» لا تبعد كثيرًا عن الكنائس السبع التى وجه يوحنا إليها رسائله، وأعلن أنه نبى. وكان من زمرة أتباعه مكسيميليا وبريسكا وهما فتاتان لهما شخصية كارزمية كمونتانوس نفسه، وكانتا تدخلان فى نوبات وَجْد وتزعمان أنهما تتلقيان وحيًا من لدن الرب مباشرةً، وهى ظاهرة أصبحت تعرف بـ«النبوة الجديدة».

وكسائر الأنبياء المستقلين ممن جاءوا قبلهم وبعدهم، كان أتباع مونتانوس يعدون من أصحاب الأرواح السامية فى نظر السلطات الدينية التى آثرت أن تقصر النبوة على النصوص المعترف بها فى الكتاب المقدس. فلو تُرك الناس أحرارًا يعلنون أنفسهم أنبياء على هواهم لالتهبت أخيلة المتدينين المسيحيين بغرائب الرؤى وأخطرها وما لا سبيل للسيطرة عليه منها؛ لذا فإن الكنيسة كذبت أتباع مونتانوس واعتبرتهم هراطقة، لكن مونتانوس ونبيتيه واصلوا مهمتهم التى كَلفوا بها أنفسهم. بل كانوا يرون أن لا داعى لانزعاج الكنيسة من ظهور أدعياء النبوة؛ لأن نبوءاتهم عن آخر الزمان على وشك أن تتحقق على أية حال. وأعلنت مكسيميليا قائلة: «لا نبوة بعدى، بل النهاية»[١١].

وعلى ضوء رؤى سفر الرؤيا، أقنع أتباع مونتانوس أنفسهم ـ وسعوا لإقناع غيرهم ـ بأن النهاية وشيكة. وكانوا يقولون إن المسيحى التقىّ يجب أن يهجر لهو الحياة العادى ويستعد للقاء خالقه. وأخذوا يحثون الأرامل من الرجال والنساء على عدم الزواج والمتزوجين على عدم الإنجاب: «فدعوة الكتاب المقدس للتكاثر والتوالد تبطلها حقيقة أننا فى آخر الزمان»[١٢]. والأهم أنهم كانوا يرفضون اعتبار المشاهد الخيالية فى سفر الرؤيا علامات ورموزًا للتدبر والخروج بمعان خفية. بل كانوا يصرون

كغيرهم ممن لا يحصون عددًا من النساك وأهل الرؤى على مر القرون والألفيات على قراءة نص سفر الرؤيا باعتباره حقيقة مطلقة وحَرفية.

يصف يوحنا فى سفر الرؤيا، مثلاً، كيف انتقل «بالروح» إلى قمة جبل، حيث وعده ملَك بأن يريه «الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْحَمَلِ». إلا أن ما رأى كان فى الحقيقة مدينة أورشليم [القدس] «نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ» وهى تتلألأ بمجد الرب وقواعدها كأنها بنيت بأحجار كريمة من كل لون وأسوارها من يشب ولؤلؤ، وأسواقها ومبانيها من ذهب خالص[١٣]. ويبدو أن يوحنا نفسه يسلم جدلاً بأن «امرأة الحمَل» ليست سوى رمز لأورشليم [القدس] السماوية، ويقول إن المدينة السماوية شىء لن يراه إلا القديسون والشهداء الذين يُبعثون وإلا بعد دمار العالم.

إلا أن أتباع مونتانوس عاشوا يستعجلون رؤية أورشليم [القدس] الجديدة هنا والآن: بناء معجز من ذهب وجواهر تنزل من خلال السحب وتهبط على الأرض. وكانوا يتجاهلون ما فى سفر الرؤيا من فقرات يعلن فيها يوحنا أن النص ينبغى أن يُقرأ «رُوحِيًّا»، أى كمجموعة كنايات ورموز[١٤]. بل كانوا على اقتناع بأن المدينة السماوية ستستقر على مقربة من بلدة تسمى «بيبوزا» لا تبعد كثيرًا عن المدن السبع التى تخاطَب فى سفر الرؤيا وفى منطقة فريجيا منشأ أتباع مونتانوس. وككثرة من قراء سفر الرؤيا وسامعيه بدءًا من القدم وانتهاءً بعصرنا الحالى كانوا يؤمنون بفكرة أن يوحنا كان يتنبأ بحقيقة أشياء لا بد أن تحدث قريبًا وبالحَرفية التى وردت بها.

لم يكن المسيحيون السذج بالمناطق الداخلية من آسيا الصغرى الوحيدين الذين انخدعوا بفتنة مونتانوس ونبيتيه. فكان أشهر من اعتنق المونتانية ترتوليان (١٦٠ ـ ٢٢٠م) وهو لاهوتى من الكنيسة الأولى بقرطاج، وكان مقتنعًا أيضًا بأنه سيرى المشاهد الغريبة نفسها بعينيه. ويكتب ترتوليان متحدثًا فى يقين عن تقارير وردت من جنود مرابطين بإقليم فلسطين الرومانى يزعمون فيها رؤية قمم مدينة وأبراجها تحلق فى الأفق فجرًا ـ وهى بالطبع بشائر أورشليم [القدس] السماوية! وانتظار ترتوليان يوم الحساب ينم عن توق للثأر كما يصوره سفر الرؤيا بوضوح لا مزيد عليه.

وترتوليان الذى يتنبأ بأن الولاة الرومان الذين كانوا يضطهدون المسيحيين سيعذبون فى «نار أشد ضراوة من تلك التى أوقدوها فى أيام مجدهم ضد أتباع المسيح» ، ويعبر عن حماسه قائلاً : «يا له من مشهد رهيب ذلك الذى ستشهده الأعين!» (١٥).

ولم يكن أتباع مونتانوس أدعياء النبوة الوحيدين الذين أثاروا قلق العوام من المسيحيين. إذ ظهرت نبية بمكان آخر من آسيا الصغرى فى القرن الثانى ، مثلاً ، ودعت الأهالى فى كابادوشيا لترك ديارهم والتوجه بصورة جماعية إلى أورشليم [القدس] للترحيب بيسوع المسيحى لدى ظهوره الثانى. وظهر حالم آخر يدعى يهوذا اقتدى بسفر الرؤيا فى إعادة تأويل سفر دانيال لنفسه ، وأكد لإخوانه المسيحيين بالإسكندرية أن عدو المسيح ظهر ، وهو زعم لم يؤخذ على محمل الجد حسب قول يوسبيوس المؤرخ الكنسى الكبير (٢٦٣ ـ ٣٣٩) إلا نتيجة لموجة من الاضطهاد «شوشت عقول العوام» (١٦).

كما لم تكن بريسكا ومكسيميليا العنصر النسائى الوحيد أو الأول فى صدر المسيحية الذى ظن أن روح النبوة تلبسته. بل إن النبية التى يسميها يوحنا «إيزابل» كانت مثالاً أقدم على الظاهرة نفسها. إلا أن السلطات الكنسية كانت كمؤلف سفر الرؤيا نفسه تميل لنبذ أية عرافة من جنس النساء باعتبارها دعية نبوة. وفى مواجهة كل جهد تبذله الكنيسة لقمع هؤلاء الحالمات فإنهن لم ينمحين تمامًا من التاريخ ، وسنلقاهن مرارًا وتكرارًا على صفحات هذا الكتاب. وتشير الناشطة النسائية وباحثة الكتاب المقدس ميرى مالون قائلة : «مع ذلك فنحن نسمع كثيرًا ما يطمئننا من أن العديد من النسوة فى مختلف بقاع المسيحية لا يزلن يسعين لأداء أدوار الوعاظ والمبشرين والكهنة» (١٧).

ومن الغريب أن خطأ نبوءات مونتانوس وغيره من نذيرى الشؤم لم يكن أمرًا ذا بال بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين من أتباعهم ، وهى ظاهرة أخرى سنصادفها مرارًا فى تاريخ نهاية العالم. بل إن عدم نزول «أورشليم [القدس] الجديدة» فى بيبوزا أعطى أتباع مونتانوس «حياة ومظهرًا جديدين كنوع من مسيحية النخبة ، حيث لم تكن ثمة سلطة أخرى توجههم فى حياتهم الجديدة سوى «الروح القدس» الماثلة فيهم مباشرةً»

حسب قول أحد الباحثين الكاثوليك[١٨]. فلو كان يوحنا اصطفاه الرب دون غيره لتلقى الرؤى الغريبة المسجلة فى سفر الرؤيا، فإن الهبة الإلهية نفسها قد توهب لغيره ممن جاءوا بعده، وربما كانوا سيفلحون فيما أخفق هو فيه من معرفة الخطة الإلهية الكبرى لنهاية العالم.

وهكذا سعى أعداء «النبوة الجديدة» إلى تكذيب سفر الرؤيا نفسه؛ لأن بعض السلطات الكنسية كانت تخشى مما قد ينجم عن أخيلة قراء سفر الرؤيا وسامعيه. وقالوا إنه ليس من عمل القديس يوحنا اللاهوتى، ونسبوا وضعه لرجل يدعى كيرينسوس كان متهمًا بالهرطقة والفسق؛ لأنه تراءى له أن حكم المسيح لمدة ألف سنة على الأرض فرصة «للقديسين» للانغماس فى «النهم والشهوات بالولائم ونوبات الشراب والأعراس»[١٩]. وبإنكار كون سفر الرؤيا من الكتابات المقدسة، سعى خصوم مونتانوس لتسديد ضربة غير مباشرة لدعى النبوة ذى الشخصية الكارزمية ولعصبة النبيات الهاويات من حوله ولأتباعهم المهووسين جميعًا.

لكن شيئًا أكبر من غرائب مونتانوس وكرينيسوس وتجاوزاتهما تعرض للخطر فى الحملة على إضفاء القدسية على سفر الرؤيا. فأدعياء النبوة ودعياتها على السواء كانوا فى نظر كبار رجال الدين بمثابة خطر ماحق على الشريعة والنظام اللاهوتيين. ونظرًا لأن سفر الرؤيا كان يبدو حينئذ ــ ولا يزال إلى الآن ــ «نصًّا اختياريًّا» بالنسبة لأصحاب الرؤى وأهل الوجد ــ ولأنه يبدو كأنه يقر أحلامهم المحمومة ورؤاهم الشاذة ــ فإن النص نفسه غالبًا ما تحوم حوله الشبهات[٢٠]. إذن كان إخراج سفر الرؤيا من الكتاب المقدس بالنسبة لبعض السلطات المسيحية المتشددة كاستئصال سرطان خطير.

وشكل سفر الرؤيا مشكلة أخرى غريبة للكنيسة المسيحية الأولى وهى تكافح حتى تجد طريقًا للبقاء فى روما الوثنية. فأباطرة الرومان يشبَّهون فى سفر الرؤيا بوحوش شيطانية تجلس على عرش إبليس. وثراء نمط الحياة الهيلينى وأبهته موضع إدانة باعتبارهما «رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ»[٢١]. وأى مسيحى يهادن واقع روما الاستعمارية مدان بالتعاطى مع «أَعْمَاق الشَّيْطَانِ»[٢٢]. ونظرًا لأن يوحنا محارب حضارى لا يعرف

المهادنة وعدوه الأكبر الحضارة الرومانية نفسها، فإن كتاباته شكلت إحراجًا لأى مسيحى يسعى لكسب صداقات والتأثير على الناس فى الإمبراطورية الرومانية.

وفى مواضع أخرى بالعهد الجديد نجد أن واضعى الأناجيل أكثر توافقًا مع روما. فهناك «التفاف» لا تخطئه العين فى رواية الإنجيل عن القبض على يسوع ومحاكمته وإعدامه، تبعد اللوم عن السلطات الرومانية فى يهوذا المحتلة إلى كهنة هيكل أورشليم [القدس] من اليهود. ونجد يسوع نفسه يلفظ الكلمات التى يمكن فهمها كتعاليم بالخضوع للسلطات الرومانية: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ»[٢٣]. ويلاحظ أن يسوع يوضح كلامه بإمساك عملة رومانية تحمل اسم إمبراطور وثنى وصورته ــ أى «وسم الوحش» عند يوحنا. وفى حين يمكن فهم مقولة يسوع الشهيرة بأكثر من طريقة فإن بولس الرسول يؤيد مهادنة روما. يقول بولس: «لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ»[٢٤]. وطالما أن المسيحيين كانوا يواجهون ـ أو يخشون ـ الاضطهاد من قبل السلطات الرومانية فإن سفر الرؤيا كان يقدم السلوان لمعاناتهم الراهنة الفعلية أو الوهمية والوعد بثأر دامٍ فى آخر الزمان. إلا أن ازدراء روما الاستعمارية الذى يزخر به سفر الرؤيا يبطل فجأة وبشكل تام باعتناق الإمبراطور قسطنطين (٢٨٠ ــ ٣٣٧م) المسيحية بأوائل القرن الرابع. وفى عهد قسطنطين وبنيه ارتقت المسيحية من طائفة مهمشة ومجرَّمة إلى ديانة تحظى بحماية الأسرة الإمبراطورية وإيثارها، ثم إلى ما يشبه حكومة ظل يشمل سلطانها كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وما إن أصبح الإمبراطور الرومانى مسيحيًّا بدلاً من مضطهد للمسيحيين لم يعد لإدانة روما الاستعمارية فى سفر الرؤيا معنى، بل إن الكنيسة المسيحية أعطت نفسها لقب «المحارب والظافر الكنسى».

إن الإمبراطور الرومانى فى نظر يوحنا عميل إبليس المخضب بدماء الشهداء المسيحيين. أما بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا يعيشون فى ظل حكم قسطنطين فإن الإمبراطور الرومانى ظل الرب على الأرض. يقول يوسيبيوس الذى عمل كاتب أخبار كنسيًّا ومؤرخ البلاط فى عهد قسطنطين الطويل: «كما أنه ليس هناك إلا إله واحد

فليس هناك سوى إمبراطور واحد »[٢٥]. ويؤكد يوحنا أن روما التى يسميها «بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ» ستدمر فى آخر الزمان. فيقول أحد الملائكة فى أحد رؤاه: «سَقَطَتْ بَابِلُ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ لأَنَّهَا سَقَتْ جَمِيعَ الأُمَمِ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا»[٢٦]. إلا أن يوسيبيوس «لم يضايقه كثيرًا أن يميز عهد قسطنطين عن عهد مملكة المسيح»[٢٧] ويصف الإمبراطورية الرومانية فى عهد أول إمبراطور مسيحى بأنه شىء أشبه بالجنة على الأرض.

يقول يوسيبيوس: «ربما ظنها المرء بشائر مملكة المسيح، وحلمًا لا حقيقة»[٢٨].

ودفع التناقض الصارخ بين ما تنبأ به يوحنا وما حدث فعلاً فى روما الاستعمارية ببعض المتدينين بل بعض العمليين أيضًا فى الإمبراطورية التى اعتنقت المسيحية إلى اتخاذ قرار بضرورة احتواء سفر الرؤيا أو فصله عن الكتاب المقدس تمامًا. وهذا النشوز الإدراكى نفسه دفع بمسيحيين آخرين إلى الذهاب لآفاق غير عادية لتفسير ما بدا كمجموعة رؤى شائهة وعنيدة. فكان مهاجمو سفر يوحنا الصغير والمدافعون عنه على السواء يتجهون نحو مشكلة واحدة عسيرة من اتجاهين عكسيين، ألا وهى أن الأباطرة المسيحيين أصبحوا يرتقون ما يعتبره يوحنا عرش الشيطان.

الحقيقة أن أكبر مشكلات سفر الرؤيا أن العالم لم ينته. فيوحنا يؤكد أنه رأى «مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»، ومع ذلك مرت سنوات وعقود وقرون ولا تزال روما تحكم العالم[٢٩]. وبالنسبة للمسيحيين القدماء ممن كانوا يعتبرون سفر الرؤيا كلمة الرب المنزلة كان فشل نبوءاته الواضح محرجًا ولكن لا مراء فيه.

تقول المؤرخة وباحثة العهد الجديد پولا فريدريكسن: «بعدم انتهاء التاريخ فى موعده اضطرت الكنيسة اضطرارًا للتوافق مع نبوءتها الأساسية»[٣٠].

ويوحنا ليس الشخصية الوحيدة فى الكتاب المقدس التى خابت تنبؤاتها عن نهاية العالم، أو كانت سابقة لأوانها بشكل فج. فسفر دانيال ــ كما رأينا ــ يبدو واثقًا فى نبوءته بأن نهاية العالم ستحدث بعد «أَلْفٌ وَمِائَتَيْنِ وَتِسْعِينَ يَوْمًا» بالضبط من «إِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرِّبِ»[٣١]. والمؤلف غامض بشكل يثير الحنق بالطبع فى وصفه الحدث الذى

يفترض أن يبدأ العد التنازلى بعده ـ ربما كان «رِجْسِ الْمُخَرَّبِ» صورة وثنية نصبها غزاة يهوذا السوريون فى هيكل أورشليم [القدس] فى القرن الثانى قبل الميلاد ـ ثم يضعف صدقيته بقوله بعد ذلك بفقرة واحدة بأن فترة الانتظار هى فى الحقيقة «أَلْفٌ وَثلاَثُ مائة وَخَمْسَةٌ وَثلاَثِونَ يَوْمًا». إلا أن المؤلف يطمئن قراءه إلى أن مثل هذا المبهمات والتناقضات لا ينبغى أن تزعج المؤمن الحق، وهو إيمان بنبوءات الكتاب المقدس لا يزال قائمًا حتى الآن.

يقول واضع سفر دانيال: «وَلاَ يَفْهَمُ أَحَدُ الأَشْرَارِ لَكِنِ الْفَاهِمِينَ يَفْهَمُونَ»[٣٢].

ويسوع أيضًا يصوَّر فى الأناجيل وهو يعلن أن النهاية وشيكة. وهو فى الحقيقة يقتبس من سفر دانيال ـ «فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ الْخَرَابِ» الَّتِى قَالَ عَنْهَا دَانِيالُ النَّبِى قَائِمَةً فِى الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ ـ لِيَفْهَمِ الْقَارِئُ ـ فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِى الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ»[٣٣]، ووصفه آخر الزمان لا يقل ترددًا ولكنه أكثر حدة إذا قورن بأوصافه فى سفر الرؤيا. فيقول المؤلف على لسان يسوع فى «الرؤيا الصغرى» كما وردت فى إنجيل متى: «وَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَالْمُرْضِعَاتِ فِى تِلْكَ الأَيَّامِ. صَلُّوا لِكَى لاَ يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِى شِتَاءٍ وَلاَ فِى سَبْتٍ، لأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ ضِيقٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ»[٣٤].

ويؤكد يسوع ـ كما سبقت الإشارة ـ أن بعضًا من معاصريه سيكونون شهود عيان نهاية العالم ـ كسوف الشمس وخسوف القمر وتساقط النجوم من السماء والمجاعات والأوبئة والزلازل[٣٥]، ومجىء «ابن الإنسان» «بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ»[٣٦]. وتأكيداته التى تتسم بالصعوبة على المعلمين والمبشرين اللاحقين؛ لأنها واضحة تمامًا ولكنها خطأ تمامًا تطالعنا فى كل من إنجيل مرقس «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ»[٣٧] وإنجيل متى: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِى هَذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ»[٣٨].

فعاش المسيحيون الأوائل فى توقع دائم أن يشهدوا نهاية العالم. فتصف رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِى، مثلاً، ما أصبح يعرف باسم «الاختطاف»

أى الرفع المفاجئ للمسيحيين المؤمنين من الأرض إلى السماء لدى المجىء الثانى ليسوع المسيح. يقول بولس: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوق اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِى الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً، ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِى السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِى الْهَوَاءِ»[٣٩]. والحقيقة أن نبوءة بولس القاطعة تحويها رسالة ربما أنشئت فى سنة ٤٩ ميلادية، وهو «أقدم شاهد محدد تاريخه على المسيحية كما نعرفها» حسب قول بعض الباحثين[٤٠].

لكن العهد الجديد يضم أيضًا كتابات تسعى لهدم التوقعات الرؤيوية للمسيحيين الأوائل. فـ«رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى» تتراجع عن الوعد بقرب النهاية، وهو أحد الأسباب التى ترجح أنها دونت بعد الرسالة الأولى بمدة طويلة وبقلم مؤلف غير بولس. فيقول الكاتب على لسان بولس فى الرسالة الثانية: «ثُمَّ نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ مَجِىءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاجْتِمَاعِنَا إِلَيْهِ أَنْ لاَ تَتَزَعْزَعُوا سَرِيعًا عَنْ ذِهْنِكُمْ وَلاَ تَرْتَاعُوا لاَ بِرُوحٍ وَلاَ بِكَلِمَةٍ وَلاَ بِرِسَالَةٍ كَأَنَّهَا مِنَّا: أَىْ أَنَّ يَوْمَ الْمَسِيحِ قَدْ حَضَرَ». ثم يضيف ما يبدو كأنه إشارة لسيناريو آخر الزمان بسفر الرؤيا: «لاَ يَخْدَعَنَّكُمْ أَحَدٌ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا لأَنَّهُ لاَ يَأْتِى إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً وَيُسْتَعْلَنَ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ ابْنُ الْهَلاَكِ»[٤١].

ويستبعد يسوع نفسه أن يكون لديه أى علم مؤكد بموعد نهاية العالم. ففى فقرة شهيرة بإنجيل مرقس يقال على لسان يسوع: «فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلاَ تَرْتَاعُوا لأَنَّهَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ»[٤٢]. فيحذر يسوع تحديدًا من «مُسَحاء زائفين وأدعياء نبوة» يحاولون تضليل المسيحيين الأتقياء بزعمهم معرفة موعد آخر الزمان أو تفاصيله[٤٣]. ويؤكد يسوع أن لا أحد فى السماء أو فى الأرض ـ حتى هو نفسه! ـ وُهب رؤيا عن يوم القيامة. ويرد على لسان يسوع: «حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَ ذَا الْمَسِيحُ هُنَا أَوْ هُوَ ذَا هُنَاكَ فَلاَ تُصَدِّقُوا... وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ الابْنُ إِلاَّ الآبُ»[٤٤].

وربما حذر يسوع أتباعه من الحدس العقيم حول موعد نهاية العالم، لكن كلماته

لم تُجْدِ فى منع بعض قراء سفر الرؤيا من الإقدام على ما أَمر بعدم الإقدام عليه. بل إن كافة ما بذل من جهود لفك طلاسم سفر الرؤيا كانت دائمًا موضع انتقاد رجال الدين الأتقياء باعتبارها مما لا يليق، بل خطيئة. يقول راولى: «إن المحاولات التى لا حصر لها من قبل أتباع يسوع للخروج بمعرفة دقيقة تقوم فى نظرى دليلاً على عدم الولاء له، وهو الذى أعلن أن الأسرار التى يسعون للتكهن بها بغير طائل تخص الرب دون سواه»[٤٥]. لكن مثل هذه التحذيرات لم تحل دون ظهور أجيال لا حصر لها من أصحاب الرؤى والحالمين، بدءًا من النبيتين بريسكا ومكسيميليا وانتهاءً باللاهوتيين التليفزيونيين ممن يقرعون بأيديهم على الكتاب المقدس، ومؤلفى أكثر الكتب مبيعًا فى عصرنا الراهن من إقناع أنفسهم والسعى لإقناع غيرهم بأنهم يعلمون متى ينتهى العالم.

إن سفر الرؤيا ليس النص القديم الوحيد الذى اعتبره بعض رجال الدين فى سنوات الكنيسة المسيحية الأولى أعقد من أن يُسبر غوره. ففى مكان ما فى صحراء مصر بنجع حمادى، مثلاً، عثر على مجموعة من البرديات تعرف بـ«الأناجيل العرفانية» دفنها أحد المسيحيين الخائفين فى الرمل؛ لأن السلطات الكنسية اعتبرتها ضربًا من الهرطقة. ومن بين نصوص المسيحية الأولى الممنوعة كان هناك عدد كبير من الرقاع الرؤيوية تحتفظ إحداها بمحاكاة بارعة لأشهر سطور سفر الرؤيا. فتقول إحدى فقرات «سفر الرعد»: «أنا الأول والآخِر، أنا المعظم والذليل، أنا الزانية والتقىّ»[٤٦].

والمصير الذى آلت إليه «الأناجيل العرفانية» يوحى بما كان سيحدث لسفر الرؤيا لو أفلح مدعى الرقابة؛ إذ ظلت «الأناجيل العرفانية» مدفونة ومنسية لألفى سنة إلى أن استعادها الآثاريون من نجع حمادى فى القرن العشرين، وأعادوا بها كتابة فصل قديم فى تاريخ المسيحية، وكان سفر الرؤيا أيضًا معرضًا لفقد مكانته ضمن الكتابات المقدسة المسيحية بل ربما للاختفاء من التراث المسيحى كالنصوص الرؤيوية اليهودية التى حُذفت من التراث اليهودى ومنها سفر أخنوخ.

والحالة غير المستقرة لسفر الرؤيا فى الكنيسة المسيحية الأولى تؤكدها كتابات الآباء الكنسيين. فالمؤرخ القديم يوسيبيوس يقرر صراحةً أن سفر الرؤيا «كان أصيلاً فى نظر

البعض وملفقًا فى نظر غيرهم »[٤٧]. وفى بعض الفترات احتدم الجدل حول سفر الرؤيا لدرجة أنه كان يفرق بين أفراد الأسرة الواحدة. فهناك مفسر قديم مرموق هو جريجورى ناتسيانسوس ينقل عن سفر الرؤيا فى أعماله، فى حين أن ابن عمه أمفيلوكيوس آيكونيوم يقول إن «معظم الناس يعتبرونه ملفقًا»[٤٨].

ويعد الجدل حول ما إذا كان سفر الرؤيا يدخل ضمن الكتاب المقدس تشكيكًا فى هوية مؤلفه. فحسب اختبارات صبغة عباد الشمس التى كان يطبقها آباء الكنيسة الأولون، لم يكن يؤذن بالضم إلى العهد الجديد إلا للكتابات التى يعترف بأنها «رسولية»، أى ما كان مؤلفها من تلاميذ يسوع. وهكذا فإن هوية الرجل الذى يسمى نفسه «يوحنا» فى سفر الرؤيا ثبت أنها قاطعة. فلو كان المؤلف يوحنا بن زبدى أحد تلاميذ يسوع الناصرى الاثنى عشر الأصليين فإن سفر الرؤيا كان جديرًا بالضم، أما إذا كان المؤلف «يوحنا آخر» كما أعلن الأسقف ديونيسيوس بالقرن الثالث فكان لا بد من حذفه من النصوص المقدسة المسيحية[٤٩]. أما شعور ديونيسيوس بالصدمة إزاء سفر الرؤيا باعتباره «لغوًا ولا داعى له» فهو أمر يقترب من هذه النقطة، فيقول: «الأمور التى لا أفهمها لا أرفضها، ولكنى أعجب لعدم قدرتى على إدراكها»[٥٠].

ومن الأمثلة الكاشفة عن الطريقة التى كان يتم بها إضفاء الشرعية الكنسية فى العالم المسيحى القديم، وكيف تم ذلك فى حالة سفر الرؤيا ما يمكن الاستدلال عليه من المصير الذى آل إليه عمل مثل «راعى هرماس». فهو نص غريب كسفر الرؤيا يضم فقرات نبوئية ورؤيوية، ويقدم زائرًا سماويًّا يعطى لأحد بنى البشر القدرة على قراءة سفر من الأسرار الإلهية وفهمه. ولعله أنشئ فى فترة ما بعد سنة ٩٠م، ما يعنى أن «راعى هرماس» كان معاصرًا لسفر الرؤيا تقريبًا. ومرة أخرى وكما حدث مع سفر الرؤيا يعتقد أن مؤلفه يهودى تحول إلى المسيحية. إلا أنه وعلى خلاف سفر الرؤيا يعد مسيحيًّا خالصًا يزخر بإشارات إلى الكنيسة والكهنة والشعائر والطقوس المسيحية وغيرها من العناصر المفتقدة إلى حد كبير فى سفر الرؤيا.

ومع ذلك وجد سفر الرؤيا ترحيبًا فى لائحة الأسفار المسيحية فى حين تم استبعاد

سفر «راعى هرماس» لسبب بسيط هو أن مؤلفه لم يكن أحد تلاميذ يسوع المسيح. وكان عملا وضع حديثًا بقلم رجل قدم نفسه كأحد ساكنى روما[٥١]. وحقق السفر شعبية بين الطوائف المسيحية فى القرن الثانى، إلا أن شعبيته لم تشفع له فى اكتساب الشرعية الكنسية. واستُبعد سفر «راعى هرماس» من أقدم وثيقة باقية تحدد لائحة الأسفار الكنسية ـ ما يعرف بـ «اللائحة الموراتورية» بأواخر القرن الثانى ـ بتعليل بسيط وكافٍ هو أنه دوّن «فى عصرنا»[٥٢].

وفى القرن الرابع كان صناع القوائم لا يزالون منقسمين حول مسألة ما إذا كان ينبغى ضم سفر الرؤيا إلى الكتابات المقدسة المسيحية. فها هو أثاناسيوس (٢٩٣ ـ ٣٧٣م) أسقف الإسكندرية ومناضل صليبى شرس على الهرطقة المسيحية من أى نوع يضم سفر الرؤيا إلى قائمة أسفار العهد الجديد، ولكنه حذف من القوائم التى أنشأها وأقرها كيريل الأورشليمى (٣١٥ ـ ٣٨٦م) ومجلس لاودكية أحد المدن السبع التى يخاطبها مؤلف سفر الرؤيا. بل إن سفر الرؤيا حامت حوله الشبهات بصفة خاصة فى القسم الشرقى من العالم المسيحى، ويغيب بشكل ملحوظ عن الشواهد التوراتية التى ترد فى كتابات آباء الكنيسة المقيمين بمدن شرقية مهمة كأنطاكية والقسطنطينية.

والحقيقة أن سفر الرؤيا لم يكن محور أول انقسام فى نسخ الكتاب المقدس القديمة كما عرفت وتم تداولها فى المسيحية الشرقية. فرفضت الكنيسة السورية الشرقية سفر الرؤيا ولا وجود له على الإطلاق فى أقدم ترجمة سورية للكتابات المقدسة المسيحية. وفى القرن التاسع كان سفر الرؤيا لا يزال موسومًا كسفر «متنازع عليه» فى كتابات كنيسة بيزنطة، وتم حذفه كليةً من إحدى القوائم البيزنطية للنصوص المسيحية التى ضمها باعتبارها نصوصًا قانونية. ولم يبدأ ظهور سفر الرؤيا بشكل اعتيادى فى المخطوطات اليونانية للعهد الجديد فى أرجاء العالم المسيحى إلا فى القرن العاشر[٥٣].

ربما كانت لسفر الرؤيا بداية بطيئة ومترددة فى المنطقة التى أنشئ فيها، إلا أن الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الرومانية كانت أكثر تقبلاً له. فالعهد الجديد كما عرف وتم تداوله فى الغرب كان دائمًا يضم سفر الرؤيا، وأصبحت للنص مكانة خاصة فى كل من ألمانيا

وفرنسا وإنجلترا. بل يبدو أن سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يتحرك غربًا باستمرار عبر أوروپا ونحو أمريكا، وهى حقيقة لها عواقب مفجعة بالنسبة لوظيفته فى عصرنا.

ظل سفر الرؤيا يحمل طابعًا سيئًا ما حتى بعد أن ضمن مكانه ضمن النصوص المقدسة المسيحية. فاللغة المجازية الشاذة والمذابح الرهيبة التى يؤثرها يوحنا كانت دومًا منفرة للمبشرين والمعلمين المسيحيين الأكثر التزامًا. فما من كلمة واحدة فى السفر برمته تقدم درسًا أخلاقيًّا تبين للمرء كيف يعيش حياة طيبة على الأرض. وكان كبار رجال الدين قلقين دائمًا من أن تجد بريسكا جديدة أو مكسيميليا أخرى فى سفر الرؤيا ما يشجعها على الشروع فى تفريغ رؤاها ونبوءاتها. فسفر الرؤيا أجيز ولكنه ظل مستبعدًا على مسافة آمنة لدى بعض السلطات الكنسية.

ومن مقاييس مكانته الهامشية فى المسيحية الأولى، مثلاً، بقاء أقل من مائتى مخطوط من سفر الرؤيا بنصه اليونانى الأصلى من القدم فى مقابل ألفى مخطوط من الأناجيل. يقول باحث الكتاب المقدس الپروتستانتى والعالم اللاهوتى كادمن كولويل: «هذه الأعداد تمثل بدقة المكانة النسبية لهذه الأسفار فى العالم المسيحى الشرقى حتى العصور الوسطى». وهناك مظهر آخر للظاهرة نفسها يمكن إدراكه فى تفسير توراتى قديم قام واضعه بتحويل فقرات من سفر الرؤيا إلى اليونانية الدارجة، بينما ترك سائر أسفار العهد الجديد دون تعديل ليونانية النص الأصلى الأقرب للفصحى؛ لأنها وعلى خلاف سفر الرؤيا «أقدس من أن تعدَّل!»[٥٤].

وحتى فى عصر «الإصلاح» حين كان النزاع بين الپروتستانت والكاثوليك مسألة حياة أو موت، وافقت قلة من اللاهوتيين من الطرفين على شىء واحد هو أن سفر الرؤيا نص خطير يتطلب تناولاً حذرًا. وهناك تعليق ساخر عن سفر الرؤيا لعالم اللاهوت من عصر النهضة ديزيديريوس إيراسموس (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦م) فى مقال نشر بأوائل القرن السادس عشر يقول فيه: «بعض الذهب أنقى وأجود من غيره. وفى المقدسات أيضًا هناك ما هو أقدس من غيره»[٥٥]. ولم يكن مارتن لوثر الراهب الكاثوليكى الرومانى الذى أطلق حركة الإصلاح الپروتستانتى أقل ارتيابًا وأقل

موارِبة، إذ اعترف بميله لاستبعاد سفر الرؤيا من الكتاب المقدس تمامًا على أساس أنه «ليس رسوليًّا ولا نبويًّا»[٥٦]. وكان الخط الأمامى فى المعركة حول سفر الرؤيا يُرسم دائمًا بين سلطة الكنيسة وجيش الدهماء من قراء الكتاب المقدس الحرونين الذين يصرون على التوصل إلى استنتاجاتهم الخاصة عن معانيه الباطنية المحجوبة؛ لذا كان دائمًا كما سنرى «نصًّا اختياريًّا» لغرباء الأطوار الدينيين ممن يعتبرون عصرهم آخر الزمان، من مونتانوس بالقرن الثانى إلى ديڤيد كورش بالقرن العشرين ومن لا يحصون عددًا بينهما.

يقول چاك إيلول أستاذ العلوم السياسية وعالم اللاهوت الپروتستانتى الذى تنطبق كلماته وبالقوة نفسها على أتباع مونتانوس والمتعصبين الدينيين بالألفية الثالثة: «ليس هناك سفر يفوقه إثارة للهذيان والحمق والحركات اللاعقلانية، كأنه يحوى قوة إغراء شيطانية. فسفر الرؤيا غالبًا ما يحرك فضولنا ويلهب خيالنا ويثير شهيتنا للغموض وفى النهاية يحجب عنا الحقيقة المحورية التى ينبغى كشفها»[٥٧].

وفى الوقت نفسه أصبح سفر الرؤيا ضروريًّا للاهوت المسيحى لدرجة لا يمكن معها تجاهله. يقول المؤرخ والباحث فى الكتاب المقدس دونالد هارمن أركنسن فى قراءته الجديدة للنصوص المقدسة اليهودية والمسيحية (تخطى الدهشة: ابتداع الكتاب المقدس والتلمود) Surpassing Wonder: The Invention of the Bible and the Talmud: «إن الرؤيا ليس بالسفر اللطيف ولا هى باعث على التهذيب بأى معنى متعارف عليه». ومع ذلك فهو يصف ضمه إلى لائحة الأسفار المسيحية بأنه «خطوة أثرية هائلة»؛ لأن سفر الرؤيا يوجه سائر النصوص المسيحية المقدسة توجيهًا جديدًا. ويقول أركنسن: «إن السفر يدفع المرء لقراءة نص «العهد الجديد» بأكمله كرؤيا تبدأ بمولد يسوع وتنتهى بمملكة المسيح فى الأبدية»[٥٨].

وفى القرن الرابع، قررت السلطات الكنسية أن تعمل شيئًا إزاء استمرار تأثير سفر الرؤيا القوى على قلوب وعقول معظم من يسهل استثارتهم من العوام. فخرجوا بحكم بسيط ومناسب للتحكم فى قراءة سفر الرؤيا. فقالوا إن المسيحى الحق يجب ألا يقترف خطأ مطالعة سفر الرؤيا «مطالعة حسية» ـ أى أخذ رؤى يوحنا عن آخر الزمان حرفيًّا.

بل يجب مطالعة سفر الرؤيا «روحيًّا» ؛ أى أن هذا السفر يجب فهمه كمجاز لا كوصف صريح لما سيحدث فعلاً حين يوشك العالم على النهاية.

كان الحكم بمثابة محاولة صادقة لنزع فتيل القنبلة الموقوتة النشطة التى تطقطق فى ثنايا نص الرؤيا. ومثل الثقل الفعلى لسلطة الكنيسة وخطر «محاكم التفتيش» الرهيب فى تنفيذ هذا الحكم على العوام، ولكن دون نجاح كامل قط. ومن الغريب أن المسيحيين الحرونين ممن أصروا على قراءة الرؤيا «قراءة حسية» لم يكونوا يتحدون عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحسب بل التعاليم الواضحة للمؤلف نفسه أيضًا.

فى لحظة حاسمة ما فى سفر الرؤيا، يصف يوحنا رؤيا لما سيحدث فى مدينة لم يرد لها اسم فى آخر الزمان. فينبئ أحد الملائكة يوحنا بأن «الأغيار» ـ وهو مصطلح متداول فى الكتاب المقدس العبرى ويطلق على غير اليهود ـ «سَيَدُوسُونَ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ» اثنين وأربعين شهرًا. ثم يعطَى «شاهدان» مجهولان القدرة على التنبؤ لمدة ألف ومائتين وستين يومًا بالتمام. وما أن يتم الشاهدان نبوءاتهما «الْوَحْشُ الصَّاعِدُ مِنَ الْهَاوِيَةِ سَيَصْنَعُ مَعَهُمَا حَرْبًا وَيَغْلِبُهُمَا وَيَقْتُلُهُمَا». وستلقى جثتاهما دون دفن فى الشوارع لمدة ثلاثة أيام ونصف اليوم، ثم يبعثان ويدعوهما صوت إلهى لدخول الجنة[٥٩].

يقول يوحنا فى وصف الكارثة الإلهية التى رأى فى رؤياه: «وَفِى تِلْكَ السَّاعَةِ حَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ فَسَقَطَ عُشْرُ الْمَدِينَةِ وَقُتِلَ بِالزَّلْزَلَةِ أَسْمَاءٌ مِنَ النَّاسِ: سَبْعَةُ آلاَفٍ وَصَارَ الْبَاقُونَ فِى رُعْبَةٍ وَأَعْطُوا مَجْدًا لإِلَهِ السَّمَاءِ»[٦٠].

ولا يحدد يوحنا المكان الذى يراه فى رؤياه، بل يكتفى بالإشارة إلى «الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى تُدْعَى رُوحِيًّا سَدُومَ وَمِصْرَ». وبعض المترجمين يترجمون كلمة «روحيًّا» بمعنى «مجازًا» ؛ لأن يوحنا فى الحقيقة يوحى لقرائه وسامعيه بأن اسمى المكان هذين رمزيان تمامًا. ويكشف عن المعنى المقصود للاسمين الرمزيين بوصف «المدينة العظيمة» بأنها مكان «حَيْثُ صُلِبَ رَبُّنَا». بعبارة أوضح فحين يقول مؤلف سفر الرؤيا: «سدوم» و«مصر» فهو يقصد أورشليم [القدس]، أى المدينة الأرضية الخاضعة لاحتلال روما الوثنية، لكنه يقولها بصورة مجازية لا حَرفية[٦١].

وليس هذا أشهر سطر فى سفر الرؤيا ، ولكنه من سطوره الكاشفة. ففيه وفى مواضع أخرى من السفر يوضح يوحنا أن الأسماء والأعداد والألوان والصور فى رؤاه شفرات يجب فكها لكشف مقاصدها الحقيقية. ولعل مونتانوس كان يتوقع أن يرى أورشليم [القدس] السماوية تتهادى خلل السحاب فوق بيبوزا وتثير الغبار وهى تهبط لتستقر على الأرض ، ولكنه لم ينتبه إلى إشارة يوحنا بقراءة سفر الرؤيا «روحيًّا».

بل إن يوحنا نفسه أُعطى دورة مختصرة فى تفسير الأحلام والرؤى من قبل ناصحيه السماويين. فلأول وهلة ، مثلاً ، يدهش يوحنا لمرأى الوحش ذى السبعة رءوس الذى تمتطيه زانية بابل. فيقول له أحد الملائكة : «لِمَاذَا تَعَجَّبْتَ؟ أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ وَالْوَحْشِ الْحَامِلِ لَهَا». ويتبين أن رءوس الوحش السبعة ليست سوى رموز يقصد بها الإشارة ضمن أشياء أخرى إلى سبعة ملوك أرضيين[٦٢]. ويفسر يسوع نفسه «لغز» الكواكب السبعة والمنابر السبعة التى يراها يوحنا فى أولى رؤاه ، فما هى إلا رموز لسبع كنائس أرضية يُطلب من يوحنا أن يخاطبها[٦٣].

ومع ذلك فإن يوحنا يعرف كيف يحرك حشدًا ، وهو يقصد بالتأكيد أن يتلاعب بمخاوف جمهوره وأهوائهم بمشاهد الجنس واضطهاد السلطات الوثنية العنيف للمسيحيين وانتقام الرب الشديد من مضطهديهم. ورأى آباء الكنيسة الأولون بأنفسهم كيف يمكن لكلمات سفر الرؤيا وصوره القوية أن تحرك فى الناس أحلامهم ورؤاهم الخاصة. وحين ينبهون المسيحيين الأتقياء لقراءة السفر قراءة «روحية» لا «حسية» فإنهم كانوا يكافحون لجعله صالحًا للاستهلاك الآدمى ، وهكذا بدءوا مشروعًا طويلاً وفاشلاً يسميه أحد الباحثين «ترويض» التراث الرؤيوى[٦٤].

إن قراءة نص مقدس كمجاز بلاغى لا كحقيقة واضحة كان فكرة قديمة ولها قدرها فى العالم الإغريقى الرومانى ، واعتنقها الباحثون وعلماء اللاهوت اليهود والمسيحيون على السواء ، ومنهم فيلو السكندرى فى التراث اليهودى وأوريجن وچيروم فى التراث المسيحى. ومن ثم فإن أنصار حَرفية الكتاب المقدس ممن يقدمون أنفسهم فى فقرات سفر الرؤيا التى يظهر فيها القديسون والشهداء وهم يحكمون جنبًا إلى جنب مع يسوع المسيح

فى المملكة الألفية ـ «ظنًّا منهم أنهم ملوك وأمراء كالحكام الأرضيين الموجودين حاليًّا» حسب قول أوريجن ـ أدينوا «لرفضهم إعمال عقولهم»[٦٥].

إلا أن التوجه «الروحى» إزاء النص المقدس لقى أكمل وأقوى تعبير عنه لدى شخصية منسية تسمى «تايكونيوس»، وهو رجل دين مسيحى عاش بأواخر القرن الرابع، ومعظم كتاباته فُقد، لكن تعاليمه تلقى ظلالاً قوية على سفر الرؤيا. كان تايكونيوس يرى أن الصور الرهيبة والأحداث الجليلة فى سفر الرؤيا ــ الوحوش الشيطانية والمحاربون السماويون والمعركة الفاصلة بين الرب والشيطان وحكم يسوع لألف سنة ـ ينبغى فهمها كتعبيرات رمزية عن صراع مستمر بين الخير والشر لا كسرد حرفى لأحداث آتية. فزانية بابل وعروس الحمل فى نظر تايكونيوس ليستا سوى نموذجين للتفرقة بين البشر العاديين بحياتهم الصالحة أو الشيطانية.

وتايكونيوس نفسه حذف تقريبًا من التراث المسيحى؛ لأنه كان «دوناتيًا» أى عضوًا فى طائفة منشقة على الكنيسة الأولى كانت ترفض سلطة الأساقفة ممن كانوا يعتبرونهم مهرولين لمهادنة القضاة الوثنيين فى فترات الاضطهاد تحت نير روما الاستعمارية. كان الدوناتيون يتهمون أى مسيحى يطيع أمرًا بتسليم كتابه المقدس لحرقه بالخيانة. وبذلك فإن الدوناتيين ومؤلف سفر الرؤيا كانوا أقرباء بالروح، فكان كلاهما راديكاليين مسيحيين يستبعدون أية مهادنة مع روما الوثنية، ويبغضون أى مسيحى من إخوانهم يتعاون مع السلطات الرومانية.

أما فيما يتعلق بقراءة سفر الرؤيا، فكان تايكونيوس يتخذ موقفًا منضبطًا وعاقلاً «أعتقه من إحراج التأويل الحرفى» حسب قول پولا فريدريكسن[٦٦]. لكنه آل إلى رجل كانت مؤهلاته المسيحية فى وضع أفضل يمكنه من السمو بالقراءة «الروحية» لسفر الرؤيا إلى مرتبة مبدأ كنسى، وهو أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) أسقف هيبو بإقليم إفريقيا الرومانى، وربما كان أرقى علماء اللاهوت مكانة فى الكنيسة الأولى. فكان يحث قراء سفر الرؤيا وسامعيه على النظر إلى المعركة بين الرب والشيطان والتى يصورها السفر بصورة متقدة كمجاز لـ «الصراع الأخلاقى داخل كل إنسان وفى الكنيسة بعامة»، وكان يؤكد أن كل من يفعل غير ذلك فهو ينصاع «لأوهام هزلية»[٦٧].

فى «مدينة الرب ـ City Of God» يعترف أوغسطين الذى يشتهر بسرعته فى الاعتراف بفشله بأنه هو أيضًا أُغوى ذات مرة بالدخول فيما يسميه قراءة «حسية» لسفر الرؤيا(٦٨). أى أنه كان مستعدًا لاعتناق الفكرة المثيرة التى ترى أن المسيحيين العاديين سيرون يسوع المسيح يهبط إن عاجلاً أو آجلاً من السماء فوق سحابة، ويحكم كملك على الأرض لألف سنة. إلا أن أوغسطين يعلن أنه أدرك فيما بعد خطأه وأخذ يدعو إخوانه المسيحيين إلى ما أدرك. بل إنه يسخر من الاعتقاد الشعبى بأن القديسين المبعثين سيسمح لهم بمواصلة متعهم الحسية فى حقبة العد التنازلى الألفية نحو الدمار النهائى للعالم.

وبناء على بضعة أسطر سقيمة فى متن سفر الرؤيا تصف حكم المسيح والقديسين لألف سنة، رسم أصحاب الفكر الحسى صورة مفصلة للفردوس الأرضى الذى لا يشبه شيئًا فى السفر نفسه أو فى غيره من النصوص المقدسة المسيحية. فكانوا يؤكدون، مثلاً، أن الموتى سيبعثون فى أجساد صحيحة لا عيب فيها فى سن تقارب سن المسيح وقت صلبه، أى «فى العقد الرابع من العمر» حسب قول پولا فريدريكسن(٦٩). فالبدناء سيوهبون أجسادًا أنحف والمبتورة أطرافهم سيستردون أذرعهم وأرجلهم. والألفية ستشبه حكايات الجن حسب قول إيرينايوس الذى يزعم أن لديه معرفة بالأسرار الإلهية التى بشر بها يوحنا ولكنه لم يدونها فى سفر الرؤيا.

يتخيل فى «ضد البدع ـ Against Heresies» قائلاً: «ستأتى أيام تنمو فيها الكروم وبكل منها عشرة آلاف فرع، بكل فرع عشرة آلاف غصن، بكل غصن عشرة آلاف برعمة، بكل برعمة عشرة آلاف عنقود، بكل عنقود عشرة آلاف عنبة، وكلما أمسك أى من القديسين عنقودًا بكى عنقود آخر قائلاً: أنا أفضل منه، خذنى أنا»(٧٠).

ليس من الغريب على عامة الناس ممن يكافحون يومًا بيوم ليحصلوا على قوت يومهم ويعيشون فى خوف دائم من الجوع أن يتخيلوا الجنة مكانًا به وفرة من الطعام. إلا أن أوغسطين يعتبر هذه الأوهام ساذجة وطفولية، ويسخر صراحة من فكرة أن القديسين المبعثين سيقضون ألف سنة يلتهمون «ولائم حسية رعناء بها من الطعام والشراب الكثير، ما يكسر قيود الاعتدال بل قيود الصدقية أيضًا»(٧١).

ويؤكد أوغسطين أن الألفية ــ كما ورد وصفها بسفر الرؤيا ــ تشير إلى فردوس سماوى لا أرضى، فيقول: «مباهج القديسين فى ذلك السبت ستكون روحية»[٧٢]. وعلى عكس التخيلات المحمومة لأناس كمونتانوس يستهزئ بفكرة أن أورشليم [القدس] السماوية سيراها البشر رأى العين هنا والآن. أما أوغسطين نفسه فيعتبر أورشليم [القدس] الجديدة كما وصفها سفر الرؤيا رمزًا «لمجد ممتد وجديد لا يترك للقديم مكانًا يبقى فيه»، وهى ظاهرة تدَّخر إلى أن يفنى العالم نفسه[٧٣]. ولن يشهد أحد حكم المسيح الذى يدوم ألف سنة بأعين فانية؛ لأن المملكة الألفية رمز آخر فى رأى أوغسطين. يقول أوغسطين: «الكنيسة مملكة المسيح»[٧٤].

بل إن أوغسطين يؤثر أن يرى كافة التفاصيل المخيفة فى رؤى سفر الرؤيا سلسلة من المجازات المفصلة لحقيقة إلهية لا توصف لدرجة يضطر معها يوحنا لتلخيصها فى كلمات مجردة وأعداد وصور؛ لأن العقل البشرى العادى ما كان ليدركها بغير ذلك. ويحدد يوحنا حكم المسيح بألف سنة لا بمقياس الزمن الحرفى فى رأى أوغسطين، بل «بما يقابل فترة حياة هذا العالم». فالألف فى رأى أوغسطين «رقم الكمال». وحين يصف يوحنا الشيطان وكيف سيصفد بالأغلال ويلقَى به فى هاوية فى أثناء فترة حكم المسيح التى تدوم ألف سنة، فإن أوغسطين يفهم «الهاوية» بمعنى «الكثرة التى لا حصر لها من الأشرار ممن امتلأت قلوبهم بالحقد على كنيسة الرب»[٧٥].

ولا يرضى أوغسطين بالتسليم بأن المعركة الفاصلة بين الرب والشيطان ــ كما ورد وصفها بوضوح فى سفر الرؤيا ـ يمكن إدراكها فى الرزايا التى كانت تلم بروما حتى وهو يكتب. وذهب بعض معاصريه مثلاً إلى أن يوحنا حين يرى رؤى عن جيوش الشيطان وهى تخوض الحرب مع جيوش الرب فهو يتنبأ بغزو تتعرض له الإمبراطورية الرومانية من قبل شعوب «همجية» عدة، منها القوطيون والمورسكيون ممن يسمون «جيتاى» و«ماسينجيتاى» فى بعض المصادر القديمة. إلا أن أوغسطين يؤكد أن يوحنا لا يتحدث إلا مجازًا عن أعداء الكنيسة أينما كانوا على وجه الأرض. يقول أوغسطين: «فالأمتان اللتان يسميهما جوج وماجوج لا ينبغى فهمهما على أنهما أمتان من الهمج

فى بقعة ما من العالم، سواء الـ «جيتاى» والـ «ماسينجيتاى» كما يستنتج البعض من الأحرف الأولى، أو أمتان أجنبيتان أخريان خارج حكم الرومان»[٧٦].

وفوق هذا وذاك يتخذ أوغسطين موقفًا يسميه أحد الباحثين المحدثين «لا أدرية ثورية» ويعتبره باحث آخر «مبدأ الشك الغيبى»[٧٧]. ويؤكد أوغسطين فى تقى على الحقيقة الباطنية للرواية الكتابية المقدسة عن آخر الزمان، ولكنه يصر على أن «الطريقة التى سيحدث بها ذلك ليس بوسعنا الآن إلا أن نتكهن بها»، ولن ندركها إلا حين تحدث»[٧٨]. وبما أن يسوع كان قد نبه المسيحيين الأتقياء جميعًا من قبل ألا علم لأحد بموعد النهاية فإن سفر الرؤيا فى رأى أوغسطين لا يجب الرجوع إليه إلا لتعاليمه «الروحية» لا كمصدر لفتن الغيب.

اعتنقت السلطات الكنسية قراءة أوغسطين المقيدة والمحدودة لسفر الرؤيا وطبقتها، وبذلك أسهمت فى إخماد أية مضاربات حول تفاصيل «المجىء الثانى». يقول المؤرخ روبرت لرنر: «قطب أوغسطين جبينه لأنصار الألفية من المسيحيين ودفعهم للحذر فى كلماتهم». وأخمدت الكنيسة الحدس الرؤيوى بصورة فعالة حتى أنه فى الفترة من سنة ٤٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ «لم يظهر أى منتَج مكتوب باقٍ يحوى خيالاً ألفيًّا غربيًّا مستقلاًّ»[٧٩]. أما الأدعياء ممن تجرءوا وأعلنوا موعدًا لنهاية العالم كعرافى الشؤم الذين أعلنوا بكل ثقة أن «المجىء الثانى» سيحدث فى سنة ٥٠٠ ميلادية فاعتبرهم المسيحيون الأكثر حذرًا «معتوهين ومجانين»[٨٠]. تقول پولا فردريكسن: «كان البرهان العملى الذى أثبت هذا الرأى هو مجرد مرور الزمن الذى استمر ولم يتوقف»[٨١].

إلا أن موقف أوغسطين المتشدد والصارم من سفر الرؤيا لم يفلح تمامًا فى إطفاء النيران التى قصد النص إضرامها فى قلوب وعقول قرائه وسامعيه. فسحر بيان السفر لا يقاوم كما قصد يوحنا بالتأكيد. فكان سفر الرؤيا بالنسبة لمن اضطروا للتعامل مع ضغوط الحياة اليومية فى عالم العصور الوسطى يمثل الوعد بأن الوباء والجوع والمرض سيعقبه الانتقام من الأعداء على الأرض وثواب الحياة الأبدية فى مملكة سماوية، وليس فى يوم من الأيام، بل قريبًا.

من السهل للمؤمن الحق أن يعلل عدم انتهاء العالم فى موعده دون رفض سفر الرؤيا باعتباره مجرد مجاز أو مجموعة نبوءات فاشلة. وتقوم الطريقة الأخرى لقراءة السفر على الاقتناع بأن الأسرار الإلهية مشفرة فى المتن، إلا أن قراء السفر أخفقوا حتى الآن فى إدراكها. فالتراث الرؤيوى قائم على فكرة مثيرة فحواها أن المعانى الحقيقية للسفر مخفية فى مشهد صريح وأن «الذِّهْنُ الَّذِى لَهُ حِكْمَةٌ» حسب قول يوحنا سيفطن إلى الأسرار الإلهية ويدركها(٨٢).

إذن كان أنصار حرفية الكتاب المقدس فى العصور الوسطى يصرون كنظرائهم المحدثين على قراءة سفر الرؤيا كنبوءة إلهية، وواصلوا جهودهم الحثيثة لحل شفراته. وأفضل مثال آنذاك والآن هو محاولة تحديد هوية الشرير الذى يوصف فى السفر بـ«الوحش». ففى القرن الثالث، أعلن أسقف رومانى يدعى هيبوليتوس (١٧٠ ــ ٢٣٥م) أن «وحش» الرؤيا هو إبليس الذى يرد ذكره فى مواضع أخرى بالعهد الجديد فى الرسائل المنسوبة ليوحنا الرسول: «أَيُّهَا الأَوْلاَدُ هِىَ السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ وَكَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ ضِدَّ الْمَسِيحِ يَأْتِى قَدْ صَارَ الآنَ أَضْدَادٌ لِلْمَسِيحِ كَثِيرُونَ مِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ»(٨٣)، وهكذا بدأ التراث القديم الباقى للفعل الذى حذر أوغسطين المسيحيين الأتقياء ألا يقدموا عليه، أى البحث عن أناس وأحداث بعينها فى عالم الواقع ومطابقتهم على شخوص سفر الرؤيا وأحداثه.

والمهمة مفزعة لأن سفر الرؤيا يوحى كرسالتى يوحنا الرسول بأنه سيكون هناك أكثر من مرشح للقب عدو المسيح. بل إن مؤلف سفر الرؤيا طلع بمجموعة كاملة من الحكايات الأخلاقية عن مخلوقات شيطانية. فيبدأ بالتنين الأحمر وهو مخلوق يصفه صراحةً بأنه «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِى يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ»(٨٤). إلا أنه يستحضر أيضًا «وحشين» آخرين، أحدهما وحش ذو سبعة رءوس يخرج من البحر، والآخر ذو قرنين يخرج زاحفًا من بطن الأرض، وكلاهما من أعوان إبليس. الوحش الأول «أَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا»، والوحش الآخر يجبر البشرية على السجود للوحش الأول(٨٥).

ظل هذا الغموض وهذا التعقيد يجذبان انتباه قراء سفر الرؤيا وسامعيه ويلهبان خيالهم طوال الألفى سنة الماضية. وهناك إجابة بسيطة تفرض نفسها عندما يرد سفر الرؤيا لسياقه التاريخى الذى أنشئ فيه أصلاً. يتفق معظم الباحثين المحدثين على أن يوحنا يرمز بالوحش الذى يخرج من البحر إلى روما الاستعمارية، وكل من رءوسه السبعة تمثل أحد أباطرة الرومان. ويرمز بالوحش الذى يطلع من بطن الأرض إلى الأعيان الإقليميين بمدن آسيا الصغرى السبع الذين أثارت محاكاتهم أسيادهم الرومان اشمئزاز المؤلف. وسعى بعض من أقدم قراء سفر الرؤيا كالباحثين الذين جاءوا بعده بمدة طويلة للربط بين «الوحش» وأحد أباطرة الرومان القدماء أو غيره.

وأشهر دليل على هوية وحش الرؤيا كان دومًا الشفرة العددية المتمثلة فى الرقم ٦٦٦ : «هُنَا الْحِكْمَةُ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ: سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ»[٨٦]. ومفتاح الشفرة كما رأينا هو القيمة العددية للأحرف فى الأبجديات العبرية واليونانية واللاتينية. فبترجمة الأحرف فى أحد الأسماء إلى سلسلة من الأعداد يمكن الخروج بـ «عدد الإنسان»، أى القيمة العددية لأحرف اسمه.

ونيرون الإمبراطور الرومانى فى القرن الأول الذى صورته المصادر اليهودية والمسيحية والوثنية على السواء وحشًا كان دائمًا من المرشحين المرجحين؛ لأن القيمة العددية للأحرف العبرية التى تقابل «قيصر نيرون» هى فى الحقيقة ٦٦٦. ووفاة نيرون نتيجة انتحاره فى سنة ٦٨ ميلادية لم تمنع بعض قراء سفر الرؤيا من اعتباره عدو المسيح الذى لم يظهر بعد. وعلى كلٍّ فيوحنا يقول إن الوحش «كَانَ وَلَيْسَ الآنَ وَهُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَصْعَدَ مِنَ الْهَاوِيَةِ» وهو ما فسره البعض بمعنى أن نيرون عاش ومات وسيبعث من الموت ليحكم مرة أخرى فى آخر الزمان[٨٧]. والحقيقة أن فكرة بعث نيرون تفسر سطرًا يلفه الغموض بعمق فى السفر عن الوحش ذى السبعة رءوس الذى يخرج من البحر. يقول يوحنا: «وَاحِدًا مِنْ رُءُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِيَ وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ»[٨٨].

وربما كان يوحنا الذى يقتبس من المصادر الوثنية بحرية تامة استلهم حكاية كانت

تروى عن نيرون فى روما القديمة. فنيرون ـ حسب شائعة ارتقت فيما بعد إلى مرتبة الأسطورة ـ لم يمت بجرح سكين أصاب به نفسه إبان فتنة نشبت فى أواخر عهده، بل لجأ الإمبراطور الجريح إلى البارثيين أعداء روما القديمة وتم الإبقاء على حياته بمعجزة إلى يوم يعود فيه ليحكم روما من جديد. وتحولت الحكاية إلى نبوءة مقدسة بالبعث والعودة فى إحدى «نبوءات المتنبئين». فيتنبأ العراف قاصدًا نيرون بالإشارة إلى اعتقاده بأنه قاتل أمه قائلاً: «فى أواخر الزمان سيأتى من أواخر الأرض قاتل أمه، وسيعطَى القوة كلها وسيستعيد ما هلك دونه»[٨٩].

وهكذا فربما وظف يوحنا الأسطورة الوثنية عن «نيرون المبعوث ـ Nero redivivus» كرؤيا لآخر الزمان. لكن نيرون ليس الشخصية التاريخية الوحيدة التى سجلها على صفحات سفر الرؤيا قراؤه المبدعون من ذوى الخيال الخصب. بل إن طاقم شخصيات سفر الرؤيا أسندت إليهم مجموعة عجيبة من الأدوار، وكل جيل يفرز مرشحين جددًا للقب عدو المسيح. فصار وحش الرؤيا رجلاً لكل العصور.

حتى حين كان أوغسطين يدعو إلى قراءة سفر الرؤيا روحيًّا، مثلاً، كان بعض زملائه من رجال الدين يخيفون العقلاء من رعيتهم باستحضار الوحوش والأشرار الذين يملئون صفحاته إلى الحاضر. فكان مارتن تورس (٣١٦ ـ ٣٩٧م) وهو صاحب رؤى ظن أنه رأى ذات مرة إبليس بعينيه مقتنعًا بأن «وحش» الرؤيا حى يرزق فى مكان ما فى العالم وأن سليل إبليس البشرى موجود فى رحم أم تجهل حقيقة جنينها ومقدر له أن «يتولى الحكم ما أن يبلغ السن المناسبة»[٩٠]. وقام أحد أتباع مارتن ـ وهو رجل يدعى سولبيسيوس ـ بنشر الرسالة المخيفة نفسها بعد أن توفى مارتن نفسه واختفى. بل إنه يتنبأ بحدوث هذا الجزء الأرعن من النبوءة فى غضون ألفية ونصف الألفية.

يقول سولبيسيوس فى عمل ظهر أول مرة فى مطلع القرن الخامس: «الآن هذه السنة الثامنة منذ أن سمعنا هذه الكلمات من فمه. ولنا الآن أن نتوقع قرب حدوث ما نخشى وقوعه فى المستقبل»[٩١].

كانت علامات آخر الزمان يراها فى كل مكان من كانوا يبحثون عنها فى القرن

الخامس. فالبرابرة على بوابات روما ممن تم تعميد كثرة منهم على النصرانية حين ولدوا كانوا يعتبرون جيوش الشيطان الذى كان ظهوره من إرهاصات «المجىء الثانى». وعندما حاصر ألاريك والقوطيون الغربيون العاصمة الاستعمارية فى سنة ٤١٠م أعلن أحد الوعاظ المسيحيين قائلاً: «انظروا، مرت السنون من عهد آدم، والآن جاء يوم الحساب»[٩٢]. واعتُبرت الزلازل التى ضربت فلسطين وكسوف الشمس الذى سجل فى التاسع عشر من يوليو ٤١٨م تحقيقًا لنبوءات سفر الرؤيا: «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ»[٩٣].

بل كانت هناك أمثلة أكثر تطرفًا على «الأوهام الهزلية» التى سخر منها أوغسطين. فهناك شاب فى إسپانيا أصيب بالهلع الرؤيوى ـ أو بالأحرى استغل من أصيبوا بهذا الهلع ـ أعلن عن نفسه مدعيًا أنه يوحنا المعمدان، ورجل آخر بالأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الرومانية ادعى أنه إيليا مستحضرًا فقرة بسفر الرؤيا تتنبأ بمجىء «الشاهدين» اللذين سيبشران بالمسيح. وهناك كاتب أخبار مسيحى بالحقبة نفسها زعم أن القيمة العددية لاسم الملك الوندالى «جينسيريك» الذى تولى عرش قرطاج بشمالى إفريقيا ـ هى الرقم ٦٦٦ الشيطانى الرهيب.

ربما كانت الإمبراطورية الرومانية فى طور اضمحلالها وسقوطها فى سنوات القرن الخامس الصاخبة، لكن العالم لم ينته وظلت نبوءات سفر الرؤيا دون أن تتحقق. ومع ذلك واصل قراء سفر الرؤيا البحث عن علامات وآيات فى العالم من حولهم.

وما إن بدأ البحث المضنى عن عدو المسيح من لحم ودم فإنه لم ينته؛ لأن العالم نفسه لم ينته. وكان نيرون مرشحًا له جاذبيته لحيازة لقب عدو المسيح بين قراء سفر الرؤيا وسامعيه، ممن ذكّروا بأول اضطهاد للمسيحيين فى روما، لكن محمدًا[*] كان اختيارًا أرجح؛ نظرًا لأنه عاش فى العصور الوسطى. وإبان الحملات الصليبية اعتُبر صلاح الدين عدو المسيح، وحين غزا الأتراك القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م اعتُبر

(*) يقصد النبى محمدًا ﷺ.

سلطان الإمبراطورية العثمانية عدو المسيح فى عصره. وفى القرن السادس عشر اعتُبر كل من مارتن لوثر وبابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الآخر عدو المسيح. وفى أية مرحلة بين أواخر العصور القديمة وعصرنا الراهن، كان المشتبه بهم المعتادون فى البحث عن عدو المسيح يعكسون هواجس عصرهم.

كان تخمين من يشتبه بأنهم عدو المسيح تسلية شعبية بين بعض قراء سفر الرؤيا. بل ربما بذل جهد أكبر لحساب موعد انتهاء العالم بدراسة الأعداد الغامضة الكامنة فى سفر الرؤيا. وكان يسوع واضحًا فى تحريم مثل هذه التكهنات، ويدعو أوغسطين المسيحيين الأتقياء ممن يجدون فى أنفسهم ميلا لعد السنين المتبقية إلى يوم الحساب أن «يرخوا أصابعهم ويعطوها قليلا من الراحة»، إلا أن الكلمات الصريحة فى الأناجيل وعلى ألسنة آباء الكنيسة لم تردع هواة الأعداد الغامضة(٩٤).

وككثير غيرها فى التراث الرؤيوى تبدأ لعبة الأعداد فى سفر دانيال، حيث يوهب النبى رؤيا عن محنة بنى إسرائيل الأخيرة. فيقول أحد مبشريه السماويين: «إِنَّهُ إِلَى زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ. فَإِذَا تَمَّ تَفْرِيقُ أَيْدِى الشَّعْبِ الْمُقَدَّسِ تَتِمُّ كُلُّ هَذِهِ»(٩٥). وباستقراء فقرات أخرى أقل غموضًا فى سفر دانيال، حيث يشير النبى ـ كما رأينا ـ إلى فترة ألف ومائتين وتسعين يومًا أو ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يومًا باعتبارها ساعة العد التنازلى للخلاص الأخير، وهى فترة تساوى حوالى ثلاث سنوات ونصف السنة، قرر بعض قراء سفر دانيال الأوائل أن «زمان» يساوى سنة و«زمانين» يساويان سنتين. وهكذا اعتبروا أن عبارة «زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ» تعنى ثلاث سنوات ونصف السنة.

والفترة الزمنية نفسها تمامًا استحضرها سفر الرؤيا بصورة مفرطة. فالمرأة المتسربلة بالشمس، مثلاً، تفر إلى الصحراء هربًا من التنين الأحمر، وستظل هناك حسب قول يوحنا «زَمَانًا وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفَ زَمَانٍ». وفى موضع آخر من سفر الرؤيا يحدد يوحنا أن إقامتها ستدوم ألفًا ومائتين وستين يومًا. ويتنبأ بأن الأغيار سيطئون مدينة أورشليم [القدس] المقدسة اثنين وأربعين شهرًا، وأن الشاهدين سيبشرون لألف ومائتين وستين يومًا. ويتنبأ يوحنا فيما بعد بأن «وحش البحر» سيحكم الأرض لاثنين وأربعين

شهرًا[٩٦]. وهذه الفترات كلها تساوى ثلاث سنوات ونصف السنة إذا حسبنا على أساس أن الشهر ثلاثون يومًا. وليس من قبيل المصادفة أن ثلاثة ونصف هى نصف رقم يوحنا المفضل، أى الرقم سبعة الإلهى.

ووفقًا لأحد الأقوال المأثورة التى تشبث بها هواة تحديد التواريخ الرؤيوية، فإن يوحنا يقصد البوح بأن نهاية العالم ستحل بعد ثلاث سنوات ونصف السنة تمامًا من ظهور عدو المسيح. وهناك أسقف من شمالى إفريقيا يدعى إيفوديوس الأوزالى، مثلاً، كان يؤكد لجمهوره فى سنة ٤١٢ أن الشيطان نفسه سيحكم العالم باسم عدو المسيح قبل ثلاث سنوات ونصف السنة تمامًا من عودة يسوع المسيح إلى الأرض منتصرًا حسب نبوءة سفر الرؤيا. وفترة السنوات الثلاث ونصف السنة نفسها شاعت فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى بوصفها العد التنازلى لآخر الأزمان.

وما إن اقتنعوا بأن مجىء عدو المسيح هو الحدث الذى يطلق العد التنازلى لنهاية العالم، حتى تنبه المتنبئون المسيحيون ونشطوا للبحث عن الأرجح من بين الملوك والغزاة فى عالمهم. وسفر الرؤيا يضم نبوءات خير ونبوءات شؤم كما رأينا، وفيما يلى مثال آخر: سيأتى عدو المسيح بالقهر والاضطهاد بكل تأكيد، ولكنه فى الوقت نفسه أصدق علامة على قرب ظهور يسوع المسيح. وعلى أى ففترة ثلاث سنوات ونصف السنة ليست طويلة فى انتظار الجوائز التى وعد بها سفر الرؤيا من مجىء ثانٍ ليسوع المسيح والمملكة الألفية والهزيمة النهائية للشيطان ويوم الحساب، ولقلة سعيدة حياة أبدية فى السماء الجديدة والأرض الجديدة. والمؤمنون الحقيقيون الرؤيويون يرقبون ظهور عدو المسيح منذ ذلك الحين.

ولكن فيما يتعلق بالتوقيت أيضًا فالخيال الرؤيوى لا يرضى بالأفكار البسيطة، وهناك نظريات أكثر تفصيلاً ظهرت فى أوائل العصور الوسطى لحساب آخر الأزمان. وتقوم أكثر النظريات ثباتًا على مقولة قديمة تقول إن تاريخ العالم من بدايته لنهايته يمكن تقسيمه إلى سبع فترات كل منها ألف سنة. وبذرة الفكرة يمكن العثور عليها فى سطر شارد من النصوص اليهودية المقدسة ـ حيث يقول ناظم المزامير للرب فى الكتاب

المقدس العبرى : «لأَنَّ أَلْفَ سَنَةٍ فِى عَيْنَيْكَ مِثْلُ يَوْمِ أَمْسِ» ـ إلا أنها نمت وأزهرت فى دفيئة التراث الرؤيوى»[٩٧].

التشبيه نفسه أعيدت صياغته فى النصوص المقدسة المسيحية بطريقة توحى بمعنى أكثر حرفية. فيقول مؤلف رِسَالَةِ بُطْرُسَ الرَّسُولِ الثَّانِيَة : «يَوْم وَاحِد عِنْدَ الرَّبِّ كَأَلْفِ سَنَةٍ وَأَلْفَ سَنَةٍ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ»[٩٨]. وتوسع قراء سفر الرؤيا فى هذه الأسطر السقيمة من النص المقدس بتصور أن أيام الخلق السبعة بسفر التكوين يقصد بها التنبؤ بما يعرف بـ«أسبوع العالم» أى سبع حقب من التاريخ مدة كل حقبة ألف سنة. و«اليوم» السابع والأخير من أسبوع الحقب الكونية ـ ما يعرف بـ «حقبة السبت»ـ سيكون حكم المسيح لألف سنة على الأرض حسب نبوءة سفر الرؤيا.

واستُغلت حقب التاريخ السبع لحل بعض الألغاز المحيرة فى نص الرؤيا. فيفسر يوحنا، مثلاً، أن المقصود برءوس وحش البحر السبعة أن ترمز لسبعة ملوك، ولكنه لا يحدد أى ملوك. وتدارس بعض القراء الأوائل «القياصرة الاثنا عشر» للمؤرخ القديم سويتونيوس على أمل تحديد أسماء للرءوس السبعة. فهناك فريق يبدأ بيوليوس قيصر ويُحصى الأباطرة السبعة بترتيب توليهم العرش، وفريق آخر يسقط الأباطرة الأكثر غموضًا كأوتو وفيتيليوس ويقتصرون على عد أشهر أباطرة الرومان أو أسوأهم سمعة. إلا أن علماء اللاهوت بأواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى يؤثرون اعتبار وحش سفر الرؤيا ذى الرءوس السبعة رمزًا لحقب التاريخ السبع وافتتنوا بفكرة أنهم يعيشون الحقبة السابعة والأخيرة.

إلا أن هذه النظريات كلها وسفر الرؤيا نفسه ليس فيها ما يوحى بأن العالم سينتهى فى سنة تنتهى بثلاثة أصفار. فالدلالة الوحيدة للألفية فى سفر الرؤيا هى مدة مملكة المسيح الأرضية ومدة حبس الشيطان فى الهاوية. ويبدو أن يوحنا يوحى بأن الألفية قد تبدأ فى أية سنة فى التقويم ؛ لذا فهناك راهب إسبانى يدعى بيتوس الليبانى كتب فى حوالى سنة ٧٧٥م وتنبأ بكل ثقة بأن «حقبة السبت» ستبدأ فى وقت ما من سنة ٨٠٠م، ولكنه يقلل من أهمية الموعد الدقيق. يقول بيتوس فى شرحه ذى الألف

صفحة لسفر الرؤيا : «كل كاثوليكى يجب أن يتأمل وينتظر ويخاف ، وأن يعتبر هذه السنين الخمس والعشرين كأنها لم تكن سوى ساعة ، وأن يبكى ليل نهار فى الخيش والرماد لدماره ودمار العالم ، ولكنه يجب ألا يحصى الزمن»(٩٩).

كان الأهم من عدد الأصفار فى أية سنة فى التقويم العلامات والآيات التى يحذر يوحنا قراءه من توقعها لدى اقتراب آخر الأزمان. ففض الأختام السبعة وصب القوارير السبع ونفخ الأبواق السبعة يقال إنها تفيد معنى الأوبئة والأسقام والمجاعة والحروب والزلازل والكسوف وظواهر طبيعية أغرب. يقول يوحنا : «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ ، وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ ، وَالسَّمَاءُ انْفَلَقَتْ كَدَرْجٍ مُلْتَفٍّ وَكُلُّ جَبَلٍ وَجَزِيرَةٍ تَزَحْزَحَا مِنْ مَوْضِعِهِمَا» . إذن فأى شىء يختلف قليلاً عن المعتاد ــ عجل يولد بعيب خلقى ، هزة زلزالية ، مذنب فى السماء ــ كان يبدو فى نظر المسيحيين المتنبهين فى العصور الوسطى من علامات حلول آخر الأزمان. وهناك نقش من پواتييه فى القرن السابع تقول كلماته : «الألف والياء ، البداية والنهاية ، كل شىء يزداد سوءًا كل يوم ؛ لأن النهاية اقتربت»(١٠٠).

حتى أتفه المشاهد فى أوروپا الوسيطة كانت مشحونة بالمعانى الرؤيوية عند المسيحيين الذين عاشوا ينتظرون آخر الأزمان. وبدافع من سفر الرؤيا لترقب علامات المسيح الدجال ركزوا أبصارهم على من خصهم يوحنا ببغضه بوصفهم «مَجمع الشيطان» . فأصبح لليهود دور حاسم فى الدراما الرؤيوية التى سيطرت على الخيال المسيحى فى العصور الوسطى.

وهناك مفارقة قاتمة وخطيرة أخرى. إذ بدأت المسيحية كطائفة داخل اليهودية. فيسوع وتلاميذه الاثنا عشر والمسيحيون الأوائل جميعًا ولدوا يهودًا بالطبع ، ومؤلف سفر الرؤيا أيضًا يفاخر بأنه يهودى بحق. لكن سفر الرؤيا يبين بجلاء الخط اللاهوتى الفارق الذى افترقت عنده الديانتان فى صدر تاريخ الكنيسة المسيحية. فالمسيحيون الأوائل كانوا يهودًا اعتبروا يسوع الناصرى المسيح ، ولكنهم لم يرضوا بالانفصال عن

إخوانهم اليهود ممن أبوا أن يتبعوهم فيما ذهبوا إليه. واقتداءً بسفر الرؤيا فإن اليهود لم يكونوا يدانون وحسب، بل كانت تضفَى عليهم سمات شيطانية أيضًا.

كان الأسقف هيبوليتوس الذى عاش فى القرن الثالث من أوائل الدعاة المسيحيين ممن اعتبروا وحش الرؤيا شيطانيًّا ويهوديًّا، وأكد أن عدو المسيح سيولد من نسل سبط دان التوراتى، وسيجند جيشه الشيطانى من طوائف اليهود فى أرجاء العالم. وبربط عدو المسيح بسبط دان يقدم هيبوليتوس حلا غريبًا لأحد أكثر ألغاز سفر الرؤيا غموضًا. إذ يقدم يوحنا قائمة باثنى عشر سبطا من بنى إسرائيل القدماء، ولكنه يحذف سبط دان التوراتى عامدًا. وربما استبعد يوحنا دان من القائمة لأنه تلقى وحيًا خفيًّا بأن عدو المسيح سيحمل فى عروقه دم ذلك السبط، أو هكذا اعتقد آباء الكنيسة الأولون.

وفى القرن الرابع، كان وصف عدو المسيح فى الدعاية الدينية أكثر تفصيلاً، وأكثر عداء للسامية تحديدًا. فكان مارتن التورسى، مثلاً، يحذر من أن عدو المسيح حين يظهر للعلن سيجلس على عرش مدينة أورشليم [القدس]، ويعيد بناء هيكل سليمان، ويفرض عادة الختان على مستوى كونى. وطبقًا لتفاصيل ماجنة أضيفت لصورة عدو المسيح فى الأساطير والتراث المسيحى ستحمل أمه فيه فى ماخور بابلى، فهو ابن إبليس وعاهرة يهودية، وسيختن فى أورشليم [القدس] حيث سيعلن أنه المسيح، وسيموت حين يحاول الصعود إلى السماء من فوق جبل الزيتون فيسقط فى أغوار الجحيم.

وسفر الرؤيا نفسه أكثر تقيدًا بالطبع. فبغض النظر عن إشارة يوحنا العابرة إلى «مجمع الشيطان» مهما بدا فيها من بغض لنا اليوم، فإن بقية النص يخلو تمامًا من معاداة السامية بصورة صريحة. بل إن يوحنا ـ كما رأينا ـ يعتبر نفسه يهوديًّا تقيًّا، وهو مرتبط بالتاريخ والطقوس والرمزية اليهودية ارتباطًا عميقًا. وفى اللحظة الوحيدة بسفر الرؤيا التى يصف يوحنا نفسه فيها بأنه مشارك فعلاً فى حدث رؤيوى، مثلاً، يتلقى عصا قياس ذهبية من أحد الملائكة ويؤمر بمسح أورشليم [القدس] السماوية بكافة تفاصيلها. ويتوقف يوحنا فى رسالته الدعائية المخيفة ليعلن بالتفصيل الدقيق أن طول المدينة المقدسة على كل من جوانبها الأربعة اثنا عشر ألف «غلوة» (أى ألف

وخمسمائة ميل)(١٠١). هذا فى حين أن يسوع يعلن فى سفر يوحنا أن هيكل أورشليم [القدس] سيدمر ويحل محله «هَيْكَلُ جَسَدِهِ»(١٠٢).

وفوق هذا وذاك فإن يوحنا يخون جذوره اليهودية حين يتنبأ بحكم يسوع المسيح لألف سنة. بل إننا هنا تحديدًا نرى الفارق الجوهرى بين اليهودية والمسيحية فيما يتصل بفكرة المسيح. فالمخلِّص اليهودى يتم تخيله بشرًا من لحم ودم، يرسله الرب ليحقق الأمن والسيادة للشعب اليهودى هنا على الأرض، وهى حقبة ستستمر ما بين أربعين سنة وأربعمائة حسب بعض الكتابات الرؤيوية اليهودية. أما المسيح المسيحى فهو ابن الرب وسيحكم حكمًا أبديًّا فى السماء بعد أن يبلغ العالم نهايته. ويبدو أن يوحنا يريد الأمرين معًا فى سفر الرؤيا: فهو يتنبأ بأن يسوع سيحكم ملِكًا على الأرض فى أورشليم [القدس] بصورتها الجديدة لمدة ألف سنة بالتمام، ثم تستبدل بمملكة القديسين والشهداء الأرضية مملكة سماوية للأبد.

ويوحنا المؤلف الوحيد فى النصوص المقدسة المسيحية الذى يصف يسوع كملك أرضى يمكن قياس حكمه بالزمن الحقيقى. وهذا أحد الأسباب التى دعت بعض الباحثين لاعتبار سفر الرؤيا «شبه مسيحى بل غير مسيحى»(١٠٣). والحقيقة أن تبنى يوحنا المفهوم المسيحانى اليهودى يقدم سلاحًا بلاغيًّا لعلماء اللاهوت المسيحيين من أمثال چيروم وأوغسطين ممن أكدوا على ضرورة قراءة سفر الرؤيا قراءة «روحية» لا «حسية». فليس هناك سوى اليهود يتصورون مملكة مسيحانية كتلك التى ورد وصفها بسفر الرؤيا، ولا بد للمسيحيين أن يقرءوا ويفهموا نص يوحنا رمزيا لا حرفيًّا: فحكم المسيح لألف سنة على الأرض ـ كما ورد فى الرؤيا ـ يمثل سلطة الكنيسة وليس تنبؤًا بأن يسوع سيهبط فعلاً من السماء ويرتقى عرشًا فى مدينة أورشليم [القدس].

يقول چيروم الذى يعتبر قراءة سفر الرؤيا قراءة حرفية خطأ لاهوتيًّا لا يقترفه إلا يهودى: «القديسون لن تكون لهم مملكة أرضية، بل مملكة سماوية، وبذلك يجب أن تتوقف حكاية الألف سنة». بل إن أبشع تهمة وأحط إهانة يمكن أن يوجهها لأى مسيحى يقترف الخطأ نفسه «أى فهم الرؤيا فهمًا حرفيًّا هى التهود»(١٠٤).

ولا يلبث موقف يوحنا المبهم وشديد التضارب من أصوله اليهودية حتى يزول أمام سيل معاداة السامية العرم الذى اجتاح الحضارة الغربية فى العصور الوسطى. وسيعيد قراء المستقبل اكتشاف الدقائق اللاهوتية فى ثنايا سفر الرؤيا وسيعتبرون أنفسهم حلفاء للشعب اليهودى، بل سيكون هناك ما يعرف بالصهاينة المسيحيين. ولكن طوال الألف سنة التالية، سيُزف اليهود جميعًا إلى عضوية «مَجْمَعُ الشَّيْطَان» وسيعمل سفر الرؤيا على الإيحاء بفظائع ترتكب ضدهم باسم «الأَسَدُ الَّذِى مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا أَصْلُ دَاوُدَ»[١٠٥].

من لوحات الفسيفساء الدقيقة التى تزدان بها إحدى كنائس العصور الوسطى بغرب أوروبا ما يكشف تفصيلة دقيقة ولكنها خطيرة عن دور سفر الرؤيا فى العالم المسيحى القديم. فأقدم أجزاء اللوحة يصور يسوع جالسًا بين تلاميذه الاثنى عشر، وهو مشهد مستعار من موتيفة منتدى الفلاسفة الوثنية. وفيما بعد، وبعد أن اعتنق قسطنطين المسيحية وتحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية، تم تزيين اللوحة برموز السلطة الإمبراطورية: فتحول المقعد الذى يجلس عليه يسوع إلى عرش محلى بالجواهر وأضيفت هالة ذهبية لتوحى بتاج ملكى. وفى الإحلال الثالث والأخير تم إدخال عناصر من أيقونات سفر الرؤيا المتميزة «المخلوقات الأربعة» التى تخدم الرب فى غرفة العرش الإلهى؛ مدينة أورشليم [القدس] السماوية؛ حمَل الرب وهو يبدو كأنه مذبوح، ومع ذلك يقف منتصبًا وفى فمه سيف[١٠٦].

وبتحليل لوحة الفسيفساء تأكد الباحثون من حقيقة غريبة عن سفر الرؤيا. فصور الرؤيا نادرًا ما استعملت فى الفن والعمارة المسيحيين قبل القرن الرابع. ثم فجأة بدأ ظهور حمل الرب الممسك بسيف وغيرها من رموز آخر الأزمان الأيقونية على التوابيت والنقوش العاجية والجداريات ولوحات الفسيفساء واللوحات التذكارية فى كافة أنحاء العالم المسيحى. وبدأ نقش حرفى «ألفا» و«أوميجا» (الألف والياء) اليونانيين اللذين يستعين بهما يوحنا للإيحاء بخلق العالم ودماره على التحف الفنية بدءًا من خواتم النساء الذهبية وانتهاءً بأطواق العبيد. وهكذا كانت طفرة الرمزية الرؤيوية فى الفنون والحرف المسيحية «مفاجئة وغزيرة» لدرجة أن وصف أحد الباحثين الظاهرة بأنها «غزو»: فبدا

كأن الرؤيا سيطرت فجأة على خيال رجال الدين والعوام على السواء فى كافة أرجاء العالم المسيحى، وأزاح مسيح سفر الرؤيا المنتقم مسيح الأناجيل البائس(١٠٧).

كان الغزو الرؤيوى واضحًا وباقيًا فى غرب أوروپا. لكن الظاهرة نفسها يمكن رؤيتها فى العالم المسيحى الشرقى، حيث لم يُستقبل سفر الرؤيا إلا متأخرًا وبرهبة خاصة. فهناك ـ على سبيل المثال ـ نص غريب بعنوان «رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى» ظهر أول مرة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن الخامس يحكى عن لقاء سماوى بين الرب ومؤلف سفر الرؤيا ويصف الملامح الجسمانية «للوحش» الشيطانى تفصيلاً. فيروى ليوحنا أن «منظر وجهه كئيب، وشعره كرءوس السهام، وحاجباه أشعثان، وعينه اليمنى كنجمة الصبح لحظة طلوعها، واليسرى كعين الأسد. وعرض فمه ذراع وطول أسنانه شبر، وأصابعه كالمناجل وأثر قدمه بطول ذراعين وعلى جبينه عبارة: عدو المسيح»(١٠٨).

وتوقيت الغزو الرؤيوى كاشف للغاية. فربما قصد يوحنا بسفر الرؤيا أن يكون سلوانًا للمسيحيين المضطهدين فى عصره، إلا أن رمزية الرؤيا لم تبدأ فى الانتشار فى أرجاء أوروپا إلا حين كانت المسيحية ثائرة ومنتصرة. بل إن سفر الرؤيا حقق انتشاره المفاجئ والواسع بعد أن رفع الإمبراطور ثيودوسيوس المسيحية رسميًّا إلى مرتبة ديانة الدولة فى الإمبراطورية الرومانية فى سنة ٣٩١م بفترة قصيرة.

كما تزامن الغزو الرؤيوى مع تغير قوى طرأ على الفهم المسيحى للعالم. فآلية السلطة الرومانية التى كانت تستغل ضد المسيحيين ـ الشرطة والمحاكم وغرف التعذيب ومقاصل الإعدام ــ أصبحت الآن تحت إمرة السلطات المسيحية لاستغلالها ضد الأعداء بداخل الكنيسة وخارجها على السواء. وهكذا فالمسيح الذى تصوره الأناجيل ضحية التعذيب والإعدام، أصبح فجأة أقل ملاءمة للظروف الجديدة للكنيسة من مسيح سفر الرؤيا الذى يمتطى صهوة جواد حربى ويمتشق سيفا ويعتمر تاجًا.

وفى الوقت نفسه كانت الإمبراطورية الرومانية فى حالة اضمحلال بالطبع، وتمشى بخطى سريعة نحو سقوطها النهائى. فتفككت روما نفسها والأقاليم الغربية من الإمبراطورية إلى مجموعة فوضوية من الممالك «البربرية» بُعيد سقوط روما فى

سنة ٤١٠م ، وكان الجزء الشرقى المتبقى معرضًا باستمرار لتهديد جيوش فارس الوثنية. وظهر وباء الطاعون ـ أو « الموت الأسود » الرهيب الذى سبق أن تمثل فى رمزية سفر الرؤيا ـ أول مرة فى القرن السادس ، وبلغ درجة الوباء على مدار السنوات المائتين التالية. وفى القرن الثامن ، كانت الأقاليم الرومانية السابقة فى إسپانيا وشمال إفريقيا والشام بما فيه مدينة أورشليم [القدس] نفسها سقطت بأيدى المسلمين.

مع ذلك قدم سفر الرؤيا نهجًا لفهم أعتى الكوارث واعتبارها نذر انتصار أكبر. وربما تجادل علماء اللاهوت حول ما إذا كان حكم المسيح لألف سنة ـ كما ورد وصفه فى سفر الرؤيا ـ نبوءة أم مجازًا ، ولكن سواء أقرئ سفر الرؤيا « حسيًّا » أم « روحيًّا » فإن رسالته الواضحة هى أن العالم هالك إلى الأبد إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن أية نفس مسيحية يقضى يسوع المسيح بأنها تستحق ستحيا أبدًا فى مملكة سماوية. وحتى أوغسطين الذى تدنى لدرك أخذ ما ورد بسفر الرؤيا حرفيًّا ، اقتنع بأن نهاية العالم قدر لا مفر منه. فيقر أوغسطين بأن « إيليا آتٍ واليهود سيؤمنون وعدو المسيح سيَضطهد والمسيح سيفصل بين الناس والموتى سيبعثون ، وسيُفصل الأخيار عن الأشرار ، والعالم سيُحرق ويُخلق من جديد. ونحن نؤمن بأن هذه الأشياء كلها ستحدث ، أما كيف وبأى السبل ؟ فالإدراك البشرى لا يستطيع أن يدلنا ، ولن نعرف إلا بتجربة الأحداث نفسها »[١٠٩].

وتذكرنا عبارة أوغسطين ــ « تجربة الأحداث نفسها » ــ بما دفع بعديد من المسيحيين لتجاهل تحذيراته من قراءة سفر الرؤيا كحقيقة حَرفية. فلمدة ألف سنة تقريبًا بدت الحياة اليومية على الأرض كأنها تشهد تحقق حتى أشد نبوءات الرؤيا رعبًا ، وبدت نهاية العالم وشيكة فعلاً. ومع ذلك وعلى الجانب الأقصى من محنهم ــ الحروب وشائعات الحروب والمجاعات والأوبئة وكافة الرزايا التوراتية الأخرى التى يعد الرب بإنزالها بالبشرية المعذبة ــ لمح قراء سفر الرؤيا مشهد سماء جديدة وأرض جديدة وأورشليم [القدس] جديدة رصفت طرقاتها بالذهب.

وعلى الرغم من الارتياع الشديد والمشاهد المرعبة على صفحاته ، فإن سفر الرؤيا

كان بعض القراء يرونه دائمًا قصة تنتهى بأسعد النهايات ؛ لذا فإن سفر الرؤيا يمكن أن يكون كالعقار المخدر ـ يقول أحد الملائكة ليوحنا وهو يحثه على أكل «السفر الصغير» بالمعنى الحرفى للكلمة «خُذْهُ وَكُلْهُ» ـ ولكنه يترك القارئ فى حالة من الخدر الصوفى[١١٠]. وبما أن مشيئة الرب للعالم مكتوبة فعلاً على صفحات الكتابات المقدسة، ونظرًا لأن الرب وعد برفع القديسين والشهداء إلى الحياة الأبدية فى آخر الأزمان، فإن قراء سفر الرؤيا السذج يرضون بإغماض أعينهم عن العالم الخطير الذى يحيون فيه، ويحلمون بالمباهج الموعودة فى المملكة المسيحانية ويبتهلون أن يستيقظوا فى أورشليم [القدس] السماوية.

لكن هناك سبيلاً آخر لمعايشة سفر الرؤيا. فبعض الناس عبر العصور ـ كما سنرى ـ يرون فى السفر حافزًا يملؤهم بطاقة جياشة. فهم يقظون تمامًا ومتنبهون لأفعال إبليس، ويجدون أنفسهم مضطرين لعمل شىء للتعجيل بالانتصار الحاسم للرب. فمنهم من يتحرك للتبشير والتنبؤ، ومنهم من يندفع بحثًا عن العالم الجديد الذى وعد الرب أن يهبه للبشرية، ومنهم من يرضى بامتشاق «سَيْفٍ مَاضٍ ذى حَدَّيْنِ» اقتداءً بيسوع كما وصف فى سفر الرؤيا دون غيره من أسفار العهد الجديد[١١١].



الفصل الخامس

«أيامكم القليلة الشريرة»

« آن أوان الانتقام، والرب يريدنى أن أبوح بأسرار جديدة ... »

چيرولامو ساڤونارولا

من الأفكار التى راجت عن سفر الرؤيا، أن الآمال والمخاوف المتعلقة بنهاية العالم اشتدت فى سنة ١٠٠٠م. فيمكن تصور نهاية الألفية الأولى من التقويم المسيحى مناسبة لانتشار أوهام شعبية غير عادية وحالة جنون تصيب جموع العوام تحت تأثير الاعتقاد المؤكد بأن النهاية وشيكة، أى «هلع سنة ١٠٠٠م» حسب عبارة تداولتها قلة من المؤرخين المتحمسين[١].

المشهد متصور فى فيلم لإنجمار برجمن بعنوان «الختم السابع ـ The Seventh Seal»، وهو عنوان يلمح إلى آخر الأزمان كما ورد وصفها بسفر الرؤيا. فحمل الرب يستعد لفض الختم السابع عن مشهد ملىء بالأوبئة والجثث ونذر الشؤم والتائبين ومن يجلدون أنفسهم ندمًا وتقربًا إلى الرب والمبشرين المنذرين بالشؤم وفرسان فى غزوات صليبية. إلا أن فكرة الفزع الألفى فى سنة ١٠٠٠م فكرة خطأ ككثير من الأقوال الشائعة عن سفر الرؤيا[٢].

هناك كثير من المبشرين فى العصور الوسطى تحمسوا لفكرة مرور ألف سنة منذ ميلاد يسوع الناصرى، وكانوا مقتنعين بأن شيئًا غريبًا سيحدث حتمًا. ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم على ما إذا كانت السنة الخطيرة ستكون سنة ١٠٠٠ ذكرى ميلاد يسوع أم ١٠٣٣ ذكرى صلبه أم فى سنةٍ ما بين هذه وتلك؟. بل إن تمرين عد السنين إلى نهاية العالم فى وحدات من ألف سنة كان «ولا يزال» يعتوره خطأ فى حسابات ديونيسيوس إكيسجوس راهب القرن السادس الذى وضع نظام التقويم الذى يستعمل علامتى ق. م (قبل الميلاد) وب. م (أى: سَنة ربنا). و ديونيسيوس فى البحث العلمى الحديث «أخطأ فى سنة مولد

المسيح بمقدار أربع سنوات وربما ست »[٣]. ونتيجة لذلك فنهاية الألفية الأولى ربما مرت دون أن يتنبه لها أحد قبل حلول سنة ١٠٠٠م بتقويمه ببضع سنوات.

تمكن المسيحيون الذين اكترثوا بتحذيرات يسوع وبولس وأوغسطين من مثل هذا الرجم بالغيب من البقاء هادئين مع اقتراب سنة ١٠٠٠م، ومرت السنة دون حدوث شيء. وكذلك فعل قراء الكتاب المقدس ممن عرفوا أن سفر الرؤيا لا يعتبر مرور ألف سنة من ميلاد يسوع أو وفاته علامة فارقة. فحكم يسوع المسيح على الأرض سيدوم ألف سنة بالطبع، لكن تاريخ بدء المملكة الألفية لم يرد له أى ذكر بسفر الرؤيا. وواصلت الكنيسة نفسها التأكيد على قراءة الرؤيا «روحيًّا» لا «حسيًّا»، وهو مبدأ ساعد على إخماد نيران الشوق الرؤيوى بين المسيحيين المطيعين.

يقول راهب يدعى آبو الفلورى (توفى ١٠٠٤م) عن تجربة مر بها إبان العد التنازلى نحو سنة ١٠٠٠م: «سمعت فى شبابى قداسًا عن نهاية العالم حضرته رعية كاتدرائية باريس، فحواها أنه ما أن يتم عدد الألف من السنين، حتى يجيء المسيح ويعقبه الحساب الأخير بعد فترة وجيزة». وكان آبو قارئًا حذرًا للنصوص المقدسة اليهودية والمسيحية فلم يكترث بكل هذه التخمينات: «كنت أعارض بكل ما أوتيت من قوة هذه الفكرة القائمة على فقرات من الأناجيل وسفر الرؤيا وسفر دانيال»[٤].

والحقيقة أن آبو المراقب المعاصر الوحيد الذى يربط بين سنة ١٠٠٠م ونبوءات آخر الزمان بالكتاب المقدس، وهو «لا يفعل ذلك إلا لنبذ الفكرة»[٥]. ومع ذلك فإن الراهب الصالح يتوقع للعالم أن ينتهى حتى وإن رفض التكهن بالموعد الدقيق لذلك. بل إن الحمى الرؤيوية فى المسيحية الوسيطة كانت مزمنة ولم تكن حادة، ولم تحقق الكنيسة أى نجاح فى صد ما عرف بالغزو الرؤيوى للقرن الرابع. فأتباع المسيحية الوسيطة، لا سيما فى غرب أوروبا، كانوا معرضين للرمزية الرؤيوية فى زخارف الكنائس والعمارة التذكارية ونقوش المنشآت العامة ومخطوطات الأسفار المقدسة وخطب الوعاظ وكتّاب الرسائل والفنون والآداب العلمانية التى ازدهرت فى أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة.

يقول برنارد مكجين وزميله ريتشارد إمرسن وهو زميل متخصص فى رؤيوية

العصور الوسطى: «إن سفر الرؤيا كلى الوجود، ورؤيا يوحنا القوية تخللت شتى مناحى الحياة الوسيطة»[٦].

وبالنسبة لمن عاشوا فى عالم أوروپا الوسيطة المزعزع، ذلك العالم الذى كان يتأرجح بين الرجاء واليأس، كان سفر الرؤيا نصًّا مثيرًا بل مسكرًا. فكان فض الأختام السبعة والنفخ فى الأبواق السبعة وصب قدور غضب الرب السبعة، مثلاً، بمثابة طريقة لفهم وتحمل ما ألم بالعالم المسيحى من كوارث، من غزو وحروب وثورات ومجاعات وأوبئة وزلازل وسيول. وفى الوقت نفسه، كانت رؤيا يوحنا المتسامية عن «سماء جديدة وأرض جديدة» بمثابة وعد براق بالخلاص والثواب شد من أزر قراء سفر الرؤيا حتى - بل لا سيما - فى أحلك لحظات الاضطراب.

وما إن انطبعت صور «الترسانة اللغوية» لسفر الرؤيا بأوهامها المثيرة والمخيفة عن آخر الأزمان فى مخيلة الغربيين فى العصور الوسطى حتى استعصت على الزوال أبدًا. بل إن التركيز المفرط على موعد زوال العالم وكيفيته وسببه يمكن اعتباره عادة مسيطرة على العقل الغربى بدرجة لا تقل فى الألفية الثالثة عنها فى الأولى، ولا تقل فى الثقافة الشعبية للقرن العشرين عنها فى الفن والأدب الدينى فى أوروپا الوسيطة. فالاستحواذ يبدأ هنا والآن.

كان حكم المسيح لألف سنة على الأرض ـ كما رأينا ـ يعد فى نظر أوغسطين وغيره من الكتّاب المسيحيين إشارة رمزية لسيادة الكنيسة نفسها. فكانت «الكنيسة المحاربة والمنتصرة» حسب وصفها لنفسها هى المملكة الألفية. وهناك عالم لاهوت قديم حدد سنة ٣٢٦م بأنها السنة التى يرفع فيها الإمبراطور قسطنطين الكنيسة إلى السلطة والمجد الأرضيين فى روما، وبالتالى حدد نهاية العالم بسنة ١٣٢٦م، أى بعد ذلك بألف سنة بالتمام إعمالاً لنبوءة سفر الرؤيا.

إلا أن هناك مسيحيين آخرين عاشوا فى العصور الوسطى لم يقتنعوا بأن الكنيسة المحاربة والمنتصرة تستحق أن تقارن بمملكة القديسين والشهداء كما ورد وصفها بسفر الرؤيا. إذ رأوا شيئًا شيطانيًّا فى تجاوزات الكنيسة ومخالفاتها بعد أن اغتنت وقويت شوكتها. فالكهان مثلاً والأساقفة وحتى البابوات اتخذوا زوجات ومحظيات أو كلتيهما

معًا، وهى عادة أدينت باعتبارها من بقايا «النيقولاوية» (مصطلح مستعار من سفر الرؤيا يستعمله يوحنا فى إدانة طائفة ظهرت بالكنيسة الأولى). وشاع الزواج الكهنوتى لقرون بالطبع، ولو أنه صدر قانون كنسى فى القرن الثامن حظر على الكاهن الزواج بأكثر من امرأة واحدة. أما الآن فيطالب المتشددون الكنسيون بالالتزام الصارم بالعزوبية.

يروى عن أحد الوعاظ أنه قال فى سنة ١٠٥٩م: «الأيدى التى تلمس جسد المسيح ودمه لا ينبغى أن تكون لامست فرج قحبة» فى إشارة لا إلى البغايا بل إلى زوجات رجال الدين المبجلات[٧].

لكن الدعوة للعفاف لم تكن أمرًا روحانيًّا خالصًا؛ إذ كانت تخدم المصالح المادية والسياسية للكنيسة أيضًا. فالأسقف الذى يعول زوجة وعيالاً قد يميل لاعتبار أراضى أسقفيته ومنشآتها وثرواتها ملكية تورث لأبنائه. فثروة الكنيسة وقوتها تتعرض للخطر ما لم يكن رجال الدين مجردين من إغراء أو فرصة إنجاب ورثة مرتقبين. وكانت هموم كهذه تساور البابا جريجورى السابع (١٠٢٠ ـ ١٠٨٥م) حين شكا من الزواج الكهنوتى باعتباره «رجسًا لعدوى حسية توهن من كبح الشهوات»[٨].

إذن فالدعوة لتجريم الزواج الكهنوتى كان يعزى فى جزء منه لكره النساء والخوف منهن بمقتضى ما ورد وتكرر مرارًا فى سفر الرؤيا. فهناك مثلاً بيتر داميان وهو مصلح كنسى أبيض من القرن الحادى عشر يخاطب زوجات الكهنة الموقرات قائلاً: «يا لحم إبليس الشهى، ذلك المطرود من الجنة» ويدينهن جميعًا بوصفهن «سم العقول وموت الأرواح ورفاق الخطيئة وسبب هلاكنا»[٩]. بل إنه كان يعتبر النسوة جميعًا أخوات «زانية بابل العظيمة»، وكان غضبه يدفعه لتجاوزات كلامية لا تقل حقدًا عن أسوأ فقرات سفر الرؤيا. فيسب بيتر النساء بعبارات مثل «أحذركن يا نساء العدو القديم، أيتها البغايا والخنزيرات، أيها البوم الناعق، يا بوم الليل ومصاصات الدماء والذئبات، تعالين واسمعننى أيتها الزانيات العاهرات بقبلاتكن المتهتكة وأسرتكن التى يتمرغ فيها الخنازير السمان وآرائكن التى تتقلب فيها الأرواح النجسة»[١٠].

وكان من خطايا الكنيسة الأخرى «السيمونية»، أى بيع المناصب الكنسية ومقايضتها بغرض التربح بين الشخصيات الملكية والأرستقراطية والطبقة العليا وكبار

رجال الدين. وكان للسياسة دورها فى هذا المجال أيضًا ؛ إذ كان البابوات يحرصون على سلطتهم التى تخولهم حق تعيين الأساقفة والكرادلة وعزلهم وكانوا ينقمون على الحكام إذا حاولوا انتزاعها منهم. فمن المستبعد على أسقف يدين بمنصبه ولقبه للملك أن يتخذ جانب البابا فى الصراع بين الكنيسة والدولة، والذى شاع فى أواخر العصور الوسطى. ولكن صحيح أيضًا أن من تربحوا من مناصبهم الكهنوتية كان يسهل إغراؤهم بإنفاق ثرواتهم على حياة الترف والمجون. ووصلت السيمونية حتى إلى البابوية ؛ فيقال إن البابا جريجورى السادس (توفى ١٠٤٨م)، مثلاً، ابتاع منصبه على عرش البابوية من البابا الذى سبقه بينيديكت التاسع فى مقابل ألفى جنيه من الفضة.

هذه النقائص والعيوب الإنسانية بين رجال الدين كبيرًا وصغيرًا أطلقت ما عرف بـ«الإصلاح الجريجورى»، وهو مجموعة كبيرة من التجديدات والتحسينات بلغت مدى حرجًا فى عهد البابا جريجورى السابع. وأمد سفر الرؤيا البابا جريجورى بترسانة لغوية يبرر بها مراسيمه. فأعلن أنه «كلما دنا عهد عدو المسيح زاد ضراوة فى سعيه لهدم العقيدة المسيحية»(١١). والحافز نفسه لتطهير المسيحية ـ «توق لحياة إنجيلية مثلى تقوم على الاقتداء بالحياة التى عاشها يسوع وأتباعه»(١٢) ـ هو الذى دفع فرانسس أسيسى (٨١/ ١١٨٢ ـ ١٢٢٦م) لإنشاء الطريقة الرهبانية التى أوحت لمسيحيى العصور الوسطى بأن يتساءلوا: «ماذا كان يسوع ليفعل؟».

فنشبت هنا حرب حضارية أخرى استُغل فيها سفر الرؤيا كمصدر للأسلحة الكلامية. ففى حين تناحر البابوات فيما بينهم على السلطة الدنيوية، تطلع رهبان وقساوسة من أمثال فرانسس أسيسى المعروف بـ «بوفيريللو» «الغلبان» إلى تبسيط المسيحية وتطهيرها بتجريد الكنيسة من ثرائها وأبهتها المفسدين. ولجأ كلا الفريقين لسفر الرؤيا لتبرير رؤيتهما للنهج القويم للحياة المسيحية فى الدنيا كما هى، لا فى الحياة الآخرة. بل إن الحالة المؤسفة للكنيسة لا الحروب والمجاعات والأوبئة وغيرها من العلامات التقليدية لنهاية العالم هى التى عجلت بثورة فى قراءة سفر الرؤيا.

كان صانع الثورة الرؤيوية فى أوروپا الوسيطة راهب صاحب رؤى يدعى يواقيم الفيورى (١١٣٥ ـ ١٢٠٢م). نشأ يواقيم وتعلم ليعمل كموظف فى البلاط الملكى

للملك النورماندى فى جنوبى إيطاليا، إلا أنه انجذب لحياة «الزاهد الجوال» التى دفعت يوحنا إلى كنائس آسيا الصغرى السبع. فعمل يواقيم نذورًا رهبانية ثم أنشأ فيما بعد ديرًا بالأطراف الوعرة لريف كالابريا، حيث شرع فى درس النصوص المقدسة فى محاولة لكشف الأسرار الإلهية الكامنة فيها(١٣).

وعندما شرع يواقيم فى تدارس سفر الرؤيا، كان يأمل فى العثور على «مفتاح أحداث الماضى ومعرفة الأحداث القادمة وفتح ما استغلق وكشف ما خفى» على حد تعبيره(١٤). ولكنه لم يكد يبلغ الفقرة العاشرة حتى أوقفته ألغاز سفر الرؤيا كـ«الحجر الذى يوصد القبر»(١٥). وكغيره من أصحاب الرؤى، تطلع يواقيم لرؤيا خاصة به، وكان له ما أراد. فبعد سنة من الدعاء والابتهال، حسب قول يواقيم نفسه، حدث التجلى فى صباح يوم الفصح فى سنة ١١٨٤م. وفيما يشبه التجربة التى يصفها روبرت جريفز بعد ذلك بثمانية قرون، أخذ النص المحير يعتمل فى رأس الراهب الوسيط.

يقول يواقيم فى إشارة إلى يسوع المسيح بالكلمات الرمزية نفسها التى يستعملها يوحنا فى سفر الرؤيا: «فى حوالى منتصف صمت الليل على ما أتذكر وفى الساعة التى يعتقد أن «أسد سبط يهوذا» بعث فيها من موته وبينما كنت أتأمل، فجأة رأيت بعينى عقلى شيئًا من كمال هذا السفر ومن التناغم التام للعهدين القديم والجديد»(١٦).

وما إن نال ما يسمى «نعمة الفهم» حتى شرع فى استخلاص كافة المعانى الجديدة والأكيدة من سفر الرؤيا(١٧). فاقتنع مثلاً بأن تاريخ البشرية ينقسم إلى ثلاث حقب يقابل كل منها أحد أطراف الثالوث: الآب والابن والروح. الحقبة الأولى: دامت حتى صلب يسوع، والحقبة الثانية: كانت تلك التى عاش فيها يواقيم وتنتهى بظهور عدو المسيح، والثالثة: حقبة سلام وكمال روحى لا تبدأ إلا بعد هزم عدو المسيح. ويعبر يواقيم عن اقتناعه بأن المعركة الفاصلة بين الرب والشيطان وشيكة مرددًا كلمات يسوع نفسه، فيقول محذرًا: «لن يحدث هذا فى أيام أحفادك أو فى شيخوخة أبنائك، بل فى أيامك القليلة الشريرة»(١٨).

كان التجديد الثورى الذى أوجده يواقيم، رفضه قصر سفر الرؤيا على النطاق الروحانى، فانشق بذلك على القراءة المعتمدة للنص والتى تعزى لأوغسطين فى عصر

سابق. فكان يرى حتى فى أغرب رؤى سفر الرؤيا نبوءات عن أناس وأحداث بعينهم فى عالم الواقع. فالرءوس السبعة للتنين الأحمر الشيطانى، مثلا، يرى يواقيم أنها ترمز لمضطهدى الكنيسة السبعة عبر قرون من تاريخ الإنسانية ومنهم هيرودوت ونيرون وصلاح الدين المسلم الشهير الذى استرد أورشليم [القدس] من الصليبيين فى سنة ١١٨٧م. والرأس السابعة فى رأيه رأس عدو المسيح الذى لم يظهر بعد (ولكنه سرعان ما يظهر).

يمكن اعتبار رؤيا يواقيم عن آخر الأزمان رؤيا مشرقة وبهيجة؛ لأنه اعتبر المملكة الألفية عهد كنيسة مسيحية تم إصلاحها هنا على الأرض. يقول الصحافى والمؤرخ الإنجليزى داميان طومسن: «عهده الجديد المجيد كان سيجىء فى نطاق التاريخ ومن ثم فهو أكثر مثالية من الألفية، مما أدى لإلقاء اللوم على يواقيم عن كل تجربة مثالية فاشلة من فلورنسا سافونارولا إلى الشيوعية السوفييتية». إلا أن يواقيم كان يعتبر نفسه مصلحًا لا ثوريًّا، وكان مفهومه عن أورشليم [القدس] الجديدة «رؤية كاثوليكية حصرية»[١٩].

قد تكون قراءة يواقيم الجديدة لسفر الرؤيا محيرة كالنص الأصلى نفسه، والحقيقة أن كتاباته لم تجذب قراء كثيرين إلا بعد أن نسخها أتباعه ممن جاءوا بعده وتداولوها، ويعرفون باليواقيميين. ولكن ما إن كسر يواقيم احتكار أوغسطين الساحة، تجرأ من لحقوا به وفسروا رؤى سفر الرؤيا تفاسير أجرأ. فاتهمتهم الكنيسة «بالتنجيم والعيش فى الخيال» ورفضت كتاباتهم بوصفها «نبوءات زائفة ووهمية»[٢٠]. وتم حرق كثرة منهم مع مخطوطاتهم. إلا أن سفر الرؤيا تحول حينئذ إلى سفر مفتوح. يقول برنارد مكجين: «إن اكتشاف كبير الرهبان تفسيرًا جديدًا ظل مؤثرًا طوال قرون يجعل منه القديس الراعى للنقاد لو اعتُمد ولم يتهم»[٢١].

لم يقتصر تأثير يواقيم على الباحثين وعلماء اللاهوت ممن عثروا على كتاباته السرية. وغضب بعض قرائه بسبب لغته الملتهبة، ومنهم كبار رجال الدين ممن رأوا أنفسهم فى تنديده بالمسيحيين الذين «هجروا حضن الأم العفيفة وآثروا عليه حضن الزانية التى تسيطر على ملوك الأرض»[٢٢]. إلا أن قراء آخرين منهم بابوات وملوك

وصليبيون فى أنحاء أوروپا طلبوه ليكون «مستشارًا رؤيويًّا» لهم وتوسلوا إليه أن يكشف لهم الأسرار الإلهية التى أنعم بها عليه من النصوص المقدسة(٢٣).

فى طريقه إلى الأراضى المقدسة، فى الحملة الصليبية الثالثة فى ١١٩٠ ـ ١١٩١م استدعى ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى الأسطورى يواقيم لينبئه بما قد يتنبأ له به سفر الرؤيا من مصير. فأدخل الراهب الشيخ الحزن على قلب الملك الصليبى ببوحه له بأن يوحنا عندما رأى «وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ» بسفر الرؤيا، فإنه كان يلمح إلى الجيش العربى الذى يوشك ريتشارد على ملاقاته فى معركة أورشليم [القدس]. وبعد ذلك بقليل، طمأن يواقيم ريتشارد بأن يسوع عائد إلى الأرض ليتكفل بالحملة الصليبية الأخيرة ضد المسيح الدجال، أى معركة أرمجدون الموعودة.

ورد فى الرسالة الپروتستانتية التى ترجع للقرن السادس عشر أن يواقيم قال للملك ريتشارد: «(قال) وهذا عدو المسيح ولد فعلاً فى مدينة روما، وينبغى أن يعلو نجمه فيها حسب المشهد الرؤيوى، ثم ينكشف الرجل الشرير ليلتهمه السيد بنفخات من فمه ويقضى عليه بنور مجيئه الساطع»(٢٤). أى أن عدو المسيح سيكون البابا نفسه.

وهناك قارئة أخرى لسفر الرؤيا حققت نجومية فى القرن الحادى عشر هى هيلديجارد بينجن الراهبة البينيديكتية التى تميزت كصاحبة رؤى ومبشرة ومؤلفة رسائل رؤيوية ونصوص متنوعة فى الطب والموسيقى والتاريخ الطبيعى. بل إن رسالتها عن استعمال الأعشاب فى علاج الأمراض لا تزال «من الوثائق الأساسية فى الصيدلة الغربية»، ومؤلفاتها الموسيقية «تجعل من هيلديجارد الشخصية الطبية الوحيدة التى لا بد من أن تشتمل قصة حياتها على قائمة تسجيلات»(٢٥). ومثل يواقيم الفيورى، كانت هيلديجارد ترى أن الشر الأكبر فى المسيحية الارتماء فى أحضان الكنيسة حيث يستغل أعضاء الإكليروس مناصبهم فى التربح والثراء، ثم استغلال ثرائهم فى إشباع شهواتهم الحسية. مع يواقيم وهيلديجارد، يبدأ تراث استغلال سفر الرؤيا سلاحًا ضد الكنيسة نفسها.

كانت هيلديجارد ترى بعض المشاهد الغريبة عندما تروح فى إغماءاتها، ومنها صورة امرأة جميلة تضع وحشًا شائهًا فى صحن كنيسة. كتبت هيلديجارد فى سردها

الرؤيا التى واتتها وهى تصلى: «من فرجها برزت رأس وحشية شديدة السواد وبها عينان متوهجتان وأذنان كأذنى حمار، وفتحتا أنف وفم كفتحتى أنف وفم أسد. وأخذت الرأس الوحشية تنسلت من مكانها محدثة صوت تهشم جعل كيان المرأة يرتجف بكامل أعضائه»[٢٦].

من الواضح أن رؤيا هيلديجارد مستوحاة من سفر الرؤيا «توفيق نصى ثورى» بين صورة المرأة المتسربلة بالشمس المتوجة بالكواكب التى تضع «المخلِّص»، وصورة زانية بابل التى تزنى مع الملوك وتمتطى ظهر وحش شيطانى ذى سبعة رءوس[٢٧]. إلا أن هيلديجارد مثل معاصرها يواقيم تضفى على هذه الرموز معانى جديدة ورهيبة: فالمرأة فى مخاضها تمثل الكنيسة، والوحش فى رحمها يمثل المسيح الدجال. ولمزيد من الإيضاح سيظهر عدو المسيح من قلب الكنيسة نفسها كوليد يخرج من رحم أمه «فصل عنيف كأنه اغتصاب عكسى»[٢٨] بتعبير برنارد مكجين. وهيلديجارد التى تعيش فى عفة كأنها «عروس المسيح» بين جدران أحد الأديرة ترتدى ثوب عرس لحضور طقس عشاء ربانى تلجأ إلى رمزية جنسية فجة وصريحة للتعبير عن هواجسها تجاه مشيئة الرب ومصير البشرية فى آخر الأزمان: «شخصية الشيطان الذكورية الشريرة تهاجم الإنسانية، الأنثى عروس المسيح، متمثلة فى حواء ومعبد اليهود ومريم والكنيسة»[٢٩].

وحين كانت هيلديجارد تعظ فى الكنائس والكاتدرائيات ـ وهو دور غريب تمامًا على امرأة، ولا سيما على راهبة متوحدة فى أوروبا العصور الوسطى ـ كانت أكبر الخطايا فى نظرها السفه الجنسى، والتربح بين أعضاء الإكليروس. وقدمت فهمًا جديدًا للطريقة التى ستتجلى بها المعركة الفاصلة بين الخير والشر فى آخر الأزمان، بوصف يوم فى المستقبل غير البعيد حين يقوم «الرعاع النزقون» و«الأمراء الجشعون» «بإسقاط أعضاء الإكليروس ويطاردونهم وينهبون ثرواتهم». وحينها سترى الدنيا «فجر العدل»، ورجال الدين بعفتهم وفقرهم مرة أخرى كما أراد لهم الرب أن يكونوا «سيتألقون كالذهب فى أنقى صوره»[٣٠].

والغريب أن عظات هيلديجارد لم تدنها الكنيسة. فكانت هيلديجارد صادقة ومقنعة لدرجة أن كبير الأساقفة الذى كانت تعيش وتعمل تحت سلطته وجد نفسه مضطرًا

للتسليم بأن رؤاها «من عند الرب»، وكذلك فعل البابا نفسه. بل إن راهبًا تم تكليفه بالعمل كاتبًا لها حتى يتسنى تسجيل النبوءات الصادرة عن عقل هيلديجارد ومن فمها فورًا وبكل دقة، وكانت لها مراسلات مطولة مع البابوات والأباطرة والملوك ورجال الكنيسة فى كافة أرجاء أوروپا. وهكذا تذكرنا هيلديجارد مرة أخرى بأن الشخصية الكارزمية لرجل كانت أو لامرأة قد تفلح فى جذب انتباه الجمهور باستحضار قوة سفر الرؤيا. فإذا كان الناس مستعدين للتسليم بأن يوحنا وهب نعمة النبوءة فلم لا يحدث ذلك مع هيلديجارد أيضًا؟

ولكن ليس كل قارئ لسفر الرؤيا كان يستطيع أن يشكو من الكنيسة بالقدر نفسه من الحصانة. فالجناح المتطرف من جماعة الفرنسيسكان والذين يعرفون بالغيورين أو الروحانيين اقتدى بكل من يواقيم وهيلديجارد فى استحضار «زانية بابل» وعدو المسيح فى إدانتهم الفساد الذى رأوه داخل الكنيسة نفسها. وكذلك فعلت البجوينيات وهن جماعة متميزة من النسوة، شنن حملتهن الصليبية الخاصة من أجل التطهير والإصلاح توقعًا لآخر الأزمان. وبتزايد عددهن وعلو نجمهن بدأن فى جذب الانتباه غير الرقيق «للكنيسة المحاربة المنتصرة». فكان المبشرون الرؤيويون ومعهم اليهود والمسلمون والزنادقة المسيحيون المبعدون أناسًا ذوى شأن خاص بالنسبة لمحاكم التفتيش المقدسة.

عقد البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٢٤٤ ـ ١٣٣٤م) مجلسًا بابويًّا فى سنة ١٣١٧م لمناقشة حالة تبصر رؤيوى على درجة خاصة من التعقيد بين «الروحيين» من طائفة الفرنسيسكان. وكان المتهم كتابًا لا بشرًا، تعليق على سفر الرؤيا لراهب فرنسيسكانى يدعى پيتر چون أوليڤى (١٢٤٨ ـ ١٢٩٨م) ادعى أن الكنيسة التى أسسها تلاميذ يسوع المسيح «فسدت من الرأس إلى القدمين وتحولت إلى بابل جديدة»[٣١]. وكان مؤلف الكتاب نفسه مات، لكن كتابه ثبت أنه مذنب بالهرطقة بناء على اتهامات بأن ستين من عقائده «تخالف الديانة»[٣٢]. وأحرقت نسخ من كتابات أوليڤى وأعدم بعض من أتباعه بجرم مطالعة فكره الثورى عن آخر الأزمان.

كان أوليڤى من أبرز أعضاء فرقة «الروحيين» وأشدهم تأثيرًا. وبوحى من سفر

الرؤيا، اعتبروا فرانسس أسيسى مؤسس طائفة الفرنسيسكان «ملَك الختم السابع»[٣٣] وتصوروا أن فرانسس ودومينجو دى جوزمن (١١٧٠ ــ ١٢٢١م) مؤسس طائفة الدومينيكان هما شاهدا آخر الأزمان. وعندما أدان البابا يوحنا الثانى والعشرين «الروحيين» بالهرطقة، لم يفلح إلا فى تأكيد اقتناع الرهبان الغيورين بأنه هو الهرطيق الحقيقى بل هو عدو المسيح نفسه.

ربما أصدر يواقيم الفيورى تحذيرًا غامضًا عن عمد من أن عدو المسيح سيأتى ليعتلى العرش البابوى مثلاً، لكن أحد «الروحيين» وهو راهب متطرف يدعى أوبرتينو دا كاسالى (١٢٥٩ ـ ١٣٣٠م) لم يتردد فى تحديد أسماء. فقال إن الوحش الطالع من بطن الأرض والوحش الخارج من البحر والتوأمين الشيطانيين فى سفر الرؤيا كلها فى الحقيقة رؤى عن اثنين من بابوات عصره هما بونيفاتشى الثامن وبينيديكت الحادى عشر، وكلاهما عدو لدود ومضطهد نشط لفرقة «الروحيين». واقتداءً بمؤلف سفر الرؤيا، أوَّل دا كاسالى القيمة العدديةَ لأحرف اسم بينيديكت الحادى عشر باعتبارها الأعداد الرهيبة للوحش، أى ٦٦٦[٣٤].

وهكذا كانت فرقة «الروحيين» ثورية لا إصلاحية. فهناك، مثلاً، چون روبيسيسا (١٣١٠ ـ ١٣٦٦م) وهو راهب فرنسسكانى من جنوبى فرنسا اشتهر بـ «الأخ چون» كان يرى أن كافة الرزايا المشار إليها بسفر الرؤيا ستحل بالعالم عقابًا على خطايا الكنيسة. وبوحى من رؤى خاصة به، كان يرى فى العرب والأتراك والتتار الذين كانوا يهددون العالم المسيحى الوسيط جيوشًا شيطانية احتشدت لمعركة أرمجدون الفاصلة. وتنبأ بأن أواخر الأيام ستأتى بما سمى «بدعة رهيبة»، حيث يقوم عوام الناس بأخذ ثأرهم الدموى بأنفسهم من الطبقة العليا بكاملها والإكليروس وبالثورة على الأغنياء والمتنفذين «كدود الأرض يلتهم الأسود» وبهدم القصور والكاتدرائيات بأيديهم[٣٥].

يقول چون روبيسيسا فى «رسالة فى الضيقة»: «سيمتلئ العالم بالنقمة على الغرور بالثروة، وسيثور المقهورون بصورة مفاجئة وغير متوقعة. وسيسقط العديد من الأمراء والنبلاء والكبراء من علياء كبرهم وجلال ثرائهم، وستفوق محنة النبلاء كل تصور»[٣٦].

وأضفى على نبوءته عما يمكن اعتباره ثورة اجتماعية كافة شراك سفر الرؤيا الغيبية. فبناء على التجلى الذى حل به «بينما كان الخورس ينشد «تسبيحة الشكر» فى شعيرة الصباح لوليمة العذراء»[٣٧] تنبأ «الأخ چون» بظهور عدوين للمسيح، أحدهما بجناح المسيحية الشرقى فى سنة ١٣٦٥م والآخر بغربها فى سنة ١٣٧٠م. وسيُرفع أحد الرهبان الفرنسيسكان إلى عرش البابوية، وسيقوم البابا الجديد بتعيين ملك فرنسى على عرش إمبراطورية عالمية. وسيشن كلاهما ـ البابا والإمبراطور ـ حربًا على عدوى المسيح ويرأبان الصدع بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويدعوان اليهود لعشاء ربانى مع المسيحيين.

كان أكبر ما فى جرأة چون النبوئية اقتناعه بأن الشعب اليهودى سيصبح «شعب الرب الاستعمارى الجديد». وهنا كانت بدعة أخرى. ففى حين زخرت المسرحيات الغامضة بأوروبا الوسيطة بالفرية القديمة التى ترى أن عدو المسيح سيولد من نسل إبليس وبغى يهودية تنبأ «الأخ چون» بدور رفيع للشعب اليهودى فى آخر الأزمان. فسيعاد بناء أورشليم [القدس] لتكون العاصمة المجيدة لدين موحد متطهر مع قيام المملكة الألفية على الأرض. وباعتذارات صريحة لأوغسطين الذى حذر من أخذ حكم المسيح على الأرض بمعناه الحرفى، أكد چون أنه تلقى رؤيا إلهية خاصة به حول موضوع «سبت الألف سنة» وأن رؤياه عن المستقبل «مؤكدة وقاطعة»[٣٨].

وازداد هجوم «الأخ چون» على الكنيسة ضراوة حتى اضطر رؤساؤه فى طائفة الفرنسيسكان الإصلاحية لحبسه بأحد سجونهم، وفى النهاية حاكمه المجلس البابوى فى أفينيون بتهم الهرطقة. ومع أنه لم يُحكم عليه بالإعدام من جانب السلطات الكنسية الحذرة التى بدا واضحًا أنها مستعدة لقبول فكرة أنه قد يكون على اتصال بالرب فعلاً، فإن الراهب الثائر ظل فى محبسه بقية عمره، ودوَّن كافة رسائله الرؤيوية الباقية وراء القضبان[٣٩]. ومع ذلك فإن نسخًا من «رسالة فى الضيقة» وجدت طريقها للتداول فى أرجاء أوروبا بنصها اللاتينى الأصلى وكذلك فى ترجمات فرنسية وألمانية وتشيكية وقشتالية، فكانت نموذجًا قديمًا من أفضل المنشورات المستوحاة من سفر الرؤيا مبيعًا فى العصور الوسطى[٤٠].

كان پيتر چون أوليڤى ـ «الأخ چون »ـ مثل مونتانوس والنبيتين بالقرن الثانى وأمثالهم من الإخوة والأخوات من ذوى العقلية المتشابهة، تعتبرهم الكنيسة محرضين خطيرين. فبوصول خطبهم ورسائلهم لجماهير عريضة فى أنحاء أوروپا الوسيطة اعتُبر المتطرفون الرؤيويون تهديدًا مباشرًا لكبار رجال الكنيسة ممن وصموا بأنهم أدوات بيد الشيطان ومسوخ لعدو المسيح. فاحتدمت الحرب الثقافية بين المدافعين عن الكنيسة والإصلاحيين، وتحولت إلى صراع مفتوح أريق فيه الدم وأزهقت أرواح.

ميز «دليل مفتش العقائد» الذى أنشأه برنارد چى فى سنة ١٣٢٤م من عرفوا بـ«البجوينيات» كنموذج لما قد ينجم من خطأ إذا ما تجاسر المسيحيون على قراءة سفر الرؤيا قراءة خاصة. يقول چى: «وهن أيضًا يزعمن أن نهاية الحقبة السادسة للكنيسة وهى الحقبة التى نعيشها الآن والتى تبدأ بالقديس فرانسس والكنيسة الحسية وبابل والزانية العظيمة، سينبذها المسيح كما نُبذ «معبد اليهود» لصلبه المسيح. ويزعمن أن الكنيسة الحسية وهى الكنيسة الرومانية ستهلك». ويرى أن مثل هذه «المغالطات والآراء المهلكة» اكتشفتها «محكمة التفتيش المعتمدة ومن خلال إقرارات واعترافات» ـ أى بالاستجواب بالتعذيب ـ لكن كبير المفتشين يسمح «للعديد منهن باختيار الموت حرقا على التبرؤ مما يعتقدن»[٤١].

والحقيقة أن چى يسلم بأن البجوينيات كن واثقات من انتصارهن فى النهاية على عدو المسيح «الروحى أو الصوفى» ـ أى الكنيسة نفسها ـ وعلى «عدو المسيح الأكبر الحقيقى» الذى «ولد فعلا» وسيظهر للعلن فى سنة ١٣٢٥م «فى رأى بعضهن» أو ربما فى سنة ١٣٣٠ أو ربما ١٣٣٥م. ويقول چى: «ويزعمن أن عدو المسيح الأول هو البابا الذى تعانى طائفتهن فى ظله الآن الاضطهاد والملاحقة». «كما يقلن إن «الروحيين» سيحولون العالم بأسره إلى دين المسيح عقب وفاة عدو المسيح، وأن العالم كله سيسوده الخير والرحمة، بحيث لا يكون هناك حقد أو خطيئة فى نفوس الناس فى تلك الحقبة باستثناء الخطايا العارضة من قبل البعض»[٤٢].

وراء تشدقات كبير المفتشين، هناك نموذج محير لما كان يعتبر هرطقة فى كنيسة العصور الوسطى. فالبجوينيات نسوة كن يعشن حياة جماعية، ويراعين العفة بكل

صرامة، ويكسبن قوتهن بالتمريض والتدريس، ويقضين بقية أيامهن فى الصوم وإماتة النفس والتأمل الصوفى والحدس الرؤيوى. وكانت ديار البجوينيات التى ظهرت فى كل من بلچيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا كانت حلاً عمليًّا لمأزق نسوة عزباوات بلا انتماءات وبلا حماية. ولا غرو أن أثارت البجوينيات شكوك محكمة التفتيش، ولكن ليس لمجرد أنهن كن يتهمن الكنيسة بكل جرأة بأنها «بابل» و«الزانية العظيمة». فكان ما يمثل تهديدًا لرجل مثل برنارد چى أنهن نسوة وضعن أنفسهن وراء سلطة الآباء والأزواج(٤٣).

توصل أحد المجالس الكنسية فى سنة ١٣١٢م إلى ما يلى: «قيل لنا إن بعض النسوة يعرفن بالبجوينيات أصبن بضرب من الجنون، ويجادلن فى الثالوث الأقدس والجوهر الإلهى، ويعبرن عن آراء فى أمور العقيدة والشرائع تتنافى مع العقيدة الكاثوليكية فيخدعن العديد من البسطاء. بناء عليه قررنا ورسمنا بحظر نهج حياتهن واستبعادهن جميعًا من كنيسة الرب»(٤٤).

ومن بين النسوة اللائى وقعن فى قبضة محكمة التفتيش مارجريت بوريت (توفيت ١٣١٠م) مؤلفة «مرآة الروح البسيطة» الذى تبين أنه عنوان ساخر. واشتهرت بأنها بجوينية، ولكن يبدو أنها عاشت وعملت مبشرة جوالة «وحيدة وهائمة» و«شريدة أصلاً»(٤٥). وفى النهاية لفتت السلطات الكنسية، وحين تحدت تحذيراتهم بأن تصمت تم تحويلها إلى محكمة التفتيش وسجنت فى پاريس لمدة ثمانية عشر شهرًا، ثم مثلت أمام محكمة تتألف من واحد وعشرين عالمًا لاهوتيًّا من أعضاء هيئة التدريس بجامعة پاريس. وكان المدافع الوحيد عنها رجلا فى زى «ملاك فيلادلفيا» وهو أحد شخوص سفر الرؤيا ـ يقول يوحنا عن هذا الملاك: «هَئَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ»(٤٦) ـ ولكنها كافأته على جهوده بأن اتهمته بالهرطقة. فتبرأ محامى مارجريت منها لكى ينجو بحياته، أما هى فأدينت وحكم عليها بالحرق على العصا.

والمصير نفسه حل بناسكة تدعى نا برو بونيتا (١٢٩٠ ـ ١٣٢٥م) كانت تقول لأتباعها إن يسوع أخذها إلى السماء «بالروح» فى «الجمعة الحزينة» فى سنة ١٣٢١م. وفرانسس أسيسى طبقًا لرؤياها هو الملاك الذى ورد ذكره بسفر الرؤيا بوصفه حامل

«خَتْمِ اللهِ الْحَى» ، وپيتر چون أوليڤى هو الملاك الذى «وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ» والذى يعلن أن «لاَ يَكُونُ زَمَانٌ بَعْدُ»[٤٧]. وكانت تزعم أن يسوع أرسل هذين الرجلين الصالحين شاهدين رؤيويين، إلا أن مشيئته الإلهية أحبطها عدو المسيح بحلوله فى صورة البابا يوحنا الثانى والعشرين. وكانت نا برو بونيتا تؤكد أن الحقبة الثالثة والأخيرة من التاريخ البشرى وشيكة حيث سينهزم عدو المسيح والبابوية نفسها «ستُلغى للأب» مع كافة الشرائع عدا الزواج[٤٨].

وكل ما نعرف عن نا برو بونيتا محفوظ فى سجل استجوابها ومحاكمتها. وكان يمكن أن تتسرب عبر شقوق التاريخ ككثير غيرها من قراء سفر الرؤيا ممن لا يسعنا إلا أن نخمن المعلومات عن حياتهم، لو أنها أفلتت من انتباه محكمة التفتيش. تقول محكمة التفتيش فى قرارها: «تم تحذيرها ودعوتها وحثها مرارًا فى المحكمة وفى غيرها على دحض كل ما تقدم، والإقرار بأنه إفك وهرطقة، فإنها تشبثت بما تقدم وزعمت أنها تتمنى أن تحيا وتموت بما تقدم كأنه الحقيقة». واستجيب لما تمنت وهى ثابتة على مبدأها وبكل شجاعة، وتم حرق نا برو بونيتا على العصا مع شقيقتها أليسيت وأحد خلصائهما[٤٩].

يقدم المصير المأساوى لهؤلاء النسوة مثالاً على الثمن الذى كان على المؤمنين الأتقياء أن يدفعوا لقاء قراءاتهم الخاصة لسفر الرؤيا. وبعد وفاتهن واختفائهن بمدة طويلة كان على غيرهن أن يُحرقن حرقا؛ لأن سفر الرؤيا حثهن على أن يكون لهن رؤاهن الخاصة عن آخر الأزمان. ولكنهن يذكرننا أيضًا بأن سفر الرؤيا كان له دائمًا جاذبية قوية لدى قارئاته كالنبيتين بريسكا ومكسيميليا، والراهبة صاحبة الرؤى هيلديجارد بينجن، إضافة إلى باحثات الكتاب المقدس ممن برزن فى الدراسات الحديثة حول سفر الرؤيا. وهى مفارقة أخرى ارتبطت بالرؤيا، ذلك السفر الذى ينظر مؤلفه إلى المرأة فى خوف واشمئزاز.

ليس للمرأة صورة إيجابية فى سفر الرؤيا نفسه. فمؤلفه كما سبق أن لاحظنا يرهب الحياة الجنسية البشرية ويبدى «بغضًا وخوفًا» من المرأة بصفة خاصة[٥٠]. ومن أوضح الصور بسفر الرؤيا، وأحد رموز الشر الشيطانى عند المبشرين والدعاة على مر القرون

العشرين الماضية «زانية بابل العظيمة». وعلى النقيض فالمرأة البشر الوحيدة التى يذكرها المؤلف بالاسم فى سفره ـ أى النبية التى تدعى إيزابل ـ يخصها بالإدانة لأنها «تُغْوِى عَبِيدِى أَنْ يَزْنُوا»[٥١]. ومع ذلك فالنساء من البشر كن من أشد قراء سفر الرؤيا حماسا له فى وقت عز فيه النسوة اللائى يعرفن القراءة.

وعلى خلاف هيلديجارد ـ أو أخواتها الأقل حظًا مثل مارجريت بوريت ونابر وبونيتا ـ كان معظم نساء العصور الوسطى ممن فتحن سفر الرؤيا يسعين للارتقاء بأنفسهن روحيًا أو للتسلية بأنواع الإثارة لا لكى تكون لهن رؤى خاصة بهن. ومن النساء الثريات من كن يطلبن طبعات فاخرة للنص بزخارف غنية وصور منمقة لتأملهن الخاص. فظهرت على سبيل المثال «ميلاد عدو المسيح وعصره ـ The Birth and Time of the Antichrist» وهى رسالة عن آخر الأزمان كتبها أحد الرهبان فى القرن العاشر خصيصًا لامرأة تدعى جيربيرجا، وهى زوجة لويس الرابع ملك الأفرنك. وحقق الكتاب انتشارًا واسعًا فى العصور الوسطى، فظل يُنسخ ويتداول فى أرجاء غربى أوروبا طوال قرون عديدة تلت.

والقصة فى سفر الرؤيا يمكن تناولها كحكاية غرامية مليئة بالدسائس والإثارة أو هكذا يرى الباحثون. فالعديد من الشخصيات والأحداث التى تملأ حكايات الفرسان والفتيات الحزينات يمكن البحث عنها أيضًا فى سفر الرؤيا. والمرأة المتسربلة بالشمس يرقبها تنين متعطش للدم انتظارًا لالتهام وليدها، وينقذها فى النهاية بطل شجاع. ويسوع المسيح أمير متوج على جواد أبيض يخوض الوغى دفاعًا عن شرفها. ونهاية سفر الرؤيا السعيدة تشمل وليمة عرس لملك الملوك وعروسه، وهى مناسبة تسجل تأسيس مملكة ستدوم إلى الأبد بالمعنى الحرفى.

والأشهر من النص التوراتى المثير للجدل نفسه طبعات سفر الرؤيا المختصرة والمبسطة والمصورة، والطبعة الوسيطة لكتاب هزلى مصور من الكلاسيكيات. فكانت للكتب المصورة جاذبية خاصة لدى المسيحيين ممن لم يكونوا يقرءون الكتاب المقدس بنصه اليونانى الأصلى أو بترجمته اللاتينية، وهما الإصداران الوحيدان المتوفران للنصوص المقدسة المسيحية فى العصور الوسطى، أو من لا يلمون بالقراءة والكتابة

أصلاً ، وهى فئة كانت تشمل كثرة من النساء. وفوق هذا وذاك فسفر الرؤيا بملائكته وشياطينه ووحوشه ومعجزاته وعلاماته وغرائبه كان منهلاً قديمًا وغنيًّا للفنانين من ألبرت دورر إلى هيرونيموس بوش. والرؤى الغريبة التى رآها مؤلف سفر الرؤيا بعينى عقله تحولت مرارًا إلى لوحات زيتية أو جداريات مائية أو رسوم محفورة على الخشب تبين التصور المسيحى لآخر الأزمان حتى عصرنا الراهن.

إذن فالحدس الرؤيوى لم يقتصر قط على تأملات الرهبان المنعزلين أو على المناظرات بين علماء اللاهوت المتنافسين. وكانت دعوة أوغسطين لقراءة واعية لسفر الرؤيا موضع تجاهل وإعراض من قبل الوعاظ ومؤلفى الرسائل والفنانين والكتبة ممن كانوا يخاطبون جمهورًا أكبر وأكثر صخبًا من جمهور رجال الإكليروس. وكانوا يستعيرون بكل حرية من الأساطير والتراث مما لا وجود له فى الكتاب المقدس ولكنه ارتبط بسفر الرؤيا فى الخيال الشعبى. ومهما بلغت درجة غرابة سفر الرؤيا فهناك أفكار وصور أغنى وأغرب جاشت من الخيال الرؤيوى لهؤلاء من «أصحاب الرؤى والمنجمين» الذين وجدت خطبهم ورسائلهم طريقها إلى الثقافة الشعبية لأوروپا العصور الوسطى.

من أغرب التنويعات على سفر الرؤيا ، نص يفترض أنه نشأ مع ما يعرف بـ «عرَّافة تيڤولى». كانت العرافات نسوة أسطوريات من العصور الوثنية القديمة كان القدماء يعتقدون أنهن يوصلن أصوات الآلهة وينقلن الرسائل المنزلة من علٍ. يقول هيرقليطس (حوالى ٥٠٠ ق. م) : «العرافة ذات الشفتين المحمومتين ، تنطق كلماتٍ كئيبة غير منمقة وغير معطرة ، تتسلل عبر القرون بقوى الآلهة»[٥٢]. و«وحى العرافات» وهو مجموعة من أقوال العرافات الغامضة كان وثنيًّا خالصًا. ولكن أنشأ الكتّاب اليهود والمسيحيون فيما بعد طبعاتهم الخاصة من «وحى العرافات» فى محاولة لتحويل العالم الوثنى إلى عبادة الإله الواحد الحق. فعرافة تيڤولى ، مثلاً ، جعلها كاتب مسيحى مجهول الهوية عرافة يتم استدعاؤها إلى بلاط الإمبراطور تراجن بأوائل القرن الثانى لتفسر له حلمًا قض مضاجع مائة من شيوخ الرومان فى ليلة واحدة.

والحلم كما فسرته عرافة تيڤولى عبارة عن نبوءة معقدة عن آخر الأزمان تضفى

رونقًا جديدًا تمامًا على رؤى سفر الرؤيا. فهى ترى فى وصول رجل طويل بهى الطلعة «متناسق القسمات فى كل أجزائه» يدعو اليهود والوثنيين للمعمودية ويوحد «الإغريق والرومان»، أى جناحى الإمبراطورية الرومانية الشرقى والغربى (أو عالمى المسيحية الشرقى والغربى من منظور العصور الوسطى). وتتنبأ العرافة بأنه سيلحق الهزيمة بجيوش جوج وماجوج ويحكم إمبراطورية عالمية لمدة مائة واثنتى عشرة سنة بالتمام تسودها وفرة فائقة: «كيلة قمح وكيلة نبيذ وكيلة زيت كلها بدينار واحد». إلا أن إمبراطوريته ـ حسب قول العرافة ـ ستنتهى باعتلاء عدو المسيح العرش فى «بيت الرب» فى أورشليم [القدس][٥٣]. تقول كلمات الوحى: «يأتى بعدها إلى أورشليم [القدس]، وبعد أن يرفع التاج عن رأسه ويخلع رداء الملك كاملاً يسلم إمبراطورية المسيحيين للرب وليسوع المسيح ابنه. وسيقصر الرب تلك الأيام من أجل المختار، وسيُذبح عدو المسيح بقوة الرب من خلال ميخائيل رئيس الملائكة فوق جبل الزيتون»[٥٤].

ربما يرجع منشأ عرافة تيڤولى إلى مخطوط مفقود من القرن الرابع، إلا أن الطبعة الوسيطة من النص لم تبدأ فى جذب جمهور عريض من القراء إلا فى القرن الحادى عشر. وهناك حوالى مائة وخمسين مخطوطًا من وحى العرافة التيبورتية وهو اسم آخر عرفت به أيضًا أفلتت من العصور الوسطى، وهو رقم مماثل لعدد مخطوطات «رحلات ماركو پولو» التى كانت من أكثر الأعمال انتشارًا أيضًا فى العصور الوسطى. والمقارنة كاشفة، إذ ينم كلا الكتابين عن أن القراء فى العصور الوسطى كانوا شغوفين بمعرفة أصل العالم الذى يعيشون فيه وما قدر له من مصير.

بعبارة أخرى، ليس كل من عاش فى سنة ١٠٠٠م أو بعدها، كان يساوره اليأس أو الخوف حين يفكر فى آخر الأزمان. بل إن بعض الناس تطلعوا لرؤية المملكة الألفية بأمل وفرحة، وهو موقف من قراءة سفر الرؤيا ثبت أنه أحد التجديدات اللاهوتية الكبرى والباقية فى التاريخ الطويل لسفر يوحنا الصغير.

تشتمل رؤى العرافة التيبورتية على أحد الارتجالات الرؤيوية المصنفة التى أضيفت للخط القصصى لسفر الرؤيا فى العصور الوسطى، وهى فكرة «آخر أباطرة العالم». فهناك ملك ذو بأس شديد ـ كما تقول العرافة ـ سيسيطر على العالم فى أواخر الأيام،

وهى فكرة أثارت الكثير من التكهنات حول أى ملوك أوروپا الوسيطة سيلعب دور «آخر أباطرة العالم» فى آخر الأزمان الوشيكة والمؤكدة. والفكرة لا وجود لها فى سفر الرؤيا بالطبع، ولكن تبين أنها سلاح بلاغى ملائم آخر فى حقبة أصبح فيها قاموس مفردات السفر متداولاً فى السياسة والدعاية.

فالملك الصليبى الألمانى فردريك الثانى (١١٩٤ ــ ١٢٥٠م)، مثلاً، «لم يكن يستنكف أن يستعمل الأساطير المسيحانية عن آخر أباطرة العالم باعتباره مجددًا للمسيحية ومصلحًا للكنيسة لو لاءمته»[٥٥]. هذا فى حين أن البابا جريجورى التاسع كان يشير إلى غريمه بأنه «الوحش الطالع من البحر»، «أى عدو مسيح آخر ننتظره وقد أتى وتجسد فى شخص فردريك وفعاله؟»[٥٦]، وأعلن عزله كنسيًّا فى سنة ١٢٢٧م حين تأخر الإمبراطور فى الخروج إلى الأراضى المقدسة. وتبين أن فردريك تم تجريده من كلا اللقبين بعد وفاته بالدوسنتاريا، واستمر العالم بدونه، ولو أن هناك نبوءات ظهرت فيما بعد بأن فردريك سيُبعث كنيرون[٥٧].

ومن التجديدات الرؤيوية الأخرى فى القرن الثالث عشر فكرة «الراعى الملائكى ــ Pastor Angelicus» وهو شخصية حميدة ستحل محل الشخصيات الفاسدة التى احتلت العرش البابوى وتسببت فى كثير من الفزع بين المصلحين الكنسيين. ومن أقدم الإشارات إلى الفكرة ما يطالعنا فى كتابات «روجر بيكن ــ Roger Bacon» (١٢٢٠ ــ ١٢٩٢م) الفرنسيسكانى الإنجليزى الذى اشتهر باهتمامه بالبارود والآلات الطائرة والعلم التجريبى. يقول بيكن: «منذ أربعين سنة، ظهرت نبوءة ورؤى عدة تفيد بأن هذه الأيام ستشهد ظهور بابا سيطهر الشريعة وكنيسة الرب. وبسبب طيبة هذا البابا وصدقه وعدله، سيعود اليونان لطاعة الكنيسة الرومانية وسيتحول القسم الأعظم من التتار إلى الديانة وسيتم القضاء على العرب»[٥٨].

أطلق لقب «الراعى الملائكى» على مصلحين عدة ارتقوا عرش البابوية، ومنهم رجل متميز يدعى سلستين الخامس انتخبه مجمع الكرادلة فى سنة ١٢٩٤م «إما يأسًا أو وحيًا» بعد مأزق دام أكثر من سنتين[٥٩]. وكان مرشحًا غير مرجح فى حقبة كان البابا فيها شخصية سياسية وديپلوماسية بقدر ما كان شخصية روحية، وكان سلستين راهبًا

ناسكًا فى الطريقة البندكتية، يترفع عن متاع الحياة وبهرجها الذى كان يحق له أن يغنمه وكان يعيش فى كوخ متواضع بناه بيده على أراضى القصر. ولم يتول سلستين الحكم إلا من يوليو إلى ديسمبر ثم تنازل عن منصبه وانتهى به الحال سجينًا لخلفه البابا بونيفاتشى الثامن الذى سارع بإعلان الحرب على طائفة «الروحيين».

وهكذا فربما اعتُبر سفر الرؤيا فى نظر المسيحيين الأتقياء سفرًا مؤلفه الحقيقى يسوع المسيح، لكن مكانته التى بلغها بصعوبة كأحد النصوص المقدسة لم يمنع الفنانين والحكواتية وكتّاب الخيال والحكايات الخرافية والوعاظ والدعائيين جيلاً بعد جيل من إضافة لمساتهم الخاصة إلى السيناريو التوراتى. وهى عادة بدأت فى القدم وبلغت درجة من الازدهار فى ذروة العصور الوسطى، ولكنها لم تنته ـ كما سنرى ـ إذ يبدو أن الطابع الحالم لسفر الرؤيا نفسه يدفع القارئ ويدعوه لابتكار رؤى خاصة به.

إذن فسفر الرؤيا كان يقدم طريقًا لفهم الأفراد والأماكن والظواهر الغريبة التى لفتت العالم المسيحى الغربى من خلال مغامرات الصليبيين والتجار والمستكشفين (ومحنهم) فى أواخر العصور الوسطى. وهنا نجد صدعًا آخر فى جدار ما شاع ورسخ عما يعرف بالعصور الوسطى، فلم يكن العالم الوسيط منحصرًا فى البلدات المسورة والعزب الإقطاعية والأديرة المنعزلة بأوروبا نفسها، وكان الخيال الوسيط يلجأ لنصوص قديمة ومألوفة كسفر الرؤيا حين يواجهه شىء جديد غير مألوف.

هناك مثلاً مخطوط وسيط بعنوان: «رحلات مانديفيل» موضوعه حكاية عن جيوش جوج وماجوج الشيطانية، كانت هذه الجيوش احتجزها الإسكندر الأكبر فى شِعب بجبال القوقاز بآسيا، أو هكذا تقول الأسطورة، ولهذا السبب فالجدار الذى يحجزهم يسمى «بوابة الإسكندر». وجوج وماجوج فى الحقيقة هم أسباط بنى إسرائيل العشرة المفقودة حسب أحداث الحكاية التى تقول إن اللغة العبرية حفظتها طوائف اليهود بأوروبا وتدارستها حتى يتسنى لهم أن يتواصلوا مع إخوتهم الذين طال تيههم حين يفرج عدو المسيح عنهم ليخوضوا معركة أرمجدون. لكن الحكاية كانت بالنسبة لقراء «رحلات مانديفيل» تعنى أكثر من مجرد حكاية شعبية؛ فهناك ربط بين جوج وماجوج وقطعان التتار وجيوش العرب التى هددت العالم المسيحى على جبهته الشرقية.

هذا التوفيق النصى الحالم بين النبوءات التوراتية والواقع المحير يطالعنا أيضًا فى «علامات القيامة الخمس عشرة» ، وهى قائمة بعلامات وآيات ـ زلازل وانفجارات وشهب وغرائب متنوعة أخرى ـ تدل على حلول آخر الأزمان. والنص الذى يعزى فى العادة لـچيروم ـ ولكنه ظهر أول مرة فى أيرلندا بالقرن العاشر ـ بقى فى مائة وعشرين مخطوطًا وبلغات عدة. وهو يقول إن أية ظاهرة طبيعية ـ غريبة بصفة خاصة ـ قد تحدث إثارة رؤيوية بين من ينتظرون ويرقبون نهاية العالم.

إذا ولدت بقرة أو أتان عجلاً به عيوب خَلقية غريبة ، مثلاً ، فإن قارئ سفر الرؤيا فى العصور الوسطى قد يرى معانى رؤيوية فى ظهور المخلوق الشائه. فما عرف بـ «العجل الراهب» أو «الحمار البابوى» شاع وصفهما بأنهما من علامات «رجس الكنيسة الرومانية وقرب القيامة» [٦٠]. وكانت رؤية الضوء السماوى الذى عرف فيما بعد بمذنب هالى يعد فى التصور الشعبى تحقيقًا لرؤى يوحنا بسفر الرؤيا حيث يقول : «ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الْخَامِسُ فَرَأَيْتُ كَوْكَبًا قَدْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَأُعْطِى مِفْتَاحَ بِئْرِ الْهَاوِيَةِ» [٦١].

كانت المخيلات الرؤيوية مهما بلغت غرابتها أو تشوشها قادرة على اتخاذ سمة الحقيقة المتكشفة. فما يعرف بـ «نبوءة طرابلس» أو «نبوءة أرز لبنان» ظهر أول مرة فى كتب الأخبار الإنجليزية بأوائل القرن الثالث عشر كقراءة للأبراج الفلكية. وكلمات النبوءة تبدو للقارئ المعاصر أقرب للرطانة :

«أرز لبنان السامق سيُقطع ، والمريخ سيسود على عطارد والمشترى ، وعطارد سيكمن فى انتظار المشترى فى الأشياء كلها. سيكون هناك إله واحد ، أى أسقف واحد. وسيرحل الإله الثانى. بنو إسرائيل سيتحررون من الأسر فى غضون إحدى عشرة سنة. وسيظهر شعب من الرحل سيعتبر بلا قائد. ويل لرجال الإكليروس ـ مذهب جديد سينشأ وتقوى شوكته ! ويل للكنيسة ـ فلتسقط ! لن يكون هناك تبديل فى العقيدة أو الشرائع أو الممالك» [٦٢].

لكن قراء العصور الوسطى السذج رأوا فى نبوءة طرابلس رؤيا دقيقة عن جيوش

المغول التى اجتاحت روسيا من صحارى وسط آسيا فى سنة ١٢٣٧م وتحقيقًا لنبوءات آخر الأزمان. يقول نص سفر الرؤيا : «ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّادِسُ جَامَهُ عَلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ الْفُرَاتِ فَنَشِفَ مَاؤُهُ لِكَى يُعَدَّ طَرِيقُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ »(٦٣).

كان التوقع المؤكد والوشيك لآخر الأزمان بالمعنى الحرفى البحت من حقائق الحياة فى العصور الوسطى. لذا فإن مؤلف «مرآة التاريخ» وهى موسوعة نشرت فى سنة ١٢٥٠م قدم الرؤى المفزعة لهيلديجارد بينجن التى أصبحت تسمى «العرافة الألمانية»(٦٤) بوصفها «تاريخ المستقبل» لا مجرد تكهنات صوفية. ومن المواد الأخرى بهذه الموسوعة ترجمة لحياة عدو المسيح، وهى عبارة عن قائمة بعلامات آخر الأزمان، ووصف للقيامة الأخيرة(٦٥). ولم يظهر المسيح ولا عدو المسيح بالطبع، إلا أن السرد المطول بكتاب لصاحب رؤى ألمانى يدعى نيكولاس رايماروس نشر أول مرة فى نورمبرج فى سنة ١٦٠٦م يعد دليلاً صريحًا على نهاية العالم كانت تعد دومًا أمرًا محتومًا ووشيكًا : «دليل زمنى ومؤكد ولا سبيل لتكذيبه من النصوص المقدسة والآباء المقدسين بأن العالم سيفنى، وأن اليوم الأخير سيحل فى غضون سبع وسبعين سنة»(٦٦).

لم يكن من حوادث الحياة شىء أكثر دنيوية وألفة من أن يضع امرأ تحت تأثير سفر الرؤيا ووعده بقرب نهاية العالم. يقول ريتشارد إمرسن : «لم يكن القلق من الأشياء الأخيرة قاصرًا على المتعصبين أو الهراطقة، بل كان جزءًا أساسيًّا من معنى العيش فى آخر الأيام»(٦٧).

فمثلاً، بعد أن نصب ويليام الفاتح نفسه على عرش إنجلترا فى سنة ١٠٦٦م، أمر بإجراء مسح لمملكته الجديدة. وكانت النتيجة كتاب قوائم بملاك الأراضى وحيازات الأراضى والأحرار والعبيد والماشية، يعد سجلاً إحصائيًّا بمعنى الكلمة. ولكن تم تذكير عوام إنجلترا بإحدى رؤى يوحنا المتكررة عن يوم البعث بسفر الرؤيا حيث يقول يوحنا : «وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ صِغَارًا وَكِبَارًا وَاقِفِينَ أَمَامَ اللهِ وَانْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ وَانْفَتَحَ سِفْرٌ آخَرُ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ وَدِينَ الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِى الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ»(٦٨). يقول بن سيتيا المتخصص فى الأدب الوسيط إن الإحصاء الملكى «لم يعد من الممكن

فصله عن الخطوب الرؤيوية ليوم القيامة » لكن رعايا ويليام الجدد سموه عفويًّا « كتاب يوم القيامة » فى « تشبيه غير مقصود » بأسفار الشؤم(٦٩).

حتى العلاقة العاطفية المفتضحة كان يمكن اعتبارها كاشفة لمعان رؤيوية. فعندما قام پيتر أبيلارد معلم اللاهوت الساحر بإغراء طالبته الشابة هيلواز وحبَّلها وتزوجها سرًّا ندد عمها رجل الدين المرموق بكاتدرائية پاريس بفعلتهما وخطط لمعاقبة پيتر بإخصائه، ولم يكتف بذلك؛ بل باعد بين العاشقين بحبس هيلواز بأحد الأديرة ونفى پيتر إلى دير آخر. والرسائل المتبادلة بين أبيلارد وهيلواز معروفة بالطبع. وهناك رسالة أقل شهرة كتبها أحد معاصريهما رأى فى أبيلارد الجرىء نذير الشيطان: « پيتر أبيلارد يذهب إلى عدو المسيح ليمهد له طريقه »(٧٠).

كانت الرمزية الرؤيوية سائدة ومؤثرة حتى أن بصمات مؤلف سفر الرؤيا مهما كانت باهتة يمكن إدراكها فى فنون غرب أوروپا وآدابها خلال العصور الوسطى وعصر النهضة وما بعد، من « كايدمون والبلطة المهيبة » فى القرنين السابع والثامن إلى « بترارك وشوسر » فى القرن الرابع عشر و« دون وميلتون » فى القرن السابع عشر. فكان موردريد الوضيع فى الأسطورة الآرثرية، مثلاً، يعتبر بديل عدو المسيح، وكانت ميرلين الساحرة يعزى لها امتلاك بصيرة رؤيوية؛ ففى عمل أدبى يرجع للقرن الثانى عشر يقول الكاتب على لسان ميرلين: « ويل للتنين الأحمر، فدماره وشيك »(٧١). حتى شكسپير الذى كان يحب أن يستمد خطوط حبكاته من المصادر الوثنية الكلاسيكية لا من الكتاب المقدس يستحضر إحدى الرؤى عن آخر الأزمان كانت تسيطر على أذهان جمهوره فى آخر سنين القرن السادس عشر:

آه، دع الدنيا تنتهى بخستها
واللهيب الموعود فى اليوم الأخير
يرتق الأرض بالسماء(٧٢).

بل إن سفر الرؤيا يظهر فى مواضع غير متوقعة ومستبعدة تمامًا. فالمخطوط الوسيط المعروف بـ « كارمينا بورانا » وهو عبارة عن مجموعة أغنيات وهزليات وقصائد دينية

بذيئة ترجع للقرن الثالث عشر، تضم عمل تعويذة تستحضر «أفعى سامة ملتوية» ذات ذيل جارف[٧٣]، وهى إشارة غير مباشرة لتنين سفر الرؤيا «الأحمر العظيم» بذنبه الذى «يَجُرُّ ثُلُثَ نُجُومِ السَّمَاءِ فَيطَرَحُهَا إِلَى الأَرْضِ»[٧٤]. وجان فيرمير الذى يصور المشهد الدنيوى البسيط لسيدة هولندية تعمل بميزان صائغ فى «السيدة التى تزن اللؤلؤ» (حوالى ١٦٦٠م) يضع على الحائط وراءها لوحة ليوم القيامة فى تلميح لقراء سفر الرؤيا الذين يعرفون أن أحد جياد سفر الرؤيا الأربعة يحمل على ظهره ميزانًا رمزًا ليوم الحساب الذى ينتظر البشر فى آخر الأزمان.

ولعل أفضل مثال لتأثير سفر الرؤيا على مختلف المجالات الفنية والسياسية واللاهوتية هو «الكوميديا الإلهية». إذ تأثر دانتى (حوالى ١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) لا بسفر الرؤيا القانونى وحده بل ببعض من أكثر الكتابات الرؤيوية غموضًا من الأعمال المكتوبة التى تنسب زيفًا لشخصيات توراتية لها قداستها، ومنها ما يعرف بـ «رؤيا بولس» التى تصور تلميذ يسوع فى جولة فى الجنة والنار تشبه الجولة المصورة فى كوميديا دانتى. فيستعير دانتى ويستعين برمزية سفر الرؤيا المألوفة ومنها «الزانية العظيمة» والمرأة المتسربلة بالشمس، والحيوانات الأربعة، والتنين ذو الرءوس السبعة، والحملان السبعة والشيوخ الأربعة والعشرون. وينشغل بهذا النوع من الإسقاط الرؤيوى الموجود بسفر الرؤيا نفسه موحيًا بشكل غير مباشر بأن فيليپ ملك فرنسا هو المسيح الدجال، والبلاط البابوى فى أفينيون ـ بابوية منافسة تعرف فى تاريخ الكنيسة باسم «السبى البابلى»[٧٥] ـ هو «أم الزوانى». يقول دانتى فى «الجحيم» مخاطبًا البابا فى أفينيون: «كان اللاهوتى يفكر فى رعاة مثلك حين رأى المرأة الجالسة على الماء وهى ترتكب الفاحشة مع الملوك»[٧٦].

كما يتبع دانتى نموذج سفر الرؤيا بتزيين نصه برمز عددى صوفى وتحدى قرائه أن يتعرفوا على الشخصية التاريخية التى يرمز إليها. يقول دانتى فى «الأعراف»: «فأنا يقينًا أرى... كواكب دانية فى متناول اليد... ستأتى لنا بزمن يقوم فيه «خمسمائة وعشرة وخمسة» المرسل من عند الرب بذبح اللصة والعملاق الذى يقترف الإثم معها». والرمز الحرفى العددى اعتبره الباحثون مساويًا للقيمة العددية لأحرف اسم هنرى

السابع ملك لكسمبورج وهو ملك غامض كان مرشح دانتى لدور «آخر أباطرة العالم» حسب نبوءة العرافة التيبورتية[٧٧].

ولا يقدم دانتى بالطبع سوى مثال واحد على اعتبار سفر الرؤيا مصدرًا للمشاهد والشخصيات والكلمات والعبارات المختزلة والرموز الصوفية ومختلف أنواع التركيبات. وفى الوقت الذى أنشأ فيه «الكوميديا الإلهية» بأوائل القرن الرابع عشر كانت عملية إعادة تصوير وتوجيه النص الأصلى لسفر الرؤيا تراثًا قديمًا وإن لم يكن موضع تقدير دائمًا، وليس بين علماء اللاهوت المتدينين وأدعياء التنبؤ وحدهم.

بل إن مؤلف سفر الرؤيا الذى تراءى له فزع المستقبل القريب وآياته لم يكن يتصور بالطبع ما ستئول إليه الكلمات التى نطق بها أمام قلة من المسيحيين بمنطقة داخلية منعزلة من الإمبراطورية الرومانية منذ قرون عدة. ولكن ما إن بدأ فى العصور الوسطى مشروع إعادة تدوير سفر الرؤيا لأغراض جديدة رهيبة وطائشة أحيانًا، حتى تحول إلى محرك للفن والسياسة والدعاية لا يزال دائرًا بسرعة هائلة حاليًّا.

ومع ذلك فمؤلف سفر الرؤيا هو الذى ضمن طول بقاء سفره الصغير بتضمينه ترسانة من الانتقاد تصلح لكافة الأغراض يمكن للمرء أن يهين بها خصومه بدقة وبصور متنوعة. فالمنطق الداخلى القوى لسفر الرؤيا ـ والتراث الرؤيوى برمته ـ يتخلى عن أى جهد للإقناع ويمحو كل غموض وشك، ويهدد بأقسى عقاب على أدنى انحراف أو اختلاف فى الرأى. والمرء فى ضوء سفر الرؤيا إما على حق أو على باطل، إما خيِّر أو شرير، إما ربانى أو شيطانى. وطبقًا لسفر الرؤيا فإن كل من يكذِّب المؤلف ولو بأدنى صورة فى الدنيا يستحق أحد النعوت المناسبة التى يقدمها النص بوفرة: الوحش، الزانية العظيمة، الشيطان، إبليس، وغير ذلك كثير.

وكان بعض قراء سفر الرؤيا أبطأ من غيرهم فى إدراك مدى ما يمكن الحصول عليه من فوائد من السفر فى حرب ثقافية أو حتى حقيقية. فكما حدث ليواقيم الفيورى وهيلديجارد بينجن، فزع مارتن لوثر (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦م) مما اعتبره فساد البابوية الرومانية. وفى سنة ١٥١٧م عندما علق لوثر كتاباته الجريئة على باب كنيسة القصر فى ويتنبرج كان مستعدًّا للانشقاق على الجمود الكاثوليكى الرومانى، ثم على الكنيسة

نفسها بعد ذلك بقليل. إلا أن لوثر ـ الراهب بطائفة القديس أوغسطين ـ نأى بنفسه عن سفر الرؤيا. كتب لوثر فى سنة ١٥٢٢م يقول: «هناك سبب كاف واحد لضعف ما أكنّ له من تقدير، وهو أن المسيح لا يرد له ذكر فيه ولا يُعترف به»[٧٨].

ومضت ثمانى سنوات قبل أن يدرك لوثر كيف يشهر سفر الرؤيا سلاحًا كلاميًّا فى حربه على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهكذا «قام المصلح بتغيير اتجاهه»[٧٩]. وكمؤلف سفر الرؤيا لم يكن لوثر يرى أعداءه مجرد أناس على خطأ بل أشرارًا وشياطين، وكان يسمح لنفسه باستلهام أفكاره ورمزيته فى خطبه ورسائله ومراسلاته. فأصبح لوثر يقول عن سفر الرؤيا: «إنه رؤيا عما هو آتٍ لا سيما ما سيحل بالكنيسة من نكبات وبلايا». وبعد أن لم يعد منزعجًا لغياب ذكر المسيح فى نصه أعلن لوثر أن الوحش الذى يتنبأ سفر الرؤيا بمجيئه هو البابوية نفسها[٨٠]. يقول لوثر: «عدو المسيح الحقيقى... قابع يحكم فى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى. ولا أدرى ما إذا كان البابا نفسه هو عدو المسيح أم تلميذه، فيالبئوس المسيح (أى الحقيقة) الذى أفسَد وصلَب»[٨١].

وربما تطرف مؤلف سفر الرؤيا بلغة السباب، لكن لوثر وجد سبلاً جديدة أكثر بذاءة لاستغلال السفر كهراوة يضرب بها أعداءه. فمثلاً، يقتدى لوثر بمن سبقه من المصلحين عندما يصف البابوية بـ«الأسر البابلى» للكنيسة، وحين ينعت روما بأنها «بابل أم الزوانى». إلا أنه يلعب بالمجاز بطرق صادمة فعلاً. فيقول فى إحدى رسائله البذيئة: «نحن أيضًا كنا فيما مضى نركز على مؤخرة هذه الزانية اللعينة كنيسة البابا الجديدة. كنا نؤيدها بكل جدية؛ لذا فإنا نادمون على ما بددنا من وقت وطاقة فى هذا الثقب الحقير. ولكن الشكر للرب أن نجانا من الزانية العاهرة»[٨٢].

ليس كل مصلح پروتستانتى وقع فى غرام سفر الرؤيا بهذه الدرجة، وكانت قلة منهم من تنبهوا كأقدم آباء الكنيسة لرمزيته الشديدة والتحريضية. فعلى الضفة الأخرى من نهر الراين فى سويسرا، مثلاً، فرض كل من أولريخ تسفينجلى (١٤٨٤ ـ ١٥٣١م) وچون كالڤن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) قيودًا على الاستعانة بالنص الملتهب «حتى لا يوقظ عفاريت الرؤى»[٨٣]. وأصدر أحد المجامع الكنسية فى ساومور وهى من مراكز النشاط الپروتستانتى بغرب فرنسا، مرسومًا فى سنة ١٥٩٦م يحظر صراحةً عمل أى تعليق

على سفر الرؤيا بدون موافقة رسمية من سلطات الكنيسة. لكن ثبت أن سفر الرؤيا مفيد للقضية البروتستانتية، حتى أن المئات من التفاسير الجديدة دونت ونشرت فى القرن الذى تلا إعلان لوثر الحرب على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وما لبث سفر الرؤيا حتى تحول إلى «النص المختار» للمنجمين البروتستانت على مر العصور.

كان المبشرون البروتستانت فى الحقيقة أكثر اقتناعًا من نظرائهم الكاثوليك بأنهم عرفوا موعد انتهاء العالم، ولم يكونوا أقل منهم خطأ بالطبع. فارتقى ميخائيل ستيفل وهو عالم رياضيات ألمانى منبر كنيسة لوثر وأعلن بحساباته أن آخر الأزمان يبدأ فى الثامنة من صباح التاسع عشر من أكتوبر من سنة ١٥٣٣م. وبعد مائتى سنة ظهر واعظ إنجليزى يدعى چورچ بِل لم تحبطه النبوءات الفاشلة التى سبقته فأعلن بيقين مماثل أن يسوع المسيح سيهبط من السماء إلى الأرض فى الثامن والعشرين من فبراير من سنة ١٧٦٣م. وفى ليلة المجىء الثانى الموعودة ظل چون ويزلى مؤسس الكنيسة المنهجية يعظ طوال الليل فى محاولة لتهدئة الجموع القلقة ويهيئهم للإحباط مما اعتبره بحق فجر يوم لا يختلف عن بقية الأيام.

يتخذ التراث الرؤيوى موقفين مختلفين تمامًا من السلوك القويم للمتدينين فى زمن «الضيقة». فسفر دانيال كما رأينا يحض «العقلاء» على المعاناة فى صمت إلى أن ينتقم الرب لنفسه من ظالميهم، لكن «رؤيا الحيوان» تثنى على المؤمنين الذين يشهرون سيوفهم ويقاتلون. وسفر الرؤيا ـ وعلى الرغم من كل ألعابه النارية الكلامية ـ ينحاز لدانيال. فالقديسون الصابرون فى نظر يوحنا يفترض فيهم أن يصبروا فى انتظار الشهادة، ويتطلعون ليوم سعيد تعود فيه «كلمة الرب» «مُتَسَرْبِلَةٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ» وفى فمها سيف[٨٤] لتشفى غليلها بانتقام دامٍ.

مع ذلك فليس كل قارئ لسفر الرؤيا فى العالم الوسيط كان يتمكن من كبح الأحاسيس القوية التى تثيرها كلمات آخر أسفار الكتاب المقدس وصوره. فالشوق لآخر الأزمان، والرغبة فى استعجالها كانا يعتملان ـ على حد قول نورمن كون ـ «فى صدور المحرومين والمظلومين والضالين والمضطربين» من ساكنى ما يسمى «العالم السفلى الغامض للدين الشعبى»[٨٥]. وكانت كثرة منهم يستحثون على الإمساك بمقاليد أمورهم

فى أيديهم كالحملان من حملة السيوف فى «سفر الحيوان». بل إن هذا هو السبب فى اعتبار سفر الرؤيا نصًّا ذا خطر عند رجال الدين الواعين القدماء منهم والمحدثين.

ومن أقوى الأمثلة على قوة تأثير سفر الرؤيا نجده فى الحملات الصليبية. فالبابوات الذين نادوا فى الجنود المسيحيين أن يستردوا أورشليم [القدس] من حكامها المسلمين، والأمراء والملوك ممن لبوا النداء ربما كانوا يؤمنون بمنطق سفر الرؤيا، إلا أن دوافعهم يمكن اعتبارها جغرافية أكثر من كونها دينية. يقول برنارد مكجين: «كانت الحملة الصليبية الكبرى أصلاً خطة بابوية لإعادة بناء الإمبراطورية المسيحية المتوسطية بزعامة البابا»(٨٦). إلا أن عددًا كبيرًا من عامة المسيحيين فهموا نداء حمل الصليب باعتباره تحقيقًا لنبوءات سفر الرؤيا. فما عرف بالحملة الصليبية الشعبية بل، أيضًا حملة الأطفال الصليبية كانت نواتج عفوية لدفق الحماس الرؤيوى الذى يحرك الرجال والنساء والأطفال على الاندفاع نحو الأراضى المقدسة لاسترداد أورشليم [القدس] من المسيح الدجال.

يقول إيكهارد الآورى فى كتابه «رحلة أورشليم [القدس]» وهو عبارة عن حكاية من القرن الحادى عشر: «ظهرت نذر عدة فى السماء وعلى الأرض وهيجت مشاعر كثرة ممن كانوا لا يبالون بالحملة الصليبية. فأظهر البعض علامة الصليب مطبوعة بفعل إلهى على جباههم أو ثيابهم أو على بعض أوصالهم، وبهذه العلامة كانوا يعتبرون أن الانضمام إلى جيش الرب فرض عليهم. وفى وسط كل هذا هرعت كثرة من الناس إلى الكنائس فى حشود، وكان القسس يباركونهم ويعطونهم سيوفًا وهراوات وحقائب حج فى طقس دينى جديد»(٨٧).

بعض الصليبيين هاجت مشاعرهم حتى أنهم لم يطيقوا صبرًا حتى يبلغوا الأراضى المقدسة ليشهروا سيوفهم. ولدى عبورهم الريف الأوروبى كانوا ينقضون على تجمعات اليهود التى تقع فى طريقهم ويقيمون محارق لمن قيل لهم إنهم أعضاء «مجمع الشيطان». بل إن «الغيبيات الشعبية» فى أوروبا العصور الوسطى ـ كما سبق أن رأينا ـ كانت تشمل فكرة فحواها أن عدو المسيح سيكون من نسل الشيطان وغانية يهودية، وبالتالى لم يكن الجنود الصليبيون يجدون غضاضة فى ذبح اليهود رجالاً ونساء وأطفالاً على السواء، فقد يكون أيهم عدو المسيح نفسه(٨٨).

والحافز الرؤيوى نفسه كان يضطرم فى عقول العامة من الفقراء والعاجزين الذين كانوا يثورون من حين لآخر على أسيادهم كما تنبأ كل من هيلديجارد و«الأخ چون» تمامًا. فاعتُبرت حركة وات تايلر فى سنة ١٣٨١م، حركة تمرد دامية قام بها العمال والفلاحون الإنجليز ضد الطبقة العليا ورجال الإكليروس، إحدى علامات آخر الأزمان، وشُبه الغوغاء المسلحون بجيوش جوج وماجوج الرؤيوية. وأقام التابوريون وهم حركة قوامها فلاحو بوهيميا وفقراء براغ من الحضر تجمعاتهم المسلحة الخاصة فى القرن الخامس عشر انتظارًا للمملكة الألفية التى ستطيح بالملوك والقساوسة على السواء. وفى سنة ١٤٥٢م، نجحت حملة تأديبية فى الاستيلاء على آخر معاقل التابوريين فيما ثبت أنه مجرد صورة مصغرة من سفر الرؤيا. وكانوا ينشدون وهم يستعدون لمعركة أرمجدون ويقولون: «خلصونا من عدو المسيح الشرير وجيشه اللئيم؛ ملعون من يمنع سيفه من سفك دم أعداء المسيح»[٨٩].

كانت الاضطرابات والانتفاضات التى تلت حركة الإصلاح البروتستانتية تشمل انتفاضة فلاحين مسلحة فى ألمانيا بقيادة توماس مونتسر (حوالى ١٤٨٨ ـ ١٥٢٥م) وهو قس تملكته فكرة أن الرب اصطفاه ليكون الملهم الجديد عشية آخر الأزمان. فأعلن مونتسر فى تلميح «للحاصد المتجهم» كما ورد بسفر الرؤيا قائلاً: «آن أوان الحصاد، والرب استخدمنى لحصاده. فشحذت منجلى، وشفتاى ويدى وجلدى وروحى وبدنى وحياتى كلها تلعن الكافرين». وكان يعتبر أتباعه المؤمنين به «النخبة»، وكل من عداهم أعوان إبليس. وكان يقول: «غير المؤمنين لا حق لهم فى البقاء أحياء باستثناء من تسمح «النخبة» لهم بالبقاء». وككثير من المحاربين المسيحانيين غيره تم اصطياده وتعذيبه وقطعت رأسه من قبل الأمراء، ممن كان يلعنهم بكل جرأة باعتبارهم «أشرارًا كافرين»[٩٠].

دفقة أخرى من «الحمى الرؤيوية» عجلت بها الحملة الصليبية التى شنها لويس الرابع عشر بأواخر القرن السابع عشر على البروتستانت الفرنسيين أو «الهوجونرت»[٩١]. ونظرًا لاعتيادهم منذ عهد بعيد على الاضطهاد والقهر على يد الحاكم الكاثوليكى، هرعوا إلى «الأنبياء الأطفال» فطمأنوهم إلى أن أحدث ما تعرضوا

له من مظالم هى من علامات «المجىء الثانى». ونجح بعض المبشرين من الهوجونرت ممن يؤمنون بفكرة أن «بابل» الفرنسية ستهلك فى سنة ١٦٩٠م فى شن حرب عصابات بمن عرفوا باسم متمردى كاميسار على جيش ملِك الشمس. وانتهت الحرب بسحب كافة الحريات المدنية والدينية والنفى الاختيارى لقرابة نصف مليون من الهوجونرت.

إلا أن تلبية الحافز الرؤيوى بلغت أقصى تعبير عنها فى سنة ١٥٣٤م بإقامة مملكة مسيحانية بمدينة مونستر الألمانية. إذ ظهرت طائفة متطرفة من البروتستانت تدعو لضرورة تجديد التعميد - تعارض تعميد الأطفال - تؤمن بأن العالم بأسره عدا بلدتهم على وشك الدمار. وستكون مونستر فى زعمهم أورشليم [القدس] الجديدة والمكان الذى ستنشأ فيه «مملكة لألف سنة» و«مسحوا» خياطًا سابقًا وممثلاً يدعى ڇان بوكلسن (أو ڇان ڤان لايدن) ليكون «مسيح آخر الأيام»(٩٢). وكان أول عرض عام يؤديه الشاب الكارزمى الوسيم المتحمس عرضًا صارخًا متميزًا.

يقول المؤرخ الإنجليزى المتخصص فى دراسات العصور الوسطى نورمن كون فى كتابه «البحث عن الألفية - The Pursuit of the Millennium»: «أخذ يركض عبر طرقات البلدة عاريًا فى حالة هستيرية، ثم سقط فى انتشاءة صامتة دامت ثلاثة أيام. وحين استرد النطق، جمع الأهالى وأعلن أن الرب أوحى له بأن بناء البلدة القديم من عمل البشر ولا بد من استبدال بناء جديد من صنع الرب»(٩٣).

كان المطلوب من أهالى البلدة التنازل عما لديهم من ذهب وفضة ويخضعون لتجديد تعميدهم، والالتزام بأحكام صارمة فى الأخلاق الجنسية لتطهير المسيحيين الأتقياء جميعًا تحسبًا لقرب يوم القيامة. وأعاد بوكلسن النظر فيما بعد فى الأحكام ليسمح بممارسة تعدد الزوجات اقتداءً بالآباء والملوك العبرانيين، وما لبث حتى اتخذ لنفسه تشكيلة من الفتيات «لا يزيد عمر أيهن عن العشرين» زوجات له. وكل من يتحدى سلطته كان مصيره الإعدام. وأعلن قائلاً: «لدىّ الآن سلطة على كل أمم الأرض، ومن حقى أن ألجأ للسيف لصد الأشرار والدفاع عن الأخيار؛ لذا فلا يلوثن أحد من أهل هذه البلدة نفسه بالإثم أو يعترض مشيئة الرب، وإلا أعدم على الفور بحد السيف»(٩٤). وكان بوكلسن يشرف بنفسه على قطع الرقاب الذى كان يتم فى

ميدان البلدة «بسيف العدالة» وهو جالس على عرش من ذهب، وتولى ملك «أورشليم [القدس] الجديدة» قطع عدد غير قليل من الرقاب بنفسه. وكان من بين الضحايا امرأة اقترفت جريمة «حرمان زوجها حقوقه الزوجية»[٩٥].

وأعلن أحد الدعاة الملكيين قائلاً: «إن مجد كل القديسين هو شفاء الغليل بالانتقام. الانتقام بلا رحمة لا بد أن ينزل بكل من لم يوسم بالعلامة (وسم الطائفة)»[٩٦].

كانت «مملكة الألف سنة» محكومًا عليها بالفناء منذ البداية بالطبع. إذ استنجد أسقف البلدة بالمدن والولايات المحيطة للتبرع بالسلاح والرجال والجياد والمال لتجريد حملة على مونستر، وحوصرت البلدة. واستمر بوكلسن وبلاطه الملكى ينعمون باللحم والخمر اللذين كانوا يصادرون من الرعايا، بينما تدهور الحال بمن عداهم فاقتاتوا على لحم الكلاب والقطط والفئران ثم على «العشب والطحالب والنعال القديمة وملاط الحيطان» وفى النهاية «على جثث الموتى»[٩٧]. وأخيرًا وفى سنة ١٥٣٥م استولى الجيش المحاصِر على البلدة فى هجوم مباغت حاسم، وتم إعدام المدافعين فى مذبحة عامة دامت أيامًا عدة. وتم تعذيب بوكلسن وشرذمته لمدة طويلة بالحديد المحمى، وتم عرض جثثهم المشوهة فى مكان عام ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه من قراء سفر الرؤيا أن يبتدع «بدعة رهيبة» مماثلة.

إذن فالمسألة أن أى واعظ يمكن أن يسعى لإضرام النار فى قلوب جمهوره بالرعب واللهفة ينتهى الأمر بحرقه بنار من صنع يده. كان هذا مصير رجل يدعى «شهيد النبوءة» وهو چيرولامو ساڤونارولا (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨م) الذى كان أشهر المتطرفين الرؤيويين[٩٨]. كان مقدرًا لفلورنسا أن تصبح «أورشليم [القدس] الجديدة» أو هكذا آمن ساڤونارولا وبشر، واعتبر أن رسالته الإلهية أن يجعلها كذلك. وفى لحظة من التاريخ كانت أوروپا فيها مبتلاة بـ«المتنبئين والأشباح والارتباطات الفلكية ذات المضمون المخيف» حسب قول أحد كتّاب الأخبار المعاصرين. وكان أهالى فلورنسا جمهورًا لديه الاستعداد لهذه الأمور[٩٩].

وكمؤلف سفر الرؤيا، كان ساڤونارولا جنديًّا متطوعًا فى حرب حضارية. فكان

الراهب الدومينيكانى مستاءً، مما سمى «انحرافات وشرور العميان ممن انحدرت الفضيلة بينهم إلى درجة الصفر وانتصر الفساد فيهم»[١٠٠] أى أساليب الحياة والفن الدنيوية التى تعتبر حاليًّا أمجاد عصر النهضة. وكما أدان يوحنا متع الوثنية الرومانية وثرواتها «بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ...»[١٠١] كان ساڤونارولا يدين حياة البذخ التى يعيشها رجال الدين الكاثوليك الرومان. وأعلن قائلاً: «أنتم زرتم روما، إذن فلا بد أنكم تعرفون شيئًا عن حياة هؤلاء القساوسة. إن لديهم محظيات وحراسًا وجيادًا وكلابًا، وبيوتهم ملأى بالبسط وأنواع الحرير والعطور والخدم. وخيلاؤهم معروف فى العالم، وشرههم يسبق خيلاءهم. وكل أفعالهم فى سبيل المال»[١٠٢].

كان ساڤونارولا مرة أخرى كمؤلف سفر الرؤيا واعظًا موهوبًا وقويًّا، وكانت خطبه «تشعل نار الفزع الدينى الذى ألهب حتى أهدأ عقلاء المدينة» حسب قول المؤرخ الحضارى روبن بارنز[١٠٣]. وكانت محاضراته العامة عن سفر الرؤيا تحظى بشعبية كبيرة اضطرته للانتقال إلى مقر أكبر يسع حشوده. وكان الناس يتحمسون لتحذيره بقرب نهاية العالم، فهناك «أمواج من الدم» و«مجاعة رهيبة» و«وباء عاتٍ» بانتظار الآثمين[١٠٤]. وكان يثيرهم مرأى أى عراف وهو يمارس نشاطه. وكان ساڤونارولا يتشدق فى خطبه الساخنة قائلاً: «إن الأسباب التى تدعونى لإعلان هذه الرزايا والغوائل تقوم على كلمة الرب. رأيتُ علامة فى السماء. ولم تكن صليبًا هذه المرة، بل سيفًا. إنه سيف الرب الرهيب الماضى الذى سيضرب الأرض!»[١٠٥].

وكان ساڤونارولا يوصى جمعه بالانصراف عن متع الجسد انتظارًا ليوم الحساب. وكان يشكو من أن «أى صبى لا يستطيع أن يمشى فى الطرقات دون أن يقع فى أيدٍ شريرة» وأعلن أن «اللواط خطيئة تطوق فلورنسا»[١٠٦]. إلا أنه كان أقل حدة فيما يتعلق بالتجاوزات الجنسية للنساء سواء أكانت حقيقية أم وهمية. فكان يندد قائلاً: «كتل شحم طرية وكبيرة أنتن بشعركن المخضب ووجناتكن المحمرة وجفونكن الملطخة بالفحم. عطوركن تسمم هواء شوارعنا ورياضنا. ولا تقنعن بأن تكنّ محظيات أهل الدنيا والشباب الضالين، فتطاردن القسس والرهبان لتوقعن بهم فى حبائلكن وحيلكن

القذرة »[١٠٧]. وكان يرمى البابا ورجال الإكليروس بالتهم نفسها مستغلاً عبارات سفر الرؤيا الملتهبة فى خطبه: «تعالوا هنا يا هرطقة كنيسة! شهواتكم جعلتكم بغيًّا وقحة. أنتم أسوأ من الوحوش إذ تحولتم إلى وحش لا يوصف! »[١٠٨].

وكانت أوضح اللحظات فى حرب ساڤونارولا على الإنسانية وفن النهضة الرفيع ما عرف بمحرَقة الزيف، وهى محرقة حض أهالى فلورنسا التائبين رجالا ونساء أن يلقوا فيها بالحلى والثياب المبهرجة والشعر المستعار والعطور ومساحيق الوجه والمرايا وطلاء الشفاه والنرد وأوراق اللعب و «بعض الآلات الموسيقية التى تصدر أنغامًا ذات طبيعة مثيرة »[١٠٩]. ويمكن وصف بعض وقود هذه المحرقة بالإباحية أو أسوأ «تماثيل من رخام فى أوضاع ماجنة ودمى آلية تؤدى حركات متهتكة وكل ما يثير الشهوات »[١١٠] لكن هناك لوحات لبوتيتشيللى وكتبًا لبترارك وبوكاتشيو ألقيت أيضًا فى النار[١١١]. وكان يعد بأن يكون جزاء تضحية أهالى فلورنسا الارتقاء بمدينتهم إلى مكانة «أورشليم [القدس] الجديدة »، أى نموذج النقاء المسيحى وعاصمة المملكة الألفية.

وككثير من الوعاظ الرؤيويين لم يكن ساڤونارولا يرى فارقًا يذكر بين الدين والسياسة. بل إن رؤياه عن آخر الأزمان كانت متأصلة فى تربة عمق السياسة العملية؛ لذا فإنه مثلا كان يدين البابوية فى روما لأسباب أخلاقية، فأعلن قائلاً: «حولوا كنائسهم إلى أكشاك للعاهرات، وسأحيلها أكشاكًا للخنازير والجياد؛ لأن هذه المخلوقات لا تغضب الرب بهذا القدر »[١١٢]. ودفعه اشمئزازه الأخلاقى لأخذ جانب الملك الفرنسى شارل الثامن الذى كان ينافس البابا على السيادة السياسية على إيطاليا. ولم يكن ساڤونارولا منزعجًا لسفك الدم والفوضى اللذين دعا لهما، بل حرض عليهما. وعندما سعى البابا ألكساندر لعقد صلح منفرد مع ساڤونارولا بعرض ترقيته لمرتبة كاردينال، وهو منصب كان شعاره تاجًا قرمزيًّا، فإن البابا أساء الحكم على سجايا المؤمن الحق. فأجابه ساڤونارولا قائلاً: «أنا يا رب لا أبغى إلا ما أعطيتَ للقديسين: الموت. قبعة حمراء، نعم، أما حمراء من الدم فهذا ما أتمنى »[١١٣].

وربما فاز ساڤونارولا بالأرواح المذنبة والنفوس الخائفة التى اجتمعت لخطبه النارية، لكنه نجح أيضًا فى عزل من اتخذوا جانب البابا من أثرياء فلورنسا ووجهائها

ومن أغضبهم وأحرجهم تنديد ساڤونارولا بالثراء والامتيازات. فقال أحد خصومه فى إشارة إليه بلقبه واسمه الأول: «الأخ جيرولامو إما تتراءى له أشباح أو يسرف فى معاقرة الخمر»[١١٤]. وخطط أعداء ساڤونارولا فى فلورنسا بالتنسيق مع البابا فى روما لإلقاء القبض عليه وتعذيبه ومحاكمته، وأدين بتهمتى الهرطقة والانشقاق. وقال الأسقف الذى تولى إدارة المراسم الرسمية للعزل الكنسى: «حكمنا بعزلك من الكنيسة المحاربة والمنتصرة، فرد المنشق ساڤونارولا قائلاً: من «الكنيسة المحاربة» لا من «الكنيسة المنتصرة»، فهذا أمر خارج عن قدرتك»[١١٥].

لم تدم «الجمهورية المسيحانية الأم» التى أنشأها ساڤونارولا فى فلورنسا إلا لثلاث سنوات[١١٦]. وفى ٢٤ مايو ١٤٩٨م تم تجريد ساڤونارولا من وزرة الرهبان وحلقت رأسه لإزالة حلق الرأس الذى يميز الرهبان، وشُنق بحبل لُف حول جيده، ثم ألقى جثمانه المهشم فى النار فى الميدان المزدحم والصاخب نفسه الذى سبق أن أضرم فيه هو نفسه نيرانه الخطيرة. فصاح أحد المستهزئين وسط صخب الدهماء قائلاً: «آن الأوان لكى تبين كراماتك يا نبى!»[١١٧].

ومع ذلك فالفكرة الرؤيوية ليست دائمًا أو ليست مجرد مسألة كآبة وشؤم. فسفر الرؤيا، وكافة الكتابات الرؤيوية فى التراثين اليهودى والمسيحى على السواء ــ يمكن اعتباره قصة تنتهى بأسعد النهايات بالنسبة للقراء ممن لديهم الميل لذلك. فيوحنا يتوعد أن عالمنا المظلم مآله إلى نار وكبريت، لكنه يعد أيضًا بسماء جديدة وأرض جديدة. فيقول الرب فى ختام سفر الرؤيا: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَىء جَدِيدًا»[١١٨]؛ لذا فالتراث الرؤيوى يوصف بحق بأنه «ثنائى القطب»: فالجانب السيئ فيه دمار الأرض وانقراض البشرية، أما الجانب الخيّر فهو أن القديسين سيخلدون فى الفردوس أبدًا[١١٩].

فى اللحظة التى أخذت أحلام ساڤونارولا الرؤيوية ـ ومعها ساڤونارولا نفسه ــ تحترق فى النار، مثلاً، كان هناك قارئ آخر شهير لسفر الرؤيا يتطلع لمصير أسعد لنفسه وللإنسانية كلها. فكريستوفر كولومبس (١٤٥١ ــ ١٥٠٦م) اشتهر برحلته الكشفية التاريخية أكثر مما اشتهر بتكهنه الرؤيوى بالطبع. ولكن قبل أن ينطلق كولومبس فى أولى رحلاته العظيمة كان «أميرال البحار المحيطة» قد وجد طريقه إلى النصوص الصوفية

القديمة التى طالعها جميعًا بشغف بالغ. وفيما بين رحلتيه البحريتين الثانية والثالثة إلى أمريكا، جمع كولومبس مجموعته الخاصة من الفقرات الرؤيوية والنبوئية التى استخلصها من الكتاب المقدس وكتابات الآباء الكنسيين والعديد من الشروح الوسيطة فى كتاب سماه «سفر النبوءات».

كان هدفه ضمان الحصول على الرعاية الملكية لمشروع مختلف تمامًا وإن لم يكن أقل طموحًا. فالأراضى المقدسة ظلت تحت السيادة الإسلامية، لكن كولومبس وجد فيما قرأ فى النصوص الرؤيوية ما شجعه على أن يرى لنفسه دورًا فى تحقيق ما فشل الصليبيون مرارًا فى تحقيقه، أى هزم سادة أورشليم [القدس] المسلمين. بل إنه كان مقتنعًا بأن الرب أنعم على العالم المسيحى بذهب أمريكا وفضتها بغرض تمويل إعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] «المدينة الرؤيوية رقم واحد بلا منازع»(١٢٠).

وشهد كولومبس نفسه تصاعدًا جديدًا للسعار الرؤيوى. فراعيه الملكى فرديناند ملك أراجون كان يعد مرشحًا مؤهلاً للقب «آخر أباطرة العالم»، واعتُبر انتصار التاج الإسپانى على آخر الممالك الإسلامية بشبه جزيرة أيبيريا إحدى علامات اقتراب أوان المملكة الألفية. ونظرًا لأن «أورشليم [القدس] الجديدة» كانت أحد عناصر آخر الأزمان الأساسية كما تنبأ بها سفر الرؤيا، فقد تطلع كولومبس لأن يقدم خدماته لتحقيقها على أرض الواقع.

ومن بين النصوص التى رجع إليها كتابات يواقيم الفيورى، ورأى نفسه فى النبوءات التى صادفته فيها. يقول كولومبس فى سرد عن آخر رحلاته إلى أمريكا فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر: «أورشليم [القدس] وجبل صهيون يجب إعادة بنائهما بيد مسيحى، والراهب يواقيم قال إنه سيأتى من إسپانيا. فمن ذا الذى سيكرس نفسه لهذه المهمة؟ لو أعادنى ربنا إلى إسپانيا أتعهد لنفسى باسم الرب أن آتى به سالمًا إليها [أى يأتى بالرب سالمًا إلى أورشليم «القدس» وجبل صهيون]»(١٢١).

كان كولومبس يعيش مثل ساڤونارولا فى حالة «وشك نفسى»، أى «الاقتناع بأن أحداث التاريخ الأخيرة وشيكة، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد مدى قربها أو بعدها عن يوم الحساب الأخير»(١٢٢). وتوفى الرجلان بالطبع دون أن يريا أحلامهما الرؤيوية

تتحقق، ولكن تبين أن كولومبس كان لديه حس أفضل «بتاريخ المستقبل». وأخذ الجيل التالى من أصحاب الرؤى على عاتقهم إيجاد المملكة الألفية الموعودة فى سفر الرؤيا، لا فى الأراضى المقدسة بل على أرض القارة الجديدة التى عثر عليها كولومبس عندما أبحر غربًا بحثًا عن طريق مختصرة إلى الهند. وعندما قفز سفر الرؤيا قفزته الكمية من سواحل أوروپا المظلمة إلى برية أمريكا الشمالية البكر، شهدت الفكرة الرؤيوية تحولاً كاملاً ومصيريًّا. يقول مؤلف سفر الرؤيا فى ذروة أحلامه الرؤيوية: «رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً». ويقول كولومبس: «الرب جعلنى رسول السماء الجديدة والأرض الجديدة التى تحدث عنها فى رؤيا القديس يوحنا، ودلنى على البقعة التى أجدها فيها»(١٢٣).

ومما يذكر أن العبارة المترجمة بمعنى «التراب الجديد» فى معظم ترجمات الكتاب المقدس الإنجليزية، وبمعنى «الأرض الجديدة» فى كتابات كولومبس ترد فى ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية «terra nova». إلا أن أقرب ترجمة لهذه العبارة اللاتينية هى «العالم الجديد». وسفر الرؤيا كما سنرى لن يصل إلى أثرى وأغرب تعبير عنه إلا فى أمريكا(١٢٤).



الفصل السادس

لكى نبدأ العالم من جديد

« نحن رواد العالم وطليعة حراسه، أرسلنا عبر برية الأشياء التى لم يسبق تجربتها، لكى نفتح طريقًا جديدًا فى العالم الجديد الذى هو عالمنا »

هرمن ملڤيل «الستره البيضاء» (١٨٥٠م)

عندما أبحرت «أرابيلا» من إنجلترا فى سنة ١٦٣٠م، كانت السفينة الصغيرة تحمل على متنها مجموعة من الأسر الپيوريتانية(*) المتزمتة، كانوا فى طريقهم لاستعمار برارى أمريكا الشمالية البكر. وتجمع الركاب على سطح السفينة للاستماع لخطبة ألقاها أحد القسس الپيوريتانيين المتزمتين المتقدين هو چون كوتن (١٥٨٥-١٦٥٢م) الذى وصف وجهتهم بـ «الأرض الموعودة الجديدة»، مكان «حفظه الرب لهذه النخبة المختارة ليكون الموقع الفعلى لسماء جديدة وأرض جديدة»[١]. وهكذا تم غرس سفر الرؤيا فى تربة مستعمرة خليج ماستشوستس الخصيبة، فأزهر بصور جديدة وغريبة ودائمة.

أعلن قس پيوريتانى آخر هو إنكريز ماذر (١٦٣٩ - ١٧٢٣م) بعيد وصوله إلى أمريكا قائلاً: «طرد المسيح بعناية إلهية عجيبة الشيطان الذى ظل يسيطر بلا شك على أواخر الأرض هذه ولحقب لا يعلم عددها إلا الرب؛ وهنا شاء الرب لأورشليم [القدس] الجديدة أن تهبط من السماء»[٢].

ربما دوَّن مؤلف سفر الرؤيا رؤاه على جزيرة أمام ساحل آسيا، إلا أن سفره الصغير العجيب ما لبث حتى بدأ يتحرك غربًا باستمرار. فالجناح الشرقى للمسيحية كاد يستبعده من الشريعة التوراتية، إلا أن سفر الرؤيا فاز بمكان على أقدم القوائم التوراتية

(*) الپيوريتانز أو الأطهار، پروتستانت انشقوا عن كنيسة إنجلترا؛ لأنهم رأوها غير صالحة، وبها شوائب كاثوليكية، وهاجروا للأرض الجديدة ليعبدوا الرب بالطريقة التى يرونها صحيحة، فاعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وأمريكا هى أرض الميعاد. وأحفادهم اليوم هم الإيڤانجليكيون.

للعالم المسيحى الغربى. وبلغ ما يعرف بالغزو الرؤيوى أكمل تعبير عنه فى الفنون والآداب والعمارة فى كل من فرنسا وألمانيا. ومارس السفر سحره الغريب وبقوة أكبر على قلوب الأنجلوساكسون وعقولهم على حافة أوروپا الغربية. وراودتهم فكرة مثيرة مفادها أن يسوع المسيح مشى بنفسه ذات مرة «على خضرة جبال إنجلترا» على حد تعبير الفنان والشاعر صاحب الرؤى ويليام بليك (١٧٥٧ــ ١٨٢٧م) فى قصيدة له بعنوان «أورشليم [القدس]» ، وسيقيم ذات يوم «أورشليم [القدس] الجديدة» «وسط هذه الطواحين الشيطانية القاتمة»(٣). وكان بليك نفسه من قراء سفر الرؤيا المتحمسين وممن أولوه تأويلاً جديدًا ، وصارت قصيدته فيما بعد نشيدًا قوميًّا بريطانيًّا :

لن أتوقف عن القتال العقلى

ولن يغفو سيفى فى يدى ،

إلا بعد أن نبنى أورشليم

على أرض إنجلترا الخضراء البهيجة(٤).

ومع ذلك فإن أشد المصلحين الپروتستانت راديكالية والمعروفين بالپيوريتانيين رفضوا التغنى بأناشيد لإنجلترا أو كنيستها أو مليكها. فمكائد كهنة كنيسة إنجلترا وتكلف مراسمها وطقوسها لم تكن فى نظرهم أقل فسادًا من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فكانوا يعتبرون ملوك إنجلترا ممن كانت من ألقابهم الملكية «حامى حمى الدين» أحدث المرشحين لدور عدو المسيح وأرجحهم. وكانت ثقافة إنجلترا الغنية والمنحطة أحيانًا فى القرن السابع عشر ـ بمسرحياتها وغزلياتها الفاضحة ، وتمثيلياتها وعروضها الموسيقية المتهتكة ، ونوبات احتفالها وسكرها الجريئة ، وأزيائها ونظمها المترفة وغير ذلك كثير ــ لا تقل قبحًا فى نظرهم عن الوثنية الرومانية فى نظر مؤلف سفر الرؤيا ، أو عن الخيرية الإنسانية فى عصر النهضة فى عينى ساڤونارولا ؛ لذا فإن البرارى على الجانب الأقصى من الأطلنطى وإن سكنتها قبائل محلية اعتبروها من عملاء الشيطان ، أذهلت الپيوريتانيين باعتبارها موقعًا أنسب «لأورشليم [القدس] الجديدة» من تلك الطواحين الشيطانية بإنجلترا القديمة(٥).

وهكذا بدأت الخطوة التالية لتحرك سفر الرؤيا غربًا، وهى ظاهرة غريبة يسميها المؤرخ ستيفن ستاين «أمركة التراث الرؤيوى»[٦]. وما إن حل الـپيوريتانيون بالعالم الجديد - «تاركين فساد أوروپا خلفهم، وإلى الساحل الأمريكى أمامهم» من منظورهم - وحطوا رحالهم حتى شرعوا فى جلى النصوص الرؤيوية القديمة. فنجد چون وينثروپ (١٥٨٨ ـ ١٦٤٩م) وهو أحد ركاب السفينة أرابيلا وأول حكام مستعمرة خليج ماستشوستس يستحضر «أورشليم [القدس] الجديدة» حيث شبه المستوطنة الپيوريتانية بـ«مدينة فوق تل». وكانت قصيدة مايكل ويجلزورث «يوم الحساب» (١٦٣١ ـ ١٧٠٥م) «أول عمل حقق أفضل المبيعات فى حولية تجارة الكتب الأمريكية»[٧].

إلا أن الپيوريتانيين ومن جاءوا بعدهم لم يتوانوا عن التلاعب بسيناريو سفر الرؤيا والخروج بخطوط قصصية من ابتكارهم. بل إنهم سعوا لإبراز الجانب الإيجابى من السفر وأضفوا على الفكرة الرؤيوية صبغة أمريكية فريدة استمرت حتى عصرنا القلق هذا. فنهاية العالم ودمار النوع البشرى يمكن اعتباره أمرًا طيبًا لو نُظر إليه بالطريقة السليمة.

كان العالم الذى خلفه المستعمرون الپيوريتانيون لا يزال يظله الفزع القديم الذى أضفيت عليه أسماء ووجوه وشخصيات واضحة فى سفر الرؤيا. فأحداث الحرب الأهلية فى إنجلترا - حيث قام الزعيم الپيوريتانى أوليڤر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨م) والجيش البرلمانى بطرد الملك تشارلز الأول من العرش ثم إعدامه ـ وضعت الأوهام الرؤيوية فى بؤرة التركيز بشكل أكثر حدة. ووسط الفوضى والأزمة ـ الحرب والثورة والتعذيب والقتل وحرق الساحرات وحرق الكتب - تأرجح قراء سفر الرؤيا بين اليقين القديم بأن نهاية العالم وشيكة والاقتناع الجديد بأن هناك عالـمًا أفضل فى الأفق.

كان أتباع كرومويل، مثلا، يرون فى النزاع بين الجيشين البرلمانى والملكى صراعًا بين المسيح وعدو المسيح، واعتبروا هزيمة الملك تشارلز الأول من علامات قرب ظهور مملكة يسوع المسيح الألفية. يقول الشاعر (وكاتب الرسائل السياسية) چون ميلتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤م): «الملك الخالد والمتوقع ظهوره قريبًا سيشق السحب ليحاسب ممالك العالم العديدة»[٨]. واستغل أعداء كرومويل أيضًا سفر الرؤيا. فهناك أحد كتاب

الرسائل السياسية المشايعين للجيش الملكى أطلق على كروموبل «الملك أوليفر حامى الرب» وأكد أن اللقب رمز عددى محصلته الرقم ٦٦٦ الشيطانى بحذف حرف L من كلمة Lord (الرب). وفى سنة ١٦٤٣م قال أحد الوعاظ الإنجليز: «هذه أيام اضطراب، وهذا الاضطراب كونى»[٩].

وفى لحظة خطيرة فى سنة ١٦٥٣م كاد البرلمان يسقط فى قبضة ما عرف بـ «رجال الملكية الخامسة» وهم طائفة متطرفة من الجنود ورجال الدين والفقراء ممن يشير اسمهم إلى المملكة الإلهية المتوقع أن تعقب الممالك الأرضية الأربع التى ورد ذكرها فى سفر دانيال. وكان هؤلاء «القديسون» الأدعياء يتطلعون لثورة رؤيوية من النوع الذى تنبأت به هيلديجارد بينجن: الكنيسة والحكومة على السواء ومعهما الأغنياء والأقوياء ستستبدل بهم حكومة دينية توراتية على رأسها الملك يسوع نفسه. وكان كروموبل يرى ضرورة قمع «رجال الملكية الخامسة» بقوة السلاح فى سنة ١٦٥٦م. فصاحوا حين شقت فرقة من الجنود أحد حشودهم العامة واصطحبوهم إلى السجن وقالوا: «أيها الرب، إما تظهر الآن أو لا تظهر أبدًا»[١٠]. ولا حاجة للقول بأن الرب لم يظهر هذه المرة أيضًا.

كان البيوريتانيون المتشددون والمولعون بالانتقاد وخصومهم الدنيويون اشتبكوا فى حرب حضارية أيضًا. وهناك خطيب بيوريتانى يتبنى إحدى سمات مارتن لوثر الكلامية كان يسب رجال الدين الأنجليكانيين(*) بأنهم «فضلات عدو المسيح»[١١]. هذا فى حين أن بن چونسن (١٥٧٢ ـ ١٦٣٧م) سخر من توقعات البيوريتانيين الرؤيوية الرهيبة عندما رسم شخصية فى Bartholomew Fair تدعى Busy ـ Land ـ the ـ of ـ Zeal وهو عبارة عن عراف يرى آلة موسيقية غريبة معروضة فى سوق ريفى ويسارع باستنتاج أنه رأى «وحش الرؤيا». فطبلة الآلة حسب قول چونسن هى «بطن عدو المسيح، وهذا الانتفاخ رئتاه، وهذه الأنابيب حلقه، وهذا الريش ذيله والصليل صرير أسنانه»[١٢].

(*) التابعين لكنيسة إنجلترا «Anglican church».

واخترقت التهاويم الرؤيوية التى اعتبرها چونسن مضحكة حتى أرفع دوائر الثورة العلمية الناشئة. فقام الرياضى الإسكتلندى چون ناپير (١٥٥٠ ـ ١٦١٧م) مبتكر اللورغاريتم(*) بتطبيق عبقريته الحسابية على رسالة عن سفر الرؤيا ذهب فيها إلى أن الحقبة السابعة والأخيرة من تاريخ البشرية بدأت بالفعل فى سنة ١٥٤١م وستنتهى فى سنة ١٧٨٦م. ووجد إسحاق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م) الذى حقق عظمة فائقة فى الرياضيات والطبيعة وقتًا للخوض فى لعبة التكهن بالأرقام الرؤيوية. يقول الفيلسوف الفرنسى ڤولتير (١٦٦٤ ـ ١٧٧٧م): «كتب السير إسحاق نيوتن تعليقه على سفر الرؤيا ليعزى الجنس البشرى على تفوقه الكبير عليهم فى نواحٍ أخرى»[١٣].

وربما بلغت الفكرة الرؤيوية أوجها فى العالم القديم فى الوقت الذى كان الپيوريتانيون يشقون طريقهم نحو العالم الجديد. فكما توحى نكتة ڤولتير على حساب إسحاق نيوتن، كان سفر الرؤيا قد بدأ هبوطه إلى العالم السفلى للغرائب الدينية. فحريق لندن الكبير فى سنة ١٦٦٦م مثلاً جاء بموجة جديدة من التنجيم بسبب ظهور الرقم الشيطانى فى التقويم. يقول چورچ فوكس أحد زعماء طائفة «كويكرز»: «كل عاصفة رعدية كانت تفرز توقعًا بالنهاية»[١٤]. ومع ذلك، ففى سنة ١٦٩٦م كانت أية ظاهرة طبيعية سماوية، كمذنب هالى، يمكن أن تسبب «الطوفان العظيم» كما ورد فى سفر التكوين وتوحى أن «دمار الأرض بالنار كما هو متنبأ به سيحدث بشىء مماثل»[١٥].

«لم تكن دراما ويستون عن آخر الأزمان تتضمن «مجيئًا ثانيًا» ولا حسابًا أخيرًا» كما يشير پيرى ميلر مؤرخ الپيوريتانيين المتميز[١٦]. وربما كان هنا أقدم حراك لفكرة قدر لها أن تكتسب المزيد من المعانى المشئومة فى عهودنا: رؤيا عن نهاية العالم لا تسمح بأى دور للرب. وحتى المسيحيون الأتقياء الذين واصلوا قراءة سفر الرؤيا بإيمان تام بدءوا يرون فى النص معانى جديدة تمامًا ومؤكدة. وكان مقدرًا لهذه الأفكار أيضًا أن تنتقل غربًا إلى أمريكا، حيث تم تطبيق الإبداع الأمريكى على النص المقدس وأدى إلى نتائج ثورية.

(*) فى الحقيقة مبتكر اللوغاريتم هو الخوارزمى البغدادى (٧٨٠ ـ ٨٥٠م).

ومن النماذج الأولى لأمركة سفر الرؤيا ما نجده فى حياة وأعمال كوتن ماذر (١٦٦٣ــ ١٧٢٨م) المتميزة، وهو ابن إنكريز ماذر وحفيد چون كوتن وكاهن «الكنيسة الشمالية القديمة» فى بوسطن. وكان يؤمن إيمانًا عميقًا بفعالية كل من السحر كما تمارسه نساء مدينة «سالم»، والعلم الحديث فى التلقيح ضد الجدرى. ودوَّن رسالة مرعبة عن التلبس الشيطانى الذى لعب دورًا فى محاكمات الساحرات ـ «اذهب وقل للدنيا ماذا تحب هذه الوحوش أن تفعل» ـ ولكنه سعى أيضًا لتلقيح ابنه الصغير ضد الجدرى، وهو تصرف أثار جدلاً فى بوسطن لدرجة دفعت مواطنًا غاضبًا لإلقاء قنبلة أو «رمانة نارية» حسب وصف ماذر نفسه ـ من نافذة غرفة معيشته[١٧]. يقول ماذر فى مفكرته عن سبب عدم انفجار القنبلة: «ولكن كان يقف بجانبى فى تلك الليلة ملاك الرب الذى أنا ملكه، والذى أقوم على خدمته»[١٨].

والتناقضات الواضحة التى كانت تتعايش جنبًا إلى جنب فى قلب كوتن ماذر وعقله يمكن تفسيرها باقتناعه بأنه كان يرى موت الأرض القديمة ومولد الأرض الجديدة فى آن. يقول المؤرخ داميان تومسن فى كتابه «نهاية الزمن ــ The End of Time»: «الحقيقة أن مزيج ماذر من التفاؤل وجنون العظمة يعد من سمات الرؤيا الألفية. فالخوف من الساحرات يقوم فى المقام الأول دليلاً على رهاب نهاية الزمن، إذ كان يعتقد أن آخر الأيام ستشهد تحللاً رهيبًا لقوى الظلام». وفى الوقت نفسه، رأى ماذر فى رخاء المستعمرات الأمريكية ـ «زيادة كبيرة فى نعم الأرض والبحر»ــ دليلاً على أن «الرب كان يدخر شيئًا عظيمًا عندما أنشأ هذه السماء والأرض الأمريكية»[١٩].

بل إن كوتن ماذر كان يرى نفسه «بشير مملكة الرب الدانية»[٢٠] وكان يشارك أباه وجده الشهيرين اقتناعهما بأن أمريكا المكان الذى ستتحقق فيه نبوءات سفر الرؤيا. والحقيقة أن انتباهه كان مركزًا على سفر الرؤيا لدرجة أن أقنع نفسه بأن «ملائكة الشر» تتكلم من خلال فتاة تراءى له أنها ضحية تلبس جنى، وزجرته ذات مرة لإهماله بعض فقرات سفر الرؤيا فى خطبه. فكان الجان يريدونه أن يعظ بالفقرة الثامنة من الإصحاح الثالث عشر («سَيَسْجُدُ لَهُ ــ أى الوحش ــ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى

الأَرْضِ » ولكنه تحداهم باختياره الفقرة الخامسة عشرة من الإصحاح العشرين بدلاً منها : « وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوبًا فِى سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِى بُحَيْرَةِ النَّارِ »[٢١].

وعن موضوع يوم القيامة ، كان ماذر يستلهم الدين والعلم فى آن معًا. فكان يسلم بأن «أورشليم [القدس] الجديدة » لن تظهر فى أمريكا الشمالية إلا بعد فناء العالم بحريق هائل كما تنبأ يوحنا فى سفر الرؤيا ، لكنه كان واعيًا أيضًا بأحدث اكتشافات علوم الأرض فى وصفه آخر الأزمان. فذهب إلى أن البراكين ستكون أداة المشيئة الإلهية. فيقول : « حرائق تحت الأرض وتراكم الجزيئات البركانية التى هى حريق أبدى »[٢٢]. والأهم أنه كان ينظر إلى ما وراء أيام الفزع و« الضيقة » إلى اللحظة المشرقة التى تهبط فيها «أورشليم [القدس] الجديدة » من السماء. فيعلن ماذر فى سنة ١٧٠٩م عبارة أصبحت (وظلت) عقيدة أمريكية : « ربنا المجيد سينشئ مدينة مقدسة فى أمريكا ، مدينة شوارعها من ذهب خالص »[٢٣].

وبعد أن نطق ماذر بهذه الكلمات بقرن أو نحو ذلك ، بدأ الناس رجالاً ونساء وأطفالاً يتوافدون بالملايين على أمريكا ـ « حشود اجتمعت تتطلع للتنفس بحرية » حسب ما ورد بقصيدة إما لازاروس التى نقشت على تمثال الحرية ـ وجاءوا هم أيضًا بحثًا عن شوارع رصفت بالذهب[٢٤]. وحتى لو كانوا لا يعرفون شيئًا عن سفر الرؤيا فإنهم كانوا يتبعون خطى الآباء الپيوريتانيين الذين أخفقوا فى التنبؤ بما ستسفر عنه تهاويمهم الرؤيوية.

لم يكن المستعمرون الپيوريتانيون ديمقراطيين بطبيعة الحال. بل كانوا يتطلعون لنوع من الحكم كامن فى النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية ولا سيما سفر الرؤيا « حكومة دينية أقرب ما تكون إلى تلك التى شكلت مجد إسرائيل » حسب قول چون ماذر[٢٥]. لذا فإن أقدم المستعمرين الپيوريتانيين فى أمريكا ممن تطلعوا لإنشاء مدينة فاضلة دينية شعروا بالرضا التام عن إنكار المواطنة على من لم يكن عضوًا بالجماعة الپيوريتانية ، فأبعدوا المنشقين الدينيين ، بل أرسلوا بعض « الكويكرز » إلى المقاصل.

ومن حسن طالع الديمقراطية الأمريكية أن الپيوريتانيين ما لبثوا أن تواروا أمام الوافدين الجدد إلى أمريكا الشمالية ممن لم يشعروا بالاضطرار لفرض معتقداتهم الدينية

وممارساتهم على إخوانهم المواطنين. فكان الآباء المؤسسون يستلهمون الديمقراطيات الأم لليونان وروما الوثنيتين أكثر من استلهامهم الحكم الملكى الإلهى المحتفى به فى سفر الرؤيا. بل إنهم كانوا على استعداد تام للتلاعب بالنص المقدس نفسه. فكان توماس چيفرسن، مثلاً، يستهزئ بسفر الرؤيا وأخذ على عاتقه إعادة كتابة الأناجيل لتلائم روح العصر الثورية والديمقراطية بحيث لا يبقى إلا على ما اعتبر «كلمات يسوع وحده» ويحذف «الحلل الزائفة التى كساها بها الكهنة ممن حاكوها بصور شتى لتكون أدوات يحققون بها الثراء والسلطة لأنفسهم»(٢٦).

ومع ذلك فإن الجوهر اللاهوتى الواضح لسفر الرؤيا ـ الوعد الأكيد بقرب حلول عالم جديد أفضل ـ كان جاذبًا حتى لأكثر الوطنيين الأمريكيين علمانية. وهكذا فإن مفردات السب الرؤيوية أحسن كتَّاب الرسائل استغلالها فى كفاحهم فى سبيل استقلال أمريكا. فاتهم الملك چورچ الثالث بأنه عدو المسيح، ومشروع قانون الدمغة لسنة ١٧٦٥م الذى فرض على المستعمرين الأمريكيين لصق دمغة ضريبة تحمل اسم الملك وصورته على أوراقهم ومطبوعاتهم تم ربطه بنبوءة فى سفر الرؤيا بأن الشيطان سيغوى الجنس البشرى كله بإبراز وسم الوحش.

ومما لا شك فيه أن العديد من الوطنيين الأمريكيين كانوا مسيحيين متدينين أيضًا، ولكن عندما تحدث الواعظ الاستعمارى صمويل وست عن «ذلك التنديد الشديد بالغضب الإلهى على عبدة الوحش وصورته» كان يشير إلى الأسد البريطانى لا إلى تنين الرؤيا ذى الرءوس السبعة(٢٧). وكانت الطبعة الأمريكية من «الأرض الجديدة» فى سنة ١٧٧٦م مكانًا يحظى فيه كل إنسان ـ أو بالأحرى كل ذكر أبيض بالغ ـ بـ«الحقوق الثابتة» فى الحياة والحرية والسعى لتحقيق السعادة بدون إملاءات من ملوك أو كهنة. وكان «Novus Ordo Secularum» هو الشعار اللاتينى الذى اتخذ فى سنة ١٧٨٢م ووضع على ختم الولايات المتحدة الكبير: «نظام جديد للحقب». وحتى الثوريون الذين يتقدون حماسًا من أمثال توماس پاين الذى جرد لغته من كافة الشراك الدينية، كان يعبر عن نفسه من منظور المثال الألفى الذى يمكن الرجوع به إلى التراث الرؤيوى فى القدم. ومصير الديمقراطية الأمريكية كما عرفها پاين تدين بشىء للكلمات المكتوبة

فى سفر يوحنا الصغير فى العهود التوراتية القديمة. فأعلن قائلاً: «فى وسعنا أن نبدأ العالم من جديد»[٢٨].

لم يتم التخلى فى أمريكا المستعمَرة عن الأفكار القديمة عن مملكة المسيح الرؤيوية على الأرض بالطبع. فكانت شرارات العقيدة الدينية تنمو من حين لآخر وتتحول إلى لهب بإذكاء الوعاظ مخاوف جمهورهم وآمالهم بالوعظ الزاعق الذى يعد العلامة التجارية المميزة للتبشير الإنجيلى الأمريكى. فكانت روح الإحياء المسيحية دائمًا ما تجذب الحشود إلى قاعات الكنائس واجتماعات الخيام، وتستحث فيهم حالة من الهياج الروحى، حتى أن بعض امتدادات ولاية نيويورك أصبحت تعرف بـ«الأحياء الملتهبة»؛ لأن العوام فيها كانوا شديدى الحساسية لكل موجة جديدة من التعصب الدينى.

كانت حركة الإحياء فى أمريكا «إرهاصًا بشىء هائل» حسب تعبير چوناثن إدواردز (١٧٠٣ ــ ١٧٥٨م) الكاهن الپيوريتانى الذى أضرمت مواعظه ما عرف «بالصحوة الكبرى الأولى» بأواسط القرن الثامن عشر. وليس من قبيل المصادفة أن إدواردز كان واضع شرح مفصل على سفر الرؤيا عنوانه «ملاحظات على سفر الرؤيا ـ Notes on the Apocalypse»[٢٩]. يفتتح إدواردز شرحه بنبوءة سفر الرؤيا بأن عدو المسيح سيحكم لمدة ألف ومائتين وستين «يومًا» والتى أولها بمعنى «سنة» وحدد أن حكم كبير الشياطين بدأ فى سنة ٦٠٦م وحسب أنه سينتهى فى حوالى سنة ١٨٦٦م. واعتبر اضطرابات «الصحوة الكبرى» «علامات للألفية التى بدأت مؤخرًا فى نورثهامپتن»، أى تلك البلدة الواقعة بولاية ماستشوستس، والتى كانت تضم منبره الذى يعظ من فوقه[٣٠].

إلا أن بعض رجال الدين الأكثر وعيًا كانوا يتشككون فى حالات الاعتناق الجماعى وانزعجوا من الناس الذين مروا برؤى قوية كهذه فى أثناء اجتماعات «الصحوة الكبرى» قد «سقطوا ضحية نوبات خطيرة من الهياج والتضليل»[٣١]. وعندما اندلعت موجة أخرى من الإحياء فى تسعينيات القرن الثامن عشر عرفت «بالصحوة الثانية» بدأت المثالية الدينية لدى بعض المسيحيين فى أمريكا تعبر عن نفسها بطريقة مختلفة تمامًا. فظهر جيل جديد من المسيحيين يطالبون بإلغاء الرق وتحرير المرأة

كسبيل للتعجيل بحلول المملكة الألفية. وهنا أيضًا كانت بدايات ظهور نسخة أمريكية متميزة من الفكر الرؤيوى: «مزيج عالى الأوكتين [الاشتعال] من الهياج الألفى والتعصب الوطنى» حسب تعبير المؤرخ الحضارى الأمريكى پول بوير عبرت عن نفسها فى محاولة لرفع جودة الديمقراطية الأمريكية»[٣٢].

كانت كآبة سفر الرؤيا وشؤمه أقل جاذبية لدى بناة الأمة الأمريكية المفعمين بالحيوية وسعة الأفق من وعد متى، مثلاً، بأن تكون مملكة السماء مفتوحة لكل من كسى العريان وأطعم الجائع وآوى المشرد. من ثم ترجم التدين المسيحى إلى ما أصبح فيما بعد يعرف بـ«الإنجيل الاجتماعى»، أى الدعوة «لبناء مجتمع على التراب الأمريكى يستحق الرؤية السامية لأورشليم [القدس] الجديدة كما وردت بسفر الرؤيا» يشمل حملة صليبية مبدئية لإلغاء الرق والخمر، وإصلاح السجون، وفتح ملاجئ للمشردين والجوعى، ومصحات للعجزة «أَحَدِ إِخْوَتِى هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ» حسب قول يسوع المسيح[٣٣].

يقول أحد علماء اللاهوت إن «هم المسيحية الأول الحياة الدنيا، ومهمة المسيحية أن تقيم فى الدنيا مملكة عدل، وإنقاذ الإنسان من الشيطان وتحرير علاقاتنا الاجتماعية»[٣٤].

حتى من ظلوا يؤمنون بأن النهاية وشيكة بدءوا فى إعادة توظيف سفر الرؤيا بطرق تتناغم مع القيم الأمريكية القوية من إبداع وراحة مادية وارتقاء المرء بذاته. فصمويل هوپكنز، راعى الكنيسة الطائفية برود آيلند المؤيد لإلغاء الرق فى أواخر القرن الثامن عشر، كان يتصور المملكة الألفية مكانًا «كل الأدوات فيه والثياب والأبنية وما إليها مصنوع بطريقة أفضل وبعمالة أقل كثيرًا» بفضل التحسينات التى طرأت على «كافة أفرع الفنون والعلوم المفيدة التى ترقى بوسائل الراحة الروحية والبدنية فى الدنيا». فلا يحتاج المرء ـ كما تنبأ ـ إلا للعمل لساعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم لكسب عيشه، ويمضى ساعات الفراغ فى «المطالعة والتخاطب»، كل ذلك سيتم بلغة عالمية سيتكلمها الجنس البشرى كله. ووعد هوپكنز بأن تتحقق كل هذه النبوءات فيما لا يزيد عن قرنين[٣٥].

وفى خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الخط الفاصل بين الإيمان بالرب والإيمان بالتقدم باهتًا بدرجة أكبر. فهناك مجلة منهجية نسائية، مثلاً، أثنت على اختراع التلغراف باعتباره «أداة لنشر الحضارة والمبدأ الجمهورى والمسيحية على الأرض» فيما تطور ليصبح تعريفًا جديدًا حديثًا لمملكة المسيح على الأرض: «حينها تبدأ الألفية»(٣٦). واعتُبر توسع الولايات المتحدة غربًا ـ وهو مشروع شبِّه بحرب إبادة ضد شعب يسكن الأرض فعلا عند ظهور البيوريتانيين ـ مهمة أقرب إلى الأمر الإلهى.

يقول چون أوسوليڤن فى مقالته فى سنة ١٨٣٩م التى أدخلت مبدأ «المصير المُبين» ضمن المفردات السياسية الأمريكية: «نحن ندخل نطاقًا لم يُعرف من قبل بحقائق الرب فى عقولنا والخير فى قلوبنا وبضمير خالص لا تشوبه شوائب الماضى. وفى حيزها العظيم من المكان والزمان، مقدر للأمة المؤلفة من أمم عدة أن تبين للبشرية المبادئ الإلهية وأن تقيم على الأرض أنبل معبد كُرِّس لعبادة الإله الحق والأعلى»(٣٧).

هناك خط فاصل بين هذين النهجين من فهم الفكر الرؤيوى، اعتنق أحدهما أنصار الإحياء، والآخر آمن به الإصلاحيون. على أحد الجانبين المؤمنون الحقيقيون ممن يرفعون أعينهم نحو السماء يبحثون عن علامة على المجىء الثانى، وعلى الجانب الآخر المؤمنون العمليون ممن عكفوا على بناء المملكة الألفية بأيديهم هنا على الأرض. وتمكنت كثرة من الصادقين بالطبع من الجمع بين الجانبين فى آن. إلا أن مشهد الديمقراطية الأمريكية اهتز مرارًا بسبب الارتجاجات الناجمة عن اصطدام هاتين القوتين.

يفترض فى الفكر الرؤيوى ـ كما رأينا ـ أنه يرتبط بالقهر والاضطهاد. ويقال إن الضحايا يعزون أنفسهم برؤى عن الانتقام كتلك التى تطالعنا بشكل روتينى على صفحات سفر الرؤيا. لكن الحقيقة أن النص قادر على إثارة مشاعر الناس العاديين ممن لا يعانون إلا أخيلة مفرطة فى النشاط. وحتى فى العالم الجديد، مثلا، وحتى فى حقبة سلم ورخاء، كانت فكرة المجىء الثانى ليسوع المسيح ونهاية العالم فكرة مثيرة بالنسبة للأمريكيين الراضين القانعين، كذلك المزارع من شمالى نيويورك الذى يدعى ويليام ميلر (١٧٨٢ ـ ١٨٤٩م).

كان ميلر معمدانيًّا من «الأحياء الملتهبة» لم يتلق أى تعليم عن البحث العلمى التوراتى. إلا أنه فى أثناء خدمته كضابط فى حرب ١٨١٢م مر بتحول فى ساحة المعركة، وعندما عاد للحياة المدنية بمزرعة العائلة كرس نفسه لدراسة الكتاب المقدس. ووقعت عيناه على فقرة فى سفر دانيال حيث يقال للنبى فى إحدى رؤاه إن ألفين وثلاثمائة يوم ستمر ثم بعدها «يَتَبَرَّأُ الْقُدْسُ»[٣٨]. وكمؤلف سفر الرؤيا وما لا يحصى من المنشغلين التوراتيين بالإحصاء غيره، كان ميلر مقتنعًا بأنه تعثر فى سطر من النص المقدس يحوى إشارة مشفرة إلى نهاية العالم، وقضى السنتين التاليتين فى محاولة فك الشفرة.

أدرك ميلر أن الإشارة التوراتية للألفين والثلاثمائة يوم فى الحقيقة تعنى ألفين وثلاثمائة سنة ـ طبعًا! ـ وحدد نقطة بدء العد التنازلى بسنة ٤٥٧ قبل الميلاد باعتبارها السنة التى بدأ فيها يهود السبى فى إعادة بناء هيكل يهوه بأورشليم [القدس]. وقرر أن «حرم القدس» كلمة ترمز للعالم. وبالحساب قدر أن المجىء الثانى ليسوع المسيح وبداية نهاية العالم ستكون فى «لحظة ما فى حوالى سنة ١٨٤٣م»[٣٩]. وكتب ميلر يقول إن «إن النصوص المقدسة تبوح لنا فعلاً وبلغة لا لبس فيها أن يسوع المسيح سيعاود الظهور على هذه الأرض، وأنه سيأتى فى مجد الرب، فى سحب السماء، ومعه القديسون والملائكة جميعًا»[٤٠].

«لم يكن ميلر يهذى أو يتحدث بطريقة صاخبة» بل آثر أن يشرح بأناة موقفه من النصوص المقدسة «بأسلوب هادئ ورزين»[٤١]. فى البدء لم يكن يثق إلا بأصدقائه وجيرانه. إلا أن «الأب ميلر» كما أصبح ينادَى أخذ يجتذب انتباه القساوسة الإيڤانجليكيين وجماهير بلدتهم الصغيرة التى تعيش حول نيوإنجلند فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. ومن بين أتباعه كان بعض الرجال من ذوى الخيال الخصب ممن عرفوا كيف يوصلون رسالة لجموع الناس، وقرروا أن يعلَم بقية الأمريكيين ما ينتظرهم فى المستقبل القريب جدًّا.

وكإحيائيى «الصحوة الكبرى» عقد من عرفوا بأتباع ميلر اجتماعات خيام جذبت الباحثين الصادقين بالآلاف. وكالمبشرين الإيڤانجليكيين التليفزيونيين فى عصرنا الراهن

أحسنوا استغلال أحدث تقنيات المعلومات بأواسط القرن التاسع عشر، أى الطباعة السريعة، لإنتاج المطبوعات والرسائل والمنشورات المصورة بإتقان، من بينها دوريتان بعنوان «صرخة منتصف الليل ـ Midnight Cry» و«علامات العصور ـ Sings of the Times» ـ تشرحان نظريات ميلر المعقدة عن النبوءة التوراتية بلغة بسيطة وجذابة.

بعض معاونى ميلر من متلقى الأجور العالية شجعوه على عمل نبوءة أكثر تحديدًا من «لحظة ما فى حوالى سنة ١٨٤٣م». وبإعادة حساباته وفقًا لما سماه «الحساب اليهودى القديم» طلع ميلر بنبوءة محددة نسبيًّا: عودة يسوع المسيح ستكون بين ٢١ مارس ١٨٤٣م و٢١ مارس ١٨٤٤م. وعندما مرت الفترة المحددة الجديدة دون ظهور أية علامة على المجىء الثانى، ادعى أحد أتباعه الجسورين أنه عثر على خطأ حسابى وحدد اليوم الموعود بالثانى والعشرين من أكتوبر ١٨٤٤م. وفى النهاية وضع الأب ميلر وأتباعه أقلامهم وانتظروا اليوم الذى سيأتى بتحقيق نبوءات سفر الرؤيا القديمة عن المجىء الثانى ليسوع المسيح. وفى أول أكتوبر ١٨٤٤م أعلن ميلر قائلاً: «إن لم يأت فى غضون عشرين أو خمسة وعشرين يومًا سيصيبنى إحباط أكبر مما أصابنى فى الربيع الفائت»[٤٢].

ومع دنو اليوم الموعود، استعد أتباع ميلر لتحية يسوع المسيح وهو يهبط من السماء على أرض العالم الجديد. وهجروا همومهم التافهة على الأرض القديمة إيثارًا للأرض الجديدة التى كانت قاب قوسين أو أدنى. يقول المؤرخ الأمريكى وعالم اللاهوت تيموثى ويبر: «ترك البعض أشغالهم وأغلقوا حوانيتهم واعترفوا بجرائم قُيدت ضد مجهول، وباعوا أراضيهم وكل ما يملكون وتركوا محاصيلهم تنمو دون حصاد حتى يتسنى لهم أن ينشروا بشرى مجىء المسيح ولقائه بضمائر خالصة وبلا ديون»[٤٣]. وتبرع المؤمنون الصادقون بثياب «الصعود» البيضاء طبقًا لبعض الروايات المعاصرة، واحتشدوا على الأسطح فى كل مكان فى «الحى الملتهب» بغرب نيويورك وفى غيره فى سائر أنحاء أمريكا لتحية «حمَل الرب» وهو يهبط من السماء على متن سحابة.

وتحول اليوم العظيم إلى «الإحباط العظيم» كما سماه المؤرخون. يقول مزارع يدعى هيرام إدسن وهو من أتباع ميلر المحبطين: «ضاعت أغلى آمالنا وتوقعاتنا،

وحلت علينا حالة من البكاء لم أعهدها من قبل. وأخذنا نبكى ونبكى حتى طلع الفجر»[٤٤]. ولم يعمل أصدقاؤهم وجيرانهم المتشككون شيئًا لمواساتهم فى حزنهم. بل قال أحدهم متهكمًا: «ماذا! ألم تصعدوا بعد! ظننا أنكم صعدتم! ألستم صاعدين بعد قليل؟ زوجتك لم تتركك وراءها تحترق، أليس كذلك؟»[٤٥].

اهتاج بعض أتباع ميلر لدرجة أن طارت عقولهم أو انتحروا أو هكذا قيل. وندم غيرهم على قراراتهم المتسرعة فى الأيام الأخيرة، ورفعوا دعاوى قضائية يطالبون باسترداد أملاكهم التى ضيعوا دون روية. بينما اكتفى بعض منهم بلوم أنفسهم، ولكنهم واصلوا إيمانهم بأن مشيئة الرب الخفية لنهاية العالم مخبأة بكل تأكيد بين سطور النصوص المقدسة، وأن كل ما هنالك هو أنهم أخفقوا فى العثور عليها.

وأصر الأب ميلر قائلاً: «ما زلت أعتقد أن يوم الرب قريب، بل على الأبواب» وواصل التأكيد على فكرة فحواها أن الفشل المشهود لنبوءته من سبل الرب لإعادة المسيحيين ممن فتر إيمانهم إلى كتبهم المقدسة ليبحثوا عن الحقيقة الإلهية. فالأب ميلر كصاحب رؤى أمريكى أصيل ظل متفائلاً حتى فى تفكيره فى نهاية العالم[٤٦].

ومن بين أتباع ميلر المحبطين كانت فتاة تدعى إيلين وايت (كان اسمها الأصلى هارمون، ١٨٢٧ ـ ١٩١٥م). فى سنة «الإحباط العظيم» وفى سن السابعة عشرة مرت وايت بالرؤيا الأولى من سلسلة رؤاها الإلهية التى بلغ مجموعها فى النهاية ألفين. كانت على يقين من أن ميلر أصاب فى تحديد السنة، ولكنه أخطأ فيما سيحدث فيها. فيسوع المسيح فى رأيها اختار ١٨٤٤م لتكون السنة التى تتحقق فيها نبوءة بسفر الرؤيا أوَّلتها بأنها حدث يمهد للمجىء الثانى والقيامة: «وَانْفَتَحَ هَيْكَلُ اللهِ فِى السَّمَاءِ وَظَهَرَ تَابُوتُ عَهْدِهِ فِى هَيْكَلِهِ وَحَدَثَتْ بُرُوقٌ وَأَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَزَلْزَلَةٌ وَبَرَدٌ عَظِيمٌ»[٤٧].

وبينما واصلت إيلين وايت قراءة سفر الرؤيا وتأويله بإشاراتها الهوسية بالرقم سبعة توصلت إلى أن الرب يريد من المسيحيين أن يراعوا السبت اليهودى ويعتبروه أقدس أيام الأسبوع. وأخذت تؤكد على أن كل من يتمنى أن يعد من زمرة القديسين فى يوم القيامة عليه أن يستعد للخلاص بالإقلاع عن البن والشاى والخمر والتبغ

والاستمناء، وأن يتبع الطهر الجنسى والنباتية (إيلين نفسها «كافحت ببسالة حتى تقلع عن إدمانها على الدجاج المقلى على طريقة الجنوب»)[٤٨]. وفى سنة ١٨٦٣م، أنشأت إيلين وايت وزوجها وهو واعظ يدعى جيمز وايت كنيسة خاصة بهما هى «أدفنتيست اليوم السابع». وكان «نصهما المختار» سفر الرؤيا[٤٩].

كانت «أدفنتيست [المؤمنون بأن المجىء الثانى ليسوع المسيح قريب، المترجم] اليوم السابع» أكبر الكنائس الرؤيوية وأنجحها التى انتشرت وازدهرت غداة «الإحباط العظيم». وهناك أيضًا «الجمعية المتحدة للمؤمنين بالظهور الثانى للمسيح» والتى تعرف باسم «شيكرز»، و«جمعية نقطة برج مراقبة صهيون» التى تغير اسمها فيما بعد ليصبح «شهود يهوه» وغيرهما أصغوا لحالة الطوارئ المعلنة فى الكلمات الختامية بسفر الرؤيا: «نَعَمْ! أَنَا آتِى سَرِيعًا»[٥٠]. ومع ذلك وعلى الرغم من وعيهم بما آل إليه أتباع ميلر من مصير، كانوا دائمًا مضطرين لمواجهة حقيقة واحدة هى أن العالم لا يزال عصيًّا على «أن ينتهى فى موعده».

وهكذا لجأ الأتباع الأوائل لـچوزيف سميث مؤسس كنيسة «يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر» (وربما ليس من قبيل المصادفة أنه نشأ فى «الحى الملتهب») إلى بناء مملكة للقديسين بأيديهم على حدود أمريكا. بل إن طائفة المورمون كانوا روادًا لا يخافون ولا يكلون، جروا عربات اليد الخاصة بهم وارتحلوا عبر أطراف البرارى الصحراوية وصولاً إلى «صهيون الجديدة» بولاية يوتاه. إلا أنهم كانوا مقتنعين أيضًا بأن العلل والرزايا التى ألمت بالعالم من حولهم كانت علامات مؤكدة على «اقتراب يوم عظيم ينتهى فيه مشهد الشر هذا» حسب قول صحيفة «نجمة المساء والصباح ـ The Evening and Morning Star» المورمونية[٥١].

يقول المؤرخ ريتشارد رايتمن فوكس فى كتابه «يسوع فى أمريكا ـ Jesus in America»: «عندما تعلموا أن يتحملوا هذا التوتر، عِلمهم بأن النهاية قريبة ولكن لا يعلمون مدى قربها، اقتربوا كثيرًا من حساسية المسيحيين الأوائل»[٥٢].

وهناك أمثلة أخرى أشد تطرفًا على الدافع الرؤيوى يمكن التعرف عليها فى

السنوات الصاخبة التى تنامت وصولاً إلى الحرب الأهلية. فهناك عبد أمريكى من أصل إفريقى يدعى نات تيرنر (١٨٠٠ ـ ١٨٣١م) وهو واعظ معمدانى غير إكليريكى ذو ميول رؤيوية قوية، ادعى أنه مكلف بإنزال نقمة الرب على أصحاب العبيد بالجنوب الأمريكى. وعندما حدث كسوف شمسى فى سنة ١٨٣١م اعتبره علامة من علٍ، وقاد فرقة من خمسين عبدًا مسلحًا فيما تحول إلى تمرد العبيد الأشد دموية فى التاريخ الأمريكى. وكغيره من الثوار الرؤيويين فى أزمان وأماكن أخرى تم اصطياده ولم يُكتف بإعدامه، بل تم محوه، إذ سُلخ جثمانه وغُليت أشلاؤه حتى تحولت إلى دهن.

ومع ذلك يظل من المهم أن «الصحوة الكبرى» تلاها «إحباط كبير». ويبدو واضحًا أن الأمريكيين يؤثرون تحقيق الحياة والحرية والسعادة فى الحياة الدنيا على التفكير فى أهوال يوم القيامة. وحتى المسيحيون المتدينون كانوا يعتبرون اكتمال الديمقراطية الأمريكية عبر الإصلاح الاجتماعى والسياسى مشروعًا أولى بالجهد من ترقب علامات النهاية. يقول المؤرخ الكنسى الأمريكى چيمس مورهيد: «لا يزال عامة البروتستانت يؤمنون بأن العالم لا بد أن له نهاية، ولكن ما كانوا ليعترفوا بإمكانية استعجالها»(٥٣).

لم يكن سفر الرؤيا يُقرأ كسفر يتناول «تاريخ المستقبل» إلا على حواف التدين المسيحى الجرداء فى أمريكا. إلا أن الفكر الرؤيوى ـ ولغة سفر الرؤيا الملتهبة ـ كان قد تحول آنذاك إلى جزء من نسيج الثقافة الأمريكية. فالدوافع القديمة للفكر واللغة تأكدت من جديد حين تعرض وجود الولايات المتحدة نفسه للخطر فى الحريق الذى نسميه «الحرب الأهلية» التى لم تكن مجرد صدام مسلح، بل ثورة اجتماعية وكفاحًا حضاريًّا أيضًا.

ينظر الأمريكيون دومًا إلى المستقبل بتفاؤل مرح وثقة شديدة بالنفس. وحتى البيوريتانيين الحرونين والمولعين بالانتقاد ـ كما رأينا ـ من قبل كانوا قادرين على تصور «أورشليم [القدس] الجديدة» كحاضرة أمريكية مفعمة بالحياة. إلا أن نشوب الحرب الأهلية بما جرته من مذابح هائلة وما شكلته من تهديد لوجود الديمقراطية الأمريكية ذاته، ذكَّر حتى أكثر الأمريكيين ميلاً للمرح بالأحداث الرهيبة التى تنبأ بها سفر الرؤيا. وهكذا أصبح سفر الرؤيا مرة أخرى «ترسانة لغوية» للمتحاربين على كل من جانبى الصراع.

كانت جوليا وارد هاو مثلاً تستلهم مجموعة أيقونات سفر الرؤيا فى «أنشودة معركة الجمهورية»، حيث تمجد «الوميض المقدور لسيفه الماضى الرهيب»، وتستحضر «الكرمة التى تخزَّن فيها تخزين عناقيد الغضب» فى تلميح غير مباشر لفقرة سفر الرؤيا نصها: «فَأَلْقَى الْمَلاَكُ مِنْجَلَهُ إِلَى الأَرْضِ وَقَطَفَ كَرْمَ الأَرْضِ فَأَلْقَاهُ إِلَى مَعْصَرَةِ غَضَبِ اللهِ الْعَظِيمَةِ»(٥٤). وهناك سطر أقل شهرة بالأنشودة الشهيرة نفسها يحمل إشارة أكثر حرفية إلى فقرة بسفر الرؤيا تصور المعركة الفاصلة بين حمل الرب وإبليس المتخفى فى هيئة تنين أحمر: «دع البطل وليد المرأة يسحق الأفعى بكعبه»(٥٥).

بل إن سفر الرؤيا كان يمثل نموذجًا للخطباء والدعاة فى كل من الجبهتين المتحاربتين «الاتحاد» و«التحالف» اللذين سعيا لحشد القوات وشد أزر المدنيين فى مدنهم. فقال أحد الوعاظ فى خطبة تم نسخ نصها ليوزع على جنود الاتحاد فى مجموعة خطب ومواعظ بعنوان «المسيح فى الجيش ـ Christ in the Army»: «الرب يحشد الأمم لخوض الصراع العظيم الأخير بين الحرية والعبودية، بين الصواب والخطأ. نحن أيها الإخوة المواطنون على أبواب فترة تنبأ بها أنبياء القدم، وتاق إليها وسعى من يحبون وطنهم فى الأجيال السابقة، فترة انتظر الملوك والأنبياء أن يشهدوها، فترة الإطاحة بالاستبداد وسقوط عدو المسيح»(٥٦).

ولكن عندما انتهت الحرب الأهلية وجدت أمريكا نفسها فى عالم لم يتنبأ أنبياء القدم بأى شىء فيه. وبدأ الأمريكيون فى هجر مزارعهم وبلداتهم الصغيرة ونزحوا إلى المدن الكبرى بأعداد متزايدة. الورش القروية حلت محلها مصانع تجشؤ التبغ من النوع الذى يسميه بليك «طواحين الشيطان». والعربات التى تجرها الجياد أزاحها دخان القاطرات. وومضت الاتصالات عبر أرجاء القارة على خطوط التلغراف أولاً ثم على أسلاك الهاتف. كانت أمريكا أمة من المهاجرين منذ وضع أول قس من الحجيج قدميه على «صخرة پليموث» بالطبع، ولكن كانت كل من إليس آيلند وإينچل آيلند قد بدأت تعج بالوافدين الجدد من أماكن غريبة فى كافة أنحاء أوروپا وآسيا.

كانت كل هذه الظواهر دليلاً على نجاح التجربة الأمريكية، ولكن ليس كل مقيم

كان يرحب بالوافدين الجدد أو بأنماط الحياة الجديدة. فلاحت فى الأفق نذر حرب حضارية جديدة، حيث كان وجه أمريكا المتغير يراه بعض المراقبين مسيرة نحو التقدم ويراه غيرهم اضمحلالاً وانهيارًا للحضارة. وكان من سبل فهم ومقاومة العالم الجديد الجرىء الذى كان الأميريكيون يحيون فيه آنذاك هو الموقف الدينى الذى يعرف بـ«الأصولية البروتستانتية»، أى العودة إلى ما كان يُعتقد أنه قيم أقدم وأكثر أصالة فى الحضارة والسياسة والدين. وهكذا فإن أحدث أجيال أنصار الحرفية التوراتية ممن عرفوا بـ«أنصار ما قبل الألفية» نظرًا لأنهم كانوا يؤمنون بأنهم يعيشون آخر حقبة قبل المجىء الثانى ومملكة يسوع المسيح الألفية أصبحوا على اقتناع بأنهم يشهدون علامات آخر الزمان كما تنبأ بها سفر الرؤيا.

يقول تيموثى ويبر: «كان يبدو أن كل أنصار ما قبل الألفية يراهنون على تحلل الحياة الحديثة. فالحقبة المضطربة التى تلت الحرب الأهلية كانت تدل على أن كل شىء يسير حسب التوقيت المحدد»(٥٧).

يستعمل مصطلح «نظرية ما قبل الألفية» ونظيره القريب منه «ما قبل الألفية التدبيرية» لوصف الموقف الغيبى لفرع واحد من الأصولية المسيحية؛ الإيمان بأن يسوع المسيح سيعود إلى الأرض ويحكم المملكة الألفية كما ورد بسفر الرؤيا تمامًا. أى أن أنصار ما قبل الألفية كانوا يرفضون الاكتفاء بقراءة الرؤيا قراءة مجازية، وكانوا مقتنعين بأنهم سيشهدون بأعينهم الفانية مشهد يسوع المسيح وهو يهبط من السماء على متن سحابة ليستقر على عرش أرضى ويحكم مملكة من القديسين لألف سنة. إذن فالمجىء الثانى ليسوع المسيح يعد بالنسبة لأنصار ما قبل الألفية «مجيئًا فعليًّا وحرفيًّا وجسديًّا»(٥٨).

تقوم «نظرية ما قبل الألفية» من حيث المبدأ على الإيمان بأن يسوع المسيح سيعود إلى الأرض قبل نشأة المملكة الألفية؛ فى حين تقوم «نظرية ما بعد الألفية» على اقتناع بأن يسوع المسيح لن يعود إلا بعد قيام المملكة الألفية من خلال «انتصار الكنيسة المثلى وحكمها» و«التطور الإنسانى والتقدم الأخلاقى المتحقق بجهود المسيحيين المتدينين فى العصر الحاضر»(٥٩). وهكذا فإن «نظرية ما بعد الألفية» كقاعدة عامة تميل للتركيز على حسن الأعمال فى الحياة الدنيا، بينما تميل «نظرية ما قبل الألفية» للتركيز على السماء

أملا فى رؤية يسوع المسيح وهو يهبط على متن سحابة مجد. بعبارة أخرى كان أتباع الأب ميلر من أنصار «نظرية ما قبل الألفية» بينما كان أتباع «الإنجيل الاجتماعى» من أنصار «نظرية ما بعد الألفية». إلا أن كلا المعسكرين كان يعتنق الفكر الرؤيوى، ولم يختلف إلا حول توقيت نهاية العالم.

يعترف عالم اللاهوت المؤيد لنظرية «ما بعد الألفية» ويليام نيوتن كلارك (١٨٤١ ـ ١٩١٢م) قائلاً: «النظرية وضعت النهاية بعيدًا إلى ما لا نهاية، ومع ذلك فإنى أصغيت مرتجفًا لبوق الرب فى كل صاعقة»[٦٠].

لم يكن أى من هذه المفاهيم جديدًا تمامًا حين طفت على السطح فى سنوات ما بعد الحرب الأهلية. بل كان الجدل بين من كانوا يقرءون سفر الرؤيا «حسيًّا» ومن كانوا يقرءونه «روحيًّا» يرجع لأوغسطين. لكن نيران الإيمان الرؤيوى الحق تأججت وصارت لهيبًا من جديد، واستعر أوارها فى العالم الجديد كما استعر فى أى وقت مضى منذ أعلن مونتانوس ونبيتاه أول مرة أن «أورشليم [القدس] الجديدة» ستهبط من السحب فى أية لحظة.

ومع ذلك، فالمؤمنون الرؤيويون الصادقون فى أمريكا القرن التاسع عشر أصروا على التركيز من جديد على أقدم النصوص. ومن الغريب أن أنصار الحرفية التوراتية كانوا على أتم استعداد لتحريف النص المقدس حين يتعلق الأمر بالمشهد المزعج لما سيحدث للمسيحيين الأتقياء فى آخر الأزمان. فكان ليّ الحبكة الذى أدخلوه على سيناريو الرؤيا الكئيب المشئوم أكبر تجديد يشهده التراث الرؤيوى منذ سرد يوحنا الرؤى التى تراءت له بجزيرة بطمس. ومما يذكر أن الوعاظ الرؤيويين أعادوا كتابة تاريخ نهاية العالم بأسعد النهايات.

تبين القراءة البسيطة لسفر الرؤيا أن كل البشر على الأرض ـ من رجال ونساء وأطفال، الأتقياء منهم والمذنبون على السواء ـ مقدر لهم أن يتحملوا ما سيصيب البشرية على يد عدو المسيح فى آخر سنين الاضطهاد والقهر فيما يعرف بـ«الضيقة». ولن يُبعث القديسون الموتى والشهداء من قبورهم ولن يسمح لهم بالاستمتاع بثوابهم العادل فى المملكة الآتية إلا بعد زوال الضيقة.

إلا أن بعض المسيحيين المرحين فى أمريكا القرن التاسع عشر، أبوا أن يؤمنوا بأنهم سيطالبون بتحمل هذا العذاب، وأصروا على اعتناق رؤية جديدة ومبتكرة عن نهاية العالم. وآثروا الإيمان بأن المسيحيين الذين يستحقون الخلاص سيُخطفون بطريقة معجزة ويرفعون إلى السماء قبل أن تبدأ «الضيقة» فى التفاقم. وسيوهبون فى جلستهم فى شرفات الجنة ميزة النظر لأسفل ورؤية كل من تُرك على الأرض للمعاناة والموت على يد عدو المسيح. ولن يعودوا إلى الأرض بصحبة يسوع المسيح ليسكنوا المملكة الألفية إلا بعد انتهاء «الضيقة». وأصبح ابتكارهم اللاهوتى المريح يعرف بـ «الخطف» أو «الاختطاف».

لا ذكر للفظ «خطف» أو مفهومه بأى موضع من سفر الرؤيا. فمفهوم «الخطف» برمته يقوم على سطرين فى نص توراتى فى «رِسَالَةِ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِي» وهى أقدم كتابات بولس وربما كانت أقدم وثيقة فى العهد الجديد. ويبدو أن بولس كان يؤمن بأن الأحداث العجيبة التى يصف ستقع فى حياته لا فى فترة مجهولة فى المستقبل: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً؛ ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»(٦١).

إلا أن فكرة «الخطف» لم ترقَ إلى شرط للإيمان بين الأصوليين المسيحيين إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، وفى أمريكا فى المقام الأول. بل إن الفكرة برمتها نسبت لواعظ أنجلو ـ أيرلندى يدعى چون نلسن داربى (١٨٠٠ ـ ١٨٨٢م) وجد جمهورًا يقدر تعاليمه الجديدة على مدى سبع جولات فى أمريكا بين ١٨٥٩ و١٨٧٧م. ومن الباحثين من يرجعون بعناصر عدة من عقيدة داربى الرؤيوية الجديدة إلى مصادر تبدأ بيواقيم الفيورى، وتنتهى بإنكريز ماذر، بل إن داربى اتهم بسرقة فكرة «الخطف» برمتها من فتاة تدعى مارجريت مكدونالد، وهى مجذوبة دينية إسكتلندية كانت فى الخامسة عشرة من عمرها. ويؤكد داربى نفسه أن «العقيدة مستقاة من صفحات

النصوص المقدسة»[٦٢]. ولكن أيًّا كان مصدر إلهامه، تبقى حقيقة مفادها أن داربى كان مجددًا أصيلاً أفلح فى جذب جمهور متحمس يصدقه فى العالم الجديد.

كان داربى مجرد واعظ آخر حر وأحد أدعياء النبوة ممن يزدحم بهم تاريخ التراث الرؤيوى. ففى سن الخامسة والعشرين تم ترسيمه كاهنًا بكنيسة أيرلندا، وهى المقابل الأيرلندى لكنيسة إنجلترا، ولكنه ما لبث أن انشق وأنشأ جماعته الصغيرة من المنشقين الدينيين ممن عرفوا باسم «إخوة پليموث». وبدءًا من سنة ١٨٤٠م شرع داربى فى التبشير بفكرة «الخطف» البراقة الجديدة فى سويسرا أولاً ثم فى الولايات المتحدة. ولقى وعده المريح بأن المسيحيين الأتقياء سيعفون من مأزق «الضيقة» ـ «وهو حل بارع لمشكلة شائكة» كما يشير تيموثى ويبر ـ ترحيبًا من زملائه من رجال الإكليروس الأصوليين المسيحيين فى أمريكا[٦٣]. وقال داربى فى حماس فى أعقاب زيارته السابعة والأخيرة لأمريكا: «إن تعاليم الفكرة تنتشر بصورة مذهلة»[٦٤].

كان من بين من روجوا لتعاليم داربى فى أرجاء أمريكا واعظ يدعى دوايت مودى (١٨٣٧ ـ ١٨٩٩م) يوصف بأنه «الإيڤانجليكى الذى فاق غيره فى أمريكا فى نشر الآراء قبل الألفية عن النهاية الوشيكة»[٦٥]. وكأتباع ميلر ممن أحسنوا استغلال أحدث تقنيات الطباعة فى إنتاج كميات هائلة من أوراق الدعاية الدينية، قام «معهد مودى للكتاب المقدس» بالتبشير بالمبدأ الجديد فى العقيدة المسيحية الحقة عن طريق دار النشر الخاصة به ثم من خلال محطة إذاعة قوية مهدت للتبشير الإيڤانجليكى التليفزيونى بأواخر القرن العشرين. يقول مودى: «أنا أرى الدنيا كوعاء مهشم، وأعطانى الرب قارب نجاة وقال لى: يا مودى، أنقذ كل من وسعك إنقاذه»[٦٦].

وكان المتحول الأمريكى الآخر الذى اعتنق قراءة داربى لسفر الرؤيا سايروس سكوفيلد (١٨٤٣ ـ ١٩٢١م) وهو بيطار من جيش التحالف [الكونفيدرالى أو الذى أراد استقلال الولايات الجنوبية مما تسبب فى الحرب الأهلية] أمضى بعض الوقت بالسجن بتهمة التزوير قبل أن يمر بتجربة تحول دينى وتكريس نفسه لتأويل المعانى النبوئية التى صادفها فى الكتاب المقدس. نشر ما عرف بـ«الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد ـ

أضـاف چـيمس الملـك طبعـة مـن إصـدارة وهـى ــ « Scofield Reference Bible سكوفيلد شروحه على هوامشها ـ أول مرة فى سنة ١٩٠٩م وبيع منها أكثر من عشرة ملايين نسخة قبل أن تتم مراجعتها وإعادة نشرها فى فترة لاحقة فى القرن نفسه. وحقق سكوفيلد، فى رأى پول بوير، انتشارًا بلغ حد أن العديد من المسيحيين الإيڤانجليكيين «كانوا يجدون صعوبة فى تذكر مصدر فكرة ما: أمن النص المقدس نفسه كانت أم من هوامش سكوفيلد؟»[٦٧]. وفيما بين مودى وسكوفيلد حظيت فكرة «الخطف» العصرية وسائر البدع اللاهوتية العديدة لچون نلسن داربى بمكانة الحقيقة المنزلة فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وهناك محاكاة ساخرة لأنشودة إيڤانجليكية تقول: «آمالى لا تقل عن هوامش سكوفيلد ومطبعة مودى»[٦٨]. رسمت الأصولية المسيحية من النوع الذى أيده أناس من أمثال مودى وسكوفيلد خطًّا صداميًّا فى حرب حضارية على من اعتبرتهم عملاء الشيطان فى أمريكا «الترياق الأمثل ضد الكفر والسد المنيع أمام الليبرالية والعقائد الزائفة» على حد تعبير روبن تورى (١٨٥٦ ــ ١٩٢٨م) مشرف «معهد مودى للكتاب المقدس» وواعظ إحيائى، ويقصد بـ «العقائد الزائفة» الظواهر المرفوضة فى العالم الحديث[٦٩]. ويؤكد مودى نفسه قائلاً: «لا أجد ما يثبت أن الرب قال إن العالم سيسير نحو الأفضل. بل أرى أن الأرض تتجه من سيئ لأسوأ»[٧٠].

وما احتفى العالم به باعتباره مسيرة الحضارة، أدانه الأصوليون الپروتستانت بوصفه من خفايا مؤامرة شيطانية. فندد سكوفيلد فى شروحه على سفر الرؤيا فى «الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد» قائلاً: «حشد الشيطان عالم البشرية الضال حول مبادئه الكونية من قوة وجشع وأنانية وطمع ومتعة. إن النظام العالمى الحالى... قوى ومهيب ومسلح بجيوش وأساطيل، وهو متدين فى الظاهر وعلمى ومثقف وأنيق، ولكنه مضطرم بالمنافسات والمطامع القومية والتجارية، ولا يحل أية أزمة حقيقية بالقوة المسلحة، وتسيطر عليه المبادئ الشيطانية»[٧١].

وكما استنكر مؤلف سفر الرؤيا بيع السلع وشراءها فى الأسواق الرومانية وشكك فى الروابط الوثنية التى قد يجد الصناع المسيحيون ما يغريهم بالانضمام إليها، فإن بعض

الأصوليين المسيحيين فى أمريكا كانوا ينددون بـ «تكديس الثروة» فى الأعمال الضخمة ـ «دوامة من سفه مجنون ويدفع للجنون» حسب تعبير أحد الوعاظ الإيڤانجليكيين [٧٢] ـ ويعتبرون أختام النقابات على سلع المصانع «وسم الوحش». وكما كان يوحنا يستاء من متع حضارة الرومان، كان الأصوليون المسيحيون يدينون ملاهى الثقافة الشعبية وضلالاتها فى أمريكا الحديثة. وكان القس تورى، مثلاً، مستعدًّا للتسليم بأن «الرقص ليس خطيئة طالما لم يجمع الرجال بالنساء»، إلا أن بعض الرقصات الحديثة ــ ومنها الفوكس تروت والشيمى والشارلستون ـ كانت «لا تقل عن إباحية» [٧٣].

شكا أحد المراقبين المسيحيين الغاضبين قائلاً: «إن العديد من الفتيان والفتيات الذين يؤدون هذه الرقصات ينبغى أن تكون لديهم تراخيص زواج قبل النزول إلى ساحة الرقص، ولو كانت لديهم تراخيص زواج فلا عذر لهم فى اقتراف أفعال كهذه على الملأ» [٧٤].

ومع ذلك فالأصوليون البروتستانت فى أمريكا كانوا دائمًا ينظرون إلى الجانب المشرق من يوم القيامة. ففى العالم القديم، كانت قارئة كاثوليكية متعصبة لسفر الرؤيا كالراهبة الفرنسية تيريز ليزييه يثيرها مشهد «الضيقة»: «عندما أفكر فى العذاب المقدر على المسيحيين فى عهد المسيح الدجال أحس بأن قلبى يكاد يقفز فرحًا، وكنت أتمنى أن يُستبقى هذا العذاب لى» [٧٥]. لكن بعض المسيحيين هنا فى أمريكا كانوا يؤثرون الإيمان بأنهم سيفلتون من كل هذا العذاب حين «يُخطفون» أولاً إلى السماء ثم يعادون إلى الأرض ليحكموا المملكة الألفية جنبًا إلى جنب مع يسوع المسيح.

كان چون داربى قد أعلن فى أواسط القرن التاسع عشر قائلاً: «لنتذكر شيئًا واحدًا هو أننا نحن معشر المسيحيين فى أمان من العاصفة الوشيكة» [٧٦]. وكان روبن تورى يؤكد الرسالة المطمئنة نفسها فى السنوات الأولى من القرن العشرين، فكان يعلن قائلا: «العاصفة ستكون قصيرة، وبعد العاصفة هناك يوم ذهبى لم يرد حتى فى أحلام الفلاسفة والشعراء» [٧٧].

ومن الغريب أن بعض المتحمسين الرؤيويين ممن كان يسعدهم إمكانية مشاهدة

«الضيقة» من علٍ، كان يشقيهم أيضًا مصير تلك الأرواح التعسة التى تظل مرتبطة بما يسميه يوحنا «مجمع الشيطان». وكان قراء سفر الرؤيا الواعون يركنون إلى أن مائة وأربعة وأربعين ألفًا من الذكور الأبكار من أسباط بنى إسرائيل «سيُختمون» فى آخر الأزمان، ولكن ماذا عن بقية الشعب اليهودى؟ هنا أيضًا قدم چون داربى نهجًا جديدًا مفزعًا لفهم قصة سفر الرؤيا ولا سيما المصير الخاص المقدر للشعب اليهودى فى آخر الأزمان.

ليس من كل المفارقات التى أصبحت ترتبط بسفر الرؤيا ما يساوى فى غرابته علاقة المحبة والبغض بين القراء الأصوليين المسيحيين والشعب اليهودى. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما سبق أن رأينا ـ يدين معاصريه اليهود لرفضهم مسيحانية يسوع الناصرى، ويبين أن اليهود سيظلون أبدًا فى معية الوثنيين والمسيحيين غير المتدينين فى بحيرة من نار. ومع ذلك، فإن بعضًا من أشد قراء سفر الرؤيا حماسًا فى أمريكا يفاخرون بأنهم «صهاينة»، ويفعلون ذلك بوازع من لب عقائدهم الرؤيوية.

إن «الصهيونية المسيحية» تبدو أحيانًا كاجتماع متناقضين؛ لأن التراث الرؤيوى المسيحى يحمل دائمًا وصمة معاداة السامية. فالأدب الشعبى الرؤيوى منذ أواخر العصور القديمة ـ كما سبق أن أشرنا ـ أصبح يشتمل على فكرة مفادها أن عدو المسيح سيكون رجلاً يهوديًّا من نسل إبليس، وغانية يهودية فى ماخور بابلى. وعلى أحسن الفروض، يساور بعض قراء سفر الرؤيا المعادين للسامية أمل خافت فى أن ينقذ بعض اليهود على الأقل أنفسهم من نار الجحيم بالإقرار بأن يسوع هو المسيح.

يرى يواقيم الفيورى مؤلف رسالة عنوانها الصريح «ضد اليهود» أن الشعب اليهودى سيتبع عدو المسيح حتى آخر الزمان حيث تتحول قلة منه إلى المسيحية فى آخر لحظة ممكنة. ووجدت الفكرة نفسها طريقها إلى اللاهوت الپروتستانتى على يد مارتن لوثر. فيقول لوثر فى رسالة له بعنوان «ضد اليهود وأكاذيبهم»: إن اليهود إذا اعترفوا بيسوع المسيح «سيسعدنا أن نسامحهم»، أما إذا لم يفعلوا «فلا ينبغى لنا أن نتهاون معهم أو نألم لهم»[٧٨].

كانت الخرافة والعقيدة الرؤيوية تتصور أن الشعب اليهودى سيعود إلى أرض

إسرائيل فى آخر الأيام، ولكن بعواقب وخيمة. فهناك على سبيل المثال نص بعنوان «المسيح وعدو المسيح» يرجع للقرن الثالث، يرى أن عدو المسيح سيعيد بناء الهيكل فى أورشليم [القدس] ويعيد الشعب اليهودى من البقاع التى نفى إليها ثم يبدأ حقبة جديدة من اضطهاد المسيحيين لا تنتهى إلا «حين يأتى المسيح مرة أخرى فى مجده يسبقه إيليا ويوحنا المعمدان»(٧٩). وكما يبين مؤلف سفر الرؤيا، فإن دماء الجيش اليهودى المهزوم التابع لعدو المسيح سيبلغ ارتفاع لجام حصان فى طرقات أورشليم [القدس].

وهناك صورة أكثر إشراقًا رسمها وعاظ العالم الجديد الرؤيويون. فتنبأ إنكريز ماذر فى كتابه «لغز خلاص بنى إسرائيل تفسيرًا وتطبيقًا ـ The Mystery of Israel's Salvation Explained and applied» (١٦٦٩م) بأن الشعب اليهودى «سيعاد مرة أخرى إلى أرضه» وأنه ما أن يعود إلى مكان إسرائيل القديمة سيتحول إلى المسيحية ويصبح «أمجد أمة فى العالم»(٨٠). وتعهد كاهن مشيخى ببناء مراسٍ فى نيوهيڤن ينطلق منها اليهود المسافرون لأرض إسرائيل، وأعلن فى سنة ١٨٠٠م أن «عودة اليهود إلى أرضهم مؤكدة».

لكن إعادة الشعب اليهودى لأرضه اتخذ، مثله مثل «الخطف»، درجة جديدة من القوة والنفوذ فى تعاليم چون داربى. فخرج من دراسته الكتاب المقدس العبرى بفكرة عن دور الشعب اليهودى فى آخر الزمان اعتُبرت من «أميز سمات عقيدته وأكثرها إثارة للجدل»(٨١). وتلخيصًا لنظرية داربى المفصلة، نقول إنه ادعى أن الرب قدر للشعب اليهودى مصيرًا، وللكنيسة المسيحية مصيرًا غيره، لكن مرحلتى نهاية العالم فى التقدير الإلهى متداخلتان، وبالتالى فالخلاص الأخير للمسيحيين يتوقف على ما كتب الرب على الشعب اليهودى.

وبما أن داربى كان مقتنعًا بأن كل النبوءات التوراتية لا بد أن تتحقق، بما فى ذلك النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس العبرى الموجه إلى بنى إسرائيل، فإنه استنتج أن الرب سيفى بوعده برد أرض إسرائيل «للشعب المختار» وإعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] قبل إنهاء العالم. بل إن تجمع الشعب اليهودى فى وطنه القديم

بفلسطين أصبح علامة وشرطًا لازمًا فى آن معًا للمجىء الثانى، وهزم الشيطان، وبناء «السماء الجديدة والأرض الجديدة». وهكذا أصبح للشعب اليهودى دور غير متعمد، ولكنه حاسم فى آخر الزمان فى تصور الرؤيويين الواضح فى أمريكا.

تزامن التقدير الإلهى للشعب اليهودى فى سيناريو داربى لآخر الزمان فى صدفة مصيرية مع نشأة الصهيونية السياسية الحديثة بأواسط القرن التاسع عشر. وكانت تحرك الحركة الصهيونية دوافع سياسية لا دينية؛ إذ سعى الصهاينة لإنقاذ اليهود رجالاً ونساء وأطفالاً من مخاطر معاداة السامية فى أوروپا، وكانوا يؤمنون بأن عيش اليهود فى دولة ضرورى لبقاء اليهود. بل إن الحركة الصهيونية فى روسيا وشرقى أوروپا كانت متأصلة فى نظريتى الاشتراكية والقومية العلمانيتين لا فى التطلع الدينى للشعب اليهودى للعودة إلى صهيون فى العهد المسيحانى، لذا فإن تيودور هرتزل (١٨٦٠ـ ١٩٠٤م) وهو صحفى يهودى مندمج تمامًا فى ڤيينا، وأصبح يعد أبا الصهيونية الحديثة ـ كان مستعدًّا تمامًا لقبول الأرچنتين أو أوغندا مكانًا لوطن يهودى إن لم تكن أرض إسرائيل التوراتية ممكنة.

كان أعدى أعداء الصهيونية الأولى فى الحقيقة من اليهود المتدينين الذين رأوا أن الشعب اليهودى سيعاد إلى أرضه حين يرسل الرب المسيح فى التوقيت الذى يشاء ليعيدهم إليها. وكانت هناك دائمًا قلة من اليهود المتدينين تتجه إلى فلسطين التى كانت من أقاليم الإمبراطورية العثمانية ليقضوا أيامهم الأخيرة فى التعبد وليدفنوا فى الأرض المقدسة حين توافيهم المنية. أما فكرة هجرة اليهود بأنفسهم وبصورة جماعية إلى الأرض المقدسة كطليعة لدولة يهودية حديثة وذات سيادة، فكانت فى رأى المتدينين اليهود ردة وكفرًا، فهى خطيئة «فرض النهاية عنوةً»؛ لذا فإن الصهيونية كانت تعتبر «البدعة القصوى» فى نظر أكثر اليهود تدينًا[٨٢].

هنا ننتبه إلى اختلاف كبير بين الفكر الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية. فهزيمة حركة تمرد بار كحبا على يد سادة يهوذا الرومان فى القرن الثانى ـ كما سبق أن رأينا ـ ساعد على إضعاف التوقعات المسيحانية لدى الشعب اليهودى. فعلى النقيض من وعد يسوع المسيح فى سفر الرؤيا ـ «نَعَمْ! أَنَا آتِي سَرِيعًا»[٨٣] ـ فإن واحدة من ثلاث عشرة مقالة

فى الديانة اليهودية وضعها ابن ميمون تقر بأن المسيح لن يأتى فى القريب العاجل: «أنا أؤمن إيمانًا تامًّا بمجىء المسيح، ومع أنه قد يتأخر فإنى سأنتظر مجيئه يومًا بيوم»(٨٤).

والعواقب الوخيمة لـ «فرض النهاية عنوةً» رُمز لها فى التاريخ اليهودى بالمثال التعس لمدعى المسيحانية المسمى شبتاى زيفى (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦م). بدأ شبتاى زيفى فى سنة ١٦٦٦م فى اللعب على آمال الشعب اليهودى بادعاء أنه المسيح الذى طال انتظاره وتأخر كثيرًا والذى سيخلصهم من الاضطهاد والظلم. وكما فعل أتباع ميلر فى أمريكا بعد ذلك بقرنين، تخلى أتباع شبتاى زيفى فى غمرة حماسهم عن بيوتهم وحوانيتهم وحقولهم فى كافة أنحاء أوروبا عن إيمان تام بأنه «سيحملهم على سحابة إلى أورشليم [القدس]» فى أية لحظة(٨٥). وأعلن شبتاى زيفى عبارة تنم عن تعطش للدم ليست غريبة على قراء سفر الرؤيا حيث قال: «يوم الانتقام فى قلبى، وسنة الخلاص حلت. سأنتقم لكم قريبًا وأريحكم»(٨٦).

أقام شبتاى زيفى بدار خارج القسطنطينية تحول إلى قبلة لليهود ما لبثت حتى فاقت حائط المبكى بأورشليم [القدس]، ولفتت مزاعمه الاستفزازية السلطات العثمانية. وكما فعل بونتياس بيلاتى الذى اعتبر مزاعم يسوع الناصرى المسيحانية تهديدًا سياسيًّا للإمبراطورية الرومانية، انزعج السلطان الأعظم لوضع شبتاى زيفى وهو يحكم كأنه ملك فى أحد أقاليم الإمبراطورية العثمانية. فتم القبض على المسيح المزعوم وعلق فى سلاسل وتم تخييره بين الإسلام والموت، وكسر قلوب أتباعه اليهود بإيثاره الإسلام على الموت. وبعد ارتداد شبتاى زيفى العلنى أصبح كل من يسعى «لفرض النهاية عنوة» موضع ريبة بل ازدراء فى التراث اليهودى.

أما المسيحيون المؤمنون حقًّا، فبشرتهم عقيدتهم الرؤيوية بأن إعادة الشعب اليهودى لأرضه بأية وسيلة ممكنة يعد علامة مؤكدة لمجىء المسيح. وبالطبع كان هذا هو المجىء الثانى للمسيح كما تنبأ به سفر الرؤيا، وكان يعرف بالمقابل المسيحى للكلمة: «عيسى». وهكذا فإن بعضًا من الجهود الأولى للصهاينة العلمانيين بل المعادين للدين فى المطالبة برد أرض إسرائيل للشعب اليهودى كانت موضع مراقبة دقيقة فى الأوساط الرؤيوية المسيحية فى أمريكا.

أوردت الصحف والمجلات المسيحية فى أمريكا بكل اهتمام وحماس أنباء نشر «الدولة اليهودية» بيان هرتزل الرسمى للصهيونية السياسية واندلاع حوادث معاداة السامية فى روسيا وفرنسا وغرس المستعمرات اليهودية الأولى فى أرض فلسطين. وكان المراسلون المسيحيون حاضرين فى بازل لحضور «المؤتمر الصهيونى» فى سنة ١٨٩٨م و «أخذوا يتكهنون حول موعد بدء تفكير المهاجرين اليهود فى بناء هيكل جديد فى أورشليم [القدس]» ، وهى فكرة كانت ستصدم أى يهودى متدين وتشينه ، وما كانت لتخطر على بال الاشتراكيين والقوميين اليهود[٨٧].

كان بعض الصهاينة المسيحيين فى الحقيقة يفكرون بجد فى مشروع بناء الدولة اليهودية قبل نظرائهم اليهود بمدة طويلة. فكان ويليام يوجين بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥م) وهو مقاول تحول إلى التبشير الرؤيوى مقتنعًا بضرورة عودة اليهود إلى صهيون حتى يتحقق المجيء الثانى ، لدرجة أنه أخذ على عاتقه مهمة جعلها بندًا فى السياسة الخارجية الأمريكية. فجمع بلاكستون توقيعات أكثر من أربعمائة من كبار أهل السياسة الأمريكيين وأباطرتها على التماس يدعو الرئيس بنيامين هاريسون لنصرة قضية إنشاء وطن يهودى. وفى الخامس من مارس ١٨٩١م ـ أى قبل تدوين هرتزل بيانه «الدولة اليهودية» بخمس سنوات ، وقبل عقده أول مؤتمر صهيونى بست سنوات ـ سلم بلاكستون التماسه للبيت الأبيض. يقول بلاكستون فى التماسه : «لم لا نرد فلسطين لهم؟ لنرد لهم الآن الأرض التى سلبهم إياها بكل قسوة أسلافنا الرومان»[٨٨].

كان بلاكستون بصورة من الصور أكثر صهيونية من مؤسس الصهيونية الحديثة. وحين أعلن هرتزل الفكرة العملية بأن بناء مستعمرة يهودية فى شرقى إفريقيا الخاضع لبريطانيا سيكفى طالما ظلت فلسطين بعيدة المنال. فأرسل له بلاكستون بكل جرأة نسخة من الكتاب المقدس العبرى وضع فيه خطوطًا ـ على الطريقة «قبل الألفية» حسب تعبير تيموثى ويبر ـ تحت الفقرات التوراتية التى أقنعت داربى وأتباعه بأن استعادة اليهود فلسطين كانت وعدًا إلهيًّا وتفويضًا إلهيًّا. وكوفئ بلاكستون نفسه على جهوده بأن هُتف له فى مؤتمر يهودى عقد فى فيلادلفيا فى سنة ١٩١٨م بأنه «أبو الصهيونية»[٨٩].

ومع ذلك كان بلاكستون أكثر صراحة من العديد من مؤيدى الصهيونية من المسيحيين غيره فى كشف الأساس اللاهوتى لالتزامه بوطن يهودى فى فلسطين. مثل كل من يواقيم الفيورى ومارتن لوثر وإنكريز ماذر، كان چون داربى يبشر ـ وبلاكستون يؤمن ـ بأن اليهود الذين سيعودون إلى أرض إسرائيل، كتبت عليهم المعاناة والموت فى عهد عدو المسيح والاحتراق فى نار الجحيم فى الأبدية. وكانوا يؤكدون أنه لن يُبعث للحياة فى «أورشليم [القدس] الجديدة» من اليهود إلا من تحول إلى المسيحية قبل فوات الأوان.

وفى اجتماع حاشد للصهاينة فى لوس أنچيليس فى سنة ١٩١٨م ـ على سبيل المثال ـ أعلن بلاكستون مرة أخرى أنه «من أكبر مؤيدى الصهيونية»، ولكنه فى الوقت نفسه كشف عن إيمانه بأن أى يهودى لا يؤمن إلا بالصهيونية يطأ طريقًا «يفضى لندم ليس بعده ندم». وأكد أن الطريق الأقوم هو «اعتناق المسيحية الحقة والاعتراف بأن يسوع هو الرب والمخلص، وهو ما يؤدى لا إلى الغفران وحسب بل الإفلات من محنة لا نظير لها ستعم الأرض كافة»(٩٠).

قال بلاكستون لجمهورٍ لا بد أنه أدهشته كلماته الصريحة: «يا أصدقائى اليهود، أى الطريقين ستختارون؟ تدارسوا بشارة الرب هذه وانظروا كيف بيّن الرب نفسه الطريق لبنى إسرائيل إلى اليوم المنشود»(٩١).

كانت دعوة الأرواح الضالة التى لم تهتدِ بعد تعتبر مهمة خطيرة فى الحرب الحضارية التى تم خوضها تحت شعار الأصولية. وهذا ما قصده دوايت مودى حين استشهد بمقولة الرب له: «يا مودى، أنقذ كل من وسعك إنقاذه». وهذا ما دفع ويليام بلاكستون للانضمام لإحدى جمعيات التبشير المسيحى العديدة التى تهدف إلى تنصير المهاجرين اليهود الوافدين إلى أمريكا بأعداد كبيرة فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت هذه الجمعيات مقتنعة طبعًا بأن آخر الزمان يُستعجل بدعوة الشعب اليهودى إلى يسوع المسيح.

كان من هذه الجهود ما يعرف بـ «إرسالية أمل إسرائيل» وكان مبشرها الأول أرنو جابلاين (١٨٦١ ـ ١٩٤٥م)، وبدأ التبشير فى أيام السبت بالحى اليهودى على الجانب

الشرقى الأدنى من مدينة نيويورك. درس جابلاين ـ وهو مهاجر منهجى من ألمانيا ـ اليبدش والعبرية حتى يتسنى له أن يرد على الأحبار ممن انبروا للدفاع عن ديانتهم. يقول تيموثى ويبر: «الحقيقة أنه اكتسب خبرة فى التلمود وغيره من تراث الأحبار، ويتكلم اليبدش بطلاقة لدرجة أنه كان يجد صعوبة فى إقناع كثير من جمهوره بأنه ليس يهوديًّا يحاول أن يبدو كأحد الأغيار»[٩٢].

ولكن ثبت أن اليهود قوم يصعب إقناعهم. وعندما تجاسر طلاب من «معهد مودى للكتاب المقدس» فى شيكاجو على دخول أحد أحياء اليهود للوعظ، مثلاً، لم يفلحوا إلا فى جذب حشد غاضب من الدهماء رموهم «بتل من قشر البطيخ والموز والطماطم المهترئة وغيرها من الثمار»[٩٣]. ولجأ بعض المبشرين لنوع من التلون الدفاعى فلم يكونوا يشيرون إلا إلى «المسيح» دون التطرق لمقابله المشتق من اليونانية: «Christ». واكتشف أحد المبشرين المثابرين أنه لا ينبغى البدء فى التبشير فى مبنى يهودى من الطابق الأرضى لأعلى. فحين يبلغ الطابق الأعلى فإن سكان شقة الطابق السفلى يكونون قرءوا النشرات التى وزعها عليهم فيودعوه فى نزوله باللعنات والسباب والحساء الساخن والخضراوات العطنة. يقول المبشر الشاب: «وهكذا تعلمت حين أدخل فى المرة القادمة مبنى سكنيًّا علىّ أن أبدأ من الطوابق الأعلى نزولاً لأسفل»[٩٤].

كان بعض الأصوليين المسيحيين يعتبرون مقاومة الشعب اليهودى جهودهم للتنصير نذير سوء. وتعد «پروتوكولات حكماء صهيون» تزييفًا معاديًا للسامية يتصور وجود مؤامرة يهودية شيطانية على العالم، وهو كتاب قُرئ باعتباره حقيقة فى بعض الدوائر المسيحية فى السنوات الأولى من القرن العشرين، وأثنى أرنو جابلاين على هنرى فورد علنًا لنشر الپروتوكولات على صفحات صحيفته. بل إن فكرة وجود عصبة سرية من الأشرار اليهود كانت مقبولة تمامًا لدى كثرة من قراء سفر الرؤيا. يقول ويبر: «فالغيبيات قبل الألفية هى على كل حال نظرية تآمر ذات أبعاد كونية»[٩٥].

وانبرى العديد من الأصوليين الآخرين لإدانة إخوانهم المسيحيين ممن شاركوا فى أعمال تنم عن معاداة السامية أو تعبر عنها. فهناك، مثلاً، كاهن يدعى چيمس جراى

يعمل مع «معهد مودى للكتاب المقدس» أدان معاداة السامية باعتبارها «إحدى أخطر أشكال الكراهية والعداء العنصريين التى عَرفتها البشرية». ولكنه فى الوقت نفسه أقر بأن القناعات الدينية تقتضى منه أن يعتبر اليهود ملعونين، فأعلن قائلاً: «صحيح أن يهوه لعن إسرائيل لخطاياها، ولعنته عليها لا تزال قائمة اليوم. ولكن هناك فارقًا بين أن يلعنها الرب وأن نلعنها نحن»(٩٦).

ثم كان هناك أيضًا مبشرون محبطون اكتفوا بالمصير الذى كتب على من أبوا الهداية من يهود ومسيحيين على السواء فى سفر الرؤيا. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما رأينا ـ يتقد بغضًا للمسيحيين «الفاترين» ممن يؤثرون رغد العيش على ما يعد فى نظره الحياة القويمة، ويبدو أنه يتلذذ بتخيل الانتقام الذى سينزله الرب بمن لا يشاركونه إيمانه. وهذه الشماتة نفسها يمكن ملاحظتها لدى قراء سفر الرؤيا اللاحقين أيضًا. فهناك ـ على سبيل المثال ـ واعظ إحيائى كتب فى سنة ١٩١٨م قائلاً: إن الرب سيضحك فى سره فى حبور فعلىّ من عذاب كل من لم «يُخطف» إلى السماء قبل آخر الزمان. وكتب الواعظ يقول: «لطالما تم تحذير هؤلاء المهمَلين ولكن بلا طائل. فعباد الرب ما وضعوا نصب أعينهم حاجتهم الملحة لتفادى الغضب القادم إلا لكى يتعرضوا للسخرية من آلامهم. لكن المائدة انقلبت الآن وسيضحك الرب منهم، سيضحك من مصابهم ويستهزئ بخوفهم»(٩٧).

والمؤكد أن رب إسرائيل يوصف بأنه إله غيور ناقم فى بعض الفقرات الرهيبة بالكتاب المقدس العبرى. فيتوعد فى سفر التثنية قائلاً: «أَرُدُّ نَقْمَةً عَلى أَضْدَادِي وَأُجَازِي مُبْغِضِيَّ. أُسْكِرُ سِهَامِي بِدَمٍ وَيَأْكُلُ سَيْفِي لَحْمًا»(٩٨). إلا أننا هنا نرى كيف يتحول الرب فى قراءات سفر الرؤيا الجديدة من قاض وملِك ومحارب إلى قاتل يقهقه ويتلذذ بأخذ ثأره بيده من بشر هو الذى خلقهم أصلاً.

وفى الوقت الذى كان هؤلاء الأصوليون المسيحيون يسعون لخلاص أرواح اليهود كانوا يخوضون كفاحًا مريرًا مع بعض من إخوانهم المسيحيين حول النهج السليم لقراءة سفر الرؤيا. فالجدل الذى انقسم حوله المسيحيون فى أواخر العصور القديمة ـ ما إذا كان ينبغى قراءة سفر الرؤيا «روحيًّا» أم «حسيًّا» ـ أصبح يضع التقليديين فى مواجهة مع المحدثين فى السنوات الأولى من القرن العشرين.

كان سفر الرؤيا حسب وصف أحد الشراح المسيحيين فى سنة ١٩٠٧م «طائرًا غريبًا فقس من رؤى المستحيل» ، وقال إن غالبية المسيحيين المحدثين تخلوا عن المشروع الرؤيوى برمته واتجهوا إلى «المفاهيم الأقرب للعقل والروح» . ولاذ نقاد آخرون بالرأى القديم الذى يرى أن سفر الرؤيا يغرى المسيحيين بالوقوع فى خطأ «تهويد» النص. ويلخص چيمس مورهيد هذا الرأى بقوله إن «النزعة الرؤيوية التى هى نتاج فكر يهودى مبدع، أغرت المسيحيين الأوائل لبعض الوقت، ولكنها لم تتناغم قط مع رسالة الكنيسة»(٩٩).

وفى مواجهة سيناريو يوم القيامة المتقد لدى أنصار ما قبل الألفية، دافع التقدميون المسيحيون عما أصبح يعرف بنزعة ما بعد الألفية، وهى فكرة مفادها أن المجىء الثانى لعيسى المسيح لن يحدث إلا بعد بلوغ الدنيا ذروة كمالها بالجهد البشرى. وكان أنصار «الإنجيل الاجتماعى» ، مثلاً ، يؤمنون بأن «مملكة الرب تحل بانضمام المسيحيين إلى غيرهم من حسَنى النية فى دعم نقابات العمال ومكافحة عمالة الأطفال، والدعوة لسن تشريعات لحماية عمال المصانع وسكان المناطق العشوائية من المهاجرين، والمشاركة فى الكفاح من أجل العدل الاجتماعى فى مناطق أمريكا الحضرية الصناعية»(١٠٠). وكانوا فى الحقيقة يطبقون نوعًا من القراءة الروحية لسفر الرؤيا كان أوغسطين أوصى به. يقول والتر راوشنبوش (١٨٦١ ـ ١٩١٨م) فى كتابه «لاهوت للإنجيل الاجتماعى ـ A Theology for the Social Gospel» (١٩١٧م): «إن مملكة الرب قادمة دومًا»(١٠١).

ومن الغريب أن أكثر الأفكار تقدمية فى المسيحية أعجبت بعضًا من أغنى المسيحيين وأكثرهم نفوذا. فعلى سبيل المثال، كان چون. دى. روكفلر الابن (١٨٧٤ ـ ١٩٦٠م) ابن منشئ شركة «ستاندرد أويل» وأحد كبار محبى الإنسانية الأمريكيين، هو الذى مول ما عرف بـ «الحركة العالمية للتعاون بين الكنائس» وهو من أول المساعى الرامية لإشراك الكنائس المسيحية فى مشكلات العالم الحديث الخطيرة المتنامية. وأكد فى مقال له نشر فى صحيفة «صنداى إيڤننج پوست» قائلاً: «أنا أنظر إلى إنشاء مملكة الرب على الأرض نظرة حرفية» ، مؤيدًا بذلك أهم المبادئ الأصولية فى الإنجيل الاجتماعى(١٠٢).

لكـن الأصـوليين المسـيحيين تمكنـوا مـن تجنيـد قلـة مـن أقطـاب الصـناعة. ففـى سـنة ١٩١٠م، مثلاً، تكفل الأخوان ليمن وميلتون ستيوارت مالكا شـركة «يونيـون أويـل» بتوزيع ثلاثة ملايين نسخة مجانيـة مـن سلسـلة نشـرات بعنـوان «The Fundamentals» وضعت بغـرض كسـب تأييـد رجـال الـدين الپـروتستانت فـى أرجـاء أمريكـا لمعتقـدات الأصـولية المسيحية. كمـا مـول الأخـوان ستيوارت توزيـع مـا يقـرب مـن سبعمائة ألـف نسخة من بيان ويليام بلاكستون الرؤيـوى بعنـوان «Jesus Is Coming» (عيسـى آتٍ) على دائرة القراء المؤثرة نفسها.

عجلت هذه الجهود المكلفة بحدوث يقظة كبرى ثالثة فى السنوات الأولى مـن القـرن العشـرين ــ «أكثـر مـن ثلاثمائـة كيـان طـائفى مسـتقل كلـها تـؤمن بعـودة المسـيح قبـل الألفية» حسب قول پـول بوير[١٠٣]. وتمكن الفكر الرؤيـوى القـديم لسفر الرؤيـا بعـد أن نقحته وجددت شبابه تعاليم چون داربى من اجتـذاب المسيحيين علـى اختـلاف مللـهم مـن الكنـائس الـپـروتستانتية ذات الـنهج القـديم إلى الـپـنتاكوستيين أو «الخمسـينيين ــ Pentacostalists» الذين يعتنقون التكلم بألسنة(*) «جماعة أحد العَنصرة».

ومـن أبـرز الأمثلـة علـى انتشـــار حمـى الرؤيويـــة مـن جديـد، مـا بـدأ بتشـارلز تيـز راســل (١٨٥٢ ـ ١٩١٦م) وهو عقاد من پنسلڤـانيا أقنعتـه قراءتـه سفر الرؤيـا وغـيره مـن النصـوص الرؤيويـة بـأن إرهاصـات الألفيـة بـدأت فعـلاً، وكـان يعتقـد أن الـرب سيخطف مائـة وأربعـة وأربعـين ألفًـا مـن «القديسـين» مـن فـوق سـطح الأرض فـى أيـة لحظة، وسيعودون قريبًـا بصحبة عيسـى المسيح لخوض معركـة أرمجدون ضـد جيـوش الشيطان. وانتظم أتباع راسل بعددهم الذى بلغ حوالى ثلاثين ألفًا بأوائل القرن العشرين أولاً فى «جمعية برج المراقبة» ثم غيروا فيما بعد اسم كنيستهم ليصبح «شهود يهوه». وكان راسل يؤكد لهم مرددًا كلمات كل من عيسـى وبـولس كمـا وردت فـى النصـوص المقدسة المسيحية قبل عشرين قرنًا قائلا: «لن يموتوا أبدًا»[١٠٤].

وككثير غيره من الوعاظ الرؤيـويين قبلـه وبعـده، كـان راسـل علـى قـدر مـن الجـرأة

(*) طبقًا للنص الإنجيلى الذى فيه يتكلم تلاميذ المسيح بألسنة، أى بلغات لم يعرفوها من قبل، للتبشير.

يكفى لأن يحدد تاريخًا ليوم القيامة. فحدد ١٨٧٤م كتاريخ لبدء ساعة العد التنازلى، وتنبأ بأن حكم عيسى المسيح سيبدأ بعدها بأربعين سنة، أى فى سنة ١٩١٤م؛ لذا فحين أطلقت الطلقات الافتتاحية للحرب العالمية الأولى اتخذت نبوءته معنى مفاجئًا وعاجلاً لا لدى أتباعه وحدهم، بل لدى كثرة من المؤمنين الآخرين بالفكر الرؤيوى. فهللت صحيفة تابعة لـ «جماعة أحد العنصرة» قائلة: «الحرب! الحرب! الحرب!!! شعوب أوروپا تتحارب وتمهد الطريق عن غير قصد لعودة الرب يسوع»[١٠٥].

فى أواخر صيف ١٩١٤م، كانت أمريكا لا تزال تتشبث بالفكرة السعيدة التى ترى أن حسن النية والمبادرة والإبداع هى كل ما يحتاج الجنس البشرى لتحقيق المقابل العلمانى للملكة الألفية هنا على الأرض. يقول پول فاسل فى كتابه «الحرب الكبرى والذاكرة الحديثة ـ The Great War and Modern Memory»: لم تكن كلمة «آلى» اقترنت بعد بكلمة «مدفع»[١٠٦]. وكانت مثل هذه الآمال المشرقة من أولى ضحايا الحرب العالمية الأولى التى أثبتت أن التقنية الجديدة الواعدة فى القرن العشرين كانت قادرة على قتل الشباب وتشويههم بالملايين. أما بالنسبة لقراء سفر الرؤيا، فإن المشهد المروع للحرب الحديثة أكد اقتناعهم بأن ما يشهدون ليس إلا معركة أرمجدون.

ومن الغريب أن الحرب العالمية الأولى أطلق عليها الدعاة المتفائلون المغرورون «حربًا لإنهاء كافة الحروب»، وهى عبارة تصدق على أرمجدون لا شك، ولكن ثبت أن الحريق ليس نهاية الحروب ولا نهاية العالم. ومع ذلك فإن ما صحب الحرب الكبرى من رعب واضطراب أطلق تكهنات رؤيوية كتلك التى صاحبت كل حرب فى تاريخ الغرب منذ سقوط روما فى القرن الخامس. ودرس أحدث أجيال المتنبئين النصوص القديمة وقرروا أن العالم يشهد الأحداث التى تنبأ بها سفر دانيال: «وَيَقُومُ مَلِكٌ جَبَّارٌ وَيَتَسَلَّطُ تَسَلُّطًا عَظِيمًا وَيَفْعَلُ حَسَبَ إِرَادَتِهِ. وَكَقِيَامِهِ تَنْكَسِرُ مَمْلَكَتُهُ وَتَنْقَسِمُ إِلَى رِيَاحِ السَّمَاءِ الأَرْبَعِ»[١٠٧].

بلغت الحرب العالمية الأولى حدًّا من الهول ـ وعالم ما بعد الحرب قدرًا من الرعب ـ أثار الروح الدينية فى من وضعوا أنفسهم على حافة العالم الحديث. وهكذا

نجد ـ على سبيل المثال ـ أن كريستابل پانكهورست (١٨٨٠ ـ ١٩٥٨م) حولتها تجربة الحرب العالمية الأولى من ناشطة نسائية مناضلة ومشهورة إلى متحدثة باسم القضية قبل الألفية و «العودة الموعودة ليسوع ملك الملوك ورب الأرباب» كما قالت فى أحد أعمالها عن النبوءة التوراتية[١٠٨]. أعلنت بانكهورست قائلة: «ككثير غيرى، كنت أعيش فى مناخ من الوهم، كنت أظن أنه ما أن تزول بعض العقبات ـ لا سيما حرمان المرأة حق الانتخاب ـ ستحدث الانطلاقة نحو النظام الاجتماعى والدولى الأمثل. ولكن عندما واجهت الحقائق فعلاً فى سنة ١٩١٨م رأيت أن الحرب لم تكن حربًا لإنهاء كافة الحروب، بل كانت بداية الأحزان على الرغم من نصرنا الآتى»[١٠٩].

كانت أحداث الحرب العالمية الأولى المفزعة ذات مغزى واضح بالنسبة للعقلية الرؤيوية التى تنظر بعيون النبوءة التوراتية. فاعتُبرت روسيا مملكة جوج التوراتية، واعتُبرت إطاحة البلاشفة بالقيصر فى سنة ١٩١٧م تحقيقًا لنبوءة بسفر حزقيال: «هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَا أَنَذَا عَلَيْكَ يَا جُوجُ»[١١٠]. وإعلان بالفور فى سنة ١٩١٧م الذى ألزم بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وتخليص أورشليم [القدس] من يد الأتراك فى سنة ١٩١٨م على يد الجيش البريطانى، تم تأويلهما بأنهما «بداية لسلسلة من الأحداث مقدر لها أن تنشئ مملكة الرب هنا على الأرض» حسب قول لانجستن، وهو أحد شراح الكتاب المقدس المتحمسين[١١١].

يفسر لانجستن قائلاً: «إن اليهود وأرض فلسطين كالخرائط بالنسبة للملاح. وحين نتدارس النبوءات المتعلقة «بالشعب» و «الأرض» نضع أيدينا على مفتاح أسرار مشيئة الرب وما قدر للعالم»[١١٢].

ومثل دانيال فى بابل ويوحنا فى روما، كان الناس فى أمريكا القرن العشرين مستعدين لرؤية علامات دنو النهاية من حولهم. وكانت «الحروب وشائعات الحروب» تفرز خيوطًا متزايدة من التوقع والانتظار فى الأوساط المسيحية. فحتى نذر الشؤم كانت بالنسبة لهم ولقراء سفر الرؤيا على مدار القرن العشرين يمكن اعتبارها بشائر خير.

وهكذا بدأ سفر الرؤيا يمارس سحره القديم على قلوب المحدثين وعقولهم. ففى

مراحل مختلفة فى التاريخ الطويل للنص القديم ـ كما رأينا ـ كان الرقم ٦٦٦ يُفهم على أنه يشير إلى نيرون أو ألاريك أو ناپـوليون. والآن أصبح الرقم نفسه بالنسبة لأحدث أجيال حلالى الشفرة الرؤيويين إشارة إلى أسماء لينين وستالين وهتلر وموسولينى، بل فرانكلن ديلانو روزڤلت، حسب الموقف السياسى للناظر.

كان بعض الغلو الرؤيوى الذى نشأ غداة الحرب الكبرى شائنًا تمامًا. فكانت الواعظة الپنتاكوستية (العضو بجماعة أحد العَنصرة) إيميه سامپل مكفرسن (١٨٩٠ ـ ١٩٤٤م) لديها القدرة على تحريك رعيتها وجمهور مستمعيها بالإذاعة إلى لحظات من النشوة بخطبها المتقدة عن المجىء الثانى. كانت إيميه ترتدى ثيابًا ملونة، بل أزياء غريبة أيضًا، وتدعمها فرقة مسرحية من خمسين فردًا، وتزعم أنها تؤدى أعمال شفاء دينى و«قتل روحى». وكانت هناك فقرة من سفر الرؤيا تظهر بأعلى صارى «نداء العرس» وهو من إصدارات «كنيسة مكفرسن الدولية للبشارة التربيعية»: «وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ» ...»[113] إلا أنها راحت ضحية عواطفها، إذ شاع عن إقامتها الغامضةَ فى الصحراء أنها لم تكن سوى إقامة مع عشيقها، وهو فنى إذاعى معين بالكنيسة، وتوفيت نتيجة جرعة زائدة من المهدئات.

وهناك أمثلة أخرى هزلية. فهناك جماعة رؤيوية تعرف بـ«بيت داود» ـ على سبيل المثال ـ كانت تعمل على إعادة الأسباط الاثنى عشر المفقودة توقعًا لحلول المملكة الألفية. وكان لـ«بيت داود» فريق لكرة السلة يطلق أعضاؤه لحى طويلة يقصد بها الإيحاء بأنبياء العهد القديم، وكان الفريق يقدم مباريات استعراضية فى أنحاء البلاد بغرض جمع المال واجتذاب أعضاء جدد. وبالإعلان عن أنهم طائفة من العزاب، فإن جماعة «بيت داود» انتهت بفضيحة، حيث ألقى بمنشئها الذى كان يتخذ مظهر الملك بنيامين وزوجته مظهر الملكة مريم فى السجن بتهمتى الاحتيال والغواية.

وهناك استعمالات أخرى كلامية وعلمانية صرفة لمجموعة أيقونات سفر الرؤيا. فكان كتّاب الصفحات الرياضية فى أواسط عشرينيات القرن العشرين يطلقون على اللاعبين الأربعة الذين يشكلون خط دفاع فريق المدرب نيوت روكنى لكرة القدم فى

مدينة نوتردام «الخيالة الأربعة» ، وكانت التسمية نفسها تطلق على أعضاء المحكمة الدستورية العليا الأربعة الذين صوتوا لإسقاط بنود عدة من «الصفقة الجديدة» فى عهد إدارة روزفلت فى ثلاثينيات القرن العشرين. وعندما زعم أحد الوعاظ الرؤيويين بلوس أنجيليس أن «وسم الوحش» كان فى الحقيقة النسر الأزرق الذى اتخذ شعارًا لـ«إدارة الإنقاذ القومى» ـ محور «الصفقة الجديدة» ـ اضطر حتى المراقبون المتدينون للضحك. وكتب إرنست كادمن كولويل فى سنة ١٩٣٧م يقول: «من ذا الذى رآه وتمكن من نسيان التعبير المنتشى على وجه المفسر الذى اكتشف لغز وحش سفر الرؤيا متجسدًا فى «إدارة الإنقاذ القومى» ؟ »(١١٤).

إلا أن أكثر مفسرى سفر الرؤيا إبداعًا كانوا جادين حين كان الأمر يتعلق بالمعانى الجديدة التى يتكهنون بها عن النص التوراتى. فكانوا يجلون التراث الرؤيوى لدرجة أنهم كانوا يعتبرون بينيتو موسولينى أقرب لعدو المسيح من أدولف هتلر ؛ لأن موسولينى كان فى مدينة روما مقر الوثنية الرومانية القديمة وبؤرة الخوف والاشمئزاز فى سفر الرؤيا. بل إن موسولينى لفت المراقبين الرؤيويين المسيحيين فى بدء توليه السلطة فى عشرينيات القرن العشرين، وظل إل دوتشى فى تلافيف لا وعيهم بعد أن أثبت الفوهرر أنه أكثر استبدادًا. يقول راعى الكنيسة المعمدانية بمدينة نيويورك: «لست مهيأ لأن أقول إن الوحش هو ستالين أو هتلر أو موسولينى، ولكنى لا أتردد فى القول بأنهم نذر له وأنهم يمهدون الطريق لمجيئه. وموسولينى يفوقهم جميعًا فى وفرة العلامات فيه»(١١٥).

وهكذا فإن التحية التى ابتكرها حزب موسولينى الفاشى ـ واتخذها النازيون من بعده ـ بالكف المفتوح والذراع المرفوع ـ تم ربطها بفقرة بسفر الرؤيا يقال فيها إن الوحش «يصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِمِ الْيُمْنَى»(١١٦). يقول الإيڤانجليكى هيرستورم: «من المؤكد أن سكان العالم سيُطلب منهم أن يرفعوا أياديهم اليمنى بحركة تشبه التحية الفاشية الحالية حتى يبينوا الوسم فى عهد حكم الوحش»(١١٧). والصورة التى كانت تميز قطعة العملة ذات العشرة سنتات الأمريكية فى ثلاثينيات القرن العشرين ـ حزمة

عصى فى وسطها بلطة بارزة، وكانت فى الأصل تمثل السلطة المطلقة لروما القديمة، ثم اتخذت فيما بعد رمزًا للحزب الفاشى الإيطالى ـ كانت تعد مثالاً آخر لـ «وسم الوحش».

والحقيقة أن مثل هذه التكهنات الرؤيوية لم تؤد إلى مواجهة مباشرة مع موسولينى نفسه إلا مرة واحدة. إذ نجح رالف نورتن وزوجته ـ وهما صحفيان مسيحيان من بلچيكا ـ فى إجراء حديث مع إل دوتشى وسألاه فى معرض اللقاء عما إذا كان يزمع إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية. وحين أجاب باستحالة ذلك، واجه الصحفيان الدكتاتور الفاشى عن النبوءة التى تقول إن روما التى يُرمز لها فى سفر الرؤيا بـ «بَابِلُ أُمُّ الزَّوَانِـي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ»[١١٨] ستولد من جديد ثم تفنى فى آخر الزمان. فرد موسولينى فى دهش قائلاً: «هل ورد هذا فى الكتاب المقدس فعلاً؟ وفى أى موضع ورد؟»[١١٩].

لم يكن موسولينى موضع سخرية بالطبع. فبشاعات الحرب العالمية الثانية فاقت حتى الخيال الرؤيوى، وكانت أشبه ما تكون بما ورد عن معركة أرمجدون. ويسلم عالم اللاهوت راينهولد نيبور فى سنة ١٩٤٠م بأن «تاريخ الإنسانية يتحرك نحو ذروة يصبح الشر فيها أكثر عريًا ووقاحة»[١٢٠]. ومع ذلك فحسابات سفر الرؤيا اللاهوتية تدفع المؤمن الحق لاعتبار أسوأ الفظائع ـ خاصةً أسوأ الفظائع ـ علامة على أن المجىء الثانى يقترب بسرعة.

كتب آرثر ماكسويل المحرر بصحيفة «أدڤنتيست اليوم السابع» الرؤيوية فى مقال له بعنوان «ذروة التاريخ المزدحمة»: «فجأة وسط حضارة القرن العشرين الزاهرة، برزت أسوأ سمات البشرية إلى الصدارة؛ كل المشاعر الشريرة أطلقت من عقالها؛ كل الأرواح الشريرة التى ظن البعض أنها طردت منذ قرون عادت أضعاف ما كانت عليه، وبصورة أكثر انحطاطًا وشيطانية مما كانت عليه. كل المستجدات الغريبة والرهيبة التى تشهدها هذه الحقبة المخيفة ... ليست فى الحقيقة إلا دليلاً آخر على أننا فى وسط أكبر أزمة فى التاريخ»[١٢١].

بعض الأصوليين المسيحيين ممن اعتبروا قيام دولة يهودية فى فلسطين شرطًا للمجىء الثانى، كانوا فى غاية القسوة أيضًا على اليهود من ضحايا المحرقة [المزعومة فى حجمها فى رأى المترجم]. ورد فى نشرة مسيحية صدرت وقت أن كانت المحرقة فى أوجها أن «الرب ربما سمح للشيطان أن يستخدم هتلر أو جويبلز (كذا) أو ستالين لتطهير شعبه ويجعلهم غير راضين بثرائهم ورخائهم. واليهودى مضطر للعودة لأرضه الموعودة، فهو غير مرغوب فيه فى العديد من بقاع الأرض»(١٢٢).

وهكذا كان مشهد النصر على المحور بقوة السلاح مدعاة للإحباط بالنسبة للمتنبئين الرؤيويين؛ لأن هزيمة عدو فانٍ مهما بلغت وحشيته وقسوته لم تكن توازى هزيمة الشيطان. جاء فى «Christian Digest» فى سنة ١٩٤٢م أن «العم سام لن يكون ندًّا لعدو المسيح» فى تلميح لمعركة أرمجدون التى لم تنشب بعد وفى تعبير عن الفرحة بمعرفة أن حمل الرب وحده القادر على هزم الشرير الأكبر. لكن لا هتلر ولا موسولينى يمثل «الوحش»: «فالأسوأ لم يظهر بعد»(١٢٣).

ومن الغريب أن الفكر الرؤيوى يمكن أيضًا رؤيته على جانبى الصراع بين الديمقراطية والشمولية فى الحرب العالمية الثانية. فالنازيون كقراء دانيال والرؤيا الأوائل فى رأى داميان تومسن «كانوا يؤمنون بأنهم ظهروا فى اللحظة الحاسمة فى التاريخ البشرى. فكانت هناك سماء جديدة وأرض جديدة فى متناول يد «النخبة» طالما أنهم لم يرضخوا لقوى العدو». ربما استخف زعماء ألمانيا النازيون بعيسى المسيح الرقيق الرئيف - أعلن مارتن بورمن فى سنة ١٩٤١م قائلاً: «الاشتراكية القومية والمسيحية لا تتفقان»(١٢٤) - إلا أن هتلر أدرك القوة الرهيبة للمثال الألفى بوضوح. يقول تومسن: «لا شك أن حكم القديسين الألفى يكمن وراء فكرة الرايخ الألفى»(١٢٥).

تمثل ألمانيا النازية نموذجًا للفظائع التى يمكن أن تحدث حين تجتمع العاطفة الرؤيوية والإيمان الحق فى قلوب البشر المتحضرين وعقولهم. يقول تومسن: «من الغريب أن النازية كان ينبغى أن تتبنى - عن غير وعى - بنية الإيمان كما طورها اليهود وإن لم يكونوا بالضرورة من ابتدعها» فى إشارة إلى أن التراث الرؤيوى فى اليهودية يبدأ بسفر

دانيال. «أما بالنسبة للدم أو البغض الخبيث الخالص للعدو، فإن دانيال وأقدم الكتابات الرؤيوية لا ينافسان صراع النازيين الرؤيوى؛ ففى ذلك علينا الرجوع لسفر الرؤيا». فبالنسبة للنازيين كما هو بالنسبة لسفر الرؤيا، كان المتصور أن الخصم «شر خالص ... فى هيئة بشرية» و«مرن لدرجة يستحيل معها هزمه إلا فى حرب كونية»، وهى قناعة ركنوا إليها فى تنفيذ جرائم المحرقة(١٢٦).

يمكن تبين «الجذور الألفية للنازية» فى دراسة نورمن كون عن العنف الرؤيوى فى العصور الوسطى وعنوانها «السعى وراء الألفية ـ The Pursuit of the Millennium». يعود كون إلى التجاوزات الرؤيوية كالقتل الجماعى لليهود إبان الحملة الصليبية الأولى، ولكنه تم دفعه لأداء عمله حين استدعى كضابط استخبارات فى الحرب العالمية الثانية لاستجواب الأسرى، وبالتالى وجد نفسه فى مواجهة «مناخ فكرى» يمكن للمرء فيه أن يشعر بأن إلقاء الأطفال فى الأفران أو طرد ملايين الناس وتركهم يموتون بردًا أو جوعًا يعد خيرًا وصوابًا»(١٢٧).

ومع ذلك أفرزت الحرب العالمية الثانية شيئًا جديدًا تمامًا فى التراث الرؤيوى. فمؤلفا سفرى دانيال والرؤيا تمكنا من تصور نهاية العالم، إلا أن التجربة الإنسانية تؤكد أن العالم لا يفنى بهذه السهولة. فإبادة الجنس البشرى وتدمير الحضارة البشرية أمر يفوق قدرة البرابرة أو جيوش الإسلام(*) أو الأسطول الإسپانى أو كتائب ناپوليون، والتى كانت كلها تعد من عمل الشيطان. فالعالم مرة أخرى يأبى الفناء.

فى الخامسة والنصف من صباح السادس عشر من يولية سنة ١٩٤٥م، أثبت

(*) ليست «جيوش الإسلام» التى تعربد فى العالم منذ عصر النهضة، بل جيوش الغرب هى التى شنت الحملات الصليبية على أرض الإسلام وقتلت اليهود فى أوروپا كما ذكر المؤلف نفسه فى موضع سابق من هذا الكتاب، وهى التى قتلت ما يقرب من مائة مليون نفس بشرية فى حربين عالميتين، وهى التى أبادت اليابانيين فى هيروشيما وناجازاكى بالقنابل الذرية فى سنة ١٩٤٥م والڤيتناميين حتى أوائل السبعينيات والعراقيين والأفغان حتى الآن، وجيش الكيان الإسرائيلى المرتزق هو الذى لا يزال يقتل المسلمين ويعربد بوحشية وبرعاية غربية كاملة. هذا فى حين أن هؤلاء المسلمين الذين يهاجمهم المؤلف لم يسعوا قط إلى تدمير العالم لسبب بسيط هو أن كتابهم لا يحوى «نصًّا مقدسًا» كهذا الذى يحض على البغض ويستعجل فناء الأرض ومن عليها ـ المترجم.

تفجير أول قنبلة ذرية فى العالم بصحراء نيومكسيكو أن القدرة على تدمير العالم موجودة فعلاً. فنجاح إطلاق سلاح نووى أطلق عليه اسم «ثالوث» أفرز ظاهرة غريبة هى أن مادة السيليكا فى رمال الصحراء اندمجت واستحالت زجاجًا صلبًا لمسافة ثمانمائة ياردة فى كل اتجاه من نقطة التفجير. والمشهد بالنسبة لقراء سفر الرؤيا يذكر بإحدى الرؤى عن عرش الرب فى النص القديم:

«وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ هِي سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ. وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ»[١٢٨].

بل إن مرأى أول انفجار حرارى نووى فى تاريخ العالم ألهم ج. روبن أوپنهايمر الذى يعرف بـ «أبى القنبلة الذرية» بحلم رؤيوى، ولكنه استعار من التراث الهندوسى ما يصف به ما رأى فى الدخان والنار. فقال «أصبحت موتًا»، ثم استشهد أوپنهايمر فيما بعد بكلمات من كتاب الـ «ڤيشنو» الهندوسى المقدس تقول: «أصبحتُ أنا الموت مهلك العوالم»[١٢٩].

إلا أن إدراك أية غيبيات فى السحابة الأيقونية التى تشبه عيش الغراب الناجمة عن «ثالوث» يحد من مغزى ما رأى أوپنهايمر فى تلك اللحظة، أى تجربة علمية تثبت قدرة الجنس البشرى على تدمير نفسه. فبتفجير أول قنبلة ذرية حقق سفر الرؤيا قفزة نوعية إلى نطاق جديد لم يسبق تصوره، واضطر الجنس البشرى فجأة لمواجهة معلومة رهيبة مفادها أن نهاية العالم لا تحتاج إلى الغيب على الإطلاق.



الفصل السابع

رؤيا بلا إله

« الأشياء تنهار، والمركز لا يستطيع الصمود، والفوضى أطلقت على العالم. من المؤكد أن هناك رؤيا فى الأفق »

ويليام بتلر ييتس «المجىء الثانى»

هناك رؤيا خاصة تعتمل فى المشاهد الأخيرة من «على الشاطئ» وهو فيلم سينمائى يرجع لسنة ١٩٥٩م يتخيل نشوب حرب نووية لا ينجو منها أحد. فيحدث تبادل لإطلاق القنابل الذرية تنجم عنه سحابة سامة من النشاط الإشعاعى تلف الأرض وتقتل فى طريقها الكائنات الحية جميعًا فى صمت، ويبقى آخر الناجين من البشر فى انتظار المصير نفسه فى أستراليا البعيدة. كل إنسان رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً على الأرض ــ بما فى ذلك جريجورى بك فى دور قائد غواصة نووية أمريكية، وأفاجاردنر فى دور حبيبته الأسترالية ـ ينتظرون أن يهلكوا بالإشعاع فى موت بطىء رهيب مؤكد ما لم يجدوا سبيلاً للانتحار قبل الموت البطىء.

قد يبدو الفيلم لأول وهلة مجرد تنويعة أخرى على التيمة الرؤيوية التى يمكن إدراكها فيما لا يحصى من كتب وأفلام أنتجت فى أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين تتناول نهاية العالم. وسبب الدمار فى بعض من هذه الكتب والأفلام غزو من خارج الأرض أو كارثة بيئية، ولكنه فى الغالب حرب نووية أو وحش ينجم عن تشوه چينى ينتج عن الجحيم الإشعاعى على الأرض. وكل هذه المنتجات ــ من بنات الثقافة الشعبية كفيلم «على الشاطئ» نفسه ـ تشترك فى شعور واحد بالكآبة والشؤم حقنته أولاً فى الوعى الأمريكى هيروشيما وناجازاكى، ولم يتفاقم إلا حين تنافست الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتى فيما بينهما من أجل تحقيق التكافؤ فى ترسانتهما النووية المتنامية، وهى سياسة الردع النووى المتبادل، والذى عرف فيما بعد بـ«الدمار المتبادل المؤكد».

إلا أن فيلم «على الشاطئ» ليس إعادة إخراج لسفر الرؤيا فى ثوب حديث، وليس للرب أو لإبليس دور فى نهاية العالم فيه. بل اللوم كله يقع على البشر. يقول العالِم الذى يقوم بدوره فريد أستير الطاعن فى السن الذى سأم العالم ويتم تسميمه بسبب دوره فى تصميم السلاح الذرى قبل أن يواجه الموت بالإشعاع: «الحرب اللعينة برمتها كانت صدفة. وفى النهاية لو أتيحت لنا مهلة للتأمل سنجد أن حضارتنا المزعومة دمرتها حفنة من الأنابيب الفارغة والترانزستورات». ثم يضيف بعبارة جانبية: «وربما كانت معيوبة أيضًا».

لا يرد للرب ذكر فى الفيلم إلا مرتين وإلا شفهيًّا. حيث يلقى أحد وعاظ «جيش الخلاص» خطبة ختامية فى قليل من الناس يجتمعون فى الطريق، حيث يتم توزيع حبوب انتحار حكومية، فيقول: «يا رب، أعطنا القوة. أعنا على فهم سبب هذا الجنون على الأرض، وأن نفهم لمَ دمرنا أنفسنا»[1]. وضابط بحرية شاب جاد يقوم بدوره أنتونى پيركنز يبتهل للرب فى غمرة أساه على مهمته الأبوية وهو يعطى جرعة السم لابنته الصغيرة بعد ظهور بوادر أعراض المرض الإشعاعى عليها، فيتمتم قائلا: «يا رب، يا رب اغفر لنا».

بل إن هذا الفيلم يشرد عن التراث الرؤيوى فى كلّ من اليهودية والمسيحية؛ لأنه لا يقدم أى أمل فى النجاة ولو لقلة من القديسين والشهداء، فكل من على الأرض هالكون سواء بالانتحار أو بالإشعاع، وينتهى التاريخ للأبد وبلا عودة. بل إن هذا ما يميز فيلم «على الشاطئ» عن معظم الكتب والأفلام الأخرى فى حقبة ما بعد الحرب والتى تركز على الناجين غير الخائفين. ومن اللحظات المؤثرة مشهد يصور ضابط البحرية الشاب بعد أن أعطى طفلته جرعة السم يعد قدحًا من الشاى المسموم لزوجته وهى بثياب النوم. وكانت حتى ذلك الوقت ترفض التسليم بأن العالم سينتهى، ولكنها تستسلم أخيرًا لقدرها. وتكون آخر كلماتها «حبيبى، أنا الآن مستعدة لقدحى من الشاى» وهو تعبير مجازى عن اليأس والعجز.

نحن إذن أمام سفر رؤيا بلا إله، ليس أمام البشرية فيها من تلقى عليه اللوم إلا نفسها، والأهم أنه ليس لديها من تلجأ إليه طلبًا للنجاة أو الخلاص. ويتحقق الهدف

فى آخر مشاهد الفيلم حيث نرى للمرة الثانية العلَم الموحى الذى عرض من قبل فى تعبئة «جيش الخلاص». يرفرف العلَم مهلهلاً رثًّا فوق طريق خلا من الحياة البشرية موحيًا بأن رسالته المشجعة «لا يزال هناك وقت يا أخى» باتت بلا معنى[٢].

وحتى لو كان سفر الرؤيا فى هولى وود لا يسمح بدور للرب، تبقى حقيقة فحواها أن فيلم «على الشاطئ» يحمل بضعة خيوط من الحمض النووى اللاهوتى الموجود فى سفرى الرؤيا ودانيال. فبعض الصدمات التى كانت تصيب الناس لمرأى اللوحات الكنسية أو المواد المطبوعة على الحجر فى عهد سابق ـ مشاهد يوم القيامة لمايكل أنجلو على سقف كنيسة سستين مثلاً، أو طبعة دورر المصورة من رؤيا القديس يوحنا ـ أصبحت تعرض ويتم تأملها على الشاشة الفضية. ونواتج الخيال الإنسانى هذه ـ من سفر دانيال إلى الرؤيا إلى أحدث الأفلام والمسلسلات الرؤيوية كلها ـ تطرح التساؤلات القديمة والمخيفة ذاتها: متى ينتهى العالم، وكيف، وماذا سيحدث بعده؟

ربما كان فيلم «على الشاطئ» تعبيرًا يائسًا عن حالة ذهنية رؤيوية سادت الخيال الأمريكى فى أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، أى «طفرة شؤم ما بعد الحرب» حسب وصف ستيفن أوليرى وهو باحث وناقد متخصص فى دراسة الفكر الرؤيوى فى السياسة الحديثة والثقافة الشعبية[٣]. وبدلاً من رؤساء الملائكة المنتقمين كجبرائيل وميخائيل، أصبحت الشخصيات السماوية فى نسخة الثقافة الشعبية من آخر الزمان أناس من كوكب الزهرة أو المريخ، وبدلاً من وحوش سفر الرؤيا الشيطانية صارت الوحوش من الزواحف كجودزيلا أو حشرات متحورة كالنمل العملاق فى فيلم «Them». ولكن صحيح أيضًا أن الخيال العلمى الرؤيوى يهتم بالآمال والمخاوف نفسها التى يتناولها سفر الرؤيا، ومعظم الكتب والأفلام التى تتخيل نهاية العالم تتخيل أيضًا «جنة جديدة» و«أرضًا جديدة» كسفر الرؤيا (ولكن ليس كفيلم «على الشاطئ») تنجو فيه النخبة وتزدهر.

تقول الناقدة والمراقبة الثقافية سوزن زونتاج فى مقال لها بعنوان «تخيل الكارثة» إن «أفلام الخيال العلمى لا تتناول العلم، بل تتناول الكوارث التى هى من أقدم موضوعات الفن. ومجازات الخيال العلمى تعد من الخرافات المتعلقة بالقلق الإنسانى

الدائم من الموت، ومن سبل التواؤم معه وإنكاره (خرافات الجنة والنار والأشباح كانت تؤدى الغرض نفسه)»[٤].

يلاحظ أن الرب لا يظهر على الإطلاق فى معظم الخيال العلمى الرؤيوى فى حقبة ما بعد الحرب. حتى «ديوس إيراى» لفيليپ ديك وروجر زيلازنى، وهى رواية معقدة لاهوتيًّا تدور حول ناجٍ من محرقة نووية فقد أطرافه يبحث عن الرب، وينتهى برؤيا صادمة مفادها أن «رب النقمة» الذى يبحث عنه هو فى الحقيقة العالِم الحكومى الذى صمم «آلات الشر التى أظهرت «رب» الكنيسة المسيحية على حقيقته، فهو إله هزيل إن لم يكن وهميًّا أصلاً»[٥].

يقول ديك، وزيلازنى فى إشارة إلى الرسول التوراتى: «إن العدو الأخير الذى تعرف عليه بولس ـ الموت ـ كُتب له النصر فى النهاية، وبولس مات بلا مقابل. لم يكن الموت عدوًّا أو العدو الأخير كما كان يظن بولس، بل الموت خلاص من العبودية لرب الحياة ديوس إيراى. فبالموت يتحرر الإنسان منه، وليس إلا بالموت»[٦].

والخلاص فى الخيال العلمى الرؤيوى، إن وجد أصلاً، يأتى لا من عند الرب، بل من عند البشر. وعنوان «رجل الياء ــ The Omega Man» يشير بشكل مباشر بالطبع إلى سفر الرؤيا («أنا الألف والياء، الأول والآخِر»)، إلا أن بطل الفيلم رجل فانٍ قام بدوره شارلتون هيستون الذى يتمكن من هزم الناجين المشوهين والذين يتسمون بقدر من الشيطانية من حرب بيولوچية مروعة لمجرد أن كان بحوزته رشاش نصف آلى ومولد كهربائى وعبوة من البنزين ومعمل يقوم فيه بتحضير دواء للوباء الذى قتل أو شوه كل من بقى على وجه الأرض. وينتهى الفيلم بصورة مسيحية صرفة ــ فالشخصية التى يؤديها هيستون يصاب بضربة رمح ويموت فى وضع يشبه وضع المسيح على الصليب ـ والأمل الأخير لنجاة البشرية قنينة من دمه، ولكن لمجرد أنه يحتوى على أجسام حيوية مضادة تبقى على حياة بقية الناجين. يقول أحد الناجين المتفائلين للمخلِّص البشرى: «كان بوسعك أن تنقذ العالم أيها المسيح»، ويسأله أحد آخر الأطفال الباقين على الأرض قائلا: «هل أنت الرب؟»[٧].

والتيمة ذاتها ـ أى العالِم والمخلِّص ـ يمكن العثور عليها بين العلماء الحقيقيين

ممن شعروا بأنهم مدعوون لعمل نبوءة دنيوية فى عالم ما بعد الحرب. فقد قامت «دورية علماء الذرة ـ The Bulletin of Atomic Scientists» مثلاً، بتصنيع ما عرف بـ«ساعة القيامة» لتكون آلة ترفع الوعى لدى الساسة والقواد العسكريين والمواطنين بما للانتشار النووى من عواقب وخيمة. إلا أن «ساعة القيامة» ـ وهى رمز لحقبة الحرب الباردة ـ تستغل المخاوف التى ألمت بالخيال البشرى منذ العصر التوراتى. يقول ستيفن أوليرى: «كأتباع عيسى ويوحنا المعمدان الأولين، كان العلماء الذين حاولوا دخول الساحة السياسية فى أواخر أربعينيات القرن العشرين يحركهم اقتناعهم الآنى بأن الوقت قصير، والدمار محقق ما لم نغير مسارنا»[٨].

اكتمل فك الارتباط بين الرب وآخر الزمان فى السياسة والثقافة الشعبية فى أواسط ستينيات القرن العشرين، بل أصبح من الممكن اعتبار نهاية العالم مادة مناسبة للهزل. ففيلم «على الشاطئ» الذى عرض فى سنة ١٩٦٤م يتناول نهاية العالم بيأس تام. وجاءت سنة ١٩٦٤م والعالم لا يزال قائمًا. وعندما ألقى ستانلى كوبريك نظرة أخرى على السيناريو نفسه رأى فيه مادة للضحك. والعالم ينتهى مرة واحدة وللأبد فى «دكتور سترينچلاف، أو كيف تعلمتُ أن أكف عن القلق وأن أحب القنبلة»، لكن الكوميديا فيه قاتمة كأقتم ما يكون الهزل.

واللوم فى فيلم «د. سترينچلاف» يقع مرة أخرى على الفشل الإنسانى دون سواه. فيوجه قائد مارق من قواد القوات الجوية الأمريكية ضربة نووية للاتحاد السوفييتى على أمل إقناع الرئيس بإصدار أمر بتوجيه ضربة شاملة. ويقول أحد طيارى المقاتلة ب٥٢ وهو يقايض خوذته بقبعة رعاة بقر بالية: «أظن أن الوقت حان يا أولاد». ولكن يتبين أن السوفييت قاموا سرًّا بنشر «جهاز القيامة» المبرمج للرد على أى هجوم أمريكى بتفجير مخزون مخبأ عملاق من المتفجرات النووية الحرارية يصنع «كفن القيامة» وهى «سحابة مميتة من النشاط الإشعاعى تلف الأرض لمدة ثلاث وتسعين سنة» و«تقضى على كافة أشكال الحياة البشرية والحيوانية». فإذا سقطت قنبلة واحدة على الأراضى السوفييتية فإن العالم هالك لا محالة.

ولا يرد أى ذكر للرب أو لإبليس على لسان كوبريك ومعاونيه فى فيلم

« د. سترينچلاف » ، ولكنهم ربما تنبهوا لسيناريو آخر الزمان بسفر الرؤيا فى تصميمهم المشهد النهائى للفيلم. ففى مواجهة الدمار التام للجنس البشرى ، تتشبث العبقرية العلمية المختلة التى تسمى د. سترينچلاف بالأمل فى « سماء جديدة وأرض جديدة » . إذ يمكن إيواء بضع مئات الآلاف من الرجال والنساء ـ « نواة للنوع البشرى » ـ فى « قاع بعض جذوع مناجمنا العميقة » لمدة قرن أو ما شابه. ويتم اختيار الرجال بناء على فحولتهم والنساء لجاذبيتهن الجنسية. وكقراء سفر الرؤيا القدامى الذين تصوروا المملكة الألفية حقبة من الوفرة والرخاء تم تخيل الأرض الجديدة فردوسًا حسية بالنسبة لمن بقوا لرؤيتها.

يقول د. سترينچلاف : « سيتناسلون بصورة مذهلة طبعًا ، ولكن باللجوء لتقنيات التناسل المناسبة ، ومعدل عشر إناث لكل ذكر ، مثلاً ، يمكن العودة لإجمالى الناتج القومى الحالى فى خلال عشرين سنة فى تقديرى » . وعندما يخرج الناجون من الوهدة سيكون الرجال والنساء الذين تم اعتبارهم مؤهلين للحياة فى « الأرض الجديدة » جاهزين للعالم الجديد على السطح. ويستنتج أن « العاطفة السائدة ستكون عاطفة الحنين لمن رحلوا تختلط بروح من حب الاستطلاع الجرىء تجاه المغامرة المقبلة »[٩].

ولكن فى اللحظة التى يبلغ التفاؤل فيها أوجه ، تصل طائرة أمريكية واحدة هدفها الاتحاد السوڤييتى ويتم إطلاق « جهاز القيامة » فيمتلئ الجو فجأة بسلسلة من السحب على شكل عيش الغراب ، وهى الصورة الرمزية للعصر الذرى. وكما فى فيلم « على الشاطئ » ـ ومرة أخرى على خلاف الكتب والأفلام الأخرى من النوع الرؤيوى ـ ينتهى فيلم « د. سترينچلاف » دون أمل فى بقاء البشرية. تقول كلمات الأغنية التى وضعت على صورة التفجيرات النووية الحرارية : « سنلتقى مرة أخرى ، لا أدرى أين ، ولا أدرى متى » . والأغنية تصلح لأن تكون موسيقى تصويرية مصاحبة لسفر الرؤيا ، إلا أن كلماتها تتسم بسخرية مريرة.

ومع ذلك فليس كل من فى أمريكا فى حقبة ما بعد الحرب يشارك فى وجهة النظر الدنيوية والتهكمية التى تميز فيلم « د. سترينچلاف » . فالمسلَّمات المريحة للدين بصورته القديمة ـ بما فى ذلك نهاية العالم كما هى فى القراءة قبل الألفية لسفر الرؤيا ـ ظلت حية إلى حد كبير. بل إن هناك مفهومين رؤيويين متنافسين يتعايشان فى أمريكا ، يقوم

أحدهما على العلم والآخر على الدين. فوجهة النظر التى تفيد بأن العالم قد ينتهى بحريق نووى ينسجم تمامًا عند المتدينين مع الإيمان بأن ذلك سيكون بمشيئة الرب لا البشر. فيعلن الأب تشارلز چونز راعى إحدى الكنائس المعمدانية فى أماريو تكساس والتى تضم فى رعيتها العديد من العاملين فى مصنع بانتكس لتجميع القنابل الهيدروچينية: «ذات يوم قد نفجر أنفسنا بكل ما لدينا من قنابل، ومع ذلك فما زلت أؤمن بأن الرب سيظل هو المهيمن. فإذا ما شاء أن تنشب حرب نووية فمن أنا حتى أمارى فى ذلك؟»[١٠].

والحقيقة أن الأصولية المسيحية أنتجت نسختها الخاصة النابعة من الثقافة الشعبية من الفكر الرؤيوى، وتشمل كتبًا وأفلامًا وفكاهيات وصورًا وأشكالاً متنوعة من السلع الموحية. فالمتدين قد يبتاع «ساعة صعود» على سطحها رسالة تذكر حاملها بأن النهاية وشيكة ـ«اقتربتَ ساعة من عودة الرب»ـ أو تعرض لافتة تنبه المسافرين إلى أن السائق قد «يُخطف» إلى السماء فى أية لحظة: «إذا سمعتَ نفيرًا تشبث بالمقود»[١١].

والرؤى عما سيحدث عندما ينتقل المسيحيون فجأة إلى السماء قد تكون مخيفة ـ«قبور تنفجر وطائرات تهوى وعربات تخرج عن السيطرة»ـ أو مرحة. يقول پول بوير: «فى إحدى لوحات الصعود نرى زوجًا يدفع بآلة جز النجيل بالضواحى وينظر فاغرًا فاه لزوجته وهى تحلق بمريلتها فوق حبال الغسيل لتلقَى يسوع»[١٢]. وكان المقابل الحديث لعمل يرجع للعصور الوسطى حقق أفضل المبيعات ككتاب «علامات القيامة الخمس عشرة» دليلاً بعنوان «كيف تميز عدو المسيح؟».

والصغار فى الأسر الأصولية، تتم تنشئتهم من الطفولة على التوقع الدائم لنهاية العالم. يقول تيموثى ويبر: «كثير ممن شبوا فى أسر قبل ألفية لديهم قصص رهيبة يروونها عن عودة المرء لبيته فيجده خاليًا أو يجد نفسه فجأة وحيدًا فى أحد المتاجر الكبرى فيستنتج بالفطرة أن يسوع جاء وتركه»[١٣]. وتروى الروائية رودا هفى التى كان والداها واعظين خمسينيين (من طائفة أحد العَنصرة) عن حالة طفلة فى الحادية عشرة تنشأ على اقتناع بأنها ستُترك وحيدة بعد أن يُخطف والداها إلى السماء. تقول هفى فى رواية هى شبه سيرة ذاتية لها بعنوان «The Hallelujah Side»: «إذا غادر المسيحيون

فلا يزال هناك طريق آخر يقتضى منك أن تقطع رأسك. كان هذا فى سفر الرؤيا، ذلك السفر الرهيب. يمتطى المسيح الدجال صهوة جواده الداكن اللون ليسم جبهتك بوسم الوحش: ٦٦٦. وإذا رفضتَ فإنه يقطع رقبتك بمنجل فتصعد إلى السماء من فورك. إذن ليس هناك شىء تخشاه»[١٤].

إلا أن الثقافة الفرعية الرؤيوية لم تكن قاصرة على الخطب والمواعظ والرسائل والكتب الهزلية مهما كانت ملونة ومبتكرة. وكما أحسن أتباع ميلر استغلال أحدث تقنيات الطباعة السريعة بأواسط القرن التاسع عشر، سارع المتنبئون بيوم القيامة فى القرن العشرين لاستغلال أحدث تقنيات الاتصال المكثف. ففى سنة ١٩٣٦م، مثلاً، تأمل أحد الواعظين المتحمسين نبوءة سفر الرؤيا الشهيرة التى تقول «هُوَ ذَا يَأْتِى مَعَ السَّحَابِ وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ»[١٥] ثم قدم تفسيره لما قصد المؤلف التوراتى فقال: «كان علينا فيما مضى أن نركن إلى التفسير القائل بأن هذا لا يعنى بالضرورة أن الكل سيرون الرب آتيًا فى تلافيف سحب السماء فى وقت واحد، لكننا الآن نعلم أن هذا المشهد البهيج يمكن للعالم كله أن يراه فى لحظة وقوعه على شاشات التليفزيون»[١٦].

تم تخصيص بعض البرامج الأولى التى أذيعت بأحدث اختراع فى وقته والذى يعرف بالمذياع للتدين بصورته القديمة. فبدأ «معهد مودى للكتاب المقدس» بثه، مثلاً، فى أوائل الثلاثينيات على محطته الإذاعية القوية، وكان هناك برنامج إذاعى دينى من الوزن الثقيل بعنوان «ساعة اليقظة الدينية على الطراز القديم» صادرٌ من لونج بيتش بولاية كاليفورنيا وكان يتم بثه عبر أربعمائة وخمسين محطة إذاعية فى أنحاء الولايات المتحدة فى الأربعينيات. حتى شبكة سى بى إس الإذاعية كانت تبث برنامجًا أسبوعيًّا دينيًّا يقدمه دونالد جراى بارنهاوس (١٨٩٥ ــ ١٩٦٠م) محرر مجلة رؤيوية بعنوان «الرؤيا». وأعلن بارنهاوس ذات مرة قائلا: «لو سقطت القنابل الذرية على مدننا سنكون فى الجنة فى اللحظة التالية»[١٧].

ومن الوعاظ ذوى الشخصية الكارزمية من اكتشفوا قوة تأثير التليفزيون فتحولوا إلى نجوم كبار ذوى صدقية فى الأوساط المسيحية. ويمكن إرجاع الفضل لكل من أورال روبرتس (ولد ١٩١٨م) وبيلى جراهام (ولد ١٩١٨م) فى استحداث الوعظ الإيڤانجليكى

التليفزيونى ؛ بدأ كلا الكاهنين كواعظين إحيائيين فى السرادقات ، ولكنهما انتقلا للإذاعة فى الأربعينيات وللتليفزيون فى الخمسينيات. وتبعهما جيل كامل من الوعاظ الأصوليين أشهرهم پات روبرتسن (ولد ١٩٣٠م) وركس همبرد (ولد ١٩١٩م) وتيموثى لاهاى (ولد ١٩٢٦م) وچيمى سواجرت (ولد ١٩٣٥م) وچين باكر (ولد ١٩٣٩م) وچيرى فالويل (ولد ١٩٣٣م)، وأصبح الأخير يوصف بأنه «أمير الكنيسة الإلكترونية»[١٨].

استند كل هؤلاء فى وعظهم (وفى نداءاتهم لجمع الأموال) إلى مصطلحات رؤيوية واضحة ، ولعبوا على مخاوف رعيتهم الإلكترونية وآمالهم بالطريقة نفسها التى خاطب بها مؤلف سفر الرؤيا قراءه وسامعيه الأوائل. ومن الغريب أن الصحف اليومية وأفلام الخيال العلمى بعد ظهر السبت ، أخذت تدعم النبوءات الملحة عن نهاية العالم. فحذر بيلى جراهام إبان حملة ١٩٥٠م الصليبية قائلا : «قد يكون أمامنا سنة أخرى أو سنتان للعمل من أجل يسوع المسيح وبعدها أيها السيدات والسادة سينتهى كل شىء»[١٩].

ظل الفكر الرؤيوى فى الأصولية المسيحية دائمًا على الجانب الأقصى من انقسام حضارى ما فى أمريكا. وكمؤلف سفر الرؤيا الذى كان يعادى الحضارة الكلاسيكية التى عاش فى كنفها ومارس وعظه ، أدان قراء سفر الرؤيا المحدثون بعضًا من أشهر سمات الحضارة الأمريكية. فهم يخافون الأعمال التجارية الكبرى والحكومة الكبيرة والعمالة الكبيرة ؛ ويثير اشمئزازهم اللهو المتاح فى دور السينما المحلية وفى الإذاعة والتليفزيون ، واستغلوا «الترسانة اللغوية» لسفر الرؤيا فى إدانة العالم الآثم الشيطانى الذى وجدوا أنفسهم فيه.

ومن المتنبئين الأمريكيين من سلطوا الضوء على الإيجابيات فيما يتعلق بنهاية العالم. فالمملكة الألفية ، مثلاً ، يتم الترويج لها أحيانًا بوصفها نسخة سماوية من الحلم الأمريكى. فأعلن أحد الوعاظ قائلا : «كل إنسان سيكون سيد نفسه فى العمل ، ويتمتع بثمار عمله كاملة. كل فرد من سكان العالم فى ذلك العهد سيكون مستقلاً لديه ممتلكاته الخاصة وبيته الخاص ويعول أسرته فى وفرة». وحسَب واعظ آخر حسبة متفائلة ذهب فيها إلى أن «النسبة بين الفاقد والوفر سيكون ١ إلى ١٧٤٧٦». وهناك إيڤانجليكى مرتبط بـ «معهد مودى للكتاب المقدس» سلم جدلاً بأن «الرب سيحاسب

أمريكا ذات يوم» ولكنه أكد قائلا: «لدينا ما يبرر أملنا فى أن تسلم بلادنا وأن يشارك الأمريكيون فى فرحة المملكة»[٢٠].

إلا أن جذوة البغض والانتقام المتقدة فى قلب سفر الرؤيا توشك دائمًا على التحول إلى لهب. فأعلن الواعظ الإذاعى الرائد دونالد جراى بارنهاوس بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل قائلا: «إن الولايات المتحدة تهرول وراء آلهة غريبة: جشع نقابات العمال وشهوة هولى وود وفجور الجماهير وهى تستغيث بالسماء للحساب»[٢١]. وهناك واعظ فى سنة ١٩٤٩م أدان المدارس العامة ـ «الملحدة التى لا كتاب مقدس لها ولا مسيح» ـ لأنها «تمهد الطريق لمجىء عدو المسيح»[٢٢]. وعزا ديهان مؤلف رواية رؤيوية بعنوان «أيام نوح ـ The Days of Noah» (١٩٦٣م) اضمحلال أمريكا الأخلاقى لـ«النسوة اللائى يتركن بيوتهن وأطفالهن ليعملن بالمصانع والحوانيت والمصالح الحكومية»، ووصف «جنون الناس بسحر الموسيقى الشعبية والصراخ والقهقهة والتأوهات وكلام الأطفال وأنات القردة»[٢٣].

وإذا جردت النسخة الأمريكية من الرؤيوية من قشرتها الخارجية، يتضح أنها سلاح فى الحرب الحضارية بين الأصولية والعالم الحديث. فأعلن ديڤيد ويلكرسن فى سنة ١٩٨٥م قائلا: «سيحاسب الرب أمريكا على ما بها من عنف وجرائم و ردة وقتل ملايين الأطفال، وتفاخر بالشذوذ الجنسى، وتلذذ بتعذيب الغير وبتعذيب الذات، وفساد وخمر ومخدرات، وعلى فتورها تجاه المسيح، وعلى الطلاق والزنا والعرى والإباحية وعلى التحرش بالأطفال، وعلى الغش والسرقة، وعلى أفلامها القذرة وممارساتها الخفية. إن أمريكا اليوم ليست سوى حفل كبير يضم ملايين من السكارى والمساطيل يلوحون بقبضات أيديهم نحو الرب يتحدّونه أن يرسل القنابل»[٢٤].

ومن الوعاظ الرؤيويين من جمعوا كافة العلل التى يرون فى أمريكا المعاصرة فى شبكة تآمرية ضخمة يتربع الشيطان فى مركزها خافيًا، ولكن لا تخطئه العين. وفى لحظة ما يقال إن عناصر «المؤامرة الكونية التى تهدف لتنصيب عدو المسيح» تشمل المصرفيين والتغذية الارتجاعية الحيوية وبطاقات الائتمان والحواسب ومجالس العلاقات الخارجية والحركة النسائية وعلم النفس الفرويدى والمرشدين الروحيين الهنود و«اليهود

الـدوليين » والسـحاق والماسـونية ومـدارس «مـونتيزورى » والنزعـة الإنسـانية العلمانيـة و«اللجنـة الثلاثيـة» والأرقـام الكوديـة الدوليـة للمنتجـات والأمـم المتحـدة، وتسـتمر القائمة طبعًا[٢٥]. حتى «پروتوكولات حكماء صهيون» التى ثبت منذ مـدة طويلـة أنهـا عمل دعائى معادٍ للسامية اختلقه البوليس السرى لروسيا الاستعمارية لا يـزال يـبرز إلى السطح من حين لآخر فى الأوساط الرؤيوية.

تبدأ نظرية المؤامرة فى نص سفر الرؤيا حيث ينبه المؤلف قـراءه وسـامعيه إلى مخـاطر «أعماق الشيطان» ويحذرهم من خفايا مشيئة الشيطان التى تنفذ عبر الكائنات التى هـى عملاؤه وزبانيته[٢٦]. من ثم فكل ظاهرة جديـدة غير مألوفـة فـى أمريكـا مـا بعـد الحـرب كان المتدينون الرؤيويون يرون فيها تجليًا آخر للمؤامرة الشيطانية نفسها. فالثورة التقنية، مثلاً، والتى أدخلت الحواسب فى شتى مناحى الحياة الأمريكية أوحت لبعض قراء سفر الرؤيا أن يروا فى أرقام بطاقات الائتمان والأرقام الكودية لتحديـد أثمـان السـلع «وسـم الوحش». وكما يقول مؤلف سفر الرؤيا: «لاَ يَقْدِر أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِى أَوْ يَبِيعَ إلا مَـنْ لَـهُ السِّـمَةُ أَوِ اسْـمُ الْـوَحْش أَوْ عَـدَدُ اسْمِهِ»[٢٧]. بـل إن قلـة مـن الرؤيـويين تؤكـد أن عـدو المسيح سيكون حاسبًا آليًّا[٢٨].

ولكن من المفارقات أن نظريات المؤامرة كانت فى الحقيقة مصدر راحة ـ«مرسـاة... فى عالم من الشك والريبة» ـ لكل من حيرتهم الاضـطرابات الحضـارية والسياسـية فـى أمريكا ما بعد الحرب[٢٩]. وحيثما رأى المراقب العلمانى «معنى ضمنيًّا من التآمر وعقـدة الاضـطهاد والاغـتراب الاجتمـاعى» فـى الـوعظ الرؤيـوى، يـرى المؤمن المتـدين رؤيـا تضفى على التاريخ «بعـدًا دراميًّا ومعنـى» حسـب قـول پـول بـوير. بـل إن الأمـريكيين المستريحين الراضين الـذين لا يضـايقهم إلا الملـل والضـجر يجتـذبهم مـا بسـفر الرؤيـا مـن إثـارة، ويجـدون معنـى لعـالم لا معنـى لـه باعتنـاقهم الفكـرة الرؤيويـة التـى تقـول إن «التاريخ يتبع مسارًا واضحًا حدده الرب، وإنه متجه نحو نهاية مهيبة»[٣٠].

ومع ذلك فإن غرائب المنذرين بالشؤم المسيحيين فى أمريكا ما بعـد الحـرب لم تكـن خافية على الجماهير التى ضحكت كثيرًا على «د. سترينـچلاڤ» حين عـرض فـى سـنة ١٩٦٤م. وقـد يقـوم «شـهود يهـوه» الجوالـون الـذين يـذهبون إلى النـاس فـى بيـوتهم

يوزعون مطبوعات مجانية بالتبشير حتى بين الأسر الدنيوية أو العلمانية تمامًا بالطبع. ومن مطبوعات «جمعية الكتاب المقدس والدعوة» كتاب بعنوان «سفر الرؤيا: ذروته الكبرى وشيكة!» يضم صورًا هزلية لقصص سفر الرؤيا المتعلقة بالحيوان. وكل من كان يدير مؤشر القنوات بالتليفزيون فى صباح أى يوم أحد فى خمسينيات القرن العشرين أو ستينياته كان يجد مواعظ أورال روبرتس أو بيلى جراهام أو ما لا حصر لهم من التبشيريين التليفزيونيين الناشئين. إلا أن الأفكار القديمة المتعلقة بنهاية العالم كانت فى عمومها تنحصر فى الـچيتو المسيحى، بينما اعتادت بقية أمريكا على فكرة أن يوم القيامة سيكون مغامرة إنسانية بحتة.

وكأشياء أخرى كثيرة فى أمريكا ما بعد الحرب، كانت طرق التفكير وأساليب الحديث عن نهاية العالم على وشك أن تشهد تغيرًا عميقًا ودائمًا. فاجتاحت أمريكا موجات متعاقبة من الأفكار الراديكالية الجديدة والتجارب الجديدة المحيرة فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، كالحرب والتمرد والاغتيال طبعًا، ولكن حركة الحقوق المدنية والحركة المعادية للحروب والثورة الجنسية وثورة الحواسب والهوس بفريق الخنافس ومهرجان وودستوك للروك آند رول وحبوب تنظيم النسل والصعود إلى القمر أيضًا. كان هناك تغيير، واجتاحت رياح التغيير الأصولية المسيحية أيضًا. وكان العالم الجديد وجهة لغزو رؤيوى آخر أخرج سفر الرؤيا من الـچيتو المسيحى ووضعه فى قلب السياسة والثقافة الشعبية الأمريكية.

كان العراف الرؤيوى العصامى الذى وضع الفكر الرؤيوى على قائمة أفضل المبيعات فى أمريكا واعظًا ذا شخصية جاذبة يدعى هال ليندسى (ولد ١٩٣٠م). وكان يعمل قائد باخرة سحب بنهر المسيسپى فى الخمسينيات، حين مر بتجربة تحول دينى قوية. وبعد الدراسة بمعهد اللاهوت بدالاس، وهو مركز لعقيدة ما قبل الألفية، اتخذ ليندسى طريقه ليصبح واعظًا لدى «الدعوة الصليبية الجامعية من أجل المسيح». وفى أعقاب ما حقق من ردود أفعال مشجعة لخطبه عن نبوءات الكتاب المقدس والتى ألقاها بأواخر الستينيات، خرج ليندسى ومعاونه كارلسن إلى العلن بنبوءته بقرب النهاية ونشره كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل ـ The Late Great Planet Earth» فى سنة ١٩٧٠م.

كسابقيه ممن حققوا أكبر انتشار فى العصور الوسطى، أعاد ليندسى فى كتابه تأويل متن سفر الرؤيا وغيره من فقرات رؤيوية فى الكتاب المقدس بلغة أقرب إلى عقل القارئ المعاصر. وكوفئ ليندسى بحصوله على مرتبة أفضل الكتب مبيعًا حيث فاقت مبيعات كتابه حتى «الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد» وتجاوز نطاق قراء المتون الأصولية المسيحية بكثير. فبيع من «كوكب الأرض العظيم الراحل» عشرون مليون نسخة وأثنت صحيفة «نيويورك تايمز» على ليندسى واعتبرته «أفضل كتّاب السبعينيات مبيعًا»(٣١). ويذهب إيرمن إلى أبعد من ذلك، حيث يعلن أن ليندسى «أوسع الكتّاب الدينيين قرَّاء فى العصور الحديثة»(٣٢).

أثبت ليندسى بكتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل» ذكاءه الإعلامى، ولكنه لم يكن سوى أحدث حلقة فى سلسلة طويلة من الوعاظ الرؤيويين التى تمتد إلى الوراء حتى مؤلف سفر الرؤيا نفسه. فهو محارب شرس فى الحرب الحضارية تحدى كل «بعبع» أدركه فى الثقافة الفرعية، وما يعرف بالعصر الجديد ـ علم الفلك والإدراك فوق الحسى والتأمل والزهد والروحانية والسحر وعقاقير الهلوسة والسياسة التقدمية والمسكونية المسيحية وما يسميه «الديانات الشرقية»(٣٣). وكمؤلف سفر الرؤيا أيضًا يدين ليندسى كل الأفكار الخاصة بالدين عدا أفكاره هو، ويرى أن الاختلاف والتهاون فى أمور الدين هما أدوات الشيطان. كتب ليندسى ملمحًا، ولكنه لم يصرح قط بهوية الكنائس التى يعتبرها «عرش الشيطان» فيقول: «الشيطان يحب الدين؛ لذا فهو يغزو بعض الكنائس فى أيام الأحد. والدين «غماية» كبرى تحجب عقول الناس»(٣٤).

والأهم أن ليندسى يؤكد أن مشيئة الرب لنهاية العالم الوشيكة موجودة فى «الحقائق الثابتة لنبوءات الكتاب المقدس». وكتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» هو فى الحقيقة إعادة صياغة لعقيدة ما قبل الألفية التدبيرية، كما وضعها چون داربى فى القرن التاسع عشر. يبدأ ليندسى بقوله: «فى مرحلة ما فى المستقبل، ستكون هناك فترة سبع سنوات تبلغ ذروتها بعودة يسوع المسيح المشهودة»، ثم يواصل فيصف النسخة القياسية لسيناريو نهاية العالم كما تعلمها فى معهد اللاهوت فى دالاس. والحقيقة أن بعض زملائه السابقين بالمعهد ـ والذين يكنون له قدرًا من الحسد بكل تأكيد

على ما أحرز من نجاح ـ «قالوا إن كل ما يفعل ليندسى هو أنه يعيد صوغ ما قال من قبل فى محاضراته»(٣٥).

يبدأ «العد التنازلى ذو السبع سنوات» لـ «المجىء الثانى» بإعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] وعودة الشعب اليهودى لتقديم القربان الحيوانى. يلى ذلك قيام الحكم الشمولى العالمى لعدو المسيح وحقبة الاضطهاد التى تعرف بالضيقة، ولكن بعد «خطف» المتدينين المسيحيين إلى السماء وفى ختام الضيقة، يعود يسوع المسيح لخوض معركة أرمجدون وتولى حكم مملكة سِلْم على الأرض لمدة ألف سنة، وفى النهاية يهزم الشيطان مرة واحدة وإلى الأبد ويجلس لحساب الجنس البشرى كله ويثيب القديسين المسيحيين بالحياة الأبدية فى سماء جديدة وأرض جديدة.

وعن الخطف يقول ليندسى: «ذات يوم، يوم لا يعلمه إلا الرب، سيعود يسوع المسيح ليأخذ كل من آمنوا به. وبدون الاستفادة بالعلم أو بزات الفضاء أو الصواريخ الفضائية، سيكون هناك من يتم نقلهم إلى مكان جليل أجمل وأروع مما يمكن لنا أن نتصور»(٣٦).

وما يميز ليندسى عن المنذرين بالشؤم ممن تحرز كتبهم مبيعات أكثر تواضعًا، عبقريته فى ربط سفر الرؤيا بالواقع الجغرافى السياسى للعالم المعاصر. وفى هذا الصدد أيضًا يقتدى ليندسى بقراء سفر الرؤيا الأقدم زمنًا، بل إن مؤلف سفر الرؤيا نفسه ـ كما سبق أن رأينا ـ يرى فى الإمبراطور الرومانى نيرون المسيح الدجال، وأبدت الأجيال المتعاقبة شكوكها أيضًا فى شخصيات بعينها. وكسائر الشراح فى كل عصر يقدم ليندسى لقرائه وسامعيه سبيلاً لفهم العالم المخيف الذى يعيشون فيه. فهو بالنسبة له عالم ابتلى بالسياسة الواقعية للحرب الباردة والتهديد المستمر بالفناء النووى.

والمسيح الدجال عند ليندسى سيكون سياسيًّا من بنى البشر يرقى لمكانة الزعامة فيما يسمى «إحياء الإمبراطورية الرومانية»، أى «السوق المشتركة» أو جماعة الأمم التى مهدت للاتحاد الأوروپى الحالى(٣٧). ويرى أن ماجوج هو الاتحاد السوڤييتى وجوج رئيسه. و«ملوك الشرق» المشار إليهم باقتضاب فى سفر الرؤيا كمحاربين فى معركة أرمجدون يقصد بهم الإشارة إلى جمهورية الصين الشعبية(٣٨). والحريق الأخير

الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا بنجوم تهوى من السماء ووحوش تصعد من الهاوية، يقصد به حربًا نووية عالمية «إطلاق شامل للصواريخ الپالستية على المناطق الحضرية الكبرى فى العالم»(٣٩).

ويؤكد ليندسى أن الرب وهب رؤى عن المستقبل البعيد للأنبياء القدامى كانت غير مفهومة تمامًا لهم أو لقرائهم وسامعيهم الذين كانوا ينشرون دعوتهم بينهم فى حياتهم. فيستشهد ليندسى بسفر زكريا فى قوله: «لَحْمُهُمْ يَذُوبُ وَهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَعُيُونُهُمْ تَذُوبُ فِى أَوْقَابِهَا وَلِسَانُهُمْ يَذُوبُ فِى فَمِهِمْ»(٤٠) ويعزو للنبى العبرانى رؤيا عن أحداث آتية لا تحدث إلا فى عصر ذرى. ويتساءل ليندسى قائلا: «هل جال بخاطرك أن هذا ما يحدث بالتمام لمن يتعرضون لضربة نووية حرارية؟ يبدو أن هذا ما سيحدث لدى عودة المسيح»(٤١).

ليندسى إذن يتخذ «ترسانة لغوية» من صنعه فى كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل»، مفردات يهدف بها إلى جذب انتباه قرائه المنهكين الذين ما كانوا ليطالعوا كتابًا فى الشهادة المسيحية أو النبوءة التوراتية سواه. وهكذا فالكتاب المقدس نفسه هو «الأكثر مبيعًا» عنده، وعدو المسيح يسمى «هتلر المستقبل» وزانية بابل العظيمة «البغى القرمزية» وأرمجدون «الحرب العالمية الثالثة». والمائة والأربعة والأربعون ألفًا من الذكور الأبكار من أسباط إسرائيل الاثنى عشر الذين يقال إن يسوع المسيح «سيختمهم» فى آخر الزمان يسمون عنده «القديسين اليهود»، وهم «يهود حقيقيون من لحم ودم سيؤمنون على مضض بأن يسوع هو المسيح» (ويرى أن كل اليهود الآخرين سيكونون ماتوا أو اختفوا) وبعد أن يدين ليندسى تعاطى مواد الهلوسة يطلق على تجربة «الخطف» «الرحلة الأخيرة»(٤٢). يقول ليندسى: «لو كنتَ مؤمنًا فالإصحاحان الرابع والخامس من سفر الرؤيا يصفان ما ستمر به فى السماء. شىء أشبه بالعقاقير التى تمدد العقل»(٤٣).

ولا يجد ليندسى فى نفسه القدرة على مقاومة الإغراء الذى أدى لإحراج من سبقوه من منذرى الشؤم من مونتانوس إلى الأب ميلر، أى الخطيئة الكبرى لتحديد توقيت بعينه. فيقول إن ساعة العد التنازلى ليوم القيامة بدأت بإقامة دولة إسرائيل فى

العصر الحديث، ويفسر عبارات مختلفة من النص التوراتى لتؤكد أن النهاية آتية فى حياة الجيل الذى شهد نشأتها فى سنة ١٩٤٨م. وعلى فرض أن الجيل يوازى حوالى أربعين سنة فإن ليندسى يرى فى كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل» الذى صدر فى سنة ١٩٧٠م أن «الخطف» سيحدث فى سنة ١٩٨١م تليه حقبة اضطهاد فى عهد المسيح الدجال ثم معركة أرمجدون والمجىء الثانى ليسوع المسيح فى سنة ١٩٨٨م.

وثبت خطأ لينزى بالطبع. ومع اقتراب سنة ١٩٨١م لم يكن «الخطف» يبدو وشيكًا، فأعاد حساباته عن آخر الزمان وخرج بجدول منقح قليلاً فى كتابه «الثمانينيات: العد التنازلى لأرمجدون ـ The 1980s: Countdown to Armageddon». ولكن فى أعقاب سقوط المعسكر السوڤييتى بأوائل التسعينيات، خطر له أن يقدم سيناريو جديدًا لآخر الزمان فى كتابه «كوكب الأرض ٢٠٠٠ ـ Planet Earth 2000» الذى أصدَره فى سنة ١٩٩٤م قال فيه إن الأصولية الإسلامية لا الجيش الأحمر ستكون العدو الأخير ليسوع المسيح فى معركة أرمجدون، ولو أنه يؤكد أن «انهيار» الشيوعية جزء من لعبة خداعية كبرى من تدبير ميخائيل جورباتشيف وجهاز الاستخبارات السوڤييتى[٤٤]. وبعد ذلك قدم ليندسى رؤية أخرى عن ألاعيب الشيطان، فقال إن رؤية الأطباق الطائرة «حيل خداعية يقوم بها الجان يعقبها قريبًا هبوط مكثف للأطباق الطائرة على سكان الأرض الضالين ليؤمنوا بوجود حياة على الكواكب الأخرى»[٤٥].

ظل ليندسى نفسه ـ كسلفه الأب ميلر ـ مبتهجًا ولم يتأدب على الرغم من ثبوت خطأ نبوءاته وفشل كتبه التعديلية فى تحقيق المبيعات المرتفعة التى حققها كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل». حقق ليندسى شيئًا جديدًا ومهمًّا وثابتًا على الرغم مما منيت به نبوءاته من فشل واضح، إذ لعب دورًا خطيرًا فى انتزاع الفكر الرؤيوى من قبضة الكنيسة الأصولية وإدخاله فى مسار الحضارة الأمريكية. فمن بين قرائه البالغ عددهم عشرين مليونًا مثلاً، خرج رجل قدر له أن يخرج بسفر الرؤيا من نطاق سرادقات الوعظ إلى البيت الأبيض.

حقق سفر الرؤيا أول اختراق له للسياسة الأمريكية بالصعود الذى كان مستبعدًا

لنجم رونالد ريجان، كحاكم لكاليفورنيا أولاً ثم كرئيس للولايات المتحدة. نشأ ريجان فى كنيسة لها جذور تعود إلى حقبة «الصحوة الكبرى الثانية»، ويقال إنه قرأ «كوكب الأرض العظيم الراحل» فى صباه. وربما كان ريجان أول شخصية قومية من خارج الدوائر الأصولية يعلن دون مواربة أو خجل عن إيمانه بقرب تحقق نبوءات الكتاب المقدس.

ورد عن رونالد ريجان حين كان فى منصب حاكم ولاية كاليفورنيا أنه قال فى حديث نشر فى سنة ١٩٦٨م بمجلة «Christian Life»: «يبدو واضحًا أن التاريخ لم يشهد من قبل تحقق كل هذا الكم من النبوءات فى مثل هذه الفترة الوجيزة»(٤٦). وكان أكثر وضوحًا فى عشاء سياسى أقيم فى ساكرامنتو فى سنة ١٩٧١م فى معرض تعليقه على مغزى محاولة انقلاب عسكرى وقع فى ليبيا مؤخرًا، حيث أعلن قائلا: «هذه علامة على أن يوم أرمجدون ليس بعيدًا. كل شىء يحدث فى موعده. لم يعد الأمر بعيدًا الآن»(٤٧).

وكان ريجان قادرًا على الاستشهاد بإصحاح وفقرة تؤيد نبوءته. ويبدو أن أحداث ليبيا وضعته فى حالة ذهنية أشبه بأحد دروس مدارس الأحد عن النبوءات الرؤيوية فى الكتاب المقدس العبرى. فهناك فقرة فى سفر زكريا تقول: «لأَنَّ الْيَوْمَ قَرِيبٌ. وَيَوْمٌ لِلرَّبِّ قَرِيبٌ ... يَسْقُطُ مَعَهُمْ بِالسَّيْفِ كُوشُ وَفُوطُ وَلُودُ وَكُلُّ اللَّفِيفِ». ويبدو أن ريجان لدى رؤية السقاة وهم يوقدون أقداح يوبيل الكرز فى غرفة الطعام خافتة الضوء تذكَّر وعد الرب بأن ينزل على جوج عدو إسرائيل التوراتى «حِجَارَةَ بَرَدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبْرِيتًا»(٤٨). وألمح ريجان بهذه الفقرات فى حديثه على المائدة واستنتج قائلا: «لا بد أن هذا معناه أنهم سيَهلكون بالأسلحة النووية»(٤٩).

أخذ ريجان معه دروس مدارس الأحد هذه إلى واشنطن. فقال للمبشر الإيفانجليكى التليفزيونى چيم باكر فى سنة ١٩٨٠م: «قد نكون الجيل الذى يشهد أرمجدون»(٥٠). وقال لأحد أعضاء جماعات الضغط اليهود فى سنة ١٩٨٣م: «أوَتعرف؛ أنا أرجع لأنبيائكم القدامى فى العهد القديم والعلامات التى تنبئ بمعركة أرمجدون فأجد نفسى أتساءل عما إذا كنا نحن الجيل الذى سيرى هذا الحدث. لا أدرى

ما إذا كنتَ لاحظتَ هذه النبوءات مؤخرًا، ولكن صدقنى، إنها يقينًا تصف الأحداث التى نشهد»[٥١].

أحاط ريجان نفسه فى البيت الأبيض برجال يشاركونه الإيمان بالمعتقدات نفسها. فيقول وزير دفاعه كاسبر واينبرجر: «أنا طالعتُ سفر الرؤيا وأعتقد أن العالم سينتهى ــ بعمل من لدن الرب كما أتمنى ــ ولكن يرد بخاطرى كل يوم أن الوقت أزف». واعترض چيمس واتس وزير داخلية ريجان على سؤال عن خططه لحماية البيئة حفاظًا على الأجيال القادمة بالتذكير بالمجىء الثانى حيث قال: «لا علم لى كم من أجيال المستقبل يمكن لنا أن نحصى قبل عودة الرب»[٥٢].

ويبدو أن ريجان كان قارئًا مقتنعًا بما ورد فى «كوكب الأرض العظيم الراحل». يقول ستيفن أوليرى: «كل اقتراح أورده ليندسى عن السياسات الداخلية والخارجية كان جزءًا من برنامج ريجان الانتخابى»[٥٣]. ولكى يسمع ليندسى يقولها بنفسه، كان ريجان يتوق لاجتذاب المؤسسة العسكرية للإيمان الرؤيوى الحق. فيؤكد ليندسى أنه دُعى بمباركة من الرئيس ليحدث واضعى الخطط الحربية بمقر وزارة الدفاع الأمريكية عن العواقب الإلهية للحرب النووية مع الاتحاد السوڤييتى. ودعا ريجان المبشر الإيڤانجليكى التليفزيونى چيرى فالويل وهو واعظ رؤيوى آخر له مكانته لحضور اجتماعات مجلس الأمن القومى ليقوم بالدور التبشيرى نفسه مثل ليندسى.

كانت هذه المفاهيم مألوفة تمامًا فى الكنائس الأصولية فى أمريكا، وكانت تصل إلى جمهور أعرض عبر البرامج الإذاعية والتليفزيونية لمختلف المبشرين الرؤيويين المشهورين والمغمورين على السواء، ولكنها كانت تثير الأعصاب حين ترد فى خاطر وعلى لسان رجل تصاحبه أينما ذهب الأرقام الشفرية لإطلاق ترسانة أمريكا النووية. فإذا كان رئيس الولايات المتحدة من المؤمنين المقتنعين بأن «يوم أرمجدون ليس ببعيد» أمَا يمكن أن توسوس له نفسه أن يأخذ على عاتقه مهمة صب النار والكبريت على أحدث عدو يعتبره عدو المسيح؟

هذا السؤال المزعج طرحه المراسل الصحافى مارڤن كالب فى المناظرات المتلفزة لحملة ١٩٨٤م الرئاسية. وسمع البعض نانسى ريجان وهى تغمغم معربة عن وجلها،

لكن الرئيس نفسه كان مستعدًّا برد معقول يليق برجل دولة. أقر ريجان بأن له اهتمامًا « فلسفيًّا » بالنبوءات التوراتية الخاصة بمعركة أرمجدون، وقال إن « بعض علماء اللاهوت » يرون أن « النبوءات التى تنذر بذلك بدأت تتجمع ». ولكنه استنتج استحالة معرفة ما إذا كانت أرمجدون « على بعد ألف سنة أم بعد غد ». وأكد أنه « لم يحذر بجدية، ولم يقل إننا يجب أن نضع خططنا وفقًا لأرمجدون »(٥٤).

لكن القضية لا تزال قائمة. فعبرت صحيفة « نيويورك تايمز » عن رأيها فى الخطر الذى يشكله المستشارون « الأرمجدونيون » فى دوائر إدارة ريجان الداخلية. ولاحظ الصحافى « غير المألوف » هنتر تومسن أن « الرئيس بات قاطع تمامًا فيما يتعلق بسفر الرؤيا » وأشار إلى بعض المشاهد الغريبة التى وردت بالنص التوراتى، وقال إن « العديد من الخبراء يؤخذون فى بزات بيضاء بأكمام طويلة للغاية لرؤية هذه الأشياء »(٥٥). وفى ملحوظة أكثر يقظة، شاركت لجنة من مائة من رجال الدين فى مناشدة الرئيس « أن ينفى الاعتقاد بأن المحرقة النووية مقدرة سلفًا فى الكتاب المقدس »(٥٦).

ومع ذلك واصل ريجان تأكيد إيمانه العميق بسيناريو نهاية العالم كما ورد بسفر الرؤيا بإطلاقه تسميته الشهيرة « إمبراطورية الشر » على الاتحاد السوفييتى. وكان للعبارة معنى واحد لدى المعجبين بـ « حرب النجوم »، ولكن كان لها معنى مختلف تمامًا لدى قراء سفر الرؤيا، حيث ذكرتهم بإمبراطورية الشيطان التى ورد وصفها فى المجاز التوراتى « بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ »(٥٧). بل إن ريجان قال ذلك فى خطاب أمام « اتحاد الإيفانجليكيين القومى » فى سنة ١٩٨٣م، حيث وصف الاتحاد السوفييتى بأنه « بؤرة الشر فى العالم الحديث » وتنبأ بأن إمبراطورية الشر والتاريخ نفسه لن يلبث كلاهما حتى ينتهيا. وقال الرئيس: « هناك خطيئة وشر فى العالم، ونحن مكلفون من قبل الكتاب المقدس والرب يسوع بصدهما بكل ما أوتينا من قوة. وأعتقد أن الشيوعية فصل آخر حزين وغريب فى تاريخ البشرية الذى لا تزال آخر صفحاته تدون حتى الآن »(٥٨).

أصاب ريجان فى نصف ما قال بالطبع. فانتهاء الاتحاد السوفييتى نفسه ـ دون العالم ـ شكل مشكلة غريبة للمنذرين بالشؤم، ولا سيما من يحددون التوقيت منهم.

إلا أن المؤمن الحق كما رأينا مرارًا ـ لا يزعجه فشل أية نبوءة إذ يمكن دائمًا إعادة صوغها لتلائم آخر مستجدات الأحداث. وما إن تم حقن سفر الرؤيا فى السياسة وشئون الدولة على يد رونالد ريجان، حتى تبوأ مكانة واتخذ سطوة لم يحظ بهما منذ عمل كل من يواقيم الفيورى وهيلديجارد بينجن مستشارين رؤيويين لدى بابوات عالم العصور الوسطى وملوكه.

تتزامن المكانة الجديدة التى اكتسبها الفكر الرؤيوى فى السياسة الأمريكية مع شعبيته المفاجئة فى الثقافة الشعبية الأمريكية، حيث بدأت لغة سفر الرؤيا المجازية فى الظهور فى المنتجات الصناعية بدءًا من أغنية لفريق «سكس بيستولز» بعنوان «أنا عدو المسيح» إلى عبارة فى إعلان لپيتسا هت يقول «احذر من ٦٦٦! فهو عدو الپيتسا!»(٥٩). وليس من قبيل المصادفة أن مكانة أفضل الكتب مبيعًا التى تحققت لكتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» فى أوائل السبعينيات أعقبها على الفور ظهور «النذير ـ The Omen» وهو فيلم رعب رؤيوى عن ديپلوماسى أمريكى يكتشف أن ابنه الذى تبنى عن غير قصد هو عدو المسيح. يقول سطر يبرز فى حبكة الفيلم ـ ويلخص السيناريو الرؤيوى وفقًا لرأى چون داربى ـ: «حين يعود اليهود إلى صهيون ويشق السماء مذنب، تنشأ الإمبراطورية الرومانية، ثم يتحتم علىّ وعليك أن نموت»(٦٠).

ومن الغريب أن الفيلم لا يهتم بفكرة نهاية العالم. بل يفتعل صانعو الفيلم خط حبكة وهميًّا تمامًا يقتضى من البطل الذى يقوم بدوره جريجورى بك أن يقتل الطفل الشيطانى بسبعة خناجر مستخرجة من تحت أرض مجدو وهى الموقع المفترض لمعركة أرمجدون. ويعلن أحد الكهنة المنذرين بالشؤم: «سفر الرؤيا تنبأ بكل ذلك»، لكن سفر الرؤيا لا يتنبأ بشىء كهذا(٦١). بل إن فيلم «النذير» «يمكن قراءته باعتباره يعكس ازدواجية جيل الانفجار السكانى فيما يتعلق بالأبوة» حسب قول ستيفن أوليرى، ولا شأن له بما ورد فى سفر الرؤيا(٦٢).

ومع ذلك حقق فيلم «النذير» فى شباك التذاكر نجاحًا يكفى لإنتاج سلسلة منه تشمل «Damien: Omen II» فى سنة ١٩٧٨م و«The Final Conflict» فى سنة ١٩٨١م، ورجع كاتب سيناريو فيلم «النذير» إلى البئر الرؤيوى من جديد لكتابة

حلقات قصيرة بعنوان «الرؤيا ـ Revelation» فى سنة ٢٠٠٥م. وتم الترويج لإنتاج معاد من «النذير» فى سنة ٢٠٠٦م بشعار يقول: «احذر ٦ / ٦ / ٠٦». والمشهد الذى لا ينسى فى فيلم «النذير» حيث يكتشف السفير وحمة على شكل ٦٦٦ على جمجمة عدو المسيح الصغير ـ هو الذى نقل المغزى الشيطانى للرقم ٦٦٦ لملايين الأمريكيين ممن لم يفتحوا سفر الرؤيا قط. وهكذا أصبح مجموع الخرافات الحضرية فى أمريكا يضم نوادر عن زبائن المتاجر الكبرى ورفضهم قبول الفكة التى يبلغ مجموعها ٦,٦٦ أو أصحاب العربات الذين يعيدون لوحات الأرقام التى تشتمل على الرقم ٦٦٦. يقول المؤرخ الكنسى وعالم اللاهوت الشعبى ليونارد سويت: «الترقب والانتظار والسعى إلى الألفية أصبح شغل أمريكا الشاغل بصورة فاقت حتى كرة القدم»[٦٣].

إلا أن النسخة الشعبية من الرؤيا تخفق فى نقل الآمال والمخاوف كما بُثت فى نفوس قراء سفر الرؤيا وسامعيه منذ أنشئ قبل عشرين قرنًا من الزمان. فتم وصف نهاية العالم حرفيًّا وبشكل مرعب حسب سفر الرؤيا فى سلسلة من الأفلام ـ منها «صورة الوحش ـ Image of the Beast» و«التحذير المبكر ـ Early Warning» و«الساعة الأخيرة ـ The Final Hour» و«الطريق إلى أرمجدون ـ The Road to Armageddon» ـ أنتجها أصوليون مسيحيون ولم تعرض إلا فى قباء الكنائس وقاعاتها الدراسية. ولكن كلما انبرى مخرج علمانى لتناول سفر الرؤيا بصورة مباشرة فإن غياب الإيمان الحقيقى يقف فى طريقه.

ففيلم «الخطف ـ The Rapture» المستقل الطويل لمايكل تولكين ـ على سبيل المثال ـ يتمزق بين الانبهار بالصور الأيقونية لسفر الرؤيا وفزع الأصولية الدينية. والمؤكد أن هذا الفيلم أقرب كثيرًا لما ورد وصفه فعلاً فى المتن المقدس المسيحى من أى إنتاج سينمائى كبير آخر من سلسلة أفلام «النذير». فالبطل والبطلة ـ وهما شرطى لا أدرى وعاملة هواتف فاسقة كانت تهوى الجنس الجماعى قبل أن تتوب ـ ينتهى بهما الحال على طريق صحراوى بكاليفورنيا، حيث يطاردهما فرسان سفر الرؤيا الأربعة، ثم يُخطفان إلى السماء فى يوم «الخطف» (استعان المخرج بآلة تبث الدخان وآلة تصوير متحركة على موسيقى تصويرية مقبضة لخلق تأثير بدائى). إلا أن تولكين يصور البطلة

التى قامت بدورها ميمى روجرز كمتدينة متعصبة، تقتل ابنتها الصغيرة بطلقة فى رأسها للتعجيل بإرسال الطفلة الباكية إلى السماء؛ لذا فالفيلم تشوش لاهوتى يبين أن الكل حتى غير المؤمنين وقتلة الأطفال سيتم «خطفهم» فى اليوم الأخير. وما كان لمؤمن حقيقى أن يقع فى هذا الخطأ العقائدى الجسيم.

إذن فالفكر الرؤيوى بالنسبة لمستهلكى الثقافة الشعبية لا يزيد أحيانًا عن مجرد بند فى قائمة العقائد والممارسات الدينية المتنوعة المعروضة فى أمريكا المعاصرة. يقول تيموثى ويبر: «بدأت أحدث صيحة فى الاهتمام بالنبوءات فى أوائل السبعينيات فى الفترة نفسها التى بدأ الأمريكيون فيها الاهتمام بالسحر وعلم النفس الغيبى وتحضير الأرواح وديانات الشرق والأطباق الطائرة. وقد تكون هذه الصيحة مثالاً على تعطش الأمريكيين الذى لا يرتوى لغير المألوف والغريب والمذهل»[٦٤]. ويتساءل مراقب أكاديمى آخر عما إذا كانت هذه الظاهرة «مجرد حيلة تجارية أخرى تقتادنا إلى مكتبات بيع الكتب ودور السينما ولقاءات الصحوة الدينية كى نشترى أحدث السلع لأحدث دعىّ مسيحانى»[٦٥].

قد يكون فيلم «النذير» صورة مخففة من سفر الرؤيا، لكن هذا كان على قدر ما كانت أمريكا مستعدة لاستيعابه فى سبعينيات القرن العشرين. وحتى كتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» كان نسخة مخففة من خطب النار والعذاب التى كانت لا تزال منحصرة فى قاعات الكنائس والبرامج الإذاعية المسيحية. ولكن مع قرب انتهاء الألفية الثانية كان مقدرًا لسفر الرؤيا أن يُستغل من جديد سلاحًا فى الحرب الحضارية التى كان يخوضها الأصوليون المسيحيون للفوز بقلب أمريكا وروحها.

ليس هناك رئيس أمريكى بعد رونالد ريجان كان صريحًا فى التعبير عن إيمانه الشخصى بقرب نهاية العالم. ومع ذلك فكل رئيس أمريكى منذ ريجان يعلن أنه مسيحى «مولود ثانيًا». فچورچ بوش الابن، مثلاً، قد ينتمى للأمم المتحدة واللجنة الثلاثية ومجلس الشئون الخارجية فى مراحل مختلفة من حياته العملية الطويلة ــ وهى أجهزة أدينت جميعًا باعتبارها أدوات بيد الشيطان من قبل أنصار نظرية التآمر على أقصى يمين الأصولية المسيحية ــ ولكنه أعلن أنه مسيحى «مولود ثانيًا» أيضًا: «أنا على يقين حاسم من ذلك»[٦٦].

ترجع حاجة الساسة الأمريكيين لتأكيد مؤهلاتهم الدينية إلى تغير مناخ السياسة الأمريكية الذى طرأ فى أثناء رئاسة ريجان لا إلى إيماناتهم الروحية. فالوعاظ التليفزيونيون من أمثال چيرى فالويل مؤسس «الأغلبية الأخلاقية» وپات روبرتسن مؤسس «التحالف المحافظ» وغيرهما سعوا لنشر المتدينين كسلاح انتخابى وكمصدر للدعم المالى للساسة الذين يتبعون بعض بنود الأصولية المسيحية، كتجريم الإجهاض وإباحة الصلاة فى المدارس العامة.

فى ضوء إقرار ٤٦ بالمائة من الأمريكيين بأنهم مسيحيون إيڤانجليكيون أو مولودون ثانيًا حسب استطلاع جالوپ لسنة ٢٠٠٢م، بدأ ما يعرف باليمين المسيحى يلعب دورًا حيويًّا فى الإستراتيچية السياسية التى انتهت بتحقيق أغلبية جمهورية فى مجلس النواب وبرئيس جمهورى فى البيت الأبيض[٦٧]. وفى سنة ١٩٨٤م مثلاً، رأى الحزب الجمهورى أن من المناسب دعوة الواعظ التليفزيونى چيمس روبيسن ليقدم الدعاء الدينى فى المؤتمر الذى أعيد فيه ترشيح ريجان، ورأى روبيسن أن من المناسب أن يلقى خطبة رؤيوية حامية فى الوفود المتحمسة. قال روبيسن: «أى تبشير بالسلم قبل عودة المسيح يعد هرطقة. فهذا ضد كلمة الرب. إنه عدو المسيح»[٦٨].

وجاء مد النشاط السياسى من جانب الأصوليين المسيحيين فى أمريكا فى سنة ١٩٨٨م، حين أعلن پات روبرتسن مؤسس «شبكة البث المسيحية» نفسه مرشحًا للترشيح الرئاسى الجمهورى. وكان مسجلاً له أنه تنبأ بقرب النهاية ـ كتب فى سنة ١٩٨٠م يقول: «أضمن لكم أنه سيكون هناك حكم على العالم بحلول خريف ١٩٨٢م»[٦٩] ـ لكنه وجد من المناسب الآن أن يحد من لغته الرؤيوية، فصرح لصحيفة «وال ستريت» فى سنة ١٩٨٥م ـ وربما كان يفكر فى طموحاته الرئاسية ـ: «ما من سبيل يشعرنى بأنى سأعين الرب على إنهاء العالم»[٧٠].

كان استعداد واعظين مثل فالويل وروبرتسن لدخول معترك السياسة شيئًا جديدًا فى الأصولية المسيحية. فالفكر الرؤيوى يعتبر السياسة شيئًا تافهًا فى الأساس؛ لأن البشر لا يستطيعون أن يعملوا شيئًا لتغيير مشيئة الرب فى وضع نهاية للعالم أو تأجيلها، وبالتالى فإنقاذ الأرواح هو المهمة الصحيحة الوحيدة للمسيحى التقى؛ لذا

فـإن الأصـوليين المسـيحيين فـى أوائـل القـرن العشـرين كـانوا ينظـرون لـ «الإنجيـل الاجتماعى» بازدراء، ولا يزال هذا الاستخفاف بعمل الخير فى الدنيا يميز العديد من المنذرين بالشؤم من المؤمنين بقرب النهاية. يقول هال ليندسى: «لم يرسلنى الرب لأنظف حوض السمك، بل لأصيد السمك»[٧١].

إن محن العالم فى الحقيقة تعد أخبارًا سارة فى نظر المتدينين الرؤيويين ممن يتطلعون لسماء جديدة وأرض جديدة. يقول پات روبرتسن فى لحظة بعيدة عن الأضواء: «لا ينبغى لنا أن نبكى كما يبكى العالم حين تقع بعض المآسى أو سقوط حكومات العالم أو نظمه. وليس لنا أن نلوى أيدينا ونتحسر قائلين: «أليس هذا أمرًا بشعًا!» فليس هذا أمرًا بشعًا على الإطلاق. بل علامة، علامة واضحة على خلاصنا وعلى الوجهة التى يأخذنا الرب إليها»[٧٢].

لكن هناك أصوليين مسيحيين آخرين لديهم دافع لأن «يضعوا ما أمكنهم من عقبات فى طريق الشيطان إلى أن يأتى يسوع»، ما يدفعهم لبذل الجهد فى سبيل إباحة الصلاة فى المدارس والقيم الأسرية ومنع الإجهاض وزواج الشواذ والإباحية وما إلى ذلك[٧٣]. فيدين پات روبرتسن، مثلاً، الحركة النسائية باعتبارها «حركة سياسية اشتراكية ضد الأسرة تشجع المرأة على ترك زوجها وقتل أطفالها وممارسة السحر وتدمير الرأسمالية والتحول لسحاقيات». وعندما استضاف «عالم ديزنى» جمعًا فى نهاية الأسبوع يسمى «أيام الشواذ» أكد أن التهاون مع الشذوذ فى أمريكا سيؤدى إلى أعاصير وزلازل وعواصف «وربما نيازك» واستشهد بإصحاح وفقرة من سفر الرؤيا تدعمان نبوءته[٧٤].

ويعمل بعض المسيحيين ـ بالطبع ـ على تعطيل إبليس باتباع المثال الأخلاقى الرفيع للأناجيل. فـچيمى كارتر، مثلاً، معمدانى مولود ثانيًا، والمعمدانية كنيسة يؤمن أعضاؤها فى مجملهم بالعقيدة الرؤيوية الصارمة لما قبل الألفية اللاهوتية. واشتهر عنه أنه عبر بصورة صارمة عن الأخلاقية المسيحية عندما اعترف لمجلة «پلاى بوى» فى سنة ١٩٧٦م، قائلا: «ارتكبت الزنا بالقلب مرات عدة» فى تلميح «لخطبة الجبل» حيث يقول يسوع فى إنجيل متى «إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا فَقَدْ زَنَى بِهَا فِى

قَلْبِهِ »[٧٥]. إلا أن كارتر يشتهر أيضًا بالعمل الخيرى تحت رعاية «موطن للإنسانية» ، وهو عمل يشير ضمنًا ولكن برقة إلى «الرؤيا الصغرى» التى وردت بسفر متى : «لأَنِّى جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِى. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِى. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِى »[٧٦].

ومن الوعاظ الأصوليين من يجيز الإيمان والعمل معًا. فيقول بيلى جراهام فى كتاب «الاقتراب من سنابك الخيل : فرسان الرؤيا الأربعة ـ Approaching Hoof beats: Four Horsemen of the Apocalypse» : «كل من يتبع المسيح مكلف بأن يعمل شيئًا للجائع والمريض فى العالم. يجب أن نعمل ما يمكننا مع أننا نعلم أن مشيئة الرب هى صنع أرض جديدة وسماء جديدة». ومع ذلك يؤكد جراهام أيضًا أن كل ما يصيب العالم الحديث من محن يمكن علاجه بصالح الأعمال ، بدءًا من مرض نقص المناعة المكتسبة إلى ارتفاع حرارة الأرض التى تعد علامات أكيدة على قرب النهاية. ويقول : «يعلمنا الكتاب المقدس أن الشعوب والأمم هى التى تتسبب فى هذه الآلام لنفسها بالديانات الوضعية والحروب المفتعلة. وكل مانشيت صحيفة وكل خبر تليفزيونى وكل نشرة إذاعية تثبت حقيقة واحدة هى أن الراكب الآتى بالموت فى الطريق والنار من ورائه قريبة »[٧٧].

أى أن المؤمنين الرؤيويين يوجههم إيمانهم للرجوع للكتاب المقدس ، لاكتشاف المغزى الكامن فى الأحداث كبيرها وصغيرها الدائرة من حولهم فى كل يوم. وحين يفعلون فالأرجح أن يجدوا أنه فات أوان عمل شىء إلا الدعاء أن يكونوا من الناجين عندما يصل عدو المسيح. وهو توجه فى حل المشكلات يربط مؤلف سفر الرؤيا برونالد ريجان وبملايين الأمريكيين غيره. فحين يفكرون ، مثلاً ، فى أحد أكثر الصراعات الإنسانية تفجرًا فى العالم ـ الصراع بين العرب واليهود على السيادة على ما تعتبره ثلاث ديانات «أرضًا مقدسة» ـ فإن بعض المسيحيين يتجهون بأعينهم إلى السماء بدلاً من تدبر الحقائق على الأرض. فقدر الشرق الأوسط الحديث فى نظرهم مسألة لاهوت لا جغرافيا سياسية ، ومسقط رأس دانيال ويوحنا هو الآن المسرح الذى تدور فوقه أحداث الفصل الختامى فى الدراما الإلهية لآخر الزمان.

كما فرح جيل سابق من الصهاينة المسيحيين بإعلان بالفور وتحرير أورشليم

[القدس] على يد الجيش البريطانى فى سنة ١٩١٨م ، احتفل نظراؤهم المحدثون بانتصار إسرائيل الساحق فى حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧م ، وبتحرير مدينة أورشليم [القدس] القديمة. ففيها يقع جبل الهيكل موقع هيكل يهوه الأصلى ، كما ورد فى الكتاب المقدس والموضع الذى سيُبنى فيه « الهيكل الثالث » فى آخر الزمان ، حسب معتقدات الأصوليين اليهود والمسيحيين على السواء. والأهم أن جبل الهيكل دخل الآن تحت السيادة اليهودية لأول مرة منذ تدمير الهيكل الثانى على يد الجيش الرومانى فى سنة ٧٠ ميلادية. كتب تيم لاهاى فى كتابه « بداية النهاية ــ The Beginning of the End » وهو رسالة رؤيوية ظهرت قبل سلسلة « The Left Behind » بمدة طويلة : « إن عقارب ساعة نبوءة إسرائيل قفزت للأمام فى الثامن من يونيو ١٩٦٧م حين زحفت القوات الإسرائيلية على مدينة أورشليم [القدس] القديمة »(٧٨).

وبداية النهاية فى اعتقاد بعض الصهاينة المسيحيين تبدأ فى السنة الأربعين بعد قيام دولة إسرائيل الحديثة. وهناك مهندس صواريخ سابق بهيئة ناسا الفضائية يدعى إدجر وايزنانت ناقش هذه المسألة فى كتاب بعنوان 88 Reasons Why the Rapture Will Be in 1988 (ثمانية وثمانون سببًا لحتمية أن يحدث « الخطف » إلى السماء فى سنة ١٩٨٨م) تنبأ فيه بأن « الضيقة العظيمة » ستبدأ فى الثالث من أكتوبر ١٩٨٨م ـ « روش هاشانا » أى أول أيام السنة الجديدة فى التقويم اليهودى الدينى ــ وأن معركة أرمجدون ستنشب بعد ذلك بسبع سنوات بالتمام. وهناك واعظ مغامر قدم عرضًا بتنظيم زيارة لإسرائيل حددها بتوقيت يتزامن مع اليوم الذى يتم فيه « خطف » المسيحيين المؤمنين إلى السماء. وكان ثمن الرحلة ١٨٥٠ دولارًا شاملاً العودة « إن لزم الأمر »(٧٩). وأعلن منشور الرحلة : « سنقيم بفندق إنتركونتيننتال فوق جبل الزيتون ، وإذا كانت هذه سنة عودة ربنا ـ وهو ما نتوقع ـ فقد نصعد إلى الأعالى من بقعة تبعد بضعة أقدام من نقطة صعوده »(٨٠).

وانتهى الأمر طبعًا بأن اضطر أعضاء الرحلة لاستعمال تذاكر العودة ، إلا أن عدم حدوث « الخطف » فى موعده لم يكن له أى أثر فى تهدئة حماس الصهاينة المسيحيين. فقام ما يعرف بـ « مؤسسة هيكل أورشليم » ومقرها لوس أنچيليس وتجمع التبرعات

من الأصوليين المسيحيين بجمع عشرة ملايين من الدولارات لتمويل بناء «الهيكل الثالث» بالقدس. ومما يسعد الأصوليين المسيحيين ممن يزورون إسرائيل مشهد الأصوليين اليهود وهم مجتمعون لذبح الماعز استعدادًا لاستئناف القربان الحيوانى فى الهيكل بعد إعادة بنائه، ويأخذون معهم تذكارات على شكل عملات معدنية بقيمة نصف شاقل من الفضة الخالصة حديثة الضرب يقوم بصكها أحد المستثمرين اليهود لملء خزينة «الهيكل الثالث» بعد بنائه.

ومما اجتذب ـ ولو إلى حين ـ المسيحيين الموجهة أذهانهم إلى يوم القيامة مزرعة بشمالى إسرائيل ولدت بها بقرة تدعى «ميلودى» فى سنة ١٩٩٦م. كان لون البقرة حين ولدت أحمر فاقعًا، ما أطلق موجة جديدة من التكهنات المسيحانية، فتقديم بقرة حمراء لا عيب فيها أمر ورد ذكره بسفر العدد[٨١]، ووجود بقرة تصلح لطقس القربان الحيوانى الذى طال التخلى عنه يعنى بالنسبة للأصوليين اليهود والمسيحيين على السواء أن النهاية اقتربت. إلى أن بدأ ظهور بقع من الشعر الأبيض على جلد ميلودى، ما يجعلها غير صالحة للقربان. واجتذبت ميلودى كثرة من السياح المسيحيين، وعلت أصوات الوعاظ الرؤيويين بالتساؤل عما إذا كان مقدرًا لها أن تكون أول حيوان يتم التقرب به إلى الرب على مذبح «الهيكل الثالث». وتساءل الواعظ التليفزيونى چاك ڤان إيمپ قائلا: «هل سيستعان برماد «ميلودى» فى شعائر تطهير الهيكل فى سنة ٢٠٠٠م؟»[٨٢].

هذه الأوهام الرؤيوية المتلهفة يربطها الصحافى والكاتب جريشوم جورنبيرج بعقائد شحنات السفن لدى أهل جزر جنوب المحيط الهادى الذين شاهدوا فى غبطة السفن والطائرات وهى تصل من العدم فى نظرهم محملة بكميات وافرة من الضروريات والكماليات بصحبة الوافدين الجدد من المبشرين والجنود الأوروپيين والأمريكيين. وبدءًا من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية ظل سكان الجزر يحاكون الوافدين الجدد بما يحملون من إمدادات وفيرة بصنع نسخهم البدائية الخاصة من أرصفة السفن وأبراج المراقبة من البوص وسعف النخيل على أمل أن تظهر السفن والطائرات بشكل سحرى وتسلم لهم شحنات مماثلة. وهنا نجد تنويعة أخرى

على المملكة الألفية ذات السلم والوفرة كما تصورها أناس لم يعرفوا سفر الرؤيا ـ إن عرفوه أصلاً ـ إلا من المبشرين المسيحيين. يقول جورنبيرج في كتابه «نهاية الأيام ـ End of Days» : «بالنسبة لبعض الأصوليين اليهود والمسيحيين ـ وغالبًا من المتعلمين ـ أصبح الهيكل هو السفينة بشحناتها الكبيرة، وصك عملات نصف الشاقل يشبه بناء أرصفة السفن»(٨٣).

والتفكير السحرى يبرز دائمًا بالطبع فى الخيال الدينى بعامة وفى الفكر الرؤيوى بخاصة. فمؤلف سفر الرؤيا يفرح بتخيل الانتقام من «بابل» واشتعال النار فى حمولتها: «وَيَبْكِي تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فِي مَا بَعْدُ، بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ...»(٨٤) إلا أن التفكير السحرى قد يشكل خطرًا فعليًّا على الحياة إذا ما طبق على مشروع يتسم بالدقة والخطر كإحلال السلم فى الشرق الأوسط.

يميل الصهاينة المسيحيون فى الحقيقة للنظر إلى احتمال حلول السلم بين إسرائيل وجيرانها العرب كعقبة فى طريق المجىء الثانى ليسوع المسيح، وبالتالى كعمل من أعمال إبليس. فالتعايش السلمى بين العرب واليهود يعد فى نظرهم بمثابة إرجاع لعقارب «ساعة نبوءة إسرائيل» إلى الوراء بتأجيل اليوم المحتوم الذى تعود فيه إسرائيل إلى أقصى حدودها التوراتية ويعود فيه الشعب اليهودى إلى وطنه بشكل جماعى.

فى إدانته اتفاقيات كامپ ديڤيد بين إسرائيل ومصر فى سنة ١٩٧٩م، يقول چيرى فالويل: «على الرغم من توقعات حكومتنا الوردية غير الواقعية، فإن هذه المعاهدة لن تدوم. فنحن جميعًا نعلم أنه لن يكون هناك أى سلام حقيقى فى الشرق الأوسط إلا حين يجلس يسوع الرب على عرش داود فى أورشليم [القدس]»(٨٥).

هذه الآراء تقرب الصهاينة المسيحيين إلى الصقور والمتشددين فى إسرائيل. فأعلن رئيس الوزراء إسحاق شامير فى جمع من الكهنة الإيڤانجليكيين فى سنة ١٩٨٨م قائلا: «إخلاصكم لبلادنا سيصبح سلاحًا قويًّا فى ترسانتنا الدفاعية»(٨٦). وفى زيارة رسمية للعاصمة الأمريكية فى التسعينيات، اختلى بنيامين نتنياهو ـ وكان رئيسًا لوزراء إسرائيل

آنذاك ـ بچيرى فالويل قبل لقائه الرئيس بيل كلينتون. وأعلن فالويل ذات مرة قائلا : «أنا مؤمن بأن الحزام التوراتى فى أمريكا هو حزام الأمان الوحيد لإسرائيل الآن »[٨٧].

ومن إيماءات التأييد لإسرائيل من جانب الصهاينة المسيحيين ما يتسم بالتقلب بالطبع بل بالغرابة التامة. فعندما فرضت إسرائيل سيادتها على كامل القدس بعد «تحرير» المدينة القديمة فى سنة ١٩٦٧م، مثلاً، رفضت معظم الدول نقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس. فدفع التوبيخ الديپلوماسى قسًّا هولنديًّا يدعى يان فيليم ڤان در هويڤن لإنشاء ما سمَّى «السفارة المسيحية الدولية» بالقدس. ولم تكن هذه «السفارة» سوى «كشك» علاقات عامة، إلا أن رؤساء حكومات إسرائيل بدءًا من اليمينى بنيامين نتنياهو إلى اليسارى إسحاق رابين يجدون من اللائق أن يلقوا كلمة فى اجتماعاتها السنوية. وأعلن ڤان در هويڤن فى أحد هذه الاجتماعات قائلا: «إن المسيح الذى أؤمن به لن يأتى إلى «مسجد عمر»، بل إلى «هيكل ثالث» سيشاء الرب أن يُبنى»[٨٨].

هناك جهود أخرى ملموسة لدعم إسرائيل. فقامت جمعية «الصداقة الدولية للمسيحيين واليهود» التى يرأسها أصولى يهودى يدعى يخيئيل إيكستاين بجمع ما يزيد على ربع مليار دولار من حوالى أربعمائة ألف متبرع مسيحى دعمًا لبرامجها المختلفة، ومنها تعزيز هجرة اليهود لإسرائيل. فقال المعلق زيف تشافيطس فى صحيفة «نيويورك تايمز»: «ما من يهودى منذ يسوع نال هذا الكم من الأتباع الأغيار له»[٨٩]. وتشجع جمعية «أصدقاء الجاليات الإسرائيلية» المسيحية الكنائس فى أنحاء أمريكا على «تبنى» المستعمرات اليهودية بالضفة الغربية. وورد بأحد المنشورات أن «هؤلاء الرواد يحققون الآن عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب بإعادة كل الأرض التى أعطى الرب لإسرائيل»[٩٠].

وأكد بنيامين نتنياهو ذات مرة على تضامن إسرائيل مع الأصولية المسيحية ــ ورد على من يعتبرون الصهاينة المسيحيين واليهود رفقاء فراش شاذين ــ بلغة طنانة بل غنائية فى كلمته فى حفل سنوى سمى «إفطار ابتهال قومى» من أجل إسرائيل. قال نتنياهو الذى كان حينئذ سفير إسرائيل فى الأمم المتحدة: «هناك إحساس بالتاريخ، إحساس بالشعر، وإحساس بالأخلاق يميز الصهاينة المسيحيين الذين بدءوا منذ نصف قرن يكتبون

ويخططون ويعملون من أجل إعادة بناء إسرائيل. من ثم فمن يحيرهم ما يعتبرونه صداقة مستحدثة بين إسرائيل ومؤيديها من المسيحيين يجهلون كليهما. لكننا أعلم منهم»[٩١].

وما يثير الحيرة يتجاوز المفارقة السطحية لصداقة المسيحيين باليهود مع أنهم يؤمنون بأن أصدقاءهم اليهود حكموا على أنفسهم بدخول النار برفضهم الاعتراف بأن يسوع الناصرى هو المسيح. وهذه هى الشكوى التى دفعت مؤلف سفر الرؤيا إلى الإشارة إلى معارفه من اليهود بعبارة «مجمع الشيطان». إلا أن سيناريو آخر الزمان الذى يحفز الصهاينة المسيحيين لدعم إسرائيل على الساحة السياسية، يقول لهم أيضًا إن الدولة اليهودية ستتحالف فى النهاية مع عدو المسيح، ولكن حتى يدخل عدو المسيح الحرب على حلفائه و«يذبح ثلثى إجمالى عدد اليهود فى محرقة أسوأ من أى شىء عرف عن هتلر»[٩٢]. ولن تكتب النجاة فى رأيهم إلا لمن تبقى من اليهود ليعتنق المسيحية فى الأيام الأخيرة، وستظل البقية تحترق للأبد فى بحيرة من نار ومعهم الشيطان نفسه.

نادرًا ما يصرح الصهاينة المسيحيون علنًا بالدور الذى يتنبئون به للشعب اليهودى فى آخر الزمان. وذات مرة وقع چيرى فالويل مثلاً فى هذا الخطأ التكتيكى بتصريحه علنًا بأن «كثيرًا من الإيڤانجليكيين يؤمنون بأن عدو المسيح سيكون ذكرًا يهوديًّا بالضرورة»[٩٣]. ورأى من الضرورى أن يقدم اعتذارًا علنيًّا بعد أسبوعين فى أثناء إفطار ابتهال أقيم دعمًا لإسرائيل. إلا أن فالويل أبى أن يتنصل من ملحوظته ولم يعرب عن أسفه إلا عن علنية تصريحه بها. وقال فالويل غير التائب: «أنا أعتذر لا عما أؤمن به، بل عن افتقارى للباقة وحسن التقدير بالإدلاء بتصريح لا يخدم أى هدف»[٩٤].

مثل هذه المعتقدات الغريبة والقبيحة تؤذى مشاعر اليهود بالطبع، إلا أنها تلقى التجاهل من قبل العديد من زعماء اليهود ممن يرحبون بالدعم السياسى من الصهاينة المسيحيين. فيسلم أبراهام فوكسمن المدير التنفيذى لـ «رابطة مكافحة التشهير»: «بعض المسيحيين تحركهم لاهوتيًّا فكرة أن «المجىء الثانى» للمسيح من شروطه أن يظل اليهود آمنين فى الأرض المقدسة. وليس هذا سببًا يدعونا لرفضهم. فأنا أؤمن بأن اليهود إذا عاشوا آمنين فى الأرض المقدسة سيأتى المسيح لأول مرة. فأين المشكلة؟»[٩٥].

ومع ذلك، فإن بعض المراقبين اليهود مستعدون للتعليق على العلاقة الشاذة

بين المسيحيين الأصوليين واليهود. فصرح ليون ويزلتيار المحرر الأدبى لمجلة «New Republic» لصحيفة «نيويورك تايمز» قائلا: «هذه هزلية قاتمة من التنازل المتبادل. فالمسيحيون الإيڤانجليكيون يتنازلون لليهود بتقديم دعمهم لهم قبل أن يتنصروا وإلا قتلوهم. واليهود المحافظون يتنازلون للمسيحيين بقبول دعمهم وهم يؤمنون بأن إيماناتهم الغيبية محض هراء. هذا أفضل مثال على الاستغلال السياسى للدين»[٩٦].

وصل النشاط الرؤيوى فى الحقيقة إلى أعلى مستويات السياسة ورسم السياسات الأمريكية. وعندما ناقش مجلس الشيوخ ما إذا كان على إسرائيل أن تنسحب من المستعمرات اليهودية بالضفة الغربية، اعتمد عضو المجلس چيمس آينهوف ـ وهو جمهورى عن ولاية أوكلاهوما ـ على الكتاب المقدس فى تبرير الاستمرار فى احتلال الخليل. فأعلن من فوق منبر مجلس الشيوخ مستشهدًا بسفر التكوين قائلا: «إنه المكان الذى تجلى فيه الرب لإبراهيم وقال: «أنا أعطيك هذه الأرض». وهذه ليست معركة سياسية على الإطلاق. إنها سجال حول ما إذا كانت كلمة الرب صحيحة أم لا»[٩٧].

قلة قليلة من الساسة أو الديپلوماسيين أو القواد العسكريين ممن يؤمنون بمثل هذه المعتقدات لديهم من الشجاعة (أو الحمق) ما يكفى لمناقشتها صراحةً؛ لذا فمن السهل نبذ من يدافع عن استغلال الكتاب المقدس كوثيقة تعتمد عليها السياسة الخارجية الأمريكية، باعتباره شاذا دينيًا. لكن الإيمان الحق وحرفية الكتاب المقدس كما يذكرنا عضو مجلس الشيوخ آينهوف، لم يكونا قط قاصرين على الكنائس النائية، حيث تمسك الرعية بالأفاعى ويتحدثون فيما بينهم بلغات أخرى. فالفكر الرؤيوى يطل برأسه من حين لآخر فى عناوين الصحف، ويذكرنا بأنه كامن فى الظل يتربص دائمًا.

فى ثلاثينيات القرن العشرين وجد حشد من «الأدفنتيست أنصار اليوم السابع» بلوس أنچيليس أنفسهم يواجهون مشكلة غريبة بعد ترحيبهم بعضو جديد يدعى ڤيكتور هاوتف وهو بائع غسالات من أصل بلغارى. توصل هاوتف إلى أن المتون المقدسة المسيحية مدونة بشفرات سرية لم يفلح أحد غيره فى حلها، وقدم تعاليمه الخاصة الغريبة بدلاً من تلك التى تقدمها الكنيسة. وأخيرًا وفى سنة ١٩٣٥م، تم منع هاوتف من حضور القداس، فتزعم عشر أسر وذهب بهم إلى منفى اختيارى وعاشوا

فى تجمع على قمة تل ناءٍ بمدينة واكو بولاية تكساس حيث قبع فى انتظار أن يشهد نهاية العالم بصحبة المائة والأربعة والأربعين ألف تابع ممن تعشم أن يجتمع حوله.

ولا تزال مدينة واكو تذكرنا حتى الآن بحادثة تثبت مدى ما يمكن أن يصل إليه الفكر الرؤيوى من عناد وخطورة. ولكن فى الثلاثينيات لم يكن هاوتف وأتباعه سوى طائفة دينية شديدة الغرابة ظلت حياتهم فى أطراف تكساس النائية خافية على بقية الأمريكيين. إلا أن بذور التعادلية الخطيرة بين «فرع الداوديين» وعناصر تنفيذ القانون الاتحادى التى حدثت فى سنة ١٩٩٣م ترجع إلى أقدم حراك شهده التراث الرؤيوى فى العالم الجديد، وأسوأ تجاوزات چان بوكلسن «المسيح الملك» بمدينة مونستر فى العصور الوسطى.

أطلق هاوتف على طائفته اسم «جبل الكرمل» فى إشارة إلى الموضع الذى أمر فيه النبى إيليا بالقبض على أربعمائة وخمسين من كهنة الإله الوثنى بعل وقتلهم فى مذبحة تهدف لتمجيد رب إسرائيل[٩٨]. كان الاختيار بين الإله الحق الواحد وكل ما عداه من معتقدات وممارسات أخرى مسألة حياة أو موت بالمعنى الحرفى للعبارة بالنسبة لهاوتف وأتباعه كما كان بالنسبة لإيليا ومؤلف سفر الرؤيا. كتب أحد المراقبين زار المكان فى سنة ١٩٣٧م يقول: «يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مسمى «جبل الكرمل» نفسه يدل على موضع نُختبر فيه عما إذا كنا سنعبد الرب أم بعلاً»[٩٩].

كان هاوتف كغيره من المنذرين بالشؤم يؤمن بأن عودة الشعب اليهودى إلى وطنه القديم شرط للمجىء الثانى، وأطلق على أتباعه اسم «الداوديين» توقعًا لإعادة عرش الملك داود. ولإبقائهم فى «حالة استعداد دائم لحدوث النهاية» أمر بوضع ساعة فى مقر الداوديين على جبل الكرمل مثبتة على الحادية عشرة «للتذكير بأن الزمن يوشك على الانتهاء»[١٠٠]. وببقائهم الدائم فى حالة «استعداد نفسى» ظل هاوتف وبقية الداوديين فى انتظار أن ينتهى العالم فى الموعد المحدد.

لم يمهل الموت هاوتف بالطبع حتى يرى أيًّا من الأحداث المشهودة التى ادعى إدراكها فى فقرات الكتاب المقدس المشفرة. وعند وفاته فى سنة ١٩٥٥م انقسمت طائفته إلى شيع متخاصمة، وأطلقت الفرقة التى انتهى الأمر بحيازتها تلك المنطقة من

واكو على نفسها اسم «فرع الداوديين». وفى ٢٢ أبريل ١٩٥٩م احتشدوا على جبل الكرمل ليشهدوا تحقق نبوءة جديدة لفلورنس أرملة هاوتف قالت فيها: «المؤمنون سيُقتلون ثم يبعثون ثم يُرفعون إلى السماء». وهناك صحفى قام بتغطية المشهد ورأى حالة الإحباط التى ألمت بمن وجدوا أنفسهم لا يزالون أحياء فى نهاية اليوم وقال: «لم يهدأ بالاً من بين الألف تقريبًا ممن كانوا هناك سوى شخص واحد: أنا»(١٠١).

وفى أواسط الثمانينيات كان «جبل الكرمل» يوشك على الانتهاء، لكن «فرع الداوديين» انتعش بوصول شاب ذى شخصية كارزمية يدعى ڤيرنن هاول، وهو «عازف جيتار شبه أمى، وعلى إلمام عالٍ بالكتاب المقدس، ولديه حافز قوى لكشف أسراره»(١٠٢). كان هاول يحظى بلسان طلقٍ ومرح و«قدرة على المحاكاة»(١٠٣). بل إنه أطلق بصورة ماكرة على نفسه اسم «المسيح الخاطئ»، وجند طاقمًا من «الزوجات» من منطلق واجب فرضه على نفسه بإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال(١٠٤). وبتوليه زعامة «فرع الداوديين» أعلن دوره الجديد باتخاذه اسمًا جديدًا: «ديڤيد كورش».

كان الاسم الذى اختاره ڤيرنن هاول لنفسه مفعمًا بالمعانى التوراتية. كان القصد من اسم «ديڤيد» بالطبع تذكير «فرع الداوديين» بملك بنى إسرائيل التوراتى الذى يقال إن دمه كان يجرى فى عروق يسوع. يقول مؤلف سفر الرؤيا: «الأَسَدُ الَّذِى مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا أَصْلُ دَاوُدَ لِيَفْتَحَ السِّفْرَ وَيَفُكَّ خُتُومَهُ السَّبْعَةَ»(١٠٥). و«كورش» اسم الإمبراطور الفارسى الذى سمح لليهود المسبيين بالعودة ليهوذا وأعاد بناء هيكل أورشليم [القدس]، فنال لنفسه بذلك لقب «المسيح» التوراتى. وبذلك صنع ڤيرنن هاول أحقية مشفرة لمسيحانيته.

كان ديڤيد كورش يؤمن كهاوتف بأنه وحده القادر على كشف أسرار الكتاب المقدس الخفية لا سيما معنى أختام سفر الرؤيا السبعة. وكما فعل چان بوكلسن فرض كورش قانونًا صارمًا من الأخلاق الجنسية ينطبق على الجميع إلا هو، وكان يتناول الأطعمة الممنوعة كالآيس كريم والحلوى علنًا بينما اقتصر أتباعه على الغذاء النباتى «حيث كانت أحكامه فى الغذاء تتغير من حين لآخر». وتورط كالأب ميلر فى

عملية تحديد المواعيد. فتنبأ بأن «الضيقة العظيمة» ستبدأ فى سنة ١٩٩٥م أى بعد «تتويجه» زعيمًا لـ «فرع الداوديين» بعشر سنوات[١٠٦]. وكمؤلف سفر الرؤيا أكد أنه «أخذته إلى السماء كائنات ملائكية» وصفها بأنها «سفينة فضائية» تسافر بالضوء، بانكسار الضوء»[١٠٧].

كان كورش يؤمن بأن العالم يشهد تحقق النبوءات التى وردت بسفر الرؤيا، كفك الأختام السبعة. واعتبر دعوته لزعامة «فرع الداوديين» نبوءة الختم الأول: «فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ قَوْسٌ وَقَدْ أُعْطِى إكْلِيلاً وَخَرَجَ غَالِبًا وَلِكَى يَغْلِبَ»[١٠٨]. وفى سنة ١٩٩٢م أصبح كورش يؤمن بأن أخطر نبوءات سفر الرؤيا وأشدها إبهامًا ـ أى فك الختم الخامس ـ كانت وشيكة:

«وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِى كَانَتْ عِنْدَهُمْ. وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ لاَ تَقْضِى وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟»[١٠٩].

ربما كان يمكن لديڤيد كورش أن يقضى حياته فى غموض كأحد أدعياء النبوة، لولا أنه وضع خطة تقضى بتسليح الداوديين بأسلحة آلية. وكان قد جمع ترسانة أسلحة فعلا ثم شرع فى شراء المعدات التى تمكنه من تحويل مخزون من البنادق نصف الآلية إلى أسلحة ذات معدل إطلاق أكبر كثيرًا. وهذا ما دفع عناصر إدارة مكافحة الكحوليات والتبغ والأسلحة النارية للاهتمام بما يحدث داخل المعسكر فوق جبل الكرمل. وفى ٢٣ فبراير ١٩٩٣م، شنت العناصر [القوات] الفيدرالية حملة إجهاضية كبداية لحصار استمر واحدًا وخمسين يومًا ولم ينته إلا بحريق أحال جبل الكرمل رمادًا وراح ضحيته ثمانون من «فرع الداوديين» منهم ديڤيد كورش نفسه.

وفى إحدى مراحل الحصار، حصل «مكتب التحقيقات الفيدالى» على مشورة حكيمة من اثنين من أساتذة الأديان أكدا أن قراءة سفر الرؤيا عن كثب تمثل مفتاح إنهاء المواجهة مع الداوديين المدججين بالسلاح. كان واضحًا أن كورش مؤمن بأن الداوديين هم المقدر لهم أن «يُقتلوا فى سبيل كلمة الرب» عندما ينفتح الختم الخامس حسب ما

ورد بسفر الرؤيا. إلا أن الأستاذين حاولا إقناع كورش عن طريق البث الإذاعى بأن عليه أن يقرأ وينتبه للسطر التالى من سفر الرؤيا الذى يقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحُوا زَمَانًا يَسِيرًا»[١١٠]. ولو أمكن إقناع كورش بأن «الرب شاء للزمان «اليسير» أن يدوم حتى نهاية الحصار وإتاحة الفرصة له حتى يحاكم ثم يواصل بشارته على مستوى العالم لانتهى المواجهة سلميًّا»[١١١].

أخذ «مكتب التحقيقات الفيدرالى» المشورة بجدية لدرجة أن أدار شريطًا من البث الإذاعى على الهاتف من أجل كورش، فوافق على مغادرة معقله على جبل الكرمل بمجرد أن ينتهى من إنشاء رسالته عن معنى الأختام السبعة. إلا أن «مكتب التحقيقات الفيدرالى» لم يوافق على الانتظار طويلاً على كورش الذى كانت لديه القدرة على الإطالة بشكل غير عادى فى خطبه حتى ينتهى من أحدث شروحه. يقول تومسن عن حقبة لم يكن العالم أدرك بعد دوافع مرتكبى التفجيرات الانتحارية: «لم يكونوا يعرفون قدرة الدين على دفع سلوك الإنسان إلى نقطة يضحى عندها بكافة انتماءاته الأخرى»[١١٢].

تعرض دور سفر الرؤيا فى حصار جبل الكرمل للتجاهل، فى الوقت الذى وقع فيه الحادث، وتم نسيانه تمامًا بعده. وتم شطب الحادث المؤسف برمته باعتباره مواجهة مؤسفة بين عناصر شرطية مندفعة وبعض المهووسين الدينيين، وتعجل الطرفان حسم النزاع بقوة السلاح. ولكن ما كانت المأساة لتحدث أصلاً وما كان «فرع الداووديين» ليظهروا للوجود أصلاً لولا ما للفكر الرؤيوى من سطوة غريبة. فسفر الرؤيا يحمل فى طياته «حمولة خطيرة» كما رأينا وسنرى، فحتى أروع الأحلام بسماء جديدة وبأرض جديدة لها جانب مظلم.

لنتأمل ـ على سبيل المثال ـ الظاهرة الإعلامية المتميزة التى تعرف بسلسلة «المتروكون خلفًا ـ The Left Behind» والتى تفجرت فى الثقافة الشعبية الأمريكية مع بدء انزواء ذكريات واكو الأليمة.

عند ما قام تيم لاهاى بنشر رسالة بعنوان «بداية النهاية ـ The Beginning of the End» فى سنة ١٩٧٢م، كان مجرد منذر آخر بالشؤم من الوعاظ المتقدين، يسعى

لإقناع قرائه بأن نهاية العالم وشيكة. فقدم جرعة قوية من فكر ما قبل الألفية التدبيرية لا تختلف بأى حال عما بشر به چون نلسن داربى أو الأب ميلر فى أيامهما. كتب لاهاى يقول: «قد نكون الجيل الذى يرى ذروة العصور ويعاصر مملكة المسيح. ولا شك أن لدينا أدلة تاريخية على هذا الاحتمال تفوق أى جيل من المسيحيين على مدار ما يقرب من ألفى سنة. وأنا فى الحقيقة أعتقد أن الكتاب المقدس به ما يدل على أننا نعيش بداية النهاية»(١١٣).

وفى سنة ١٩٩٥م، اتخذ لاهاى وضعًا مختلفًا تمامًا فى المشهد الثقافى حيث كتب «بالمشاركة مع چيرى چنكنز» سيناريو فيلم رعب رؤيوى مبتذل بعنوان «Left Behind». والمضمون هو نفسه تمامًا، أما الشكل فيختلف تمام الاختلاف. وكفيلم هابط يعرض «Left Behind» شخصيات مبتذلة وخلفيات غريبة وحبكة سريعة مما نتوقع أن نجد فى أحد أعمال روبرت لودلوم. وبغض النظر عن أن كتاب «Left Behind» من نشر دار تيندال المعروفة بنشر العناوين المسيحية الأصولية، فليس هناك على الغلاف أو ظهره ما ينم عن حقيقته كرسالة لاهوتية متخفية. إلا أن أولى فقرات الكتاب تعرِّف القارئ بعقيدة «الخطف»، حيث يكتشف البطل وهو طيار تجارى يدعى رايفورد ستيل أن نصف ركاب طائرته البوينج ٧٤٧ غادروها فى منتصف الرحلة. فيصرخ أحد المضيفين فى هياج قائلا:

«لستُ مختلاً! انظر بنفسك فى الطائرة كلها، الناس اختفوا».

«هذه نكتة، إنهم مختبئون، يحاولون أن»

«راى! أحذيتهم، جواربهم، ثيابهم، كل شىء تركوه وراءهم. هؤلاء الناس اختفوا!»(١١٤).

وهكذا بدأ مشروع إعلامى ناجح حسيًّا يبين قوة تأثير الفكر الرؤيوى فى أبسط وأنقى أشكاله. وأفرخت سلسلة «Left Behind» وهى سرد مطول لـ«الضيقة العظيمة» وعجائب عدو المسيح سلسلة من الروايات، بل إمبراطورية من الوسائط المتعددة من كتب وهزليات ونشرات إخبارية وسمعيات وبصريات وموقع على شبكة الإنترنت بعنوان «نادى نبوءات المنسيين». وأنتج الناشر منه سلسلة مستقلة للقراء

الصغار بعنوان (المنسيون: الصغار ـ Left Behind: The Kids) ويتألف حاليًّا من أربعين عنوانًا إضافيًّا. وبينما اعتبر هال ليندسى أكثر المؤلفين مبيعًا فى السبعينيات لبيعه عشرين مليون نسخة من كتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» يقال إن سلسلة «Left Behind» باعت أكثر من خمسين مليون نسخة منذ صدور أول عنوان منها فى سنة ١٩٩٥م. ولا تزال النهاية لم تأت بعد.

ودوافع لاهاى فى إعادة صياغة سفر الرؤيا كفيلم رعب لا تقتصر على الجشع والارتزاق. فقبل حصوله على اللقب الجديد كأفضل الروائيين مبيعًا، كان لاهاى يحظى بنجاح باهر كقس ومعلم وواعظ تليفزيونى، وأحد أبرز الشخصيات فى السياسة المسيحية. ويصفه چيرى فالويل بأنه «الدافع وراء مولد اليمين الدينى»(١١٥) وعمل كمدير مشارك للحملة الرئاسية الفاشلة للجمهورى المحافظ چاك كيمب على الأقل إلى أن طُلب منه أن يستقيل بعد أن ورد عنه أنه وصف الكاثوليكية الرومانية بأنها «ديانة زائفة»(١١٦).

وبغض النظر عن سلسلة «Left Behind» فإن كتب لاهاى الخمسين تشمل رسائل تدين الأمم المتحدة والشذوذ و«النزعة الإنسانية العلمانية» وغيرها من مكروهات الأصولية المسيحية. و«قدم فى المقام الأول جدول أعمال للمحافظين يضم قضايا عدة كالإجهاض والإباحية ونظرية الخلق والصلاة فى المدارس والتعليم العام كمرتع للعلمانية والليبرالية» حسب قول پول بوير(١١٧). ويعترف لاهاى نفسه بأن سلسلة «Left Behind» تعد سلاحًا آخر فى الصراع على قلوب إخوانه الأمريكيين وعقولهم.

ورد عن لاهاى أنه قال فى لقاء معه: «نحن فى حرب ثقافية فى هذا البلد، وهناك رؤيتان للعالم، تقوم إحداهما على كتابات الإنسان والأخرى على كتابات الرب. وهما رؤيتان متعارضتان»(١١٨).

لذا فإن حلقات سلسلة «Left Behind» تعتنق اللاهوت الثنائى ـ ومنطق السعى للانتقام ـ الذى يتأجج فى سفر الرؤيا. فكل تعقيدات العالم الحديث تتم إزاحتها ليحل محلها الصراع البسيط بين الرب والشيطان، وهى استعارة أخرى من سفر الرؤيا. ومع بدء «الضيقة العظيمة» فى حبكة سلسلة «Left Behind» تشرع قلة من المسيحيين ممن

تخلفوا عن «الخطف» فى الانضمام إلى الصراع ضد عدو المسيح الذى يتخذ شكل سياسى يهودى داهية يتخذ من العراق الحديث «موقع بابل القديمة» مقرًا له.

يقول جيرشوم جورنبيرج فى عرض لسلسلة «Left Behind» نشر فى «المشهد الأمريكى ـ The American Prospect»: «إنهم يشجعون نظريات المؤامرة ويضفون السمات الشيطانية على الحد من التسلح والنزعة المسكونية وحقوق الإجهاض وعلى كل من لا يعجب اليمين المسيحى»[١١٩]. ولا يفوق عداءهم لليهود إلا عداؤهم للكاثوليكية. وهم يرفضون فكرة الحوار الديمقراطى المفتوح. وهناك حقيقة واحدة فى عالم «Left Behind» تقوم على قراءة حرفية للنصوص المقدسة؛ وكل من يخالف تلك الحقيقة إما مضلل أو شرير[١٢٠].

وليس من قبيل المصادفة أن بلغت سلسلة «Left Behind» الذروة فى اللحظة التى تنبه فيها العالم الغربى للخطر الجديد الذى حل محل «إمبراطورية الشر» فى حقبة ريجان، أى الإسلام الجهادى ولا سيما الإرهاب الدينى وانتشاره على نطاق غير مسبوق. وفجأة تحول كل قديم إلى جديد مرة أخرى؛ فرمز الإسلام كان يعد مرشحًا لأن يكون عدو المسيح قبل الثورة البلشفية بأكثر من ألف سنة. وحين شنت أمريكا الحرب على العراق، أصبح الصراع الذى اعتبره چورچ بوش الابن «صدام أيديولوچيات» مرة أخرى حربًا بين «الحمل» و«الوحش».

فى الوقت الذى سعى فيه چورچ بوش الابن للرئاسة، كان ربط السياسة بالدين فى أمريكا اكتمل تقريبًا. وبعد أن تحول إلى مسيحى مولود من جديد على يد بيلى جراهام بعد عطلة نهاية أسبوع مخمورة فى عزبة آل بوش فى سنة ١٩٨٥م، أصبح يعتمد على كتلة أصوات الأصوليين. وحين سئل فى مناظرة بين مرشحى الرئاسة الجمهوريين فى سنة ١٩٩٩م عن فيلسوفه السياسى المفضل، أجاب: «المسيح» وبدأ يشرح قائلا: «عندما تتحول بقلبك وبحياتك إلى المسيح، وحين تتقبل المسيح مخلِّصًا لك، فإن هذا يغير قلبك ويغير حياتك»[١٢١]. وما إن وصل إلى البيت الأبيض فى سنة ٢٠٠١م، حتى أطلق بوش «مبادرة قائمة على الدين» لتمويل برامج الإعانة الاجتماعية لمختلف التنظيمات الدينية.

كتب الصحافى رون سسكند فى «نيويورك تايمز» يقول: «كان مؤسسو الدولة لا يزالون يألمون من الممارسات الدينية العقابية التى سادت دول أوروپا، فشددوا على إقامة جدار بين الدين المؤسسى والسلطة السياسية. ولكن فجأة بدأ چورچ بوش الابن... يغير المنصب نفسه، فابتدع الرئاسة القائمة على الدين»[١٢٢].

لا يميل بوش للأحكام الرؤيوية من النوع الذى كان ينساب على لسان رونالد ريجان دون رابط. فهو يؤثر عبارة «التغيير الحضارى» على «حرب الحضارات»[١٢٣]. لكن بوش صريح عما يعتبره أهداف «التغيير الحضارى» كالإجهاض وزواج الشواذ وأبحاث الخلايا الجذعية الجنينية والحظر الدستورى للصلاة فى المدارس العامة. ويتبنى نغمة أقرب إلى الحرب فى وصف المهمة التى كلف بها نفسه. فقال فى لقاء مع ممثلى مطبوعات دينية عدة: «المبادرة القائمة على الدين تدرك أن هناك جيشًا من المشاعر يحتاج لتغذية وتعبئة واستدعاء وتمويل دون تجريد الجيش من هويته كجيش فى المقام الأول»[١٢٤].

وإذا كان بوش لا يتكلم بلغة الأصولية الرؤيوية المألوفة فهذا يرجع لوجود «ترسانة لغوية» جديدة ومنقحة تم شهرها فى أمريكا المعاصرة. فما كان يعرف بـ«نظرية الخلق»، مثلاً، أصبح يسمى «التصميم الذكى» ـ وهى عبارة شفرية لا تختلف فى معناها ـ ويرى بوش أن «التصميم الذكى» ونظرية التطور العلمية كلاهما ينبغى أن يدرَّسا فى المدارس العامة. وما يسميه الأطباء «رحمة إنهاء الحياة» يدان الآن باعتباره «قتلاً رحيمًا»، ودعا بوش لالتزام قومى بـ«ثقافة حياة يلقى فيه كافة الأمريكيين الترحيب والتقدير والحماية، لا سيما من يعيش منهم تحت رحمة غيره».

ومسألة أن بوش ليس واعظًا يتوعد بالكتاب المقدس تعد فى حد ذاتها سببًا لقلق المراقبين على جانبى الحرب الحضارية؛ لأنهم يتشككون فى أنه يخفى معتقداته الحقيقية وحسب. يقول المؤرخ وكاتب التراجم جارى ويلز فى صحيفة «نيويورك تايمز»: «إن القصر الحاكم فى البلاد تقوضه حاليًّا جماعات الصلوات وخلايا تدارس الكتاب المقدس، كأنه دير أبيض. ومن التعبيرات المرحة فيه عبارة: افتقدناك فى درس الكتاب المقدس»[١٢٥]. وبوش ـ كما نعلم ـ لا يبين اللافتة التى يمكن رؤية مثلها فى مكتب

عضـو مجلـس النـواب السـابق تـوم ديـلاى والتـى تقـول «اليـوم قـد يكـون اليـوم الموعود!»[١٢٦] لكن الشك الأخرس بين بعض نقاد بوش أنه قد يشارك سرًّا فى الإيمان بالتوقع الملح نفسه.

ومن الغريب أن مثل هـذه الشكوك تـنعكس لـدى خصوم بـوش علـى الحافـة الباليـة للأصولية المسيحية. فربما كـان بـوش الأب يبـاهى بأنـه مسيحى مولـود مـن جديـد، إلا أن عمله فى الأمم المتحدة و«هيئة الاستخبارات المركزية» و«اللجنـة الثلاثيـة» تؤكـد أسـوأ مخاوف أنصار نظرية المؤامرة. وعندما جاء بوش الابن فإن مسألة انتماء كل من الأب وابنه لنادى «سكال آند بونز (الجمجمة والعظام)» وهو نادٍ للخريجين بجامعـة ييـل يعـرف غالبًـا باسم «الجمعية السرية» اتخذت مغزى شيطانيًّا. يقـول پـات روبرتسـن فـى كتابـه «النظـام العـالمى الجديـد ــ The New World Order»: «إن الرجـال مـن ذوى النوايـا الطيبـة كوودرو ويلسن وچيمى كارتر وچورچ بوش ينفذون المهمة دون أن يدروا، ويغمغمـون بدسيسة محكمة هدفها إيجاد نظام جديد للجنس البشرى يقوده إبليس وأعوانه»[١٢٧].

إن أى سياسـى يعتنـق الفكـر الرؤيـوى سـواء فـى العلـن أو فـى الخفـاء، يخطـو نحـو الشرَك نفسه الذى وقع فيه رؤسـاء كـچـورچ بـوش سـواء الأب أو الابـن. يقـول أسـتاذ السياسة مايكل باركون: «الحركات الألفية لا فكاك لها من الفكر التآمرى، فهى تقسم العالم بصورة صـارمة إلى خير وشر، مستحق للخـلاص وملعـون. ويشـكل الشـر فيهـا تهديدًا ماثلاً أبدًا لا تزيله تماما إلا نهاية التاريخ»[١٢٨]. إلا أن مسألة تحديد مَن الخير ومن الشرير ومن مستحق الخلاص ومن الملعون تختلف من شخص لآخر، كما اكتشـف كـلٌّ من بوش الأب وبوش الابن.

اليوم وبعد عشرين قرنًـا مـن ظهـور سفـر الرؤيـا لأول مـرة فـى عالمنـا الممـزق، فـإن كلمات چيروم تصدق حاليًّا أكثر مما كانـت حـين نطـق بهـا أول مـرة فـى القـرن الرابـع: «إن سفر الرؤيا به من الألغاز قدر مـا بـه مـن كلمـات»[١٢٩] ونضيـف مـن عنـدنا: ومـن الأخطار أيضًا.

ومن القراء من يرى فى سـفر الرؤيـا بيانًـا ملتهبًـا للحريـة ودعـوة للتحـرر فـى الحيـاة الدنيا. «فكتـاب «رسـالة مـن سـجن بيرمنجهـام ــ Letter from a Birmingham Jail»

لمارتن لوثر كينج، يعكس آمالاً تشبه لاهوت سفر الرؤيا» حسب قول العالمة الكاثوليكية إليزابيث شوسلر فيورنتسا، وهى لاهوتية ورائدة نسائية ترى «لمحة من أورشليم [القدس] الجديدة» فى عبارة كينج الرنانة «يراودنى حلم» التى وردت فى خطابه الذى ألقَاه فى نصب لنكولن التذكارى فى سنة ١٩٦٣م(١٣٠). والشاعر والكاهن المتطرف دانييل بيريجان خطرت له بعد القبض عليه لحفره قبرًا فى حديقة البيت الأبيض، من باب الاحتجاج السياسى، فكرة كتابة شرح خاص به على سفر الرؤيا فى زنزانته بأحد سجون العاصمة الأمريكية.

يحثنا الأب بيريجان الراديكالى والشاعر على اعتبار سفر الرؤيا نصًّا يدعو للتحرر لا نصًّا مخيفًا أو يدعو للكراهية. ويقول فى ملحوظة ساخرة فى كتابه «كابوس الرب ـ Nightmare of God» إن «سفر الرؤيا يستحق الحرق، فهو مدمر بكل تأكيد. فدولة المؤسسات [مؤسسات الأعمال (أى البيزنيس)] تدمر الأرض وتشتت العقول وتفسد شتى مجالات العلم بمغامراتها العسكرية والاقتصادية التوسعية. انظر إلى روما سفر الرؤيا. وانظر لأمريكا!»(١٣١).

وهناك قراء آخرون يرتفعون بسفر الرؤيا إلى مكانة أسمى وأكثر أثيرية. فعالم اللاهوت چاك إيلول، مثلاً، تنسب إليه قراءة خَلاصية بحتة لسفر الرؤيا تجرد النص من كل ما فيه من رعب. يقول داريل فاشينج، وهو باحث فى التاريخ تخصص فى دراسة الدين والعنف: «بدلاً من إعلان نهاية كارثية للتاريخ كقدر محتوم علينا، يرى من جانبه أن سفر الرؤيا هو رؤيا حرية الرب، وهى تعمل فى التاريخ كما حققها الأمل الإنسانى الجامح». وحين يقارَن بقراءات سفر الرؤيا المتزنة والأنيقة فإن التكهن الرؤيوى القاسى فى كتابات هال ليندسى «يعد فاحشًا على أقل تقدير»(١٣٢).

ويقول فاشينج فى كتابه «التحدى الأخلاقى لآوشفيتز وهيروشيما ـ The Ethical Challenge of Auschwitz and Hiroshima»: (إن هال ليندسى ينخرط فى نوع من تأويل النصوص المقدسة أدانه أوغسطين ذات مرة بحق بوصفه بعبارة fantastica fornicatio التى يمكن ترجمتها بعبارة مهذبة هى «استمناء ذهنى» أو بعبارة أقل تهذيبًا «الفسق بالرموز المقدسة»)(١٣٣).

إلا أن الخطر فى قراءة سفر الرؤيا أكبر كثيرًا من مسألة فسق ذهنى. فالنص

التحريضى المتعمد ـ كما رأينا ـ قادر على دفع بعض الناس إلى السعار، وبعض آخر للقيام بأعمال عنف، وبعض ثالث لكليهما معًا. وربما كان القصد منه أن يكون كذلك. يقول مايكل باركون فى كتابه «الكارثة والألفية ـ Disaster and the Millennium»: «من الصعب معرفة ما إذا كانت التكهنات الكئيبة بالرؤى النبوئية تمثل خوفًا فعليًّا من تحققها أم نوعًا من الانبهار السلبى بها. وقد تعمل من ناحية أخرى وبصورة خفية كنبوءة تتحقق ذاتيًّا وتجر فى أثرها الأحداث الرهيبة نفسها»(١٣٤). وليس هناك تفسير أفضل من ذلك للتأثير الضار لسفر الرؤيا على رجل مثل ديفيد كورش وما حدث فى واكو.

لذا فإن بعض القراء يتراجعون فى هلع عند مشاهد القتل الرهيبة التى تترك لسفر الرؤيا مذاقًا مرًّا بل سامًّا بعد قراءته. يقول الباحث التوراتى اليهودى والمترجم روبرت ألتر الذى خرج من النص القديم برؤى جديدة وكاشفة: «ما من نص آخر فى العهدين القديم والجديد يتسم بهذه الدرجة من اللاإنسانية واللامسئولية الروحية. فلا مكان للناس بصورتهم الحقيقية فى سفر الرؤيا، فعندما يتعمد الكاتب أن يجمع الناس فى جموع حاشدة فى انتظار أن يلقَى بهم فى حفر من كبريت فلا حاجة له بالنظر إلى وجوه فردية...» (١٣٥). والقصد من العبارة التى يختارها ألتر لوصف ما يرى فى سفر الرؤيا ـ «جموع حاشدة فى انتظار أن يُلقى بهم فى حفر» ـ تذكيرنا بالمذابح التى حدثت فى الحرب العالمية الثانية.

والصلة بين سفر الرؤيا والمحرقة لاحظها كثير من القراء المحدثين. فالفاشيون والماركسيون فى أواسط القرن العشرين اعتنقوا الفكر الرؤيوى مجردًا من شراكه التوراتية وبمفردات جديدة تمامًا. فكان كل من هتلر وستالين من المؤمنين المتحمسين ممن أقنعوا أنفسهم بأنهم مكلفون بخلق فردوس على الأرض بتدمير النظام القديم وإحلال آخر جديد محله. وهكذا رسم بعض الرؤيويين خطًّا يجرى من المؤمنين الرؤيويين الحقيقيين الأوائل فى التراث اليهودى / المسيحى ـ قراء دانيال والرؤيا وسامعوهما ـ والسفاحين الذين استهدفوا الشعب اليهودى إبان المحرقة. يقول داميان تومسن: «من المفارقات الغريبة أن النازية اتخذت عن غير وعى منظومة معتقدات طورها اليهود جزئيًّا وإن لم يبتدعوها. فلا شك أن حكم القديسين لألف سنة يكمن وراء الرؤية الخاصة

بإقامة رايخ يدوم ألف سنة، ولكن كان من المؤثرات الأهم على النازيين صورة عدو المسيح فى سفر الرؤيا كعدو مرن لدرجة يستحيل معها هزمه إلا فى حرب كونية »[١٣٦].

والحقيقة أن الفكرة الرؤيوية اعتُبرت مسئولة عن الهلع الذى أصبح يرمز للقدرة البشرية على ممارسة العنف الكارثى فى العالم الحديث: قتل ستة ملايين رجل وامرأة وطفل من اليهود فى المحرقة، وموت عدة مئات الآلاف من اليابانيين(*) حين ألقيت قنبلة ذرية على هروشيما وأخرى على ناجازاكى فى الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. وكان الضحايا جميعًا أبرياء من أى ذنب. ولكن ما أن نعتبر أى عدو وحشًا شيطانيًّا لا أخًا فى الإنسانية ـ كما يبشر سفر الرؤيا ـ فإن القتل يمكن اعتباره أمرًا له ما يبرره، بل ثأرًا مقدسًا.

ولا يقتصر الفكر الرؤيوى وتبعاته الخطيرة على التراث اليهودى / المسيحى. فالساعة آتية كما ورد فى إحدى آيات القرآن تصور وحشًا وفواجع كونية عدة ـ منها انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجر البحار ـ كعلامات يوم القيامة حين تتبعثر القبور. وربما كانت الصورة القرآنية عن آخر الزمان ـ كما يقول سعيد أمير أرجمند الباحث المتخصص فى تاريخ وعلم اجتماع الإسلام ـ مستوحاة من رؤيا الختم السادس بسفر الرؤيا(**).

(*) حين يتعلق الأمر باليهود نجد كتّاب الغرب فى غاية الدقة: «ستة ملايين يهودى». أما أى ملة أخرى من البشر فتقاس بـ«عدة مئات الآلاف». كل ما نطلبه من القارئ أن يفكر للحظة فى رقم الستة ملايين، وهناك دراسات كثيرة يهودية وغير يهودية تهبط بهذا الرقم إلى سدسه وأقل، بينما يصل عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية لعشرات الملايين ـ المترجم.

(**) آية الدابة هى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل: ٨٢]، أما القيامة، فالآيات التالية تبين أن علمها عند الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤]، أما ربما التى يقول بها سعيد أمير أرجمند فهى لا تكفى لإثبات ما يقول، وما يثبت هو الأدلة والحجج ـ المترجم.

والتصور الرؤيوى سواء أكان منشؤه الإسلام أو المسيحية أو اليهودية دائمًا ما يدفع بعض الناس لممارسة نزواتهم الانتقامية على حياة إخوانهم من البشر. فنبه أسامة بن لادن العالم لنواياه الانتحارية حين استشهد بحديث ينسب لمحمد فى لقاء أجرى معه قبل ١١ سبتمبر بسنتين: «تُقَاتِلُونَ الْيَهُودَ حَتَّى يَخْتَبِئَ أَحَدُهُمْ وَرَاءَ الْحَجَرِ فَيَقُولُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِى وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[١٣٨](*).

هذا إذن مثال آخر على الجانب المظلم من الفكر الرؤيوى، وهو الخوف من «الآخر» والتقزز منه والإصرار على تخيير «الآخر» بين التحول أول الموت. إلا أن الفكرة نفسها تطالعنا فى التراث الرؤيوى اليهودى والمسيحى. فكان چيرى فالويل يؤمن بهذا المفهوم المقيت نفسه حين تساءل علنًا عما إذا كان الرب سمح للإرهابيين بتنفيذ هجماتهم فى ١١ سبتمبر عقابًا لأمريكا على موقفها المتهاون تجاه الوثنيين ومؤيدى الإجهاض وأنصار الحركة النسائية والشواذ والسحاقيات وحركة «أناس من أجل النهج الأمريكى»[١٣٩]. ورد عن الفيلسوف الشعبى إريك هوفر (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣م) إبان ذروة تعقب الشيوعيين بالحقبة المكارثية: «قد تنشأ الحركات الجماعية وتنتشر دون إيمان بإله، ولكنها لا تخلو من إيمان بشيطان ما»[١٤٠].

يؤكد سفر الرؤيا ـ كما رأينا ـ أن الجنس البشرى يواجه دائمًا اختيارًا بسيطًا بين الخير والشر، بين الحمَل والوحش، بين الرب والشيطان، وسوء الاختيار يعاقب لا بالموت وحده بل باللعنة الأبدية. وكغيره من أشكال التعبير عن عمق الإيمان الدينى التى تنظر إلى تنوع العقائد والممارسات الدينية الإنسانية وتعتبرها جميعًا خطأ وخطيئة وجريمة إلا واحدة، فإن الفكر الرؤيوى قد يرتبط بالخيال الإنسانى. لكن التاريخ المأساوى الطويل والغريب لسفر الرؤيا ـ تاريخ الوهم ـ يثبت أنه فكر قاس دائمًا ومميت أحيانًا.

(*) لم يلق اليهود معاملة أفضل من التى لقوها بين المسلمين والعرب والأتراك، وتاريخهم فى الشرق الأوسط وفى الأندلس وفى تركيا شاهد على ذلك. ويمكن لمن يريد أن يقرأ ما قاله يورى أڤنيرى اليهودى الإسرائيلى (عضو الكنيست لدورتين) فى رده على البابا پندكيت، وذلك فى موقعه:
http://zope.gush-shalom.org/home/en/...ry/1159094813/
كما أن الموقع الأصلى لنشر المقال وفَّر نسخة مترجمة للعربية وهذا هو الرابط:
http://www.gush-shalom.org/arabic/archive/258.html

ليست كل عقيدة رؤيوية تعبر عن نفسها بكلمات سفر الرؤيا وعباراته المألوفة بالطبع. فالحركة التى تعرف بـ «رقصة الأشباح» والتى نشأت بين قبائل الأمريكيين الأصليين على الحد الغربى فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تركز على نسخة محلية من فكرة المملكة الألفية: «أرواح الموتى ستعود، وسيكثر عدد الجاموس مرة أخرى وسترتجف الأرض»(١٤١). وفى ذروة الحركة كان دعىّ نبوة أتباع «رقصة الأشباح» وهو شخصية مسيحانية يدعى «ووفوكا» يبشر أتباعه بأن ارتعاشاتهم ستدفع أرواح الأجداد لطرد المستعمرين البيض ممن يشكلون خطرًا على الأمريكيين الأصليين ويهددونهم بالفناء الحضارى والمادى.

وحتى أتباع «رقصة الأشباح» كانوا يَدينون بشىء للتراث الرؤيوى والمسيحانى فى المسيحية واليهودية الذى يبدو أنهم عرفوه من المبشرين المسيحيين وترجموه إلى ثقافتهم الروحية الخاصة. واكتشف أتباع «رقصة الأشباح» بأنفسهم الخطر الذى يتهدد الوعاظ الرؤيويين وأتباعهم دائمًا بما فيهم المكابيون و«المتعصبون» والمسيحيون الأوائل. وكانت السلطات العسكرية التى كانت مكلفة بحفظ القانون والنظام على الحدود، تعتبر حركة «رقصة الأشباح» نوعًا خطيرًا من التمرد، وقرروا القضاء عليها فى سلسلة من الحملات التأديبية التى بلغت ذروتها بالمذبحة الشهيرة التى وقعت فى «ووندد نى» فى سنة ١٨٩٠م.

والحقيقة أن أتباع «رقصة الأشباح» ينطبق عليهم النموذج النظرى الذى ينطبق على سفرى دانيال والرؤيا وغيرهما من الكتابات الرؤيوية القديمة. فالوعد بقرب نهاية العالم ــ كما رأينا ــ من المفترض أن المقصود به «شد أزر المؤمنين فى وقت الشدة والاضطهاد» ومواساة «من يعانون ويسودهم الخوف»(١٤٢). وهذه الكلمات تصف بدقة ورطة الأمريكيين الأصليين ممن كانوا يؤدون «رقصة الأشباح» لطرد المستعمرين البيض الذين كانوا يشنون ضدهم حربًا حضارية، بل حرب إبادة. بل إن أتباع «رقصة الأشباح» ينطبق عليهم وصف ضحايا الضيقة والاضطهاد أكثر من البيوريتانيين، مثلاً، أو أتباع ميلر أو الأصوليين المسيحيين فى عصرنا الراهن، إذ عاش هؤلاء جميعًا فى رغد وراحة وأمان.

لذا فإن الباحثين وجدوا لزامًا عليهم أن يضبطوا النموذج الرؤيوى بالإشارة إلى أن الاضطهاد قد يختلف تعريفه من شخص لآخر. تقول آديلة ياربرو كولنز عن الرجل الذى وضع سفر الرؤيا: «مهما كان وضعه الاقتصادى، فإن المؤلف أو الناسخ يشعر بأنه وقع ضحية ظلم»(١٤٣). وقد يشتاط من يتصور نفسه ضحية غضبًا على من يعتبره أفضل منه حالاً، وهى ظاهرة يسميها الباحثون «الحرمان الدينى» أو «الأسى على الحال»(١٤٤). وقد ينزعج الضحية من تغيير ثقافى أو سياسى ما، لا يسمح إيمانه وغيرته على عقيدته له بالتواؤم معه، وهو وصف قد يصدق تمامًا على قراء سفر الرؤيا وسامعيه الأوائل وعلى الأصوليين المسيحيين الأفضل حالاً فى أمريكا الحديثة. وتعتبر الظاهرة الرؤيوية برمتها أقرب إلى الاضطراب النفسى منها إلى الدعوة الروحية. يقول داميان تومسن ساخرًا: «إن الألفيين الكلاسيكيين من فلاحى العصور الوسطى الذين كانوا يجلدون أنفسهم بالسياط، إلى أتباع «رقصة الأشباح»، هم فى الغالب أناس أقرب إلى العته بمعناه الإكلينيكى»(١٤٥).

وهكذا وصل الأمر بأعضاء طائفة «بوابة السماء» بجنوب كاليفورنيا أن آمنوا بأن هناك سفينة فضاء مختبئة فى ذيل مذنب هيل بوب، وعلى متنها كائنات فضائية فى مهمة لتدمير الأرض، وأقنعوا أنفسهم بأنهم يستطيعون الإفلات من الرؤيا بركوب طائرة أعلى. وحزم تسعة وثلاثون من أعضاء الطائفة متاعهم وانتعلوا أحذيتهم الجديدة وملئوا جيوبهم بأوراق النقد من فئة الخمسة دولارات وقطع أرباع الدولار، ثم شربوا عصير التفاح مخلوطًا بأقراص مهدئة ووضعوا رءوسهم فى أكياس بلاستيكية حتى يضمنوا الموت اختناقًا إن لم يقتلهم السم الذى تجرعوه أولاً. وكان مصدر إلهامهم خيالاً علميًّا لا نصًّا مقدسًا بالطبع، إلا أن هذه الطائفة أيضًا تبين التأثير الرهيب للفكر الرؤيوى (والإعلام المكثف) على العقل المضطرب. يقول أحد أعضاء طائفة «بوابة السماء» فى رسائل مصورة تركوها وراءهم فى سنة ١٩٩٧م: «نحن نشاهد «ستار تريك» و«حرب النجوم» كثيرًا، وحان الوقت لوضع ما تعلمناه موضع التطبيق»(١٤٦).

ويستحيل أن نميز أحيانًا بين الرؤيا والخلل النفسى والقتل الجماعى. فالطائفة اليابانية المعروفة بـ«شينريكيو»، مثلاً، تعتنق مزيجًا غريبًا من المعتقدات البوذية

والهندوسية والتاوية، إضافة إلى «تنبؤات من سفر الرؤيا، وجرعة من نظرية المؤامرة ضد السامية»[١٤٧]. ويقال إن مؤسسها شوكو أساهارا كان يبشر أتباعه بأن معركة أرمجدون وشيكة، ويأمرهم بجمع ترسانتهم الخاصة من الأسلحة الكيماوية والبيولوچية. وفى سنة ١٩٩٥م اختبروا أسلحتهم بوضع علب غاز الأعصاب بمحطات المترو بطوكيو فقتلوا اثنتى عشرة ضحية وأصابوا الآلاف.

يقول يسوع: «لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِى كُلِّ حِينٍ»[١٤٨] ولعله كان سيقول كذلك عن المنذرين بالشؤم أيضًا. وسيظل معظمهم مختفين عن أنظار بقيتنا عالقين فى أوهامهم المعقدة الغامضة عن معانى الكتاب المقدس الخفية. وسيواصل غيرهم الإعلان عن رؤاهم فى المطبوعات وفى الإذاعة وفى التليفزيون وعلى شبكة الإنترنت، فالبحث عن «سفر الرؤيا» على محرك جوجل، مثلاً، يأتى لك بأكثر من ١٫٦ مليون مدخل. والقليل منهم بالطبع من يفلح فى لفت العالم كله ولو لخمس عشرة دقيقة بالإقدام على عمل رهيب ما، سواء كان انتحاريًّا أو قاتلاً لآخرين بقصد التعجيل بنهاية العالم.

أنا أعرف النهاية، عبارة تلخص العقيدة التى تظهر فى أول جملة فى السفر الذى تطالعه الآن، أما مسألة لمن تكون الكلمة الفصل فهذا أمر أقل يقينًا فى أيامنا هذه.

سينتهى العالم، أو هكذا تؤكد نتائج علم الطبيعة الفلكية الحديثة بيقين مطلق. فذات يوم إن عاجلاً أو آجلاً سينفد من الشمس ما بها من هيدروچين ووقود شمسى أولى. وحينئذ ستتحول الشمس إلى ما يسميه العلماء عملاقا أحمر حيث يتمدد غلافها الجوى فائق الحرارة على مساحة مفتوحة ويشمل الكواكب القريبة ومنها كوكبنا ويحرق كل شىء حى على الأرض. وفى ذلك الوقت وعلى بعد خمسة مليارات سنة من الآن سينتهى التاريخ كما نعرفه الآن. ثم تتحول الشمس إلى قزم أبيض بارد ومعتم، ولكن سيكون البشر فنوا من الكون قبل ذلك بمدة طويلة.

والمعرفة اليقينية والدقيقة لتوقيت انتهاء العالم وكيفية انتهائه قد تكون شيئًا يصعب تصوره، كما أفضيت للصديق والزميل الكاتب ك.كول ذات يوم مشرق فى جنوب كاليفورنيا المشمس. فرد كول قائلا وهو يضحك: «يمكن أن أفيدك بما هو أفظع، وهو أن هذا قد يحدث قبل ذلك بكثير»[١٤٩].

بالحقيقة الساطعة التى هى بضاعة العلم، ذكرنى كول بقائمة كاملة من رؤى بلا إله تستحق أن يرتاع المرء منها. فإذا نجونا من الاستعمال العرَضى أو المتعمد لعشرات الآلاف من الأسلحة الكيماوية والبيولوچية والنووية المكدسة فى الترسانات الحربية حول العالم فقد نعانى النتائج المفجعة للأمراض الوبائية، أو الكوارث المناخية، أو التكدس السكانى ذى الأبعاد الرهيبة. وحتى إن أفلتنا من كل هذه الفواجع المحتملة، فقد يصطدم مذنب ضال بكوكبنا الصغير ويضع نهاية للحياة على الأرض، بينما تظل الشمس بكامل حيويتها.

والشؤم العلمى لا يغير شيئًا بالنسبة للمؤمنين الرؤيويين. فنهاية العالم سواء بالصدفة، أو عن طريق الخطأ، أو بكارثة، أو بالاحتراق الشمسى البطىء المؤكد تظل بالنسبة لهم تحقيقًا للنبوءات الإلهية التى وردت بسفر الرؤيا. فإذا كان الرب قادرًا فى رأيهم على خلق الأرض فهو قادر أيضًا على تدميرها سواء بالأسلحة النووية، أو بمرض معدٍ، أو بارتفاع حرارة الأرض، أو بنفاد الوقود الشمسى الذى يسمح للشمس أن تشرق. لذا فالنصوص المقدسة المسيحية تبدأ بسفر التكوين وتنتهى بسفر الرؤيا، وهذا ما يقصد «حمَل الرب» حين يقول: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ»[١٥٩].

لكن تأمل آخر الزمان سواء بصورته الدينية أو العلمية أو بصورة تجمع كلتيهما معًا يطرح الخطر الأخلاقى الذى يواجه البشر دائمًا وهم يبحثون عن رؤيا تكشف لهم ما خفى. والنصوص الرؤيوية فى كل من اليهودية والمسيحية تغرينا بالانشغال بأوهام الانتقام والخلاص، بينما نرقب علامات وآيات تنبئ بنهاية العالم. وكثير من قراء هذه النصوص وسامعيها أخذوا على عاتقهم تنفيذ ما ينبغى أن يُترك لله لينفذه من انتقام وتعجيل بآخر الزمان. إلا أن أسمى فقرات الكتاب المقدس وأكثرها دعوة للسمو فى الرؤيتين اليهودية والمسيحية تحض على ترك البحث عن «الخفايا» وعلى تلبية الحاجات العاجلة للجوعى والمشردين والسجناء والمرضى هنا على الأرض[١٦٠].

وبعض المؤمنين ــ كما رأينا ــ على مدار تاريخ نهاية العالم مستعدون للصمود والنضال، سواء بالحق أو بالباطل من أجل فهم الكتاب المقدس. إلا أن بقيتنا لا يزالون يعتبرون أنفسهم مخيرين فى كيفية قراءة النصوص المقدسة أو فى قراءتها وعدم قراءتها

أصلاً. لكن الاختيار له عواقبه، وهذه طريقة من طرق فهم ما يقصده المؤلف التوراتى بما أورد فى سفر التثنية: «جَعَلتُ قُدَّامَكَ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ. البَرَكَةَ وَاللعْنَةَ. فَاخْتَرِ الحَيَاةَ»(١٥٢).

ومن قراء الكتاب المقدس من يحضهم سفر الرؤيا على قراءة هذه الكلمات كحكمٍ بالإعدام أصدره الرب على من يسيئون الاختيار. ويقرأ غيرهم الكلمات نفسها كتحد لأن «تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلَهِكَ» كما ورد بسفر ميخا وأن يتجاهلوا الوعاظ الرؤيويين ويطيعوا الأنبياء التوراتيين الذين يحضونهم كأشعياء على «أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ»(١٥٣). ومسألة أن كلا النوعين من التعاليم ـ وغيرهما كثير أيضًا ـ يمكن استقاؤهما من السفر الواحد هى ما يجعل قراءة الكتاب المقدس تجربة تدفع للجنون.

والفكرة الرؤيوية حاليا تمارس تأثيرها على كثرة ممن لا يفتحون الكتاب المقدس أبدًا، والرب عندهم لم يعد لازمًا أو كافيًا لحل لغز توقيت نهاية العالم وكيفيتها. ولكن يبدو أننا جميعًا متفقون على شىء واحد هو أن الأرض نفسها وكل ما عليها من أحياء سيفنون يومًا ما إن عاجلاً، أو آجلاً سواء بيد الرب، أو بيد البشر، أو بفعل الطبيعة الكونية التى لا عقل لها. وفى النهاية نحن مضطرون لأن نحدد لأنفسنا كيف نجعل لحياتنا معنى ونحن ننتظر كما انتظرنا دائمًا أن ينتهى العالم فى الأوان المقدر له أن ينتهى فيه.



ملحق

رُؤْيَا يُوحَنَّا اللاَّهُوتِيِّ

ملحوظة المؤلف: فيما يلى نقدم النص الكامل لسفر الرؤيا بتقسيماته المتعارف عليها إلى إصحاحات وفقرات. وأضفنا من عندنا عناوين جانبية تشير إلى الموضوعات والشخصيات والأحداث الأساسية.

الإصْحَاحُ الأَوَّلُ

(أمور مقدر لها أن تقع قريبًا)

[١] إِعْلاَنُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِى أَعْطَاهُ إِيَّاهُ اللهُ لِيُرِى عَبِيدَهُ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ وَبَيَّنَهُ مُرْسِلاً بِيَدِ مَلاَكِهِ لِعَبْدِهِ يُوحَنَّا [٢] الَّذِى شَهِدَ بِكَلِمَةِ اللهِ وَبِشَهَادَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ بِكُلِّ مَا رَآهُ [٣] طُوبَى لِلَّذِى يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ.

(تحية يوحنا لكنائس آسيا السبع)

[٤] يُوحَنَّا إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِى فِى أَسِيَّا: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ الْكَائِنِ وَالَّذِى كَانَ وَالَّذِى يَأْتِى وَمِنَ السَّبْعَةِ الأَرْوَاحِ الَّتِى أَمَامَ عَرْشِهِ [٥] وَمِنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الشَّاهِدِ الأَمِينِ الْبِكْرِ مِنَ الأَمْوَاتِ وَرَئِيسِ مُلُوكِ الأَرْضِ الَّذِى أَحَبَّنَا وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ [٦] وَجَعَلَنَا مُلُوكًا وَكَهَنَةً لِلَّهِ أَبِيهِ لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ آمِينَ [٧] هُوَذَا يَأْتِى مَعَ السَّحَابِ وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ نَعَمْ آمِينَ.

(أنا الألف والياء)

[٨] أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ يَقُولُ الرَّبُّ الْكَائِنُ وَالَّذِى كَانَ وَالَّذِى يَأْتِى الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ [٩] أَنَا يُوحَنَّا أَخُوكُمْ وَشَرِيكُكُمْ فِى الضِّيقَةِ وَفِى مَلَكُوتِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَصَبْرِهِ كُنْتُ فِى الْجَزِيرَةِ الَّتِى تُدْعَى بَطْمُسَ مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ [١٠] كُنْتُ فِى الرُّوحِ فِى يَوْمِ الرَّبِّ وَسَمِعْتُ وَرَائِى صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوقٍ [١١] قَائِلاً: «أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالَّذِى تَرَاهُ اكْتُبْ فِى كِتَابٍ

وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِى فِى أَسِيَّا : إِلَى أَفَسُسَ وَإِلَى سِمِيرْنَا وَإِلَى بَرْغَامُسَ وَإِلَى ثِيَاتِيرَا وَإِلَى سَارْدِسَ وَإِلَى فِيلاَدَلْفِيَا وَإِلَى لاَوُدِكِيَّةَ » .

(شبيه الإنسان)

[١٢]فَالْتَفَتُّ لأَنْظُرَ الصَّوْتَ الَّذِى تَكَلَّمَ مَعِى وَلَمَّا الْتَفَتُّ رَأَيْتُ سَبْعَ مَنَايِرَ مِنْ ذَهَبٍ [١٣]وَفِى وَسَطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ مُتَسَرْبِلاً بِثَوْبٍ إِلَى الرِّجْلَيْنِ وَمُتَمَنْطِقًا عِنْدَ ثَدْيَيْهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ [١٤]وَأَمَّا رَأْسُهُ وَشَعْرُهُ فَأَبْيَضَانِ كَالصُّوفِ الأَبْيَضِ كَالثَّلْجِ وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ [١٥]وَرِجْلاَهُ شِبْهُ النُّحَاسِ النَّقِى كَأَنَّهُمَا مَحْمِيَّتَانِ فِى أَتُونٍ وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ [١٦]وَمَعَهُ فِى يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ وَسَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِى تُضِىءُ فِى قُوَّتِهَا [١٧]فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى قَائِلاً لِى : « لاَ تَخَفْ أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ [١٨]وَالْحَى وَكُنْتُ مَيْتًا وَهَا أَنَا حَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ آمِينَ وَلِى مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ [١٩]فَاكْتُبْ مَا رَأَيْتَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا [٢٠]سِرُّ السَّبْعَةِ الْكَوَاكِبِ الَّتِى رَأَيْتَ عَلَى يَمِينِى وَالسَّبْعِ الْمَنَايِرِ الذَّهَبِيَّةِ : السَّبْعَةُ الْكَوَاكِبُ هِى مَلاَئِكَةُ السَّبْعِ الْكَنَائِسِ وَالْمَنَايِرُ السَّبْعُ الَّتِى رَأَيْتَهَا هِى السَّبْعُ الْكَنَائِسِ » .



الإصْحَاحُ الثَّانِى

(رسالة لكنيسة أفسُس)

[1]اُكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ أَفَسُسَ: «هَذَا يَقُولُهُ الْمُمْسِكُ السَّبْعَةَ الْكَوَاكِبَ فِى يَمِينِهِ الْمَاشِى فِى وَسَطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ الذَّهَبِيَّةِ: [2]أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَتَعَبَكَ وَصَبْرَكَ وَأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَحْتَمِلَ الأَشْرَارَ وَقَدْ جَرَّبْتَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلاً فَوَجَدْتَهُمْ كَاذِبِينَ [3]وَقَدِ احْتَمَلْتَ وَلَكَ صَبْرٌ وَتَعِبْتَ مِنْ أَجْلِ اسْمِى وَلَمْ تَكِلَّ [4]لَكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ أَنَّكَ تَرَكْتَ مَحَبَّتَكَ الأُولَى [5]فَاذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ وَاعْمَلِ الأَعْمَالَ الأُولَى وَإِلا فَإِنِّى آتِيكَ عَنْ قَرِيبٍ وَأُزَحْزِحُ مَنَارَتَكَ مِنْ مَكَانِهَا إِنْ لَمْ تَتُبْ.

(النيقولايون)

[6]وَلَكِنْ عِنْدَكَ هَذَا: أَنَّكَ تُبْغِضُ أَعْمَالَ النُّيقُولاَوِيِّينَ الَّتِى أُبْغِضُهَا أَنَا أَيْضًا [7]مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِى فِى وَسَطِ فِرْدَوْسِ اللهِ» [8]وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ سِمِيرْنَا: «هَذَا يَقُولُهُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ الَّذِى كَانَ مَيْتًا فَعَاشَ.

(مَجمَع الشيطان)

[9]أَنَا أَعْرِفُ أَعْمَالَكَ وَضَيْقَتَكَ وَفَقْرَكَ (مَعَ أَنَّكَ غَنِىٌّ) وَتَجْدِيفَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُودًا بَلْ هُمْ مَجْمَعُ الشَّيْطَانِ [10]لاَ تَخَفِ الْبَتَّةَ مِمَّا أَنْتَ عَتِيدٌ أَنْ تَتَأَلَّمَ بِهِ هُوَ ذَا إِبْلِيسُ مُزْمِعٌ أَنْ يُلْقِىَ بَعْضًا مِنْكُمْ فِى السِّجْنِ لِكَى تُجَرَّبُوا وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيقٌ عَشَرَةَ أَيَّامٍ

كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ [11] مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ مَنْ يَغْلِبُ فَلاَ يُؤْذِيهِ الْمَوْتُ الثَّانِى».

(رسالة لكنيسة برغامُس)

[12] وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِى فِى بَرْغَامُسَ: «هَذَا يَقُولُهُ الَّذِى لَهُ السَّيْفُ الْمَاضِى ذُو الْحَدَّيْنِ [13] أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَأَيْنَ تَسْكُنُ حَيْثُ كُرْسِى الشَّيْطَانِ وَأَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بِاسْمِى وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِى حَتَّى فِى الأَيَّامِ الَّتِى فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِى الأَمِينُ الَّذِى قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ.

(بَلعام)

[14] وَلَكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّ عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ الَّذِى كَانَ يُعَلِّمُ بَالاَقَ أَنْ يُلْقِى مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِى إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ وَيَزْنُوا [15] هَكَذَا عِنْدَكَ أَنْتَ أَيْضًا قَوْمٌ مُتَمَسِّكُونَ بِتَعَالِيمِ النُّيقُولاَوِيِّينَ الَّذِى أُبْغِضُهُ [16] فَتُبْ وَإِلا فَإِنِّى آتِيكَ سَرِيعًا وَأُحَارِبُهُمْ بِسَيْفِ فَمِى [17] مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ الْمُخْفَى وَأُعْطِيهِ حَصَاةً بَيْضَاءَ وَعَلَى الْحَصَاةِ اسْمٌ جَدِيدٌ مَكْتُوبٌ لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ غَيْرُ الَّذِى يَأْخُذُ».

(رسالة لكنيسة ثياتيرا)

[18] وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِى فِى ثِيَاتِيرَا: «هَذَا يَقُولُهُ ابْنُ اللهِ الَّذِى لَهُ عَيْنَانِ كَلَهِيبِ نَارٍ وَرِجْلاَهُ مِثْلُ النُّحَاسِ النَّقِى [19] أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَخِدْمَتَكَ وَإِيمَانَكَ وَصَبْرَكَ وَأَنَّ أَعْمَالَكَ الأَخِيرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الأُولَى.

(إيزابل)

[٢٠]لَكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِى تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِى عَبِيدِى أَنْ يَزْنُوا وَيَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ [٢١]وَأَعْطَيْتُهَا زَمَانًا لِكَى تَتُوبَ عَنْ زِنَاهَا وَلَمْ تَتُبْ [٢٢]هَا أَنَا أُلْقِيهَا فِى فِرَاشٍ وَالَّذِينَ يَزْنُونَ مَعَهَا فِى ضِيقَةٍ عَظِيمَةٍ إِنْ كَانُوا لاَ يَتُوبُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ [٢٣]وَأَوْلاَدُهَا أَقْتُلُهُمْ بِالْمَوْتِ فَسَتَعْرِفُ جَمِيعُ الْكَنَائِسِ أَنِّى أَنَا هُوَ الْفَاحِصُ الْكُلَى وَالْقُلُوبَ وَسَأُعْطِى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ [٢٤]وَلَكِنَّنِى أَقُولُ لَكُمْ وَلِلْبَاقِينَ فِى ثِيَاتِيرَا كُلِّ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ هَذَا التَّعْلِيمُ وَالَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ كَمَا يَقُولُونَ إِنِّى لاَ أُلْقِى عَلَيْكُمْ ثِقْلاً آخَرَ [٢٥]وَإِنَّمَا الَّذِى عِنْدَكُمْ تَمَسَّكُوا بِهِ إِلَى أَنْ أَجِىءَ [٢٦]وَمَنْ يَغْلِبُ وَيَحْفَظُ أَعْمَالِى إِلَى النِّهَايَةِ فَسَأُعْطِيهِ سُلْطَانًا عَلَى الأُمَمِ [٢٧]فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ كَمَا تُكْسَرُ آنِيَةٌ مِنْ خَزَفٍ كَمَا أَخَذْتُ أَنَا أَيْضًا مِنْ عِنْدِ أَبِى [٢٨]وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ [٢٩]مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ».



الإِصْحَاحُ الثَّالِثُ

(رسالة لكنيسة ساردس)

[1]وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي سَارْدِسَ: «هَذَا يَقُولُهُ الَّذِي لَهُ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ وَالسَّبْعَةُ الْكَوَاكِبُ أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ أَنَّ لَكَ اسْمًا أَنَّكَ حَيٌّ وَأَنْتَ مَيِّتٌ [2]كُنْ سَاهِرًا وَشَدِّدْ مَا بَقِيَ الَّذِي هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَمُوتَ لأَنِّي لَمْ أَجِدْ أَعْمَالَكَ كَامِلَةً أَمَامَ اللهِ [3]فَاذْكُرْ كَيْفَ أَخَذْتَ وَسَمِعْتَ وَاحْفَظْ وَتُبْ فَإِنِّي إِنْ لَمْ تَسْهَرْ أُقْدِمْ عَلَيْكَ كَلِصٍّ وَلاَ تَعْلَمُ أَيَّةَ سَاعَةٍ أُقْدِمُ عَلَيْكَ [4]عِنْدَكَ أَسْمَاءٌ قَلِيلَةٌ فِي سَارْدِسَ لَمْ يُنَجِّسُوا ثِيَابَهُمْ فَسَيَمْشُونَ مَعِي فِي ثِيَابٍ بِيضٍ لأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ [5]مَنْ يَغْلِبُ فَذَلِكَ سَيَلْبَسُ ثِيَابًا بِيضًا وَلَنْ أَمْحُوَ اسْمَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ وَسَأَعْتَرِفُ بِاسْمِهِ أَمَامَ أَبِي وَأَمَامَ مَلاَئِكَتِهِ [6]مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ».

(رسالة لكنيسة فيلادلفيا)

[7]وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي فِيلاَدَلْفِيَا: «هَذَا يَقُولُهُ الْقُدُّوسُ الْحَقُّ الَّذِي لَهُ مِفْتَاحُ دَاوُدَ الَّذِي يَفْتَحُ وَلاَ أَحَدٌ يُغْلِقُ وَيُغْلِقُ وَلاَ أَحَدٌ يَفْتَحُ. [8]أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ هَئَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ لأَنَّ لَكَ قُوَّةً يَسِيرَةً وَقَدْ حَفِظْتَ كَلِمَتِي وَلَمْ تُنْكِرِ اسْمِي [9]هَئَنَذَا أَجْعَلُ الَّذِينَ مِنْ مَجْمَعِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُودًا بَلْ يَكْذِبُونَ: هَئَنَذَا أُصَيِّرُهُمْ يَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَ رِجْلَيْكَ وَيَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا أَحْبَبْتُكَ [10]لأَنَّكَ حَفِظْتَ كَلِمَةَ صَبْرِي أَنَا أَيْضًا سَأَحْفَظُكَ مِنْ سَاعَةِ التَّجْرِبَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ لِتُجَرِّبَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ [11]هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا تَمَسَّكْ بِمَا عِنْدَكَ لِئَلاَّ يَأْخُذَ أَحَدٌ إِكْلِيلَكَ [12]مَنْ يَغْلِبُ فَسَأَجْعَلُهُ عَمُودًا فِي هَيْكَلِ إِلَهِي وَلاَ يَعُودُ يَخْرُجُ إِلَى خَارِجٍ وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلَهِي وَاسْمَ مَدِينَةِ إِلَهِي أُورُشَلِيمَ

الْجَدِيدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ إِلَهِى وَاسْمِى الْجَدِيدَ [١٣] مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ».

(رسالة لكنيسة اللاودكيين)

[١٤] وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ اللاوُدِكِيِّينَ: «هَذَا يَقُولُهُ الآمِينُ الشَّاهِدُ الأَمِينُ الصَّادِقُ بَدَاءَةُ خَلِيقَةِ اللهِ: [١٥] أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا [١٦] هَكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِى [١٧] لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّى أَنَا غَنِى وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ وَلاَ حَاجَةَ لِى إِلَى شَىء وَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِى وَالْبَائِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ [١٨] أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِى مِنِّى ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَى تَسْتَغْنِى وَثِيَابًا بِيضًا لِكَى تَلْبَسَ فَلاَ يَظْهَرُ خِزْى عُرْيَتِكَ وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْلٍ لِكَى تُبْصِرَ [١٩] إِنِّى كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ فَكُنْ غَيُورًا وَتُبْ [٢٠] هَئَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِى وَفَتَحَ الْبَابَ أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِى [٢١] مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَجْلِسَ مَعِى فِى عَرْشِى كَمَا غَلَبْتُ أَنَا أَيْضًا وَجَلَسْتُ مَعَ أَبِى فِى عَرْشِهِ [٢٢] مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ».



الإصْحَاحُ الرَّابِعُ

(سأريك ما لا بد أن يصير)

[١]بَعْدَ هَذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِى السَّمَاءِ وَالصَّوْتُ الأَوَّلُ الَّذِى سَمِعْتُهُ كَبُوقٍ يَتَكَلَّمُ مَعِى قَائِلاً: «اصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هَذَا» [٢]وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ فِى الرُّوحِ وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِى السَّمَاءِ وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ [٣]وَكَانَ الْجَالِسُ فِى الْمَنْظَرِ شِبْهَ حَجَرِ الْيَشْبِ وَالْعَقِيقِ وَقَوْسُ قُزَحَ حَوْلَ الْعَرْشِ فِى الْمَنْظَرِ شِبْهُ الزُّمُرُّدِ.

(أربعة وعشرون شيخًا)

[٤]وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ عَرْشًا وَرَأَيْتُ عَلَى الْعُرُوشِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ شَيْخًا جَالِسِينَ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ أَكَالِيلُ مِنْ ذَهَبٍ [٥]وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ هِى سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ.

(أربعة حيوانات)

[٦]وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ وَفِى وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا مِنْ قُدَّامٍ وَمِنْ وَرَاءٍ [٧]وَالْحَيَوَانُ الأَوَّلُ شِبْهُ أَسَدٍ وَالْحَيَوَانُ الثَّانِى شِبْهُ عِجْلٍ وَالْحَيَوَانُ الثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ وَالْحَيَوَانُ الرَّابِعُ شِبْهُ نَسْرٍ طَائِرٍ [٨]وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ حَوْلَهَا وَمِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا وَلاَ تَزَالُ نَهَارًا وَلَيْلاً قَائِلَةً: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ الرَّبُّ الإِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ الَّذِى كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِى يَأْتِى» [٩]وَحِينَمَا تُعْطِى الْحَيَوَانَاتُ مَجْدًا وَكَرَامَةً وَشُكْرًا لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ الْحَىِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ [١٠]يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ الْجَالِسِ عَلَى

الْعَرْشِ وَيَسْجُدُونَ لِلْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ قَائِلِينَ:
١١ «أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ وَهِى بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ».



الإصْحَاحُ الْخَامِسُ

(سفر مختوم بسبعة أختام)

[1] وَرَأَيْتُ عَلَى يَمِينِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ سِفْرًا مَكْتُوبًا مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ وَرَاءٍ مَخْتُومًا بِسَبْعَةِ خُتُومٍ [2] وَرَأَيْتُ مَلاَكًا قَوِيًّا يُنَادِي بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «مَنْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ أَنْ يَفْتَحَ السِّفْرَ وَيَفُكَّ خُتُومَهُ؟» [3] فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فِي السَّمَاءِ وَلاَ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ تَحْتَ الأَرْضِ أَنْ يَفْتَحَ السِّفْرَ وَلاَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ [4] فَصِرْتُ أَنَا أَبْكِي كَثِيرًا لأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ أَحَدٌ مُسْتَحِقًّا أَنْ يَفْتَحَ السِّفْرَ وَيَقْرَأَهُ وَلاَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ.

(أسد سبط يهوذا)

[5] فَقَالَ لِي وَاحِدٌ مِنَ الشُّيُوخِ: «لاَ تَبْكِ هُوَ ذَا قَدْ غَلَبَ الأَسَدُ الَّذِي مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا أَصْلُ دَاوُدَ لِيَفْتَحَ السِّفْرَ وَيَفُكَّ خُتُومَهُ السَّبْعَةَ».

(حملٌ كأنه مذبوحٌ)

[6] وَرَأَيْتُ فَإِذَا فِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ وَفِي وَسَطِ الشُّيُوخِ حَمَلٌ قَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لَهُ سَبْعَةُ قُرُونٍ وَسَبْعُ أَعْيُنٍ هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ الْمُرْسَلَةُ إِلَى كُلِّ الأَرْضِ [7] فَأَتَى وَأَخَذَ السِّفْرَ مِنْ يَمِينِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ [8] وَلَمَّا أَخَذَ السِّفْرَ خَرَّتِ الأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ وَالأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا أَمَامَ الْحَمَلِ وَلَهُمْ كُلِّ وَاحِدٍ قِيثَارَاتٌ وَجَامَاتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوَّةٌ بَخُورًا هِيَ صَلَوَاتُ الْقِدِّيسِينَ [9] وَهُمْ يَتَرَنَّمُونَ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً قَائِلِينَ: «مُسْتَحِقٌّ أَنْتَ أَنْ تَأْخُذَ السِّفْرَ وَتَفْتَحَ خُتُومَهُ لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا لِلَّهِ بِدَمِكَ مِنْ كُلِّ

قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ وَأُمَّةٍ [10] وَجَعَلْتَنَا لإِلَهِنَا مُلُوكًا وَكَهَنَةً فَسَنَمْلِكُ عَلَى الأَرْضِ» [11] وَنَظَرْتُ وَسَمِعْتُ صَوْتَ مَلاَئِكَةٍ كَثِيرِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالشُّيُوخِ وَكَانَ عَدَدُهُمْ رِبْوَاتِ رِبْوَاتٍ وَأُلُوفَ أُلُوفٍ [12] قَائِلِينَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «مُسْتَحِقٌّ هُوَ الْحَمَلُ الْمَذْبُوحُ أَنْ يَأْخُذَ الْقُدْرَةَ وَالْغِنَى وَالْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالْمَجْدَ وَالْبَرَكَةَ» [13] وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ وَمَا عَلَى الْبَحْرِ كُلُّ مَا فِيهَا سَمِعْتُهَا قَائِلَةً: «لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْحَمَلِ الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» [14] وَكَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ الأَرْبَعَةُ تَقُولُ: «آمِينَ» وَالشُّيُوخُ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ خَرُّوا وَسَجَدُوا لِلْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ.



الإِصْحَاحُ السَّادِسُ

(فتح الأختام السبعة)

[1]وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْحَمَلُ وَاحِدًا مِنَ الْخُتُومِ السَّبْعَةِ وَسَمِعْتُ وَاحِدًا مِنَ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلاً كَصَوْتِ رَعْدٍ: «هَلُمَّ وَانْظُرْ!».

(الفرسان الأربعة)

[2]فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ قَوْسٌ وَقَدْ أُعْطِيَ إِكْلِيلاً وَخَرَجَ غَالِبًا وَلِكَيْ يَغْلِبَ [3]وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الثَّانِيَ سَمِعْتُ الْحَيَوَانَ الثَّانِيَ قَائِلاً: «هَلُمَّ وَانْظُرْ!» [4]فَخَرَجَ فَرَسٌ آخَرُ أَحْمَرُ وَأُعْطِيَ لِلْجَالِسِ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِعَ السَّلاَمَ مِنَ الأَرْضِ وَأَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأُعْطِيَ سَيْفًا عَظِيمًا [5]وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الثَّالِثَ سَمِعْتُ الْحَيَوَانَ الثَّالِثَ قَائِلاً: «هَلُمَّ وَانْظُرْ!» فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَسْوَدُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ مِيزَانٌ فِي يَدِهِ [6]وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلاً: «ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا» [7]وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الرَّابِعَ سَمِعْتُ صَوْتَ الْحَيَوَانِ الرَّابِعِ قَائِلاً: «هَلُمَّ وَانْظُرْ!» [8]فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَخْضَرُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ اسْمُهُ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ تَتْبَعُهُ وَأُعْطِيَا سُلْطَانًا عَلَى رُبْعِ الأَرْضِ أَنْ يَقْتُلاَ بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ وَبِوُحُوشِ الأَرْضِ.

(نفوسٌ تحت المذبَح)

[9]وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ

اللهِ وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ [10] وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: «حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ لاَ تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟» [11] فَأُعْطُوا كُلُّ وَاحِدٍ ثِيَابًا بِيضًا وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحُوا زَمَانًا يَسِيرًا أَيْضًا حَتَّى يَكْمَلَ الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ أَيْضًا الْعَتِيدُونَ أَنْ يُقْتَلُوا مِثْلَهُمْ [12] وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ [13] وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ كَمَا تَطْرَحُ شَجَرَةُ التِّينِ سُقَاطَهَا إِذَا هَزَّتْهَا رِيحٌ عَظِيمَةٌ [14] وَالسَّمَاءُ انْفَلَقَتْ كَدَرْجٍ مُلْتَفٍّ وَكُلُّ جَبَلٍ وَجَزِيرَةٍ تَزَحْزَحَا مِنْ مَوْضِعِهِمَا [15] وَمُلُوكُ الأَرْضِ وَالْعُظَمَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ وَالأُمَرَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ وَكُلُّ عَبْدٍ وَكُلُّ حُرٍّ أَخْفَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَغَايِرِ وَفِي صُخُورِ الْجِبَالِ [16] وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ وَالصُّخُورِ: «اسْقُطِي عَلَيْنَا وَأَخْفِينَا عَنْ وَجْهِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَعَنْ غَضَبِ الْحَمَلِ [17] لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمُ غَضَبِهِ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟».



الإصْحَاحُ السَّابِعُ

[1]وَبَعْدَ هَذَا رَأَيْتُ أَرْبَعَةَ مَلاَئِكَةٍ وَاقِفِينَ عَلَى أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ مُمْسِكِينَ أَرْبَعَ رِيَاحِ الأَرْضِ لِكَى لاَ تَهُبَّ رِيحٌ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ عَلَى الْبَحْرِ وَلاَ عَلَى شَجَرَةٍ مَا [2]وَرَأَيْتُ مَلاَكًا آخَرَ طَالِعًا مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ مَعَهُ خَتْمُ اللهِ الْحَىِّ فَنَادَى بِصَوْتٍ عَظِيمٍ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ الأَرْبَعَةِ الَّذِينَ أُعْطُوا أَنْ يَضُرُّوا الأَرْضَ وَالْبَحْرَ [3]قَائِلاً: «لاَ تَضُرُّوا الأَرْضَ وَلاَ الْبَحْرَ وَلاَ الأَشْجَارَ حَتَّى نَخْتِمَ عَبِيدَ إِلَهِنَا عَلَى جِبَاهِهِمْ».

(مائة وأربعة وأربعون ألف مختوم من أسباط بنى إسرائيل)

[4]وَسَمِعْتُ عَدَدَ الْمَخْتُومِينَ مِائَةً وَأَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا مَخْتُومِينَ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ [5]مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ رَأُوبِينَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ جَادَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ [6]مِنْ سِبْطِ أَشِيرَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ نَفْتَالِى اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ مَنَسَّى اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ [7]مِنْ سِبْطِ شَمْعُونَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ لاَوِى اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ يَسَّاكَرَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ [8]مِنْ سِبْطِ زَبُولُونَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ يُوسُفَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَخْتُومٍ [9]بَعْدَ هَذَا نَظَرْتُ وَإِذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْحَمَلِ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَفِى أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ [10]وَهُمْ يَصْرُخُونَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: «الْخَلاَصُ لإِلَهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْحَمَلِ» [11]وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ كَانُوا وَاقِفِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ وَالشُّيُوخِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ وَخَرُّوا أَمَامَ الْعَرْشِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَسَجَدُوا لِلَّهِ [12]قَائِلِينَ: «آمِينَ! الْبَرَكَةُ وَالْمَجْدُ وَالْحِكْمَةُ وَالشُّكْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ لإِلَهِنَا إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ آمِينَ».

(الآتون من الضيقة العظيمة)

[13]وَسَأَلَنِى وَاحِدٌ مِنَ الشُّيُوخِ: «هَؤُلاَءِ الْمُتَسَرْبِلُونَ بِالثِّيَابِ الْبِيضِ مَنْ هُمْ وَمِنْ أَيْنَ أَتُوا؟» [14]فَقُلْتُ لَهُ: «يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَعْلَمُ» فَقَالَ لِى: «هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَتُوا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ وَقَدْ غَسَّلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوهَا فِى دَمِ الْحَمَلِ [15]مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ هُمْ أَمَامَ عَرْشِ اللهِ وَيَخْدِمُونَهُ نَهَارًا وَلَيْلاً فِى هَيْكَلِهِ وَالْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ يَحِلُّ فَوْقَهُمْ [16]لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ وَلاَ تَقَعُ عَلَيْهِمِ الشَّمْسُ وَلاَ شَىْءٌ مِنَ الْحَرِّ [17]لأَنَّ الْحَمَلَ الَّذِى فِى وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ وَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ».



الإِصْحَاحُ الثَّامِنُ

(الختم السابع وصمت فى السماء)

[١]وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّابِعَ حَدَثَ سُكُوتٌ فِى السَّمَاءِ نَحْوَ نِصْفِ سَاعَةٍ [٢]وَرَأَيْتُ السَّبْعَةَ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ يَقِفُونَ أَمَامَ اللهِ وَقَدْ أُعْطُوا سَبْعَةَ أَبْوَاقٍ [٣]وَجَاءَ مَلاَكٌ آخَرُ وَوَقَفَ عِنْدَ الْمَذْبَحِ وَمَعَهُ مِبْخَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأُعْطِىَ بَخُورًا كَثِيرًا لِكَى يُقَدِّمَهُ مَعَ صَلَوَاتِ الْقِدِّيسِينَ جَمِيعِهِمْ عَلَى مَذْبَحِ الذَّهَبِ الَّذِى أَمَامَ الْعَرْشِ [٤]فَصَعِدَ دُخَانُ الْبَخُورِ مَعَ صَلَوَاتِ الْقِدِّيسِينَ مِنْ يَدِ الْمَلاَكِ أَمَامَ اللهِ [٥]ثُمَّ أَخَذَ الْمَلاَكُ الْمِبْخَرَةَ وَمَلأَهَا مِنْ نَارِ الْمَذْبَحِ وَأَلْقَاهَا إِلَى الأَرْضِ فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَزَلْزَلَةٌ.

(الأبواق السبعة)

[٦]ثُمَّ إِنَّ السَّبْعَةَ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الأَبْوَاقُ تَهَيَّأُوا لِكَى يُبَوِّقُوا [٧]فَبَوَّقَ الْمَلاَكُ الأَوَّلُ فَحَدَثَ بَرَدٌ وَنَارٌ مَخْلُوطَانِ بِدَمٍ وَأُلْقِيَا إِلَى الأَرْضِ فَاحْتَرَقَ ثُلْثُ الأَشْجَارِ وَاحْتَرَقَ كُلُّ عُشْبٍ أَخْضَرَ [٨]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الثَّانِى فَكَأَنَّ جَبَلاً عَظِيمًا مُتَّقِدًا بِالنَّارِ أُلْقِىَ إِلَى الْبَحْرِ فَصَارَ ثُلْثُ الْبَحْرِ دَمًا [٩]وَمَاتَ ثُلْثُ الْخَلاَئِقِ الَّتِى فِى الْبَحْرِ الَّتِى لَهَا حَيَاةٌ وَأُهْلِكَ ثُلْثُ السُّفُنِ.

(كوكب اسمه أفسنتين)

[١٠]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الثَّالِثُ فَسَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ كَوْكَبٌ عَظِيمٌ مُتَّقِدٌ كَمِصْبَاحٍ وَوَقَعَ عَلَى ثُلْثِ الأَنْهَارِ وَعَلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ [١١]وَاسْمُ الْكَوْكَبِ «الأَفْسَنْتِينُ» فَصَارَ ثُلْثُ الْمِيَاهِ أَفْسَنْتِينًا وَمَاتَ كَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمِيَاهِ لأَنَّهَا صَارَتْ مُرَّةً [١٢]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الرَّابِعُ

فَضُرِبَ ثُلْثُ الشَّمْسِ وَثُلْثُ الْقَمَرِ وَثُلْثُ النُّجُومِ حَتَّى يُظْلِمَ ثُلْثُهُنَّ وَالنَّهَارُ لاَ يُضِيء ثُلْثُهُ وَاللَّيْلُ كَذَلِكَ [13] ثُمَّ نَظَرْتُ وَسَمِعْتُ مَلاَكًا طَائِرًا فِي وَسَطِ السَّمَاءِ قَائِلاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «وَيْلٌ وَيْلٌ وَيْلٌ لِلسَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ بَقِيَّةِ أَصْوَاتِ أَبْوَاقِ الثَّلاَثَةِ الْمَلاَئِكَةِ الْمُزْمِعِينَ أَنْ يُبَوِّقُوا».



الإِصْحَاحُ التَّاسِعُ

(مفتاح بئر هاوية لا قرار لها)

[1]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الْخَامِسُ فَرَأَيْتُ كَوْكَبًا قَدْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَأُعْطِي مِفْتَاحَ بِئْرِ الْهَاوِيَةِ [2]فَفَتَحَ بِئْرَ الْهَاوِيَةِ فَصَعِدَ دُخَانٌ مِنَ الْبِئْرِ كَدُخَانِ أَتُونٍ عَظِيمٍ فَأَظْلَمَتِ الشَّمْسُ وَالْجَوُّ مِنْ دُخَانِ الْبِئْرِ.

(بلاء الجراد)

[3]وَمِنَ الدُّخَانِ خَرَجَ جَرَادٌ عَلَى الأَرْضِ فَأُعْطِي سُلْطَانًا كَمَا لِعَقَارِبِ الأَرْضِ سُلْطَانٌ [4]وَقِيلَ لَهُ أَنْ لاَ يَضُرَّ عُشْبَ الأَرْضِ وَلاَ شَيْئًا أَخْضَرَ وَلاَ شَجَرَةً مَا إِلا النَّاسَ فَقَطِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ خَتْمُ اللهِ عَلَى جِبَاهِهِمْ [5]وَأُعْطِي أَنْ لاَ يَقْتُلَهُمْ بَلْ أَنْ يَتَعَذَّبُوا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَعَذَابُهُ كَعَذَابِ عَقْرَبٍ إِذَا لَدَغَ إِنْسَانًا [6]وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ سَيَطْلُبُ النَّاسُ الْمَوْتَ وَلاَ يَجِدُونَهُ وَيَرْغَبُونَ أَنْ يَمُوتُوا فَيَهْرُبُ الْمَوْتُ مِنْهُمْ [7]وَشَكْلُ الْجَرَادِ شِبْهُ خَيْلٍ مُهَيَّأَةٍ لِلْحَرْبِ وَعَلَى رُؤُوسِهَا كَأَكَالِيلَ شِبْهِ الذَّهَبِ وَوُجُوهُهَا كَوُجُوهِ النَّاسِ [8]وَكَانَ لَهَا شَعْرٌ كَشَعْرِ النِّسَاءِ وَكَانَتْ أَسْنَانُهَا كَأَسْنَانِ الأُسُودِ [9]وَكَانَ لَهَا دُرُوعٌ كَدُرُوعٍ مِنْ حَدِيدٍ وَصَوْتُ أَجْنِحَتِهَا كَصَوْتِ مَرْكَبَاتِ خَيْلٍ كَثِيرَةٍ تَجْرِي إِلَى قِتَالٍ [10]وَلَهَا أَذْنَابٌ شِبْهُ الْعَقَارِبِ وَكَانَتْ فِي أَذْنَابِهَا حُمَاتٌ وَسُلْطَانُهَا أَنْ تُؤْذِيَ النَّاسَ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ.

(ملاك بئر الهاوية)

[11]وَلَهَا مَلاَكُ الْهَاوِيَةِ مَلِكًا عَلَيْهَا اسْمُهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «أَبَدُّونَ» وَلَهُ بِالْيُونَانِيَّةِ اسْمُ «أَبُولِّيُّونَ» [12]الْوَيْلُ الْوَاحِدُ مَضَى هُوَ ذَا يَأْتِي وَيْلاَنِ أَيْضًا بَعْدَ هَذَا [13]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ

السَّادِسُ فَسَمِعْتُ صَوْتًا وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةِ قُرُونِ مَذْبَحِ الذَّهَبِ الَّذِى أَمَامَ اللهِ [١٤] قَائِلاً لِلْمَلاَكِ السَّادِسِ الَّذِى مَعَهُ الْبُوقُ: «فُكَّ الأَرْبَعَةَ الْمَلاَئِكَةَ الْمُقَيَّدِينَ عِنْدَ النَّهْرِ الْعَظِيمِ الْفُرَاتِ» [١٥] فَانْفَكَّ الأَرْبَعَةُ الْمَلاَئِكَةُ الْمُعَدُّونَ لِلسَّاعَةِ وَالْيَوْمِ وَالشَّهْرِ وَالسَّنَةِ لِكَى يَقْتُلُوا ثُلْثَ النَّاسِ.

(جيش الفرسان)

[١٦] وَعَدَدُ جُيُوشِ الْفُرْسَانِ مِئَتَا مِلْيُونٍ وَأَنَا سَمِعْتُ عَدَدَهُمْ [١٧] وَهَكَذَا رَأَيْتُ الْخَيْلَ فِى الرُّؤْيَا وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا لَهُمْ دُرُوعٌ نَارِيَّةٌ وَأَسْمَانْجُونِيَّةٌ وَكِبْرِيتِيَّةٌ وَرُؤُوسُ الْخَيْلِ كَرُؤُوسِ الأُسُودِ وَمِنْ أَفْوَاهِهَا يَخْرُجُ نَارٌ وَدُخَانٌ وَكِبْرِيتٌ [١٨] مِنْ هَذِهِ الثَّلاَثَةِ قُتِلَ ثُلْثُ النَّاسِ مِنَ النَّارِ وَالدُّخَانِ وَالْكِبْرِيتِ الْخَارِجَةِ مِنْ أَفْوَاهِهَا [١٩] فَإِنَّ سُلْطَانَهَا هُوَ فِى أَفْوَاهِهَا وَفِى أَذْنَابِهَا لأَنَّ أَذْنَابَهَا شِبْهُ الْحَيَّاتِ وَلَهَا رُؤُوسٌ وَبِهَا تَضُرُّ [٢٠] وَأَمَّا بَقِيَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا بِهَذِهِ الضَّرَبَاتِ فَلَمْ يَتُوبُوا عَنْ أَعْمَالِ أَيْدِيهِمْ حَتَّى لاَ يَسْجُدُوا لِلشَّيَاطِينِ وَأَصْنَامِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَجَرِ وَالْخَشَبِ الَّتِى لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبْصِرَ وَلاَ تَسْمَعَ وَلاَ تَمْشِى [٢١] وَلاَ تَابُوا عَنْ قَتْلِهِمْ وَلاَ عَنْ سِحْرِهِمْ وَلاَ عَنْ زِنَاهُمْ وَلاَ عَنْ سِرْقَتِهِمْ.

۞ ۞ ۞

الإِصْحَاحُ العَاشِرُ

(السِّفْرُ الصغير)

[1]ثُمَّ رَأَيْتُ مَلاَكًا آخرَ قَوِيًّا نَازِلاً مِنَ السَّمَاءِ مُتَسَرْبِلاً بِسَحَابَةٍ وَعَلَى رَأْسِهِ قَوْسُ قُزَحَ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَرِجْلاَهُ كَعَمُودَى نَارٍ [2]وَمَعَهُ فِى يَدِهِ سِفْرٌ صَغِيرٌ مَفْتُوحٌ فَوَضَعَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْبَحْرِ وَالْيُسْرَى عَلَى الأَرْضِ [3]وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ كَمَا يُزَمْجِرُ الأَسَدُ وَبَعْدَ مَا صَرَخَ تَكَلَّمَتِ الرُّعُودُ السَّبْعَةُ بِأَصْوَاتِهَا [4]وَبَعْدَ مَا تَكَلَّمَتِ الرُّعُودُ السَّبْعَةُ بِأَصْوَاتِهَا كُنْتُ مُزْمِعًا أَنْ أَكْتُبَ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً لِى : «اخْتِمْ عَلَى مَا تَكَلَّمَتْ بِهِ الرُّعُودُ السَّبْعَةُ وَلاَ تَكْتُبْهُ» [5]وَالْمَلاَكُ الَّذِى رَأَيْتُهُ وَاقِفًا عَلَى الْبَحْرِ وَعَلَى الأَرْضِ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ [6]وَأَقْسَمَ بِالْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا وَالأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْبَحْرَ وَمَا فِيهِ أَنْ لاَ يَكُونُ زَمَانٌ بَعْدُ [7]بَلْ فِى أَيَّامِ صَوْتِ الْمَلاَكِ السَّابِعِ مَتَى أَزْمَعَ أَنْ يُبَوِّقَ يَتِمُّ أَيْضًا سِرُّ اللهِ كَمَا بَشَّرَ عَبِيدَهُ الأَنْبِيَاءَ [8]وَالصَّوْتُ الَّذِى كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ مِنَ السَّمَاءِ كَلَّمَنِى أَيْضًا وَقَالَ : «اذْهَبْ خُذِ السِّفْرَ الصَّغِيرَ الْمَفْتُوحَ فِى يَدِ الْمَلاَكِ الْوَاقِفِ عَلَى الْبَحْرِ وَعَلَى الأَرْضِ» [9]فَذَهَبْتُ إِلَى الْمَلاَكِ قَائِلاً لَهُ : «أَعْطِنِى السِّفْرَ الصَّغِيرَ» فَقَالَ لِى : «خُذْهُ وَكُلْهُ فَسَيَجْعَلُ جَوْفَكَ مُرًّا وَلَكِنَّهُ فِى فَمِكَ يَكُونُ حُلْوًا كَالْعَسَلِ» [10]فَأَخَذْتُ السِّفْرَ الصَّغِيرَ مِنْ يَدِ الْمَلاَكِ وَأَكَلْتُهُ فَكَانَ فِى فَمِى حُلْوًا كَالْعَسَلِ وَبَعْدَ مَا أَكَلْتُهُ صَارَ جَوْفِى مُرًّا [11]فَقَالَ لِى : «يَجِبُ أَنَّكَ تَتَنَبَّأُ أَيْضًا عَلَى شُعُوبٍ وَأُمَمٍ وَأَلْسِنَةٍ وَمُلُوكٍ كَثِيرِينَ».



الإِصْحَاحُ الْحَادِى عشَرَ

(مقاييس هيكل الرب)

[1] ثُمَّ أُعْطِيتُ قَصَبَةً شِبْهَ عَصًا وَوَقَفَ الْمَلاَكُ قَائِلاً لِى: «قُمْ وَقِسْ هَيْكَلَ اللهِ وَالْمَذْبَحَ وَالسَّاجِدِينَ فِيهِ [2] وَأَمَّا الدَّارُ الَّتِى هِى خَارِجَ الْهَيْكَلِ فَاطْرَحْهَا خَارِجًا وَلاَ تَقِسْهَا لأَنَّهَا قَدْ أُعْطِيَتْ لِلأُمَمِ وَسَيَدُوسُونَ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا.

(شاهدان)

[3] وَسَأُعْطِى لِشَاهِدَى فَيَتَنَبَّآن أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا لاَبِسَيْنِ مُسُوحًا» [4] هَذَان هُمَا الزَّيْتُونَتَان وَالْمَنَارَتَان الْقَائِمَتَان أَمَام رَبِّ الأَرْضِ [5] وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَهُمَا تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ فَمِهِمَا وَتَأْكُلُ أَعْدَاءَهُمَا وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَهُمَا فَهَكَذَا لاَ بُدَّ أَنَّهُ يُقْتَلُ [6] هَذَان لَهُمَا السُّلْطَانُ أَنْ يُغْلِقَا السَّمَاءَ حَتَّى لاَ تُمْطِرَ مَطَرًا فِى أَيَّام نُبُوَّتِهِمَا وَلَهُمَا سُلْطَانٌ عَلَى الْمِيَاهِ أَنْ يُحَوِّلاَهَا إِلَى دَمٍ وَأَنْ يَضْرِبَا الأَرْضَ بِكُلِّ ضَرْبَةٍ كُلَّمَا أَرَادَا [7] وَمَتَى تَمَّمَا شَهَادَتَهُمَا فَالْوَحْشُ الصَّاعِدُ مِنَ الْهَاوِيَةِ سَيَصْنَعُ مَعَهُمَا حَرْبًا وَيَغْلِبُهُمَا وَيَقْتُلُهُمَا [8] وَتَكُونُ جُثَّتَاهُمَا عَلَى شَارِعِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى تُدْعَى رُوحِيًّا سَدُومَ وَمِصْرَ حَيْثُ صُلِبَ رَبُّنَا أَيْضًا [9] وَيَنْظُرُ أُنَاسٌ مِنَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ وَالأَلْسِنَةِ وَالأُمَمِ جُثَّتَيْهِمَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَنِصْفًا وَلاَ يَدَعُونَ جُثَّتَيْهِمَا تُوضَعَان فِى قُبُورٍ [10] وَيَشْمَتُ بِهِمَا السَّاكِنُونَ عَلَى الأَرْضِ وَيَتَهَلَّلُونَ وَيُرْسِلُونَ هَدَايَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لأَنَّ هَذَيْنِ النَّبِيَّيْنِ كَانَا قَدْ عَذَّبَا السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ [11] ثُمَّ بَعْدَ الثَّلاَثَةِ الأَيَّام وَالنِّصْفِ دَخَلَ فِيهِمَا رُوحُ حَيَاةٍ مِنَ اللهِ فَوَقَفَا عَلَى أَرْجُلِهِمَا وَوَقَعَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَهُمَا [12] وَسَمِعُوا صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً لَهُمَا: «اصْعَدَا إِلَى هَهُنَا» فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ فِى السَّحَابَةِ وَنَظَرَهُمَا أَعْدَاؤُهُمَا.

(الزلزال العظيم)

[13]وَفِى تِلْكَ السَّاعَةِ حَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ فَسَقَطَ عُشْرُ الْمَدِينَةِ وَقُتِلَ بِالزَّلْزَلَةِ أَسْمَاءٌ مِنَ النَّاسِ : سَبْعَةُ آلافٍ وَصَارَ الْبَاقُونَ فِى رُعْبَةٍ وَأَعْطُوا مَجْدًا لإِلَهِ السَّمَاءِ [14]الْوَيْلُ الثَّانِى مَضَى وَهُوَ ذَا الْوَيْلُ الثَّالِثُ يَأْتِى سَرِيعًا [15]ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ السَّابِعُ فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ عَظِيمَةٌ فِى السَّمَاءِ قَائِلَةً : «قَدْ صَارَتْ مَمَالِكُ الْعَالَمِ لِرَبِّنَا وَمَسِيحِهِ فَسَيَمْلِكُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» [16]وَالأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا الْجَالِسُونَ أَمَامَ اللهِ عَلَى عُرُوشِهِمْ خَرُّوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَسَجَدُوا لِلَّهِ [17]قَائِلِينَ : «نَشْكُرُكَ أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ الْكَائِنُ وَالَّذِى كَانَ وَالَّذِى يَأْتِى لأَنَّكَ أَخَذْتَ قُدْرَتَكَ الْعَظِيمَةَ وَمَلَكْتَ [18]وَغَضِبَتِ الأُمَمُ فَأَتَى غَضَبُكَ وَزَمَانُ الأَمْوَاتِ لِيُدَانُوا وَلِتُعْطَى الأُجْرَةُ لِعَبِيدِكَ الأَنْبِيَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ وَالْخَائِفِينَ اسْمَكَ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ وَلِيُهْلَكَ الَّذِينَ كَانُوا يُهْلِكُونَ الأَرْضَ» [19]وَانْفَتَحَ هَيْكَلُ اللهِ فِى السَّمَاءِ وَظَهَرَ تَابُوتُ عَهْدِهِ فِى هَيْكَلِهِ وَحَدَثَتْ بُرُوقٌ وَأَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَزَلْزَلَةٌ وَبَرَدٌ عَظِيمٌ.



الإِصْحَاحُ الثَّانِى عَشَرَ

(امرأة متسربلة بالشمس)

[1]وَظَهَرَتْ آيَةٌ عَظِيمَةٌ فِى السَّمَاءِ: امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا [2]وَهِى حُبْلَى تَصْرُخُ مُتَمَخِّضَةً وَمُتَوَجِّعَةً لِتَلِدَ.

(التنين الأحمر)

[3]وَظَهَرَتْ آيَةٌ أُخْرَى فِى السَّمَاءِ: هُوَ ذَا تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ وَعَلَى رُؤُوسِهِ سَبْعَةُ تِيجَانٍ [4]وَذَنَبُهُ يَجُرُّ ثُلْثَ نُجُومِ السَّمَاءِ فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ وَالتِّنِّينُ وَقَفَ أَمَامَ الْمَرْأَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَلِدَ حَتَّى يَبْتَلِعَ وَلَدَهَا مَتَى وَلَدَتْ [5]فَوَلَدَتِ ابْنًا ذَكَرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ وَاخْتُطِفَ وَلَدُهَا إِلَى اللهِ وَإِلَى عَرْشِهِ [6]وَالْمَرْأَةُ هَرَبَتْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ لَهَا مَوْضِعٌ مُعَدٌّ مِنَ اللهِ لِكَى يَعُولُوهَا هُنَاكَ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا.

(حَرْبٌ فِى السَّمَاءِ بين مِيخَائِيل والتِّنِّين)

[7]وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِى السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ [8]وَلَمْ يَقْوُوا فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِى السَّمَاءِ [9]فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِى يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ ـ طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ [10]وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا قَائِلاً فِى السَّمَاءِ: «الآنَ صَارَ خَلاَصُ إِلَهِنَا وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَسُلْطَانُ مَسِيحِهِ لأَنَّهُ قَدْ طُرِحَ الْمُشْتَكِى عَلَى إِخْوَتِنَا الَّذِى كَانَ يَشْتَكِى عَلَيْهِمْ أَمَامَ إِلَهِنَا نَهَارًا وَلَيْلاً [11]وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْحَمَلِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ وَلَمْ

يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ [١٢] مِنْ أَجْلِ هَذَا افْرَحِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَالسَّاكِنُونَ فِيهَا وَيْلٌ لِسَاكِنِي الأَرْضِ وَالْبَحْرِ لأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ عَالِمًا أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلاً » [١٣] وَلَمَّا رَأَى التِّنِّينُ أَنَّهُ طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ اضْطَهَدَ الْمَرْأَةَ الَّتِى وَلَدَتْ الابْنَ الذَّكَرَ [١٤] فَأُعْطِيَتِ الْمَرْأَةُ جَنَاحَىِ النَّسْرِ الْعَظِيمِ لِكَى تَطِيرَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ إِلَى مَوْضِعِهَا حَيْثُ تُعَالُ زَمَانًا وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفَ زَمَانٍ مِنْ وَجْهِ الْحَيَّةِ [١٥] فَأَلْقَتِ الْحَيَّةُ مِنْ فَمِهَا وَرَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءً كَنَهْرٍ لِتَجْعَلَهَا تُحْمَلُ بِالنَّهْرِ [١٦] فَأَعَانَتِ الأَرْضُ الْمَرْأَةَ وَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَمَهَا وَابْتَلَعَتِ النَّهْرَ الَّذِى أَلْقَاهُ التِّنِّينُ مِنْ فَمِهِ [١٧] فَغَضِبَ التِّنِّينُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ بَاقِى نَسْلِهَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللهِ وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.



الإصْحَاحُ الثَّالِثُ عَشَرَ

(وَحش البحر)

[1] ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَمْلِ الْبَحْرِ فَرَأَيْتُ وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ وَعَلَى قُرُونِهِ عَشَرَةُ تِيجَانٍ وَعَلَى رُؤُوسِهِ اسْمُ تَجْدِيفٍ [2] وَالْوَحْشُ الَّذِى رَأَيْتُهُ كَانَ شِبْهَ نَمِرٍ وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ دُبٍّ وَفَمُهُ كَفَمِ أَسَدٍ وَأَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا [3] وَرَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْ رُؤُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِىَ وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ [4] وَسَجَدُوا لِلتِّنِّينِ الَّذِى أَعْطَى السُّلْطَانَ لِلْوَحْشِ وَسَجَدُوا لِلْوَحْشِ قَائِلِينَ: «مَنْ هُوَ مِثْلُ الْوَحْشِ؟ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَارِبَهُ؟» [5] وَأُعْطِىَ فَمًا يَتَكَلَّمُ بِعَظَائِمَ وَتَجَادِيفَ وَأُعْطِىَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا [6] فَفَتَحَ فَمَهُ بِالتَّجْدِيفِ عَلَى اللهِ لِيُجَدِّفَ عَلَى اسْمِهِ وَعَلَى مَسْكَنِهِ وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِى السَّمَاءِ [7] وَأُعْطِىَ أَنْ يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَيَغْلِبَهُمْ وَأُعْطِىَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأُمَّةٍ [8] فَسَيَسْجُدُ لَهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ فِى سِفْرِ حَيَاةِ الْحَمَلِ الَّذِى ذُبِحَ [9] مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ! [10] إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجْمَعُ سَبْيًا فَإِلَى السَّبْى يَذْهَبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتُلُ بِالسَّيْفِ فَيَنْبَغِى أَنْ يُقْتَلَ بِالسَّيْفِ هُنَا صَبْرُ الْقِدِّيسِينَ وَإِيمَانُهُمْ.

(وَحش الأرض)

[11] ثُمَّ رَأَيْتُ وَحْشًا آخَرَ طَالِعًا مِنَ الأَرْضِ وَكَانَ لَهُ قَرْنَانِ شِبْهُ خَرُوفٍ وَكَانَ يَتَكَلَّمُ كَتِنِّينٍ [12] وَيَعْمَلُ بِكُلِّ سُلْطَانِ الْوَحْشِ الأَوَّلِ أَمَامَهُ وَيَجْعَلُ الأَرْضَ وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ الأَوَّلِ الَّذِى شُفِىَ جُرْحُهُ الْمُمِيتُ [13] وَيَصْنَعُ آيَاتٍ عَظِيمَةً حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ نَارًا تَنْزِلُ

مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ قُدَّامَ النَّاسِ [١٤] وَيُضِلُّ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ بِالآيَاتِ الَّتِى أُعْطِى أَنْ يَصْنَعَهَا أَمَامَ الْوَحْشِ قَائِلاً لِلسَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَصْنَعُوا صُورَةً لِلْوَحْشِ الَّذِى كَانَ بِهِ جُرْحُ السَّيْفِ وَعَاشَ [١٥] وَأُعْطِى أَنْ يُعْطِى رُوحًا لِصُورَةِ الْوَحْشِ حَتَّى تَتَكَلَّمَ صُورَةُ الْوَحْشِ وَيَجْعَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ لاَ يَسْجُدُونَ لِصُورَةِ الْوَحْشِ يُقْتَلُونَ.

(وَسم الوَحش)

[١٦] وَيَجْعَلَ الْجَمِيعَ: الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ وَالأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ وَالأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ تُصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِمِ الْيُمْنَى أَوْ عَلَى جِبْهَتِهِمْ [١٧] وَأَنْ لاَ يَقْدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِى أَوْ يَبِيعَ إِلا مَنْ لَهُ السِّمَةُ أَوِ اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ [١٨] هُنَا الْحِكْمَةُ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ: سِتُّ مِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ.



الإصْحَاحُ الرَّابِعُ عَشَرَ

(مائة وأربعة وأربعون ألفًا من الأبكار)

[1]ثُمَّ نَظَرْتُ وَإِذَا حَمَلٌ وَاقِفٌ عَلَى جَبَلِ صِهْيَوْنَ وَمَعَهُ مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا لَهُمُ اسْمُ أَبِيهِ مَكْتُوبًا عَلَى جِبَاهِهِمْ [2]وَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ وَكَصَوْتِ رَعْدٍ عَظِيمٍ وَسَمِعْتُ صَوْتًا كَصَوْتِ ضَارِبِينَ بِالْقِيثَارَةِ يَضْرِبُونَ بِقِيثَارَاتِهِمْ [3]وَهُمْ يَتَرَنَّمُونَ كَتَرْنِيمَةٍ جَدِيدَةٍ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَالشُّيُوخِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّمَ التَّرْنِيمَةَ إِلا الْمِائَةُ وَالأَرْبَعَةُ وَالأَرْبَعُونَ أَلْفًا الَّذِينَ اشْتُرُوا مِنَ الأَرْضِ ـ [4]هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ لأَنَّهُمْ أَطْهَارٌ هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ الْحَمَلَ حَيْثُمَا ذَهَبَ هَؤُلاَءِ اشْتُرُوا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بَاكُورَةً لِلَّهِ وَلِلْحَمَلِ [5]وَفِي أَفْوَاهِهِمْ لَمْ يُوجَدْ غِشٌّ لأَنَّهُمْ بِلاَ عَيْبٍ قُدَّامَ عَرْشِ اللهِ [6]ثُمَّ رَأَيْتُ مَلاَكًا آخَرَ طَائِرًا فِي وَسَطِ السَّمَاءِ مَعَهُ بِشَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ لِيُبَشِّرَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ وَكُلَّ أُمَّةٍ وَقَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ [7]قَائِلاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «خَافُوا اللهَ وَأَعْطُوهُ مَجْدًا لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَتِهِ وَاسْجُدُوا لِصَانِعِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَيَنَابِيعِ الْمِيَاهِ».

(سقوط بابل)

[8]ثُمَّ تَبِعَهُ مَلاَكٌ آخَرُ قَائِلاً: «سَقَطَتْ سَقَطَتْ بَابِلُ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ لأَنَّهَا سَقَتْ جَمِيعَ الأُمَمِ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا» [9]ثُمَّ تَبِعَهُمَا مَلاَكٌ ثَالِثٌ قَائِلاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَيَقْبَلُ سِمَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ [10]فَهُوَ أَيْضًا سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْحَمَلِ [11]وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ

وَلاَ تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلاً لِلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سِمَةَ اسْمِهِ » [12]هُنَا صَبْرُ الْقِدِّيسِينَ هُنَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللهِ وَإِيمَانَ يَسُوعَ [13]وَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً لِي : « اكْتُبْ طُوبَى لِلأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الرَّبِّ مُنْذُ الآنَ ـ نَعَمْ يَقُولُ الرُّوحُ لِكَي يَسْتَرِيحُوا مِنْ أَتْعَابِهِمْ وَأَعْمَالُهُمْ تَتْبَعُهُمْ ».

(أرسل منجلك واحصد)

[14]ثُمَّ نَظَرْتُ وَإِذَا سَحَابَةٌ بَيْضَاءُ وَعَلَى السَّحَابَةِ جَالِسٌ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ لَهُ عَلَى رَأْسِهِ إِكْلِيلٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِي يَدِهِ مِنْجَلٌ حَادٌّ [15]وَخَرَجَ مَلاَكٌ آخَرُ مِنَ الْهَيْكَلِ يَصْرُخُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ إِلَى الْجَالِسِ عَلَى السَّحَابَةِ : « أَرْسِلْ مِنْجَلَكَ وَاحْصُدْ لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتِ السَّاعَةُ لِلْحَصَادِ إِذْ قَدْ يَبِسَ حَصِيدُ الأَرْضِ » [16]فَأَلْقَى الْجَالِسُ عَلَى السَّحَابَةِ مِنْجَلَهُ عَلَى الأَرْضِ فَحُصِدَتِ الأَرْضُ [17]ثُمَّ خَرَجَ مَلاَكٌ آخَرُ مِنَ الْهَيْكَلِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ مَعَهُ أَيْضًا مِنْجَلٌ حَادٌّ [18]وَخَرَجَ مَلاَكٌ آخَرُ مِنَ الْمَذْبَحِ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى النَّارِ وَصَرَخَ صُرَاخًا عَظِيمًا إِلَى الَّذِي مَعَهُ الْمِنْجَلُ الْحَادُّ قَائِلاً : « أَرْسِلْ مِنْجَلَكَ الْحَادَّ وَاقْطِفْ عَنَاقِيدَ كَرْمِ الأَرْضِ لأَنَّ عِنَبَهَا قَدْ نَضَجَ » [19]فَأَلْقَى الْمَلاَكُ مِنْجَلَهُ إِلَى الأَرْضِ وَقَطَفَ كَرْمَ الأَرْضِ فَأَلْقَاهُ إِلَى مَعْصَرَةِ غَضَبِ اللهِ الْعَظِيمَةِ [20]وَدِيسَتِ الْمَعْصَرَةُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ فَخَرَجَ دَمٌ مِنَ الْمَعْصَرَةِ حَتَّى إِلَى لُجُمِ الْخَيْلِ مَسَافَةَ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ غَلْوَةٍ.



الإصْحَاحُ الْخامِسُ عَشَرَ

(البلايا السبع الأخيرة)

[1]ثُمَّ رَأَيْتُ آيَةً أُخْرَى فِى السَّمَاءِ عَظِيمَةً وَعَجِيبَةً: سَبْعَةَ مَلاَئِكَةٍ مَعَهُمُ السَّبْعُ الضَّرَبَاتُ الأَخِيرَةُ لأَنْ بِهَا أُكْمِلَ غَضَبُ اللهِ [2]وَرَأَيْتُ كَبَحْرٍ مِنْ زُجَاجٍ مُخْتَلِطٍ بِنَارٍ وَالْغَالِبِينَ عَلَى الْوَحْشِ وَصُورَتِهِ وَعَلَى سِمَتِهِ وَعَدَدِ اسْمِهِ وَاقِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ الزُّجَاجِى مَعَهُمْ قِيثَارَاتُ اللهِ [3]وَهُمْ يُرَتِّلُونَ تَرْنِيمَةَ مُوسَى عَبْدِ اللهِ وَتَرْنِيمَةَ الْحَمَلِ قَائِلِينَ: «عَظِيمَةٌ وَعَجِيبَةٌ هِى أَعْمَالُكَ أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِى طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقِدِّيسِينَ [4]مَنْ لاَ يَخَافُكَ يَا رَبُّ وَيُمَجِّدُ اسْمَكَ لأَنَّكَ وَحْدَكَ قُدُّوسٌ لأَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ سَيَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ لأَنَّ أَحْكَامَكَ قَدْ أُظْهِرَتْ» [5]ثُمَّ بَعْدَ هَذَا نَظَرْتُ وَإِذَا قَدِ انْفَتَحَ هَيْكَلُ خَيْمَةِ الشَّهَادَةِ فِى السَّمَاءِ [6]وَخَرَجَتِ السَّبْعَةُ الْمَلاَئِكَةُ وَمَعَهُمُ السَّبْعُ الضَّرَبَاتُ مِنَ الْهَيْكَلِ وَهُمْ مُتَسَرْبِلُونَ بِكَتَّانٍ نَقِى وَبَهِى وَمُتَمَنْطِقُونَ عِنْدَ صُدُورِهِمْ بِمَنَاطِقَ مِنْ ذَهَبٍ.

(سَبْعَةُ جَامَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوَّةٍ مِنْ غَضَبِ اللّهِ)

[7]وَوَاحِدٌ مِنَ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ أَعْطَى السَّبْعَةَ الْمَلاَئِكَةَ سَبْعَةَ جَامَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوَّةٍ مِنْ غَضَبِ اللهِ الْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ [8]وَامْتَلأَ الْهَيْكَلُ دُخَانًا مِنْ مَجْدِ اللهِ وَمِنْ قُدْرَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ الْهَيْكَلَ حَتَّى كَمِلَتْ سَبْعُ ضَرَبَاتِ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ.



الإصْحَاحُ السَّادِسُ عَشَرَ

[1]وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ الْهَيْكَلِ قَائِلاً لِلسَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ: «امْضُوا وَاسْكُبُوا جَامَاتِ غَضَبِ اللهِ عَلَى الأَرْضِ» [2]فَمَضَى الأَوَّلُ وَسَكَبَ جَامَهُ عَلَى الأَرْضِ فَحَدَثَتْ دَمَامِلُ خَبِيثَةٌ وَرَدِيَّةٌ عَلَى النَّاسِ الَّذِينَ بِهِمْ سِمَةُ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِصُورَتِهِ [3]ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّانِى جَامَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَصَارَ دَمًا كَدَمِ مَيِّتٍ وَكُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ مَاتَتْ فِى الْبَحْرِ [4]ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّالِثُ جَامَهُ عَلَى الأَنْهَارِ وَعَلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ فَصَارَتْ دَمًا [5]وَسَمِعْتُ مَلاَكَ الْمِيَاهِ يَقُولُ: «عَادِلٌ أَنْتَ أَيُّهَا الْكَائِنُ وَالَّذِى كَانَ وَالَّذِى يَكُونُ لأَنَّكَ حَكَمْتَ هكَذَا [6]لأَنَّهُمْ سَفَكُوا دَمَ قِدِّيسِينَ وَأَنْبِيَاءَ فَأَعْطَيْتَهُمْ دَمًا لِيَشْرَبُوا لأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ!» [7]وَسَمِعْتُ آخَرَ مِنَ الْمَذْبَحِ قَائِلاً: «نَعَمْ أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ! حَقٌّ وَعَادِلَةٌ هِى أَحْكَامُكَ» [8]ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الرَّابِعُ جَامَهُ عَلَى الشَّمْسِ فَأُعْطِيَتْ أَنْ تُحْرِقَ النَّاسَ بِنَارٍ [9]فَاحْتَرَقَ النَّاسُ احْتِرَاقًا عَظِيمًا وَجَدَّفُوا عَلَى اسْمِ اللهِ الَّذِى لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى هذِهِ الضَّرَبَاتِ وَلَمْ يَتُوبُوا لِيُعْطُوهُ مَجْدًا [10]ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الْخَامِسُ جَامَهُ عَلَى عَرْشِ الْوَحْشِ فَصَارَتْ مَمْلَكَتُهُ مُظْلِمَةً وَكَانُوا يَعَضُّونَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْوَجَعِ [11]وَجَدَّفُوا عَلَى إِلهِ السَّمَاءِ مِنْ أَوْجَاعِهِمْ وَمِنْ قُرُوحِهِمْ وَلَمْ يَتُوبُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ [12]ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّادِسُ جَامَهُ عَلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ الْفُرَاتِ فَنَشِفَ مَاؤُهُ لِكَى يُعَدَّ طَرِيقُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ.

(ثَلاَثَةُ أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ شِبْهَ ضَفَادِعَ)

[13]وَرَأَيْتُ مِنْ فَمِ التِّنِّينِ وَمِنْ فَمِ الْوَحْشِ وَمِنْ فَمِ النَّبِى الْكَذَّابِ ثَلاَثَةَ أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ شِبْهَ ضَفَادِعَ. [14]فَإِنَّهُمْ أَرْوَاحُ شَيَاطِينَ صَانِعَةٌ آيَاتٍ تَخْرُجُ عَلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ وَكُلِّ الْمَسْكُونَةِ لِتَجْمَعَهُمْ لِقِتَالِ ذلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَوْمِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَىءٍ.

(هَا أَنَا آتِى كَلِصٍّ)

[15] «هَـا أَنَـا آتِـى كَلِـصٍّ طُـوبَى لِمَـنْ يَسْـهَرُ وَيَحْفَـظُ ثِيَابَـهُ لِـئَلا يَمْشِـى عُرْيَانًـا فَيَرَوْا عُرْيَتَهُ».

(معركة أرمجدون)

[16] فَجَمَعَهُمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِى يُدْعَى بِالْعِبْرَانِيَّةِ «هَرْمَجَدُّونَ» [17] ثُـمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّابِعُ جَامَهُ عَلَى الْهَوَاءِ فَخَرَجَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مِنْ هَيْكَلِ السَّمَاءِ مِنَ الْعَرْشِ قَائِلاً: «قَدْ تَمَّ!» [18] فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَحَدَثَـتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَـةٌ لَـمْ يَحْدُثْ مِثْلُهَا مُنْذُ صَارَ النَّاسُ عَلَى الأَرْضِ زَلْزَلَةٌ بِمِقْدَارِهَا عَظِيمَةٌ هَكَذَا [19] وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ ثَلاَثَةَ أَقْسَامٍ وَمُدُنُ الأُمَمِ سَقَطَتْ وَبَابِلُ الْعَظِيمَـةُ ذُكِرَتْ أَمَامَ اللهِ لِيُعْطِيَهَا كَأْسَ خَمْرِ سَخَطِ غَضَبِهِ [20] وَكُلُّ جَزِيرَةٍ هَرَبَتْ وَجِبَالٌ لَـمْ تُوجَدْ [21] وَبَرَدٌ عَظِيمٌ نَحْوُ ثِقَلِ وَزْنَةٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى النَّاسِ فَجَدَّفَ النَّاسُ عَلَى اللهِ مِنْ ضَرْبَةِ الْبَرَدِ لأَنَّ ضَرْبَتَهُ عَظِيمَةٌ جِدًّا.



الإِصْحَاحُ السَّابِعُ عَشَرَ

(زانية بابل العظيمة)

[١]ثُمَّ جَاءَ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتُ وَتَكَلَّمَ مَعِي قَائِلاً لِي: «هَلُمَّ فَأُرِيَكَ دَيْنُونَةَ الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَالِسَةِ عَلَى الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ [٢]الَّتِي زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ وَسَكِرَ سُكَّانُ الأَرْضِ مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا» [٣]فَمَضَى بِي بِالرُّوحِ إِلَى بَرِّيَّةٍ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً جَالِسَةً عَلَى وَحْشٍ قِرْمِزِيٍّ مَمْلُوءٍ أَسْمَاءَ تَجْدِيفٍ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ [٤]وَالْمَرْأَةُ كَانَتْ مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا [٥]وَعَلَى جَبْهَتِهَا اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «سِرٌّ بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ» [٦]وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَعَجُّبًا عَظِيمًا! [٧]ثُمَّ قَالَ لِي الْمَلاَكُ: «لِمَاذَا تَعَجَّبْتَ؟ أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ وَالْوَحْشِ الْحَامِلِ لَهَا الَّذِي لَهُ السَّبْعَةُ الرُّؤُوسُ وَالْعَشَرَةُ الْقُرُونُ: [٨]الْوَحْشُ الَّذِي رَأَيْتَ كَانَ وَلَيْسَ الآنَ وَهُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَصْعَدَ مِنَ الْهَاوِيَةِ وَيَمْضِيَ إِلَى الْهَلاَكِ وَسَيَتَعَجَّبُ السَّاكِنُونَ عَلَى الأَرْضِ الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ حِينَمَا يَرَوْنَ الْوَحْشَ أَنَّهُ كَانَ وَلَيْسَ الآنَ مَعَ أَنَّهُ كَائِنٌ [٩]هُنَا الذِّهْنُ الَّذِي لَهُ حِكْمَةٌ! السَّبْعَةُ الرُّؤُوسُ هِيَ سَبْعَةُ جِبَالٍ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ جَالِسَةً [١٠]وَسَبْعَةُ مُلُوكٍ: خَمْسَةٌ سَقَطُوا وَوَاحِدٌ مَوْجُودٌ وَالآخَرُ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ وَمَتَى أَتَى يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى قَلِيلاً [١١]وَالْوَحْشُ الَّذِي كَانَ وَلَيْسَ الآنَ فَهُوَ ثَامِنٌ وَهُوَ مِنَ السَّبْعَةِ وَيَمْضِي إِلَى الْهَلاَكِ [١٢]وَالْعَشَرَةُ الْقُرُونُ الَّتِي رَأَيْتَ هِيَ عَشَرَةُ مُلُوكٍ لَمْ يَأْخُذُوا مُلْكًا بَعْدُ لَكِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ سُلْطَانَهُمْ كَمُلُوكٍ سَاعَةً وَاحِدَةً مَعَ الْوَحْشِ [١٣]هَؤُلاَءِ لَهُمْ رَأْيٌ وَاحِدٌ وَيُعْطُونَ الْوَحْشَ قُدْرَتَهُمْ وَسُلْطَانَهُمْ [١٤]هَؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْحَمَلَ وَالْحَمَلُ يَغْلِبُهُمْ لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ» [١٥]ثُمَّ قَالَ لِي:

«الْمِيَاهُ الَّتِى رَأَيْتَ حَيْثُ الزَّانِيَةُ جَالِسَةٌ هِى شُعُوبٌ وَجُمُوعٌ وَأُمَمٌ وَأَلْسِنَةٌ [16] وَأَمَّا الْعَشَرَةُ الْقُرُونُ الَّتِى رَأَيْتَ عَلَى الْوَحْشِ فَهَؤُلاَءِ سَيُبْغِضُونَ الزَّانِيَةَ وَسَيَجْعَلُونَهَا خَرِبَةً وَعُرْيَانَةً وَيَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَيُحْرِقُونَهَا بِالنَّارِ [17] لأَنَّ اللهَ وَضَعَ فِى قُلُوبِهِمْ أَنْ يَصْنَعُوا رَأْيَهُ وَأَنْ يَصْنَعُوا رَأْيًا وَاحِدًا وَيُعْطُوا الْوَحْشَ مُلْكَهُمْ حَتَّى تُكْمَلَ أَقْوَالُ اللهِ [18] وَالْمَرْأَةُ الَّتِى رَأَيْتَ هِى الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِى لَهَا مُلْكٌ عَلَى مُلُوكِ الأَرْضِ».



الإصْحَاحُ الثَّامِنُ عَشَرَ

(سقوط بابل العظيمة)

[1]ثُمَّ بَعْدَ هَذَا رَأَيْتُ مَلاَكًا آخَرَ نَازِلاً مِنَ السَّمَاءِ لَهُ سُلْطَانٌ عَظِيمٌ وَاسْتَنَارَتِ الأَرْضُ مِنْ بَهَائِهِ [2]وَصَرَخَ بِشِدَّةٍ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «سَقَطَتْ سَقَطَتْ بَابِلُ الْعَظِيمَةُ وَصَارَتْ مَسْكَنًا لِشَيَاطِينَ وَمَحْرَسًا لِكُلِّ رُوحٍ نَجِسٍ وَمَحْرَسًا لِكُلِّ طَائِرٍ نَجِسٍ وَمَمْقُوتٍ [3]لأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا قَدْ شَرِبَ جَمِيعُ الأُمَمِ وَمُلُوكُ الأَرْضِ زَنُوا مَعَهَا وَتُجَّارُ الأَرْضِ اسْتَغْنُوا مِنْ وَفْرَةِ نَعِيمِهَا».

(فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ سَتَأْتِى ضَرَبَاتُهَا)

[4]ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا آخَرَ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «اخْرُجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِى لِئَلا تَشْتَرِكُوا فِى خَطَايَاهَا وَلِئَلا تَأْخُذُوا مِنْ ضَرَبَاتِهَا [5]لأَنَّ خَطَايَاهَا لَحِقَتِ السَّمَاءَ وَتَذَكَّرَ اللهُ آثَامَهَا [6]جَازُوهَا كَمَا هِىَ أَيْضًا جَازَتْكُمْ وَضَاعِفُوا لَهَا ضِعْفًا نَظِيرَ أَعْمَالِهَا فِى الْكَأْسِ الَّتِى مَزَجَتْ فِيهَا امْزُجُوا لَهَا ضِعْفًا [7]بِقَدْرِ مَا مَجَّدَتْ نَفْسَهَا وَتَنَعَّمَتْ بِقَدْرِ ذَلِكَ أَعْطُوهَا عَذَابًا وَحُزْنًا لأَنَّهَا تَقُولُ فِى قَلْبِهَا: أَنَا جَالِسَةٌ مَلِكَةً وَلَسْتُ أَرْمَلَةً وَلَنْ أَرَى حُزْنًا [8]مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فِى يَوْمٍ وَاحِدٍ سَتَأْتِى ضَرَبَاتُهَا: مَوْتٌ وَحُزْنٌ وَجُوعٌ وَتَحْتَرِقُ بِالنَّارِ لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ الَّذِى يَدِينُهَا قَوِى» [9]وَسَيَبْكِى وَيَنُوحُ عَلَيْهَا مُلُوكُ الأَرْضِ الَّذِينَ زَنُوا وَتَنَعَّمُوا مَعَهَا حِينَمَا يَنْظُرُونَ دُخَانَ حَرِيقِهَا.

(وَيَبْكِى تُجَّارُ الأَرْضِ)

[10]وَاقِفِينَ مِنْ بَعِيدٍ لأَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا قَائِلِينَ: وَيْلٌ وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ بَابِلُ! الْمَدِينَةُ الْقَوِيَّةُ! لأَنَّهُ فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ جَاءَتْ دَيْنُونَتُكِ [11]وَيَبْكِى تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ

عَلَيْهَا لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فِى مَا بَعْدُ [١٢]بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ وَكُلَّ عُودٍ ثِينِى وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنَ الْعَاجِ وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنْ أَثْمَنِ الْخَشَبِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْمَرْمَرِ [١٣]وَقِرْفَةً وَبَخُورًا وَطِيبًا وَلُبَانًا وَخَمْرًا وَزَيْتًا وَسَمِيذًا وَحِنْطَةً وَبَهَائِمَ وَغَنَمًا وَخَيْلاً وَمَرْكَبَاتٍ وَأَجْسَادًا وَنُفُوسَ النَّاسِ [١٤]وَذَهَبَ عَنْكِ جَنَى شَهْوَةِ نَفْسِكِ وَذَهَبَ عَنْكِ كُلُّ مَا هُوَ مُشْحِمٌ وَبَهِى وَلَنْ تَجِدِيهِ فِى مَا بَعْدُ [١٥]تُجَّارُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّذِينَ اسْتَغْنُوا مِنْهَا سَيَقِفُونَ مِنْ بَعِيدٍ مِنْ أَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ [١٦]وَيَقُولُونَ: وَيْلٌ وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الْمُتَسَرْبِلَةُ بِبَزٍّ وَأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَالْمُتَحَلِّيَةُ بِذَهَبٍ وَحَجَرٍ كَرِيمٍ وَلُؤْلُؤٍ [١٧]لأَنَّهُ فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَ غِنًى مِثْلُ هَذَا وَكُلُّ رُبَّانٍ وَكُلُّ الْجَمَاعَةِ فِى السُّفُنِ وَالْمَلاَّحُونَ وَجَمِيعُ عُمَّالِ الْبَحْرِ وَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ [١٨]وَصَرَخُوا إِذْ نَظَرُوا دُخَانَ حَرِيقِهَا قَائِلِينَ: أَيَّةُ مَدِينَةٍ مِثْلُ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ؟ [١٩]وَأَلْقُوا تُرَابًا عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَصَرَخُوا بَاكِينَ وَنَائِحِينَ قَائِلِينَ: «وَيْلٌ وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِى فِيهَا اسْتَغْنَى جَمِيعُ الَّذِينَ لَهُمْ سُفُنٌ فِى الْبَحْرِ مِنْ نَفَائِسِهَا لأَنَّهَا فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَتْ [٢٠]اِفْرَحِى لَهَا أَيَّتُهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقِدِّيسُونَ وَالأَنْبِيَاءُ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ».

(حجر رحى يُرمَى فى البحر)

[٢١]وَرَفَعَ مَلاَكٌ وَاحِدٌ قَوِى حَجَرًا كَرَحىً عَظِيمَةً وَرَمَاهُ فِى الْبَحْرِ قَائِلاً: «هَكَذَا بِدَفْعٍ سَتُرْمَى بَابِلُ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ وَلَنْ تُوجَدَ فِى مَا بَعْدُ [٢٢]وَصَوْتُ الضَّارِبِينَ بِالْقِيثَارَةِ وَالْمُغَنِّينَ وَالْمُزَمِّرِينَ وَالنَّافِخِينَ بِالْبُوقِ لَنْ يُسْمَعَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ وَكُلُّ صَانِعٍ صِنَاعَةً لَنْ يُوجَدَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ وَصَوْتُ رَحىً لَنْ يُسْمَعَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ [٢٣]وَنُورُ سِرَاجٍ لَنْ يُضِىءَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ وَصَوْتُ عَرِيسٍ وَعَرُوسٍ لَنْ يُسْمَعَ فِيكِ فِى مَا بَعْدُ لأَنَّ تُجَّارَكِ كَانُوا عُظَمَاءَ الأَرْضِ إِذْ بِسِحْرِكِ ضَلَّتْ جَمِيعُ الأُمَمِ [٢٤]وَفِيهَا وُجِدَ دَمُ أَنْبِيَاءَ وَقِدِّيسِينَ وَجَمِيعِ مَنْ قُتِلَ عَلَى الأَرْضِ».

الإصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

(صَوْتٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّمَاءِ قَـائِلاً: «هَلِّلُويَا»)

[1]وَبَعْدَ هَـذَا سَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ فِى السَّمَاءِ قَائِلاً : «هَلِّلُويَا ! الْخَلاَصُ وَالْمَجْدُ وَالْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا [2]لأَنَّ أَحْكَامَهُ حَقٌّ وَعَادِلَةٌ إِذْ قَدْ دَانَ الزَّانِيَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِى أَفْسَدَتِ الأَرْضَ بِزِنَاهَا وَانْتَقَمَ لِدَمِ عَبِيدِهِ مِنْ يَدِهَا» [3]وَقَالُوا ثَانِيَةً : «هَلِّلُويَا ! وَدُخَانُهَا يَصْعَدُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» [4]وَخَرَّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ وَسَجَدُوا لِلَّهِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ قَائِلِينَ : «آمِينَ هَلِّلُويَا» [5]وَخَرَجَ مِنَ الْعَرْشِ صَوْتٌ قَائِلاً : «سَبِّحُوا لإِلَهِنَا يَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ الْخَائِفِيهِ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ» [6]وَسَمِعْتُ كَصَوْتِ جَمْعٍ كَثِيرٍ وَكَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ وَكَصَوْتِ رُعُودٍ شَدِيدَةٍ قَائِلَةً : «هَلِّلُويَا ! فَإِنَّهُ قَدْ مَلَكَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ.

(عُرْسَ الْحَمَلِ وَامْرَأَتُـهُ)

[7]لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِهِ الْمَجْدَ لأَنَّ عُرْسَ الْحَمَلِ قَدْ جَاءَ وَامْرَأَتُهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا [8]وَأُعْطِيَتْ أَنْ تَلْبَسَ بَزًّا نَقِيًّا بَهِيًّا لأَنَّ الْبَزَّ هُوَ تَبَرُّرَاتُ الْقِدِّيسِينَ» [9]وَقَالَ لِى : «اكْتُبْ : طُوبَى لِلْمَدْعُوِّينَ إِلَى عَشَاءِ عُرْسِ الْحَمَلِ» وَقَالَ : «هَذِهِ هِى أَقْوَالُ اللهِ الصَّادِقَةُ» [10]فَخَرَرْتُ أَمَامَ رِجْلَيْهِ لأَسْجُدَ لَهُ فَقَالَ لِى : «انْظُرْ لاَ تَفْعَلْ ! أَنَا عَبْدٌ مَعَكَ وَمَعَ إِخْوَتِكَ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ اسْجُدْ لِلَّهِ فَإِنَّ شَهَادَةَ يَسُوعَ هِى رُوحُ النُّبُوَّةِ».

(الفرس الأبيض وراكبها)

[11]ثُمَّ رَأَيْتُ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ يُدْعَى أَمِينًا وَصَادِقًا

وَبِالْعَدْلِ يَحْكُمُ وَيُحَارِبُ [١٢] وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ وَعَلَى رَأْسِهِ تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إلا هُوَ [١٣] وَهُوَ مُتَسَرْبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ وَيُدْعَى اسْمُهُ «كَلِمَةَ اللهِ» [١٤] وَالأَجْنَادُ الَّذِينَ فِى السَّمَاءِ كَانُوا يَتْبَعُونَهُ عَلَى خَيْلٍ بِيضٍ لاَبِسِينَ بَزًّا أَبْيَضَ وَنَقِيًّا [١٥] وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَى يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ وَهُوَ يَدُوسُ مَعْصَرَةَ خَمْرِ سَخَطِ وَغَضَبِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَىء.

(مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ)

[١٦] وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ» [١٧] وَرَأَيْتُ مَلاَكًا وَاحِدًا وَاقِفًا فِى الشَّمْسِ فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً لِجَمِيعِ الطُّيُورِ الطَّائِرَةِ فِى وَسَطِ السَّمَاءِ: «هَلُمَّ اجْتَمِعِى إِلَى عَشَاءِ الإِلَهِ الْعَظِيمِ [١٨] لِكَى تَأْكُلِى لُحُومَ مُلُوكٍ وَلُحُومَ قُوَّادٍ وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا وَلُحُومَ الْكُلِّ حُرًّا وَعَبْدًا صَغِيرًا وَكَبِيرًا» [١٩] وَرَأَيْتُ الْوَحْشَ وَمُلُوكَ الأَرْضِ وَأَجْنَادَهُمْ مُجْتَمِعِينَ لِيَصْنَعُوا حَرْبًا مَعَ الْجَالِسِ عَلَى الْفَرَسِ وَمَعَ جُنْدِهِ [٢٠] فَقُبِضَ عَلَى الْوَحْشِ وَالنَّبِى الْكَذَّابِ مَعَهُ الصَّانِعُ قُدَّامَهُ الآيَاتِ الَّتِى بِهَا أَضَلَّ الَّذِينَ قَبِلُوا سِمَةَ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ سَجَدُوا لِصُورَتِهِ وَطُرِحَ الاِثْنَانِ حَيَّيْنِ إِلَى بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ [٢١] وَالْبَاقُونَ قُتِلُوا بِسَيْفِ الْجَالِسِ عَلَى الْفَرَسِ الْخَارِجِ مِنْ فَمِهِ وَجَمِيعُ الطُّيُورِ شَبِعَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ.



الإِصْحَاحُ الْعِشْرُونَ

(بئر الهاوية وسلسلة الشيطان)

[1]وَرَأَيْتُ مَلاَكًا نَازِلاً مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُ مِفْتَاحُ الْهَاوِيَةِ وَسِلْسِلَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى يَدِهِ [2]فَقَبَضَ عَلَى التِّنِّينِ الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّذِى هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ [3]وَطَرَحَهُ فِى الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ وَخَتَمَ عَلَيْهِ لِكَى لاَ يُضِلَّ الأُمَمَ فِى مَا بَعْدُ حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ وَبَعْدَ ذَلِكَ لاَ بُدَّ أَنْ يُحَلَّ زَمَانًا يَسِيرًا [4]وَرَأَيْتُ عُرُوشًا فَجَلَسُوا عَلَيْهَا وَأُعْطُوا حُكْمًا وَرَأَيْتُ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ وَمِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لِلْوَحْشِ وَلاَ لِصُورَتِهِ وَلَمْ يَقْبَلُوا السِّمَةَ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ فَعَاشُوا وَمَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ أَلْفَ سَنَةٍ [5]وَأَمَّا بَقِيَّةُ الأَمْوَاتِ فَلَمْ تَعِشْ حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ هَذِهِ هِىَ الْقِيَامَةُ الأُولَى [6]مُبَارَكٌ وَمُقَدَّسٌ مَنْ لَهُ نَصِيبٌ فِى الْقِيَامَةِ الأُولَى هَؤُلاَءِ لَيْسَ لِلْمَوْتِ الثَّانِى سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ بَلْ سَيَكُونُونَ كَهَنَةً لِلَّهِ وَالْمَسِيحِ وَسَيَمْلِكُونَ مَعَهُ أَلْفَ سَنَةٍ [7]ثُمَّ مَتَى تَمَّتِ الأَلْفُ السَّنَةِ يُحَلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ [8]وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِى أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ: جُوجَ وَمَاجُوجَ لِيَجْمَعَهُمْ لِلْحَرْبِ الَّذِينَ عَدَدُهُمْ مِثْلُ رَمْلِ الْبَحْرِ [9]فَصَعِدُوا عَلَى عَرْضِ الأَرْضِ وَأَحَاطُوا بِمُعَسْكَرِ الْقِدِّيسِينَ وَبِالْمَدِينَةِ الْمَحْبُوبَةِ فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُمْ.

(بُحَيْرَةِ النَّارِ)

[10]وَإِبْلِيسُ الَّذِى كَانَ يُضِلُّهُمْ طُرِحَ فِى بُحَيْرَةِ النَّارِ وَالْكِبْرِيتِ حَيْثُ الْوَحْشُ وَالنَّبِى الْكَذَّابُ وَسَيُعَذَّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلاً إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ [11]ثُمَّ رَأَيْتُ عَرْشًا عَظِيمًا أَبْيَضَ وَالْجَالِسَ عَلَيْهِ الَّذِى مِنْ وَجْهِهِ هَرَبَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَلَمْ يُوجَدْ لَهُمَا مَوْضِعٌ!

[12] وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ صِغَارًا وَكِبَارًا وَاقِفِينَ أَمَامَ اللهِ وَانْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ وَانْفَتَحَ سِفْرٌ آخَرُ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ وَدِينَ الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ [13] وَسَلَّمَ الْبَحْرُ الأَمْوَاتَ الَّذِينَ فِيهِ وَسَلَّمَ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ الأَمْوَاتَ الَّذِينَ فِيهِمَا وَدِينُوا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ [14] وَطُرِحَ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ هَذَا هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي [15] وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ.



الإِصْحَاحُ الْحَادِى وَالْعِشْرُونَ

(سَمَاءٌ جَدِيدَةٌ وَ أَرْضٌ جَدِيدَةٌ وأورُشَلِيم الْجَدِيدَة)

[1]ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِى مَا بَعْدُ [2]وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا [3]وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «هُوَ ذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهًا لَهُمْ [4]وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِى مَا بَعْدُ وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِى مَا بَعْدُ لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ».

(هَا أنَا أصْنَعُ كُلَّ شَىء جَدِيدًا)

[5]وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَىء جَدِيدًا» وَقَالَ لِى: «اكْتُبْ فَإِنَّ هَذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ» [6]ثُمَّ قَالَ لِى: «قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ أَنَا أُعْطِى الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا [7]مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَىء وَأَكُونُ لَهُ إِلَهًا وَهُوَ يَكُونُ لِى ابْنًا [8]وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ الْكَذَبَةِ فَنَصِيبُهُمْ فِى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ الَّذِى هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِى» [9]ثُمَّ جَاءَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتُ الْمَمْلُوَّةُ مِنَ السَّبْعِ الضَّرَبَاتِ الأَخِيرَةِ وَتَكَلَّمَ مَعِى قَائِلاً: «هَلُمَّ فَأُرِيَكَ الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْحَمَلِ» [10]وَذَهَبَ بِى بِالرُّوحِ إِلَى جَبَلٍ عَظِيمٍ عَالٍ وَأَرَانِى الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ [11]لَهَا مَجْدُ اللهِ وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِى [12]وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا

وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْـنَا عَشَرَ مَلاَكًا وَأَسْمَاءٌ مَكْتُوبَةٌ هِى أَسْمَاءُ أَسْبَاطِ بَنِى إِسْرَائِيلَ الاِثْـنَى عَشَرَ [١٣] مِنَ الشَّرْقِ ثَلاَثَـةُ أَبْوَابٍ وَمِـنَ الشِّمَالِ ثَلاَثَـةُ أَبْـوَابٍ وَمِـنَ الْجَنُـوبِ ثَلاَثَـةُ أَبْـوَابٍ وَمِنَ الْغَرْبِ ثَلاَثَـةُ أَبْوَابٍ [١٤] وَسُورُ الْمَدِينَةِ كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ أَسَاسًا وَعَلَيْهَا أَسْمَاءُ رُسُلِ الْحَمَلِ الاِثْنَى عَشَرَ [١٥] وَالَّذِى كَـانَ يَتَكَلَّمُ مَعِى كَـانَ مَعَهُ قَصَبَةٌ مِنْ ذَهَـبٍ لِكَـى يَقِيسَ الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا [١٦] وَالْمَدِينَةُ كَانَتْ مَوْضُوعَةً مُرَبَّعَةً طُولُهَا بِقَدْرِ الْعَرْضِ فَقَاسَ الْمَدِينَـةَ بِالْقَصَـبَةِ مَسَـافَةَ اثْنَـى عَشَـرَ أَلْـفَ غَلْـوَةٍ الطُّـولُ وَالْعَـرْضُ وَالاِرْتِفَـاعُ مُتَسَـاوِيَةٌ [١٧] وَقَـاسَ سُـورَهَا : مِائَـةً وَأَرْبَعًـا وَأَرْبَعِـينَ ذِرَاعًـا ذِرَاعَ إِنْسَـانٍ (أَى الْمَـلاَكُ) [١٨] وَكَـانَ بِنَـاءُ سُورِهَا مِنْ يَشْبٍ وَالْمَدِينَةُ ذَهَبٌ نَقِى شِبْهُ زُجَاجٍ نَقِـى [١٩] وَأَسَاسَـاتُ سُـورِ الْمَدِينَـةِ مُزَيَّنَـةٌ بِكُلِّ حَجَرٍ كَرِيمٍ الأَسَاسُ الأَوَّلُ يَشْـبٌ الثَّـانِى يَـاقُوتٌ أَزْرَقُ الثَّـالِـثُ عَقِيـقٌ أَبْيَضُ الرَّابِعُ زُمُرُّدٌ ذُبَابِى [٢٠] الْخَامِسُ جَزَعٌ عَقِيقِى السَّـادِسُ عَقِيـقٌ أَحْمَـرُ السَّـابِعُ زَبَرْجَـدٌ الثَّـامِنُ زُمُـرُّدٌ سِلْقِى التَّاسِعُ يَاقُوتٌ أَصْفَرُ الْعَاشِرُ عَقِيقٌ أَخْضَرُ الْحَادِى عَشَرَ أَسْمَانْجُونِى الثَّـانِى عَشَـرَ جَمَشْتٌ [٢١] وَالاِثْنَـا عَشَـرَ بَابًـا اثْنَتَـا عَشَـرَةَ لُؤْلُـؤَةً كُـلُّ وَاحِـدٍ مِنَ الأَبْـوَابِ كَـانَ مِنْ لُؤْلُـؤَةٍ وَاحِدَةٍ وَسُوقُ الْمَدِينَـةِ ذَهَـبٌ نَقِـى كَزُجَـاجٍ شَفَّافٍ [٢٢] وَلَـمْ أَرَ فِيهَـا هَيْكَـلاً لأَنَّ الـرَّبَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَىء هُوَ وَالْحَمَـلُ هَيْكَلُهَـا [٢٣] وَالْمَدِينَـةُ لاَ تَحْتَـاجُ إِلَـى الشَّـمْسِ وَلاَ إِلَـى الْقَمَـرِ لِيُضِـيئَا فِيهَـا لأَنَّ مَجْـدَ اللهِ قَـدْ أَنَارَهَـا وَالْحَمَـلُ سِـرَاجُهَا [٢٤] وَتَمْشِـى شُـعُوبُ الْمُخَلَّصِينَ بِنُورِهَا وَمُلُوكُ الأَرْضِ يَجِيئُونَ بِمَجْدِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ إِلَيْهَا [٢٥] وَأَبْوَابُهَا لَنْ تُغْلَـقَ نَهَارًا لأَنَّ لَيْلاً لاَ يَكُونُ هُنَـاكَ [٢٦] وَيَجِيئُـونَ بِمَجْـدِ الأُمَـمِ وَكَـرَامَتِهِمْ إِلَيْهَـا [٢٧] وَلَـنْ يَـدْخُلَهَا شَىء دَنِسٌ وَلاَ مَا يَصْنَعُ رَجِسًا وَكَذِبًا إِلا الْمَكْتُوبِينَ فِى سِفْرِ حَيَاةِ الْحَمَلِ.



الإِصْحَاحُ الثَّانِى وَالْعِشْرُونَ

(هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا)

[1]وَأَرَانِى نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْحَمَلِ [2]فِى وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَى عَشْرَةَ ثَمَرَةً وَتُعْطِى كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ [3]وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِى مَا بَعْدُ وَعَرْشُ اللهِ وَالْحَمَلِ يَكُونُ فِيهَا وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ [4]وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ [5]وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ [6]ثُمَّ قَالَ لِى: «هَذِهِ الأَقْوَالُ أَمِينَةٌ وَصَادِقَةٌ وَالرَّبُّ إِلَهُ الأَنْبِيَاءِ الْقِدِّيسِينَ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ لِيُرِى عَبِيدَهُ مَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ سَرِيعًا» [7]«هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ» [8]وَأَنَا يُوحَنَّا الَّذِى كَانَ يَنْظُرُ وَيَسْمَعُ هَذَا وَحِينَ سَمِعْتُ وَنَظَرْتُ خَرَرْتُ لأَسْجُدَ أَمَامَ رِجْلَى الْمَلاَكِ الَّذِى كَانَ يُرِينِى هَذَا [9]فَقَالَ لِى: «انْظُرْ لاَ تَفْعَلْ! لأَنِّى عَبْدٌ مَعَكَ وَمَعَ إِخْوَتِكَ الأَنْبِيَاءِ وَالَّذِينَ يَحْفَظُونَ أَقْوَالَ هَذَا الْكِتَابِ اسْجُدْ لِلَّهِ» [10]وَقَالَ لِى: «لاَ تَخْتِمْ عَلَى أَقْوَالِ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ [11]مَنْ يَظْلِمْ فَلْيَظْلِمْ بَعْدُ وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَّسْ بَعْدُ وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ» [12]«وَهَا أَنَا آتِى سَرِيعًا وَأُجْرَتِى مَعِى لِأُجَازِى كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ [13]أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ» [14]طُوبَى لِلَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَصَايَاهُ لِكَى يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ وَيَدْخُلُوا مِنَ الأَبْوَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ [15]لأَنَّ خَارِجًا الْكِلاَبَ وَالسَّحَرَةَ وَالزُّنَاةَ وَالْقَتَلَةَ وَعَبَدَةَ الأَوْثَانِ وَكُلَّ مَنْ يُحِبُّ وَيَصْنَعُ كَذِبًا [16]«أَنَا يَسُوعُ أَرْسَلْتُ مَلاَكِى لأَشْهَدَ لَكُمْ بِهَذِهِ الأُمُورِ عَنِ الْكَنَائِسِ أَنَا أَصْلُ وَذُرِّيَّةُ دَاوُدَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ الْمُنِيرُ» [17]وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ» وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيَقُلْ: «تَعَالَ» وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا [18]لأَنِّى

أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ : إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا يَزِيدُ اللهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِى هَذَا الْكِتَابِ [١٩] وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِى هَذَا الْكِتَابِ [٢٠] يَقُولُ الشَّاهِدُ بِهَذَا : «نَعَمْ ! أَنَا آتِى سَرِيعًا» آمِينَ تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ [٢١] نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِكُمْ آمِينَ.



مُعجَم الألفاظ والمصطلحات

رؤيا : انكشاف شىء كان مخفيًّا. والكلمة تطلق على آخر أسفار العهد الجديد. والرؤيا كما يتداولها الباحثون التوراتيون والأدبيون نص يزعم مؤلفه أنه يكشف فيه أسرارًا إلهية. ومن السمات الشائعة فى هذا النوع الأدبى وجود مؤلف من البشر يكتب تحت اسم شخصية توراتية، وشخصية سماوية تقود المؤلف البشرى فى جولة فى السماء أو الأرض.

الأخرويات الرؤيوية : نهاية العالم وما يحدث بعدها. ويشير مصطلح «الأخرويات الرؤيوية» إلى دراسة ما يكشف الرب للبشر عن «الآخرة» بعامة، ومن ذلك التنبؤ بنشوب معركة فاصلة تخوضها قوى الخير ضد قوى الشر، وبعث الموتى والحساب والثواب والعقاب، وظهور عالم جديد أبدى يتسم بالكمال الإلهى. وتركز «الأخرويات الرؤيوية» اليهودية على مجىء مخلِّص أرضى (انظر «مسيح») اسمه وطبيعته موضع تكهن. ويسوع الناصرى فى الأخرويات المسيحية هو المسيح، وبالتالى فالأخرويات الرؤيوية المسيحية تركز على عودة يسوع أو «المجىء الثانى» له.

رؤيوية : عقيدة تؤمن بأن الرب يكشف الأسرار الإلهية للبشر من خلال رؤى أو أشكال أخرى من الكشف، ومنها «أسرار السماء والأرض» وتوقيت نهاية العالم وملابساتها. ومن الباحثين من يعتبر الرؤيوية أمرًا لاهوتيًّا بحتًا، بينما يرى غيرهم أنها تصدق أيضًا على الحركات والظواهر الاجتماعية والسياسية. ويختلط بالرؤيوية غالبًا ـ ولكن ليس دائمًا ـ اعتقاد بظهور عصر ذهبى على الأرض.

أرمجدون : اسم مكان يتداوله سفر الرؤيا فى إشارة إلى الموضع الذى تنشب فيه المعركة الفاصلة بين جيوش الرب وجيوش الشيطان قبيل نهاية العالم. ويبدو أن اللفظ مشتق من العبارة العبرية «هار مَجِدُّو» (تل مجدو) وهو موضع بشمالى فلسطين يشرف

على معبر إستراتيچى، وبالتالى فإنه برز فى معارك تاريخية ورد ذكر بعضها فى الكتاب المقدس العبرى (سفر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ مثلاً).

الكتاب المقدس : يسمى بمعناه المعروف والمتداول فى التراث اليهودى «تاناخ» وهو لفظ يتألف من أوائل حروف عبارة «أسفار موسى الخمسة» (التوراة) وأسفار الأنبياء (نِفيئيم) والكتابات التوراتية العديدة الأخرى (كِتوفيم). ولفظ «توراة» العبرى يحمل معنى كل من «الشريعة» و«التعاليم» ويشير إلى الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس والمعروفة بـ «أسفار موسى الخمسة» ؛ لأن العرف جرى على نسبتها لموسى. والكتاب المقدس العبرى يعرف فى الاستعمال المسيحى بالعهد القديم، أما «العهد الجديد» فيطلق على الأناجيل الأربعة، ورسائل بولس وغيره من المؤلفين المسيحيين، والسرد التاريخى المعروف بـ «أعمال الرسل». ويشمل «الكتاب المقدس» فى التداول المسيحى «العهد القديم» و«العهد الجديد» معًا.

الزمنية : عقيدة فى التراث الرؤيوى المسيحى تقسم تاريخ البشرية إلى عصور يتميز كل منها بسمة مميزة ومجموعة أحداث، ويعتقد أنها جميعًا معدة فى المشيئة الإلهية لنهاية العالم. ومن أنماط «الزمنية» ما يعرف بـ«ما قبل الألفية الزمنية» أو«الزمنية قبل الألفية» التى ترى أننا نعيش الآن ما يعرف بـ«العصر الكنسى» الذى بدأ بنبذ اليهود يسوع الناصرى فى القدم، ولن ينتهى إلا بعودة يسوع إلى الأرض ليقيم مملكة ألفية. ومن بنود «ما قبل الألفية الزمنية» عقيدة «الخطف»، أى الإيمان بأن المسيحيين الأتقياء سيُرحمون من عذاب «الضيقة العظيمة» برفعهم فجأة إلى السماء قبل آخر الزمان. كما تسند «ما قبل الألفية الزمنية» دورًا مهمًّا للشعب اليهودى حيث تعتبر عودته للسيادة على فلسطين حدثًا لا بد أن يحدث قبل المجىء الثانى ليسوع المسيح ونهاية العالم.

مسيح : لفظ مشتق من المقابل العبرى «مُشيَّحًا» أى من مُسِح بالدهن. ولفظ «مُشيَّح» يشير فى الكتاب المقدس العبرى عادةً إلى أى كاهن أو ملِك أو أى بشر يصطفيه الرب لأداء مهمة خاصة، إلا أن «مسيحًا» فى أواخر العصور التوراتية القديمة أصبح يطلق فى التراث اليهودى على «مخلِّص» سيرسله الرب لينقذ الشعب اليهودى من عذابه، وليحكم مملكة أرضية يسودها السلم والأمن. و«المسيح» فى التراث اليهودى ذو طبيعة بشرية لا إلهية، مع أن من المعتقد أنه مرسل من قبل الرب، ويحظى

بدرجة خاصة من القوة والسلطان. وترى المسيحية أن يسوع الناصرى هو المسيح الموعود، بل تؤمن بفكرة أن المسيح إلهى، أى ابن الرب. و «المسيحانية» مصطلح يشير إلى الإيمان بمجىء مخلِّص سواء كان بشريًّا (كما فى اليهودية) أو إلهيًّا (كما فى المسيحية).

الألفية: مصطلح مشتق من العدد «ألف»، ويشير إلى الإيمان بحلول عصر ذهبى فى المستقبل على الأرض يحكمه مخلِّص مرسل من عند الرب، وهو مفهوم له جذوره فى التراث المسيحانى اليهودى، ولكنه يجد أكمل تعبير عنه فى سفر الرؤيا الذى يتنبأ بأن يسوع المسيح سيحكم مملكة إلهية على الأرض لمدة ألف سنة بعد مجيئه الثانى. والمصطلح نفسه يتم تداوله أحيانًا بصورة عرَضية بمعنى الإيمان بعصر من السلم والرخاء يحل على الأرض فى المستقبل، دون إشارة محددة للتراث المسيحى لحكم يسوع المسيح لمدة ألف سنة.

وهناك تنويعات على المصطلح ترد فى الكتابات الأكاديمية والدينية لوصف عدد من المعتقدات الخاصة عن توقيت المملكة الألفية وطبيعتها. و «ما قبل الألفية» هى الإيمان بأن يسوع المسيح سيعود قبل حلول المملكة الألفية. و «ما بعد الألفية» هى الإيمان بأن يسوع المسيح لن يعود إلا بعد الحقبة الألفية، أى بعد تطهير العالم (أو الكنيسة فى بعض معتقدات «ما بعد الألفية») من الشر. و «اللاألفية» هى الإيمان بأن حكم المسيح لألف سنة كما ورد بسفر الرؤيا يجب فهمه باعتباره مجازًا عن كمال الروح الإنسانية أو التشريعات البشرية، لا بوصفه نبوءة بأن يسوع المسيح سيعود فعلاً إلى الأرض لمدة ألف سنة قبل نهاية العالم ويوم القيامة.

ويمكن تقسيم «ما قبل الألفية» إلى فئات عدة. فيؤمن أنصار «ما قبل الضيقة» بأن المسيحيين الأتقياء سيُرفعون إلى السماء (أو «يُخطفون») قبل «الضيقة العظيمة». ويؤمن أنصار «وسط الضيقة» بأن «الخطف» سيحدث بعد تولى المسيح الدجال السلطة، ولكن قبل يوم القيامة. ويؤمن أنصار «ما بعد الضيقة» بأن المسيحيين الأتقياء يجب أن يتحملوا «الضيقة» قبل أن يُرفعوا إلى السماء فى نهاية العالم (انظر «الخطف» و «الضيقة»).

المجىء الثانى: يشير إلى عودة يسوع المسيح إلى الأرض. ويسوع المسيح فى سفر الرؤيا سيعود إلى الأرض فى وقت ما فى المستقبل ليحكم مملكة من القديسين لمدة ألف سنة قبل نهاية العالم والحساب الأخير، وحلول «سماء جديدة وأرض جديدة» تبقيان للأبد.

الماضوية : الإيمان بأن النبوءات الواردة بسفر الرؤيا تحققت فعلاً. ويركز التأويل «الماضوى» (أو «التاريخى») لسفر الرؤيا على ما كانت تعنيه رمزيته عند مؤلفه وقرائه وسامعيه الأصليين. وعلى النقيض من القراءة «الماضوية» (أو «التاريخية») لسفر الرؤيا تركز القراءة «المستقبلية» على معنى النص كنبوءة بأحداث ستقع فيما هو آتٍ، وتؤمن القراءة «الآنية» بأن النبوءات تتحقق الآن.

الكتابات الزائفة : مصطلح يتداوله الباحثون المحدثون لوصف مختلف الكتابات القديمة فى الموضوعات التوراتية، والعديد منها ذو أصول يهودية، وأنشأ بقيتها أو نقّحه مسيحيون، وتم استبعادها برمتها من الكتاب المقدس بشقيه اليهودى والمسيحى. ويشير المصطلح إلى أن النصوص بعامة منسوبة لشخصيات توراتية لا لمؤلفيها الفعليين. ومن «الكتابات الزائفة» الكتابات الرؤيوية اليهودية الأولى، ومنها مختلف الكتابات التى تشكل «سفر أخنوخ» والرؤى المنسوبة لآدم وإبراهيم وإيليا ودانيال.

الخطف : عقيدة ترى أن المسيحيين الأتقياء ممن يستحقون الخلاص سيخطفهم الرب فجأة وبصورة معجزة من الأرض ويرفعهم إلى السماء عند نقطة ما فى نهاية العالم. وتقوم هذه العقيدة لا على سفر الرؤيا بل على نص الفقرات ١٥ ـ ١٧ من الإصحاح الرابع من رِسَالَة بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِي :

«إِنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ لاَ نَسْبِقُ الرَّاقِدِينَ، لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ».

وحظيت بشعبية كبيرة فى الأوساط البروتستانتية فى القرن التاسع عشر، ولا تزال تحظى بدور بارز فى العقيدة الرؤيوية المعروفة بـ«الزمنية»، أى الإيمان بأن المسيحيين الأتقياء سيُخطفون إلى السماء قبل فترة المعاناة المعروفة بـ«الضيقة العظيمة».

الضيقة العظيمة : فترة من القهر والاضطهاد تسود فى ظل حكم المسيح الدجال ورد ذكرها فى سفر الرؤيا وفى فقرات رؤيوية أخرى فى العهد الجديد، ويفترض أنها ستسبق المجىء الثانى ليسوع المسيح، ومعركة أرمجدون، وحلول المملكة الألفية على الأرض.